المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنورة



ندوة

عناية المملكة العربية السعودية

بالقرآن الكريم وعلومه

المنعقدة في
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنورة

في الفترة من ٣ - ٦ رجب ١٤٢١هـ

المحور الخامس

دفع الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم

ⓒ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه. /

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. - المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.

٥٧٦ص؛ ١٦ × ٢٣ سم

ردمك: ٣ - ٥٤ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٤ - ٥٩ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (ج٥)

١- مجمع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

٢- القرآن - مباحث عامة ٣- المصاحف - طباعة - السعودية - ندوات أ. العنوان

ديوي ٢٢,٨.٦.٩٥٣١ ١٤٢٤/٢٠٤

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٠٤

ردمك: ٣ - ٥٤ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٤ - ٥٩ - ٨٤٧ - ٩٩٦٠ (ج٥)


بسم الله الرحمن الرحيم



الموضوع الأول :

شبهات المنصرين



افتراءات المنصّرين على القرآن الكريم

أنّه يؤيّد زعم ألوهيّة المسيح عليه السلام

إعداد

د. علي بن عتيق الحربي

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة

بالمدينة المنوّرة

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، المنزه عن الصاحبة والولد، القائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧). وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبدالله ورسوله ﷺ، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أما بعد:

فعنوان هذا البحث هو:

افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام

وقد كتب هذا البحث استجابة للدعوة الكريمة التي تلقاها الباحث من قبل الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، رئيس اللجنة التحضيرية لندوة "عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه" فضيلة أ. د. محمد سالم بن شديد العوفي حفظه الله.

وإن مما دفع الباحث لاختيار هذا الموضوع:

١- المشاركة في الدفاع عن كتاب الله بخاصة والإسلام بعامة.

٢- ما يعتقده الباحث من خطورة مناهج المنصرين في محاربة الإسلام والمسلمين ولا سيما من خلال التهجم على كتاب الله العظيم: القرآن الكريم.

٣- محاولة النصارى تنصير المسلمين وبلبلة اعتقاداتهم من خلال مسلماتهم، وذلك بمحاولة إنزال معتقدات النصارى على بعض ما قد يكون متشابهاً من آي القرآن تلبيساً على المسلمين ومحاولة لإضلالهم كما ضلوا السبيل.

وعلى الرغم من أن الباحث اطلع على بعض الكتابات المتناثرة حول هذا الموضوع والتي تطرقه من جانب أو آخر، إلا أنه لم يعثر على دراسة متكاملة لهذا الموضوع -رغم أهميته- تدرسه تفصيلاً، وترد على ادعاءات المنصرين فيه على نحو مفصل.

ثم إن المنهج المتبع في دراسة هذا الموضوع فيه محاولة للرد على المنصرين من جهتين: إسلامية (من خلال القرآن ومايرتبط بذلك)، ونصرانية (من خلال التوراة والأناجيل) لرد دعوى النصارى على القرآن وفق منهج يبين كذبهم على كتاب الله، ويلزمهم في الوقت نفسه من خلال مسلماتهم بما يدل عليه القرآن المهيمن على ماقبله من الكتب، ولعل في هذا المنهج شيئاً من الجدة.

كما أن من منهج الباحث في اقتباس نصوص كتب العهدين أَخْذَها من النسخة العربية الحديثة المعتمدة "للكتاب المقدس": طبعة العيد المئوي (١٨٨٣-١٩٨٣م)، طبعة دار الكتاب المقدس بمصر.

كما اصطلح الباحث على ما يأتي:

مصطلحات البحث

١- التوراة: أي أسفار العهد القديم الحالية وعددها (٣٩) سفراً إلا إذا أشير إلى غير ذلك.

٢- الإنجيل أو الأناجيل: أي أسفار العهد الجديد الحالية وعددها (٢٧) سفراً إلا إذا أشير إلى غير ذلك.

اصطلاحات أسفار العهد القديم		اصطلاحات أسفار العهد الجديد	
الاصطلاح	المقصود به	الاصطلاح	المقصود به
التكوين	سفر التكوين	متى	إنجيل متى
الخروج	سفر الخروج	مرقس	إنجيل مرقس
التثنية	سفر التثنية	لوقا	إنجيل لوقا
أشعياء	سفر أشعياء	يوحنا	إنجيل يوحنا
حزقيال	سفر حزقيال	رومية	رسالة بولس إلى أهل رومية
مزمور / المزامير	أسفار المزامير	(١) تسالونيكي	رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي
(١) صموئيل	سفر صموئيل الأول	عب	الرسالة إلى العبرانيين
(٢) صموئيل	سفر صموئيل الثاني	(١) يوحنا	رسالة يوحنا الأولى
(١) الملوك	سفر الملوك الأول	(٢) بطرس	الرسالة الثانية لبطرس
(٢) الملوك	سفر الملوك الثاني	رؤيا يوحنا	سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي
نشيد الإنشاد	سفر نشيد الإنشاد		

– وإذا كُتِبَ هكذا: (٢) تسالونيكي (٣: ٥ – ٨ و ١٣).

فإن هذا يعني: الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح الثالث الفقرات من الخامسة إلى الثامنة. والفقرة الثالثة عشرة من الإصحاح نفسه.

وختاماً أسأل الله –تعالى– التوفيق والسداد، فما كان صواباً فمن الله –سبحانه وتعالى– وما كان من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله منه ومن جميع ذنبي. والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

لمحة تاريخية عن المؤلفات التنصيرية التي تفتري على القرآن تأييده بعض معتقدات النصارى الباطلة:

كان بعض أتباع اليهودية والنصرانية في بعض بقاع الجزيرة العربية كالمدينة، وخيبر، ونجران. وما إن تبينت قوة الإسلام والمسلمين في الجزيرة العربية حتى بدأت وفود القبائل العربية تفد إلى رسول الله ﷺ من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان من أوائل هذه الوفود وفد نصارى نجران الذين جادلوا رسول الله ﷺ زاعمين أن القرآن يدل على التثليث، وعلى ألوهية عيسى عليه السلام وأنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1].

وبذلك كانوا أول من سلك هذا الطريق المضل من النصارى في حياة الرسول ﷺ. وقد ذكر ابن هشام: "أن الله -سبحانه وتعالى- أنزل في ذلك من قولهم [أي زعمهم دلالة القرآن على ألوهية عيسى عليه السلام والتثليث وبنوته] واختلاف أمرهم: صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها"[2].

(١) انظر: ص ١٤ .

(٢) عبد الملك بن هشام: "السيرة النبوية" تحقيق مصطفى السقا وآخرين ج١، ص ٥٧٦.

هذا فيما يتعلق ببداية الافتراء على كتاب الله من النصارى وادعاء أنه يؤيد بعض اعتقاداتهم. أما من حيث كتابة المنصرين والنصارى لذلك في مؤلفاتٍ فإن أقدم ما اطلعت عليه من ذلك يعود إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري -وهي "رسالة عبدالمسيح بن إسحاق الكندي إلى عبدالله الهاشمي" -كما سيأتي إن شاء الله-، ثم تتابعت بعد ذلك الكتب والرسائل التنصيرية التي زعمت أن كتاب الله يؤيد بعض معتقدات النصارى: كألوهية المسيح عليه السلام، أو بنوته، أو التثليث، أو صلب المسيح، أو أن القرآن يدل على صحة كتب النصارى وأنها ليست محرفة، إلى غير ذلك من مزاعم وافتراءات على كتاب الله أرادوا بها تحقيق أهدافٍ عدة منها:

١- إبعاد النصارى عن الإسلام بزعم أن القرآن يؤيدهم على ما هم فيه من معتقدات باطلة، وأن ما في القرآن موجود في التوراة والإنجيل، فَلِمَ الإسلام ما دام الأمر -في زعمهم- كذلك ؟

٢- الطعن في القرآن لبلبلة اعتقادات المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، توطئةً لتنصيرهم من خلال القرآن نفسه، بحجة أن ما عليه النصارى ليس باطلاً فضلاً عن أن يكون كفراً، لما زعموه من تأييد القرآن لهم.

ومن المؤلفات النصرانية التي انتهجت الأسلوب الآنف الذكر ما يلي:

١- "رسالة عبدالمسيح إلى الهاشمي يرد بها على الهاشمي ويدعوه إلى النصرانية"[١] وذلك في عصر الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ).

٢- "رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها"[٢] في عصر الباجي (٤٠٣ - ٤٧٤هـ).

٣- "رسالة حنا مقار العيسوي إلى أبي عبيدة الخزرجي"[٣]، في عصر أبي عبيدة المتوفى سنة (٥٨٢هـ).

٤- "الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم" لبولص الراهب -أسقف صيدا- الأنطاكي[٤]، في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- المتوفى سنة (٧٢٨هـ).

٥- "مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن" لأحد المنصرين في عهد الشيخ عبدالعزيز آل معمر-رحمه الله- (١٢٠٣ - ١٢٤٤هـ).

---

(١) طبعت هذه الرسالة في مصر سنة ١٨٩٥م، ومعها "رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام".

(٢) دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

(٣) انظر: "بين الإسلام والمسيحية كتاب أبي عبيدة الخزرجي" تحقيق د/محمد شامة ص ٦٨ - ١٤٦.

(٤) انظر: ابن تيمية "الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح" تحقيق وتعليق د. علي بن حسن ناصر ود. عبد العزيز العسكر ود. حمدان الحمدان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج ١/ ص ١٠١، وكتاب بولس الراهب المذكور آنفاً هو السبب -بعد إرادة الله- في تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية لكتابه العظيم: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

٦- "الأقاويل القرآنية في كتب المسيحية " لمنصر بروتستانتي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

٧- "ميزان الحق" للقسيس فندر، في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي.

٨- "الصليب في الإسلام "لحبيب زيات طبع سنة (١٩٣٥م).

٩- "المسيحية في الإسلام" لإبراهيم لوقا.في بدايات القرن العشرين الميلادي.

١٠- "أدلة قرآنية على صحة الديانة النصرانية "لمؤلف مجهول.

١١- "الإنجيل والقرآن"ليوسف درة الحداد.

١٢- "القرآن والكتاب" للمؤلف نفسه، وهو منصر لبناني معاصر.

إن هذه المؤلفات غيضٌ من فيضٍ ، وإلا فإن الكتب والرسائل المشابهة لما سبق بيانه كثيرة ، وإن كان الغالب في العصر الحاضر -فيما يرى الكاتب- كتابة خلاصات مركزة في مطويات صغيرة مستلة من الكتب القديمة والحديثة في هذا المجال؛ مسايرة للعصر، ومحاولةً منهم للهجوم على المسلمين من خلال الافتراء على آيات القرآن الكريم؛ للتأثير فيهم وبلبلة أفكارهم؛ سعياً لتنصيرهم. فضلاً عن استغلال وسائل الاتصال الأكثر حداثة في عرض هذا الأسلوب وبخاصة: الإنترنت.

وفيما يلي سوف نستعرض ادعاءات المنصرين التي زعموا فيها أن القرآن يؤيد ما ادعوه من ألوهية المسيح عليه السلام.

المبحث الأول: عرض ادعاءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد اعتقادهم بألوهية المسيح عليه السلام إجمالاً

الادعاء الأول:

أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن تدل على ألوهية المسيح عليه السلام.

الادعاء الثاني:

أن المسيح عليه السلام روح من الله -بجعل (مِنْ) للتبعيض- وكلمته التي تجسدت وصارت إنساناً.

الادعاء الثالث:

أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام وذكرت في القرآن تدل على ألوهية عيسى ولا سيما إحياء الموتى.

المبحث الأول: عرض ادعاءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد اعتقادهم بألوهية المسيح عليه السلام تفصيلاً

يزعم بعض النصارى والمنصرين أن القرآن يدل على ألوهية عيسى عليه السلام، ولهم في ذلك حجج واهيةٌ حاولوا التمسك بها ظناً منهم أنها تؤيد ما يعتقدون، والواقع أنهم سعوا لتسويغ اعتقاداتهم من خلال القرآن الكريم وحمَّلوا آيات كتاب الله ما لا تحتمل من المعاني، بل كذبوا على الله وعلى كتابه، وأغمضوا أعينهم عن محكم القرآن، وجنحوا إلى ألفاظ زعموا أنها تمكنهم من الوصول إلى مقاصدهم الفاسدة.

وإذا نظر المرء إلى زعمهم هذا في تأييد القرآن لما ادعوه من ألوهية عيسى عليه السلام يجد أن افتراءهم هذا منبثق من جملة ادعاءات من أهمها ثلاثة:

فالادعاء الأول:

هو أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن تدل على ألوهية المسيح عليه السلام؛ لأنها -بزعمهم- تدل على أن الإله ثلاثة أشخاص منهم: المسيح عليه السلام، فقد كان نصارى نجران "يقولون [عن عيسى عليه السلام]: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة ويحتجون على أنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان الله واحداً ما قال

إلا: فعلتُ، وقضيتُ وأمرتُ وخلقتُ، ولكنه: هو وعيسى ومريم"[١]، كما احتجوا على الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ ... ﴾ (الحجر: ٩). "قالوا: وهذا يدل على أنهم ثلاثة"[٢].

كذلك ردَّد عبدالمسيح الكندي هذا الزعم حيث يقول -مخاطباً عبدالله الهاشمي-: "وفي كتابك أيضاً شبيه بما ذكرنا من قول موسى، ودانيال عن الله تعالى: فعلنا، وخلقنا، وأمرنا، وأوحينا، وأهلكنا، ودمرنا، مع نظائر لهذه كثيرة"[٣] فحجتهم أن الله تكلم عن نفسه في القرآن بصيغة الجمع، ومن ثم زعموا أن ذلك دليل على أن عيسى عليه السلام واحد من الذين تدل عليهم الضمائر المذكورة، وأن هذا الجمع إنما هو ثلاثة، وزعموا بذلك أن القرآن يدل على ألوهية المسيح عليه السلام.

ويقول المنصر فندر: إن "مما لا يصح إغفاله أن القرآن يتفق مع الكتاب المقدس[٤] في إسناد الفعل، وضمير المتكلم في صيغة الجمع إلى الله.

---

(١) ابن هشام "السيرة النبوية". ج ١ ص: (٥٧٥).

(٢) انظر: ابن تيمية "الجواب الصحيح" ج ٣، ص: (٤٤٨).

(٣) رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية، طبعت في مصر سنة ١٨٩٥م، ص ٣٨.

(٤) الكتاب المقدس عند النصارى هو المكون من قسمين: العهد القديم والعهد الجديد، وتبلغ أسفار العهد القديم (أو التوراة): (٣٩) سفراً كما هو عند البروتستانت: و(٤٦) سفراً عند الكاثوليك والأرثوذكس، أما العهد الجديد (أو الأناجيل) فتبلغ أسفاره: (٢٧) سفراً. انظر: علي الحربي: "نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس دراسة مقارنة من أسفار العهد الجديد" بحث ماجستير (١٤٠٧هـ) ص: (٤و٦).

وفي القرآن ما ورد في سورة العلق حيث يقول: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ وإنما أوردنا ذلك إشعاراً بأننا لا نخطئ إذا اعتبرنا عقيدة التثليث موافقة لإسناد ضمير الجمع إلى الله في القرآن"(١).

أما الادعاء الثاني:

فهو أن المسيح عليه السلام روحٌ من الله بجعل (مِنْ) للتبعيض؛ إذ يرونه إلهاً من إلهٍ، وكلمة الله التي تجسدت -بزعمهم- وصارت إنساناً أي: أن كلمة الله هي عيسى عليه السلام عينه، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا الزعم.

يقول عبدالمسيح الكندي -مخاطباً عبدالله الهاشمي-: "...فافهم كيف أوجب [يقصد الرسول ﷺ وقد كذب عليه في ذلك] أن الله تبارك وتعالى ذو كلمةٍ وروح، وصرَّح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنساناً"(٢).

كما يقول منصر آخر: "إذا أردت أن يتغمدك الله [الخطاب موجه لأبي عبيدة الخزرجي رحمه الله] برحمته، وتفوز بجنته فآمن بالله، وقل: إن المسيح ابن الله الذي هو الله [تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً]... ألم تسمع ما في الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه

---

(١) نقلاً عن: عبد الرحمن الجزيري: "أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام" الطبعة الأولى (١٣٥٣هـ- ١٩٣٣م) ص (٢١٩).

(٢) "رسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية" ص (٤٢).

[أي عيسى عليه السلام] روح الله وكلمته"[1] مسقطاً بذلك اعتقاد النصارى المعروف المنصوص عليه في مستهل إنجيل يوحنا في قوله: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله"[2] . بجعل الكلمة هي عين عيسى، مما يعني أن عيسى هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

كما يقول فندر: "توجد بعض الآيات الأخرى التي تعطي له [أي لعيسى] أعظم الألقاب التي لم تعط لغيره فيه [أي في القرآن] البتة، منها: كلمة الله، وهذا اللقب لا يصح أن يسمى به أي مخلوق كان"[3] . لأنه يرى مثل كثير من النصارى اليوم أن كلمة الله -التي هي عندهم عيسى نفسه- هي الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اتباعاً للنص الإنجيلي المزعوم السابق.

فالمسيح عليه السلام -كما يزعم الكندي، والعيسوي، وفندر، وغيرهم من النصارى والمنصرين- ليس مخلوقاً وإنما هو إله بل هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والأدهى من ادعائهم هذا -فيما أرى- المناقض للأديان السماوية والفطر السليمة هو البهتان الذي افتروه على الله سبحانه وتعالى بأن كتابه العظيم القرآن الكريم يؤيدهم في كفرهم ووثنيتهم هذه.

---

(١) "بين الإسلام والمسيحية" ص ٧٥، ٧٦.

(٢) يوحنا (١ : ١).

(٣) نقلاً عن الجزيري: "أدلة اليقين" ص (٣٥٩).

أما الادعاء الثالث:

فهو زعمهم أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام التي ذكرت في القرآن تدل على ألوهية عيسى عليه السلام ولا سيما إحياء الموتى. وقد كان وفد نصارى نجران الذين وفدوا على الرسول ﷺ "يحتجون في قولهم [عن عيسى بأنه] هو الله: بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائراً"(١) أي بالمعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام والتي ذكرت في القرآن.

كما يقول العيسوي مخاطباً أبا عبيدة الخزرجي: "وفي الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه [أي عيسى] أحيا الموتى وكفى بذلك دليلاً على أنه هو الله"(٢) . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

كما أن المنصر المشهور فندر زعم أن ما ورد في القرآن من أن عيسى خلق طيراً من الطين إنما هو من صفات الله وحده ذاهباً إلى أن القرآن يؤيد بذلك ألوهية المسيح(٣).

ويورد المنصر المعاصر يوسف الحداد قولاً مجملاً عن دلالة القرآن على ألوهية المسيح – بزعمه – وتفرده عن غيره من الأنبياء فضلاً عن سائر البشر فيقول: "إن القرآن يقرر بصورةٍ عامة أن المسيح آيةٌ في حداثته، آية في

(١) ابن هشام "السيرة النبوية" ج ١، ص (٥٧٥).
(٢) "بين الإسلام والمسيحية"، ص (٧٥، ٧٦).
(٣) نقلاً عن عبدالرحمن الجزيري: "أدلة اليقين" ص (٣٦٣).

رسالته، آية في قداسته وكماله، آية في شخصيته، آية في انفراده، وأن هذه الشخصية في القرآن تسمو على جميع الأنبياء، وأن الآيات بمجملها لا يمكن إلا أن تترك في نفس القارئ فكرة عظيمة عن سمو المسيح حتى لتخرج به عن طبقة البشر وتترك الباب مفتوحاً لاعتقاد النصارى بألوهيته"[١] .

هذه من أبرز الادعاءات التي زعم المنصرون قديماً وحديثاً استناداً إليها أن القرآن يؤيد اعتقادهم بألوهية المسيح عليه السلام، وقد بدأت منذ عصر الرسول ﷺ –كما مر آنفاً– على يد نصارى عرب مثل وفد نصارى نجران، ثم تبعهم فيما بعدُ عبدالمسيح الكندي، وغيره.

والمنصرون المعاصرون –تبعاً لذلك وتطويراً له– وصلوا إلى مرحلة خطيرة من التلبيس في عرض بهتانهم هذا وماشابهه على المسلمين، ولا سيما غير المتقنين للعربية. ثم إن هذا الأسلوب أسلوب فكري (هجومي) يخاطب عقل المسلم، ويرمي إلى التأثير فيه من خلال مسلماته لزلزلة اعتقاده وإيمانه بربه سبحانه وتعالى، ومحاولة الوصول به في مرحلةٍ تاليةٍ إلى تنصيره، إن لم يكن من المرحلة الأولى.

ولخطورة هذا الأسلوب وما يتطلبه –فيما يرى الباحث– من مقدمات عامة يُستند إليها في الرد المفصل لاحقاً، رُئي نقد هذه الادعاءات التي افتراها المنصرون على كتاب الله –سبحانه وتعالى– في المبحثين الآتيين على نحوٍ مجملٍ أولاً، ثم على نحوٍ مفصل –إن شاء الله تعالى– ثانياً.

---

(١) نقلاً عن محمد عزة دروزة: "القرآن والمبشرون" الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص (٣٩٩).

المبحث الثاني: رد إجمالي على ما سبق من ادعاءات المنصرين على القرآن الكريم

هناك أدلة عامة ومجملة تفند ادعاءات المنصرين بأن القرآن يؤيد مازعموه من ألوهية عيسى عليه السلام سواء من خلال القرآن نفسه أو من خلال التوراة أو الإنجيل.

وقد رُتبت هذه الأدلة في الموضوعات الآتية:

أولاً: **وحدانية الله من خلال القرآن وكتب العهدين.**

ثانياً: **نفي الألوهية عن عيسى عليه السلام من خلال القرآن والأناجيل.**

ثالثاً: **بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته من خلال القرآن والأناجيل.**

رابعاً: **نبوة عيسى عليه السلام ورسالته من خلال القرآن والأناجيل.**

والآن وقت الشروع في تفصيل هذه الموضوعات:

أولاً: وحدانية الله[1] من خلال القرآن وكتب العهدين:

أنزل الله -سبحانه وتعالى- التوراة على رسوله موسى عليه السلام، وأنزل الإنجيل على رسوله عيسى عليه السلام، ثم دخلهما التحريف بعد ذلك. وعلى الرغم من هذا إلا أن الموجود منهما اليوم فيه ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- وأنه لا يشاركه في ألوهيته أحدٌ لا نبي مرسل ولا ملك مقرَّب، فهما في هذه الجزئية -المصطلح عليها في هذا البحث- يوافقان القرآن الكريم.

وفيما يلي عرض لهذه الوحدانية في القرآن أولاً ثم في التوراة والإنجيل:

أ- وحدانية الله -سبحانه وتعالى- من خلال القرآن الكريم:

إن النصوص الدالة على وحدانية الله في القرآن الكريم كثيرة جداً، بل إن القرآن كله ناطق بتوحيد الله -جل جلاله- حق التوحيد، ولكن لاكتمال الرد على المنصرين ولبيان أنهم ينتقون من القرآن ما يزعمون

---

(١) المقصود بالوحدانية -في هذا البحث- ما يقابل التثليث، أي أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ ليس معه إلهٌ غيره فضلاً عن آلهة أخرى، كما أنه ليس ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، وليس المقصود بذلك وحدانية الله في أسمائه وصفاته وعبادته وربوبيته؛ ذلك أن اليهود -كما هو معلوم- في باب الصفات مجسمة، والنصارى مجسدة، والمسلمون السائرون على منهج السلف الصالح -رضوان الله عليهم- من الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ يؤمنون بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف. فالجزئية التي سوف يُستدل عليها من التوراة أو الأناجيل هي هذه الوحدانية المصطلح عليها آنفاً فقط.

أنه يؤيدهم، وأنه يُمْكِنُ لهم صرفه إلى مرادهم الذي يوافق أهواءهم، ويتركون المحكم الواضح الذي يرد عليهم افتراءاتهم؛ آثرت الاكتفاء ببعض الآيات ولا سيما التي تبين التوحيد بأكثر من طريق، وبخاصة تلك الآيات التي ترد على النصارى مبينةً التوحيد ونافية الشريكَ عن الله -سبحانه وتعالى- أو ألوهية غيره، أو كونه ثالث ثلاثة، أو أن له ولداً أو اتخذ صاحبة إلى غير ذلك من الآيات المحكمات التي تبين حقيقة التوحيد صافياً من أدران الشرك والتثليث والبنوة وغيرها. فمن ذلك:

١- يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص). فهذه السورة الكريمة نص في أن الله واحدٌ أحد، وأنه لم يلد ولم يولد، فليس له ابن لا عيسى عليه السلام ولا غيره، ولا يشاركه في وحدانيته أحد.

٢- ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (النحل: ٥١)، فهنا نهى الله -سبحانه وتعالى- عن اتخاذ إلهين، وأبان سبحانه على الحصر: إنما هو إله واحد لا إله غيره.

٣- ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٩).

٤- وقال جل وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٥- وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

٦- ويقول تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

٧- ويقول تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

٨- ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: ١٧١).

٩- وقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٧٣).

١٠- وقال عز وجل: ﴿ ... وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠).

هذه الآيات غيض من فيض، ذلك أن القرآن الكريم مليء بأدلة وحدانية الله -سبحانه وتعالى- وتوحيده حق التوحيد -كما هو معلوم- لكن منهج النصارى والمنصرين التلبيس والتضليل.

ب- وحدانية الله -سبحانه وتعالى- من خلال التوراة:

تدل التوراة الحالية على وحدانية الله سبحانه وتعالى -وفق ماصطُلح عليه سابقاً[1]- بوضوح؛ ولذا فإن هذه الوحدانية من العقائد الأساسية لليهودية التي تخالف فيها النصرانية الحالية مخالفةً جذرية وتتفق فيها مع الإسلام على سبيل الإجمال.

وإن من نصوص التوراة التي تدل على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- وأنه الله الذي لا إله غيره مايلي:

١- جاء في التوراة قوله: "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحدٌ فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك ... الرب إلهك تتقي، وإياه تعبد، وباسمه تحلف، لا تسيروا وراء آلهةٍ أخرى من آلهة الأمم التي حولكم"[2].

٢- وجاء فيها: "أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي ... لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري أنا الرب وليس آخر"[3].

٣- وجاء فيها: "أليس أنا الرب، ولا إله آخر غيري، إلهٌ بار ومخلص ليس سواي"[4].

---

(١) انظر: ص (٢١).

(٢) التثنية: (٤ : ٦ -١٤).

(٣) أشعياء: (٤٥ : ٥، ٦).

(٤) أشعياء: (٤٥ : ٢١).

٤- وجاء فيها: "إنك قد أُريت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه... فاعلم اليوم وردد في قلبك أن الرب هو الإله في السماء فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه"(١).

٥- وجاء فيها "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي"(٢).

فهذه نصوص واضحة في الدلالة على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- من خلال التوراة وهي بذلك تتفق مع ماجاء في القرآن الكريم، ولذا تتفق اليهودية مع الإسلام في هذه العقيدة -على نحو عام- بينما تشذُّ النصرانية الحالية عن هذين الدينين السماويين وتضاهي الذين كفروا من قبل حيث تعتقد بالتثليث بكل مايستلزمه ذلك من ألوهية لعبدالله ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ومن بنوته لله، -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- إلى غير ذلك من أمور شركية.

ج- وحدانية الله -سبحانه وتعالى- من خلال الأناجيل:

على الرغم مما يعتقده النصارى من تثليث وما دخل الأناجيل من تحريف، إلا أن في الأناجيل الحالية من الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام ما يدل دلالة واضحة على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- فمن ذلك:

---

(١) التثنية: (٤ : ٣٥ - ٣٩).

(٢) التثنية: (٥ : ٦، ٧)، وانظر النص نفسه مكرراً في الخروج: (٢٠ : ٢، ٣).

١- جاء في الإنجيل قوله: "فأجابه يسوع[1] [أي عيسى]: إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها... ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب جيداً يامعلم بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه"[2].

٢- وجاء فيها قوله: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، وأن يسوع المسيح الذي أرسلته"[3] ففي هذا النص بيان واضح أن الله هو الإله الحق وحده -سبحانه وتعالى- فلا إله غيره، كما أن النص أبان أن عيسى عليه السلام هو الرسول الذي أرسله الله آنذاك.

ولذا يذكر عبد الأحد داود أن هذا النص يشبه قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[4]. وهو كما قال، بل إن هذا النص وحده كافٍ في بيان وحدانية الله -سبحانه وتعالى- من الأناجيل، وأن عيسى عبد الله ورسوله.

---

(١) يسوع: هي الصيغة اليونانية للاسم العبري (يشوع)، [انظر حنا الله جرجس ووهيب مالك: القاموس الموجز للكتاب المقدس: ج (٢)، ص (٧٤٣)] والمقصود به عيسى عليه السلام.

(٢) مرقس: (١٢ : ٢٨ - ٣٤) وانظر: متى (٢ : ٣٥ - ٣٩).

(٣) يوحنا (١٧ : ٣).

(٤) انظر: عبد الأحد داود: "الإنجيل والصليب" تعريب مسلم عراقي، (القاهرة، ١٣٥٠هـ) ص (١٥٩).

٣- وجاء في الأناجيل -كما زعموا- أن الشيطان طلب من عيسى أن يسجد له، فقال له عيسى: "اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"[١]. وهذا إيضاح من المسيح عليه السلام -إن كان النص صحيحاً- يرد به على الشيطان أنه لا يسجد إلا لله وحده ولا يعبد إلا إياه. وهذا موضح لوحدانية الله -سبحانه وتعالى- في ربوبيته وفي عبادته، وموضح لعبودية عيسى وبشريته ﷺ مناف لألوهيته.

٤- وجاء فيها قوله: "أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني... كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه"[٢] .

٥- وجاء فيها قوله: " ... قولي لهم: إني أصعد إلى أبي، وأبيكم، وإلهي وإلهكم"[٣] فعيسى عليه السلام يصرح أن الله -سبحانه وتعالى- كما أنه إله للحواريين وبني إسرائيل وغيرهم، فهو أيضاً إلهٌ له عليه السلام، فالله واحد أحد لا إله سواه، وعيسى عبد مربوب لله مثله مثل غيره من الأنبياء والمرسلين يوحد الله -سبحانه وتعالى- كما يجب.

---

(١) متى: (٤ : ١٠).

(٢) يوحنا: (٥ : ٤٣، ٤٤).

(٣) يوحنا: (٢٠ : ١٧).

٦- وجاء فيها قوله: "... لماذا تدعونني صالحاً؟ ليس أحدٌ صالحاً إلا واحد هو الله"[١]. وهذا يوضح أن عيسى عليه السلام ليس له حظ في الألوهية وليس شريكاً لله، وإنما الله -سبحانه وتعالى- واحد أحد؛ لذا أفرد عيسى عليه السلام هنا الله -جل وعلا- وحده بالصلاح ونفاه عن نفسه، والله أعلم بالمقصود بذلك إن كان النص صحيحاً.

إن هذه النصوص تدل على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- في الأناجيل الحالية، فهو واحد أحد لا إله غيره -عز وجل- وعيسى ليس بإله، وإنما إلهه هو الله سبحانه وتعالى، إله عيسى وإله غيره.

ثانياً: نفي الألوهية عن عيسى عليه السلام من خلال القرآن والأناجيل:

إن الآيات التي مرت سابقاً[٢] والتي تبين وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال القرآن هي نفسها نافية بمفاهيمها ولوازمها لألوهية المسيح عليه السلام وبعضها بمنطوقها، وكذا ما جاء في التوراة والأناجيل حول وحدانية الله. إلا أن النصارى كثيراً ما يجادلون بالباطل ويتعسفون الأدلة ويؤولونها وفق أهوائهم، ولذا يود الباحث دحض افتراء أن القرآن دال على ألوهية المسيح من خلال طريق آخر سوى ما سبق ألا وهو آيات من القرآن ناطقة بنفي الألوهية عن عيسى نطقاً صريحاً، وكذا من خلال الأناجيل لإلزام النصارى والمنصرين من خلال مسلماتهم وما يؤمنون به إن كانوا يعقلون، وذلك كما يأتي:

---

(١) لوقا: (١٨ : ١٩) وانظر: متى (١٩ : ١٧).

(٢) انظر: ص (٢٢، ٢٣).

أ- نفي الألوهية عن عيسى من خلال القرآن:

جاءت في القرآن آياتٌ محكمات متعددة تنفي الألوهية عن المسيح عليه السلام منها:

١- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ (المائدة: ١٧)، وانظر (٧٢).

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة: ١١٦). فهذا عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل يكذب النصارى في دعوى تأليههم له، وينزه الله -سبحانه وتعالى- عن أن يقول قولاً لا ينبغي له أن يقوله وهو أنه دعا النصارى إلى تأليهه.

٣- وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١).

٤- وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣)، وانظر (النساء: ١٧١)، فالله واحدٌ أحدٌ ليس معه إله غيره، وهذا تهديد وتحذير من الله للنصارى عن القول بالتثليث وتأليه أحدٍ معه ومن أول ذلك تأليه المسيح عليه السلام؛ لأن الخطاب للنصارى.

٥- وقوله تعالى: ﴿ ... وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠)، فقد شابهوا من كان يقول إن للآلهة أبناء من وثنيي اليونان والرومان وغيرهم من الوثنيين[١].

٦- وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم: ٣٤، ٣٥).

٧- وقوله: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة: ٧٥).

يقول ابن تيمية -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ... ﴾: "وهذا من أظهر الصفات النافية للإلهية؛ لحاجة الآكل إلى ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات"[٢].

ب- نفي الألوهية عن عيسى عليه السلام من خلال الأناجيل:

يقوم هذا الموضوع على ما نسب لعيسى عليه السلام من أقوال يُثْبت فيها صفاتٍ وأسماء لله نفاها هو عن نفسه عليه السلام فإضافة

---

(١) انظر حول هذا الموضوع: محمد طاهر التنير: "العقائد الوثنية في الديانة النصرانية" (١٣٣٠هـ) ص (٢٠، ٢١)؛ وأحمد شلبي: "المسيحية"، ط (٧) القاهرة مكتبة النهضة المصرية (١٩٨٣م)، ص (١٣٠). ومحمد عصفور: "معالم حضارات الشرق الأدنى القديم" (لبنان: دار النهضة العربية (١٩٨١م) ص (٢١٦).

(٢) ابن تيمية، "الجواب الصحيح" ج ٢، ص (١٧١).

إلى كل عوارض البشرية التي طرأت على المسيح وتطرأ عليه -مما سوف يمر[1]- والدالة على الحدوث والتغير من حال إلى حال، وأنه لا يختلف في شيء عن غيره من الرسل إلا ما اختصه الله به، إضافة إلى ذلك جاء في الأناجيل:

١- قوله: "فقال [أي عيسى] لها [لأم ابني زبدي] ماذا تريدين؟ قالت له: قل، أن يجلس ابناي هذان، واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك. فأجاب يسوع وقال: لستما تعلمان ما تطلبان... أما الجلوس عن يميني وعن يساري فليس لي أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبي"[2].

٢- وقوله: "فأجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل"[3]. وقال: "ليس كل من يقول يارب يدخل ملكوت السموات بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات"[4].

ففي النصوص السابقة نفى عيسى عليه السلام القدرة على إدخال من شاء ملكوت الله، وأبان أنه لايدخل ملكوت الله إلا من أراد الله وحده له ذلك، وليس ذلك للمسيح؛ لأن مشيئة المسيح تحت مشيئة

---

(١) انظر ص (٣٧).

(٢) متى (٢٠ : ٢١ - ٢٣).

(٣) يوحنا (٥ : ١٩).

(٤) متى (٧ : ٢١).

الله، وقدرته تحت قدرة الله كما في النص -الآنف الذكر- حيث يقول: "لا يقدر الابن [المسيح] أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب [الله] يعمل" فالله وحده -سبحانه- هو القادر على كل شيء قدرة تليق بجلاله وعظمته. وقد جاء في نص آخر "... لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله"[1] وكذا القول المنسوب إلى المسيح عليه السلام نفسه "عند الناس غير مستطاع، ولكن ليس عند الله لأن كل شيء مستطاع عند الله"[2] .

أما قدرة المسيح فهي قدرة محدودة تناسب مقامه، وليس له إلا ما أقدره الله عليه. ومشيئة المسيح تحت مشيئة الله وبإذن الله كما قال المسيح -فيما نسب إليه-: "... يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت"[3] وكل هذا يستلزم نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام.

٣- نسب إلى عيسى في الإنجيل قوله: "لا يقدر أحد أن يُقبل إلي إن لم يجتذبه الأب الذي أرسلني"[4] .

فهنا الاجتذاب أو الهداية هداية توفيق خاصة بالله سبحانه وتعالى وليس للمسيح أن يهدي أحداً إلا أن يشاء الله له الهداية.

(١) لوقا (١ : ٣٧).
(٢) مرقس (١٠ : ٢٧).
(٣) متى (٢٦ : ٣٩).
(٤) يوحنا (٦ : ٤٤).

٤- نُسب إلى عيسى قوله: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب"[١] وفي نص آخر عن الموضوع نفسه: "إلا أبي وحده"[٢] وهذه النصوص في سياق إخباره لبني إسرائيل عن تهدم الهيكل[٣]. فعيسى -هنا- يخبر النصارى بأمر مستقبلي -وإن صح النقل عنه فهو بإعلام الله له- وعلى الرغم من هذا حينما سُئل عن وقت التهدم نفى علمه بوقت ذلك، وأخبر أنه لا أحد يعلم ذلك لا الملائكة ولا هو عليه السلام، وإنما الذي يعلم ذلك هو عَلاَّم الغيوب وحده، وهو الله سبحانه وتعالى، وليس للمسيح من علم الغيب شيء إلا ما أطلعه الله عليه.

٥- وجاء في نص آخر: "وفي الغد لما خرجوا من بيت عينا جاع فنظر شجرة تينٍ من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئاً. فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً لأنه لم يكن وقت التين"[٤] فسبحان الله هذا النص ظاهر جلي في بشرية عيسى عليه السلام ونفي لألوهيته من وجوه منها:

- أنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، فلو كان إلهاً -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً- لما كلف نفسه مشقة الذهاب إلى الشجرة الخالية من أثمار التين.

---

(١) مرقس (١٣ : ٣٢).

(٢) متى (٢٤ : ٣٦).

(٣) انظر: متى الإصحاح الرابع والعشرين كاملاً.

(٤) مرقس (١١ : ١٢ - ١٤).

- ثم لو كان إلهاً لعلم أن هذا ليس وقت إثمار أشجار التين، فهل يجهل الإله أمراً كهذا؟.

- ثم لو كان إلهاً لأمر الشجرة أن تنبت تيناً فأنبتت.

- ثم هل الإله يجوع؟ إن هذا نقص في إلههم المزعوم، أما الله الإله الحق فهو الغني جل وعلا.

٦- يُنسب إلى عيسى قوله: "... لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الأب لأن أبي أعظم مني"[١] فعيسى يصرح أن الآب [الله] أعظم منه فهناك فارق كبير عبَّر عنه بأفعل التفضيل بينه وبين ربه وخالقه سبحانه وتعالى. وإذا كان عيسى قد نطق بأن الله أعظم منه فإن هذا وفق مفهوم المخالفة، يعني أن عيسى أقل من الله، وهو مايوضح أنه ليس هو الله، ولا ابن الله كما تزعم النصارى حيث يقولون إنه ابن الله الذي هو: "الله في المسيح[٢]" تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٧- يُنسب إلى عيسى قوله: "وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه [أحاكمه وأحاسبه] لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم من رذلتي فله من يدينه"[٣] إذاً يوضح عيسى أن مالك الحساب

(١) يوحنا (١٤ : ٢٨).

(٢) جوجيا هاركنس "بماذا يؤمن المسيحيون" ترجمة إسحق مسعد (القاهرة دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية) ص (٦٩).

(٣) يوحنا (١٢ : ٤٧).

والجزاء إنما هو غيره، فعيسى لا يملك هذا وإنما الذي يملكه هو الله سبحانه وتعالى وحده كما يوضحه السياق بعده[1]، وكما يوضحه قوله السابق "أبي أعظم مني" وهذا -أيضاً- نفي لألوهية عيسى عليه السلام.

٨- قال عيسى: "... اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"[2] فيُسَمي المؤمنين به (إخوتي) ثم يقول: "أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" فمثله مثل المؤمنين به، ربه الله، وإلهه الله -سبحانه وتعالى- وهذا اعتراف بألوهية الله، وفي الوقت نفسه نفي قوي على لسانه لألوهيته المفتراة على الله -سبحانه وتعالى- ثم عليه، ثم كيف يكون هو إله نفسه؟.

٩- جاء في الإنجيل أن "الله لم يره أحد قط"[3] وقول المسيح عن الله سبحانه وتعالى: "لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته"[4] بينما أبصروا المسيح وسمعوا صوته، وكلَّمهم وكلَّموه، بل وأكل وشرب معهم وتفل على التراب، فعجن الطين وطلى به أعين عُمْيٍ، إلى غير ذلك مما سوف يمر[5] من دلائل بشريته. وهذا كله ينفي الألوهية عن المسيح عليه السلام.

---

(١) يوحنا (١٢ : ٤٨).

(٢) يوحنا (٢٠ : ١٧).

(٣) يوحنا (١ : ١٨).

(٤) يوحنا (٥ : ٣٧).

(٥) انظر ص (٣٧).

١٠- كثرت النصوص الإنجيلية التي توضح أن عيسى كان يدعو الله -سبحانه وتعالى- ويسجد له، ويخضع له، ويصوم له، حتى بلغ صيامه أربعين نهاراً وأربعين ليلة[١]. وأنه يفعل مايرضي الله -سبحانه- ويحفظ أقواله[٢]. فلمن يتوجه عيسى عليه السلام بهذه العبادات؟ أيعبد عيسى نفسه؟ أم هل يدعو نفسه؟ أم هل يصوم لنفسه؟ هل العابد هو عين المعبود؟ إن هذا محال عقلي، مثبت لعدم ألوهية عيسى -عليه الصلاة والسلام- وأن الإله هو غير عيسى، وهو الذي يتوجه له عيسى بأنواع العبادات: إنه الله -سبحانه وتعالى- وحده.

---

(١) انظر متى (٤ : ١ - ٣).

(٢) يوحنا (٨ : ٥٥).

ثالثاً: بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته من خلال القرآن والأناجيل:

ينقسم هذا الموضوع إلى الفقرتين التاليتين:

أ- بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته من خلال القرآن:

أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام عبد من عبيد الله كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ...﴾ (النساء: ١٧٢) وكما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠). يقول ابن كثير: "أول شيء تكلم به أن نزّه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه"(١).

وقد جاء في آيات أخرى قوله: ﴿...أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾ (المائدة: ١١٧). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٦) فهو إنسان مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى كما خلق آدم من تراب قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩). وكما قال تعالى -على لسان مريم-: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧).

---

(١) إسماعيل بن كثير القرشي تفسير القرآن العظيم دار المعرفة بيروت -لبنان- (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج ٢، ص (١١٩).

فعيسى عليه السلام ولد لمريم، خلقه الله ووهبه لها، كما قال تعالى: ﴿ ... لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم: ١٩). فهو ولد لمريم مخلوق وليس بإله ولا ابن إله، فنسبه بشري عائد إلى أمه فهو في القرآن الكريم: المسيح عيسى بن مريم بنت عمران من بني إسرائيل ومن ذرية إبراهيم[١] ومن ذرية نوح[٢] وقد حملت[٣] به والدته كما أراد الرحمن -سبحانه وتعالى- من أم بلا أب، ووضعته بعد مخاض[٤] وجاءت به قومها تحمله[٥] ﴿ ... فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم: ٢٩)، وكان يأكل الطعام هو وأمه كما قال تعالى: ﴿ ... كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ... ﴾ (المائدة: ٧٥). بكل ما يعنيه ذلك من حاجة للطعام ولإخراجه والنمو والتحول من حال إلى حال، وهو كما خلق من تراب بعد أن لم يكن شيئاً وولد بعد أن كان جنيناً واكتهل بعد أن كان صبياً، فسوف يموت بعد نزوله في آخر الزمان[٦]، ثم يبعث حياً كما قال تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣٣). فهو

---

(١) انظر سورة الأنعام: ٨٤.

(٢) انظر سورة الحديد: ٢٦.

(٣) انظر سورة مريم: ٢٢.

(٤) انظر سورة مريم: ٢٢.

(٥) انظر سورة مريم: ٢٧.

(٦) انظر جلال الدين السيوطي "نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان" دراسة وتحقيق، محمد عبدالقادر عطا ط ١، دارة الكتب العلمية - بيروت، ص (٦١ - ٨٦) وانظر: محمد أنور شاه الكشميري: "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ط ٣، مكتب المطبوعات الإسلامية ودار الفرقان - بيروت ص ٩١ فما بعد.

إنسان يطرأ عليه ما يطرأ على أمثاله من البشر من عوارض. وهو عبد من عباد الله. خلقه الله سبحانه وتعالى من أم بلا أب آية للعالمين ومثلاً لبني إسرائيل. كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٠).

وكما قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الزخرف: ٥٩) كما أوصاه الله سبحانه بعبادته ما دام حياً، كما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ ... وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣١) فمحكم القرآن يدل على أن عيسى عليه الصلاة والسلام إنسان مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى كما شاء واقتضته حكمته، وهو عبد من عباد الله الذين أنعم الله عليهم، ولن يستنكفوا عن عبادته سبحانه وتعالى.

ب- بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته من خلال الأناجيل:

تدل الأناجيل الحالية على بشرية عيسى عليه السلام وعبوديته دلالة بينة؛ حيث جاء في بعضها فيما ينسب إلى عيسى عليه السلام قوله: "... ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله"[1] . فعيسى عليه السلام وضع نفسه في الموضع اللائق به، وهو أنه إنسان رسول يدعوهم ويبلغهم بما أوحاه الله إليه. وكفى بذلك دليلاً على بشريته وعبوديته، وأنه ليس بإله حيث أثبت

(١) يوحنا (٨ : ٣٩ - ٤٠).

بشريته وأثبت لنفسه العبودية والخضوع لمن أرسله وهو الله -سبحانه وتعالى- إلهه وإله بني إسرائيل والخلق أجمعين، كما جاء فيما نسب إليه قوله: "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"[١] وقوله: "اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"[٢] .

وفي الأناجيل ما يدل على عبادة عيسى عليه السلام وطاعته لله سبحانه وتعالى حيث صام[٣] وخَرَّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت"[٤] .

كما أنه "خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله"[٥] . وسبحان الله قضى الليل كله يصلي لخالقه، وإلهه، وربه، فأنى يكون إلهاً، أو يكون هو الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-؟ أنى يكون العابد هو عين المعبود؟ ولا سيما أنه كان "يصلي بأشد لجاجة"[٦] لله سبحانه وتعالى، بل جاء -فيما نسب إليه- في الأناجيل أنه قال: "... لم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه"[٧] فهو مجتهد في عبادة ربه -سبحانه وتعالى- خاضع له ومطيع له في كل وقت وحين.

---

(١) يوحنا (٢٠ : ١٧).

(٢) متى (٤ : ٩، ١٠).

(٣) متى (١٤ : ٣).

(٤) متى (٢٦ : ٣٩).

(٥) لوقا (٦ : ١٢).

(٦) لوقا (٢٢ : ٤٤).

(٧) يوحنا (٨ : ٢٩).

ثم إن نظرة معاصري عيسى عليه السلام له لم تكن إلا على أنه إنسان وليس بإله. من ذلك قوله: "أجاب الخدام: لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان. فأجابهم الفريسيون: ألعلكم أنتم أيضاً قد ضللتم... ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يسمع منه أولاً"[١]. وفي نص آخر: "فقالوا له: كيف انفتحت عيناك [لرجل أعمى أبصر بإذن الله على يد عيسى] أجاب ذاك وقال: إنسان يقال له يسوع..."[٢].

كما أن نسب عيسى عليه السلام وفق الأناجيل أنه: المسيح عيسى ابن مريم[٣]، من نسل داود ومن ذرية إبراهيم[٤] -عليهم الصلاة والسلام- خلقه الله من أم بلا أب[٥] بقدرته، كما خاطب جبريل مريم -عليهما السلام- حيث قال لها: "لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله"[٦] حينما تعجبت واستفهمت من جبريل "كيف يكون هذا [أي الحمل بعيسى وولادته] وأنا لست أعرف رجلاً"[٧]. فأمه مريم وتزعم

---

(١) يوحنا (٧ : ٤٦ - ٥٣).

(٢) يوحنا (٩ : ١٠، ١١) وانظر يوحنا (٩ : ١٦) ويوحنا (٩ : ٢٤، ٢٥).

(٣) انظر لوقا (١ : ٢٦ - ٣٧).

(٤) متى (١ : ١) وانظر كونه من نسل داود متى (١٢ : ٢٣) ولوقا (١ : ٣٢) ويوحنا (٧ : ٤٢).

(٥) انظر لوقا (١ : ٢٦ - ٣٧).

(٦) لوقا (١ : ٣٧).

(٧) لوقا (١ : ٣٦).

الأناجـيل أن له إخـوة وأخـوات ممن ادعت أنه زوج أمـه[1] وهو يوسف النجار[2] ونسيبة أمه -كما جاء في الأناجيل هي أليصابات أم يحيى عليه السلام[3] وهي من بنات هارون وبذلك يحيى وزكريا من قرابة عيسى[4].

كـذلـك مـن أدلـة بشـريـة عيسى عليـه السـلام كـمـا جـاء فـي الأنـاجـيل: أن أمه حـملت بـه عـدة الحـمل كـاملـة، ثـم ولـدته بعـد أن لـم يكـن شـيـئـاً[5]، وخـتن بعـد أن كـان أغلـف[6]،

---

(١) ذكرت الأناجيل أن مريم بعد ولادة عيسى تزوجت من يوسف النجار الذي كانت مخطوبة له قبل الحمل بعيسى إلا أن الله يقول -على لسان أم مريم-: ﴿ ... رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ... ﴾ [آل عمران: ٣٥] والمحرر كما نقل الألوسي: "من لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله تعالى ويكون في خدمة الكنيسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما" [محمود الألوسي: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني إدارة الطباعة المنيرية، ج ١ (٣) ص ١٣٣] وعلى هذا يكون زعم زواج مريم -عليها السلام- زعماً غير صحيح والله أعلم.

(٢) متى (١٣ : ٥٤ - ٥٦).

(٣) لوقا (١ : ٣٦).

(٤) في السنة الصحيحة أن عيسى ويحيى -عليهما السلام- ابنا خالة. انظر: محمد بن إسماعيل البخاري "صحيح أبي عبدالله البخاري" تحقيق وتعليق: محمود النواوي وآخرين ط (٢) (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) مكتبة النهضة الحديثة (مكة) ومكتبة الرياض الحديثة (الرياض) مجلد (٢) كتاب (٥٤) باب (٤٣) حديث (١٠٥) ج (٢) ص ١٣٠، ومسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات ج (١) ص (١٤٥) حديث رقم (٢٥٩).

(٥) متى (٢ : ١ -٦) ولوقا (٢ : ٤ - ٧) وانظر لوقا (١ : ٢٦ - ٣٧).

(٦) لوقا (٢ : ٢١).

واكتهل بعد أن كان صبياً[1]، وتعلم القراءة والكتابة. وكتب بإصبعه على الأرض[2]، وجاع[3]، وطعم[4]، بل أكل الفصح مع حواريه[5]، كما شرب الماء[6]، ومشى فتعب وتصبب عرقاً حتى بلغ عرقه الأرض[7] ثم جلس من التعب[8]، وامتطى الجحش[9]، وتفل على الأرض، وصنع من التفل طيناً، وطلى بالطين عيني الأعمى[10]، وحزن واكتأب ثم بكى[11]. وكان يجثو على ركبتيه[12]، ويخر على وجهه[13] إلى الأرض ساجداً لله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك مما جاء في الأناجيل.

---

(١) انظر لوقا (٣ : ٢٣).

(٢) يوحنا (٨ : ٦ و٩).

(٣) انظر متى (٤ : ٢) ومتى (١١ : ١٢).

(٤) انظر متى (٢٦ : ١٧ – ٢٥) ومرقس (١٤ : ١).

(٥) انظر مرقس (١٤ : ١٢ – ١٨).

(٦) انظر يوحنا (٤ : ٧ – ١٠).

(٧) انظر لوقا (٢٢ : ٤٤).

(٨) انظر متى (٥ : ١) و(١٣ : ١ – ٢) ويوحنا (٤ : ٦).

(٩) انظر متى (٢١ : ٧) ومرقس (١١ : ٧) ولوقا (١٩ : ٣٥ – ٣٦).

(١٠) مرقس (٧ : ٣٣) ويوحنا (٩ : ٦).

(١١) متى (٢٦ : ٣٧) ومرقس (١٤ : ٣٣، ٣٤).

(١٢) متى (٢٦ : ٣٩).

(١٣) لوقا (٢٢ : ٤١).

كما أن من الأمور التي تُجَلِّي عبودية عيسى عليه السلام وبشريته سوى ما ذكر هنا ماأثبته عيسى عليه السلام من أسماء وصفات لله وحده نافياً إياها عن نفسه عليه السلام مثل: أن الله هو القادر وحده، وأنه هو الهادي وحده، وأنه هو علام الغيوب، وأنه العظيم ومالك يوم الدين، وأنه لايُرى في الدنيا إلى آخر ما مر[١] مما نفاه المسيح عن نفسه وأثبته لله وحده.

لذا ولغيره ذكر أبو الوليد الباجي -رداً على راهب من فرنسا- أن عيسى عليه السلام: "بشر مخلوق وعبد مربوب لا يعدو عن دلائل الحدوث من... التغير من حال إلى حال وأكل الطعام والموت الذي كُتب على جميع الأنام... ولو جوزنا كونه عليه السلام مع هذه الصفات والأحوال المحدثات إلهاً قديماً لنفينا أن يكون العالم أو شيء مما فيه محدثاً مخلوقاً لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى عليه السلام"[٢] .

إن ما سبق مثبت لبشرية عيسى عليه السلام وعبوديته، فماذا عن نبوة عيسى عليه السلام ورسالته؟ هذا ما سوف يُدرس تالياً.

---

(١) انظر ص (٣٠-٣٥).

(٢) "رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها" ص (٥٩، ٦٠).

رابعاً: نبوة عيسى عليه السلام ورسالته من خلال القرآن والأناجيل:

ينقسم هذا الموضوع إلى فقرتين:

أ- نبوته ورسالته عليه السلام من خلال القرآن:

يوضح القرآن أن المسيح عيسى عليه السلام نبي رسول، وهو من أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(١).

وهذه بعض الآيات الدالة على رسالة عيسى ونبوته:

يقول تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴾ (المائدة: ٧٥). ويقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ... ﴾ (النساء: ١٧١). ويقول تعالى على لسان عيسى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ... ﴾ (آل عمران: ٤٩). كما يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ... ﴾ (الصف: ٦). ويقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠).

فعيسى نبي رسول من رسل الله، وظيفته طاعة الله وإبلاغ رسالة ربه -سبحانه وتعالى- التي أرسله بها وأمره بإبلاغها، وحث بني إسرائيل على عبادة الله كما قال تعالى عن عيسى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٢.

وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المائدة: ١١٧). وكما قال تعالى عن عيسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٥١).

ب- نبوته ورسالته عليه السلام من خلال الأناجيل:

كذلك تدل الأناجيل الموجودة اليوم على نبوة عيسى ورسالته فقد جاء في الأناجيل نصوص عدة منها:

١- أما يسوع فقال لهم: "ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته"[١] فهذا مما ينسب إليه من أقوال يشير بها إلى نفسه.

٢- ومما يوضح نظرة بعض المدعوين من بني إسرائيل له وأنه نبي قوله: "ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي"[٢].

٣- وقوله: "ولما دخل أورشليم ارتجَّتْ المدينة كلها قائلة مَنْ هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل"[٣].

٤- مر بنا قول عيسى عليه السلام: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع الذي أرسلته"[٤].

---

(١) متى (١٣ : ٥٧) ولوقا (٤ : ٢٤) و (١٣: ٣٣).

(٢) متى (٢١ : ٤٥).

(٣) متى (١١ : ٢١) وانظر سوى مامر يوحنا (٦ : ١٤) و (٧ : ٤٠) و (٩ : ١٧) ولوقا (٧ : ١٩) ومرقس (٦ : ١٥) ويوحنا (٩ : ١٧).

(٤) انظر ص (٢٦).

٥- وقوله: "فنادى يسوع وهو يُعَلِّمُ في الهيكل قائلاً: تعرفونني وتعرفون من أين أنا ومن نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه، أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني"[١] .

فهذا من أقواله التي يوضح فيها أنه رسول من رسل الله.

إن ما سبق من نصوص تدل على نبوة عيسى عليه السلام ورسالته من خلال الأناجيل، على أن هناك نصوصاً أخرى تضيف إلى ما سبق بيان مهمة عيسى عليه السلام ووظيفته التي أرسله الله من أجلها، ألا وهي الدعوة إلى الله وإلى عبادته وطاعته وإبلاغ ما أمره الله أن يبلغه لبني إسرائيل من دين الله الذي أنزل على يديه آنذاك وهو النصرانية الصحيحة الموحدة التي نسخها الله بالإسلام ولذا يسمى عيسى في الأناجيل معلم[٢]. وهي وظيفة الرسل حيث يعلمون الناس الخير ويبلغونهم دين الله سبحانه وتعالى.

وإن من النصوص الدالة على ذلك:

١- قول الإنجيل: "وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز [يدعو] ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل"[٣] فهاهو عيسى يدعو بني إسرائيل إلى التوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى والإيمان بالإنجيل كتاب الله الذي أنزله عليه.

---

(١) يوحنا (٧ : ٢٨، ٢٩) و(١٦، ١٧) و(٨ : ٤٢، ٢٩، ٢٦، ١٨، ١٦) و(١٧ : ٨ و٢٥).

(٢) انظر متى (٨ : ١٩) و(٩ : ١١) و(١٢ : ٣٨) ومرقس (٥ : ٣٥) و(٩ : ٣٨) و(١٠ : ٣٥) ولوقا (٨ : ٤٩) وغيرها كثير.

(٣) مرقس (١ : ١٤، ١٥).

٢- قوله: "فقال لهم: إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخر أيضاً بملكوت الله؛ لأني لهذا قد أرسلت، فكان يكرز في مجامع الجليل"[١].

٣- قوله: "فقال لهم: لنذهب إلى القرى المجاورة لأكرز هناك أيضاً لأني لهذا خرجت"[٢].

٤- وجاء في الإنجيل قوله: "كان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت"[٣].

٥- كما جاء قوله: "حينئذٍ ابتدأ يوبخ المدن التي صنعت فيها أكثر قواته [المعجزات التي أظهر الله على يديه] لأنها لم تتب: ويلٌ لك يا كورزين، ويل لك يا بيت صيدا... وأنت يا كفرنا حوم"[٤].

٦- جاء قوله: "... ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني مادام نهار، يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل"[٥].

٧- قوله: "... لأني لم أتكلم من نفسي، لكن الأب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم؟ وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية فما أتكلم أنا به فكما قال لي الأب هكذا أتكلم"[٦]. يصدِّق هذا

---

(١) لوقا (٤ : ٤٣، ٤٤).

(٢) مرقس (١ : ٣٨).

(٣) متى (٤ : ٢٣ - ٢٥).

(٤) متى (١١ : ٢٠ - ٢٣).

(٥) يوحنا (٩ : ٤) وانظر يوحنا (٤ : ٣١).

(٦) يوحنا (١٢ : ٤٩، ٥٠) وانظر يوحنا (٤ : ٣١) و(٨ : ٢٦و٢٨) ويوحنا (١٧ : ٧، ٨).

ما جاء في القرآن على لسان عيسى : ﴿ مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ . . . ﴾ (المائدة: ١١٧).

فعيسى -عليه الصلاة والسلام- كما تدل عليه الأناجيل نبي رسول جاء لإبلاغ بني إسرائيل رسالة ربه ليتوبوا من معاصيهم وآثامهم ويتبعوا كتاب الله الذي أنزله الله عليهم آنذاك على يد عيسى وهو الإنجيل.

هذه ردود مجملة، وسوف نتكلم فيما يأتي على الردود المفصلة.

المبحث الثالث: رد تفصيلي على ما سبق من ادعاءات المنصرين على القرآن الكريم

سبق ذِكْرُ ادعاءات ثلاثة[1] يعرضها النصارى والمنصرون على أنها أدلة لهم، يستندون إليها في زعمهم أن القرآن يؤيد ألوهية المسيح عليه السلام. وفي هذا المبحث سوف تُدرس هذه الادعاءات ويُرد عليها على نحو مفصل كما يأتي:

المطلب الأول: الرد على ادعاء المنصرين أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن تدل على ألوهية المسيح.

المطلب الثاني: الرد على ادعاء المنصرين أن المسيح روح من الله -بجعل من للتبعيض- وكلمته التي تجسدت وصارت إنساناً.

المطلب الثالث: الرد على ادعاء المنصرين أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى، والتي ذُكرت في القرآن، ولاسيما إحياء الموتى، دليل على ألوهية المسيح.

وهذا أوان دراسة هذه الادعاءات والرد عليها تفصيلاً:

(١) انظر ص (١٣).

المطلب الأول: الرد على ادعاء المنصرين أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن تدل على ألوهية المسيح:

يزعم النصارى والمنصرون أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن مثل: إنَّا، ونحن، ونا الفاعلين، وضمائر المتكلمين المستترة وجوباً... إلخ تدل على ثلاثة آلهة أحدهم المسيح عليه السلام الذي يسعون لإثبات ألوهيته من خلال آيات القرآن. وادعاؤهم هذا قال به نصارى نجران -كما مر[1]- ويقول به غيرهم من المنصرين إلى اليوم.

وضمائر الجمع الآنفة الذكر إما أن تكون دالة من حيث اللغة على الظاهر وهو الجمع، أو دالة على غيره وهو المفرد أو المثنى:

ففي الحالة الأولى وهي: دلالة ضمائر الجمع على ظاهرها (الجمع) فإن هناك أموراً عدة منها:

١- ما حدُّ الجمع حينئذ؟ إن حد الجمع لغةً: ثلاثة فما زاد، أو اثنان فما زاد[2].

فإن كان أقل الجمع اثنين فإنه لا حجة للنصارى والمنصرين ألبتة في ظاهر ضمائر الجمع حينئذ، ويكون ذلك هادماً لادعائهم من أركانه.

---

(١) انظر ص (١٤).

(٢) انظر عباس حسن: "النحو الوافي" الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، ج (١) ص (١١٩ و١٣٧).

وإذا كان أقل الجمع ثلاثة فإن ظاهر الضمائر حينئذ يدل على الثلاثة فما زاد أي: ثلاثة أو أربعة، أو خمسة، أو ألف، أو ألف ألف... إلخ. فما المسوغ الذي حصر الجمع في الثلاثة فقط؟ إنه لا يوجد مسوغ واحد في القرآن قد يوحي ولو من بعيد بأن ضمائر الجمع المذكورة آنفاً يمكن أن تدل حصراً على الثلاثة ولا يمكن أن يوجد ذلك في القرآن؛ لأن مما يبطل احتمال وجود هذا ويجتثه من جذوره: الآيات المحكمات الواضحات الكثيرة، الدالة على وحدانية الله ونفي الشريك معه -سبحانه وتعالى- بعامة، ونفي ألوهية المسيح وبنوته بخاصة، فليس لدى النصارى أي مسوغ من خلال القرآن لدعواهم هذه، وإنما هي معتقداتهم النصرانية أرادوا إنزالها على آي القرآن الكريم تعسفاً ومغالطة.

وخلو دعواهم من الدليل أو المسوغ الذي يحصر الضمائر في ثلاثة يفتح الباب عليهم، فلو ادعى مُدَّعٍ أنها كما تدل على التثليث تدل على التربيع أو التخميس أو التسديس... إلخ، وهو ظاهر الجمع، لما استطاعوا دفع ذلك على نحو مقبول؛ مما يبطل دعواهم ومزاعمهم في حصر دلالة الجمع على الثلاثة فقط. وحينئذ تتساوى الدلالات والاحتمالات مع عدم وجود مرجح أو قرينة تؤيد هذا دون ذاك، فتكون ضمائر الجمع الآنفة الذكر حينئذ قابلة لما سبق ذكره من التثليث أو التسبيع... إلخ، فيبطل وجه استشهادهم بضمائر الجمع على ألوهية المسيح فيما لو قلنا على سبيل الفرض إنها على ظاهرها، وهو الجمع.

٢ – لنفترض جدلاً أن ضمائر الجمع تدل على الثلاثة حصراً فما طبيعة هذا الجمع حينئذ؟ وما كنهه؟ وما معنى ذلك؟.

لو قال قائل: نحن فعلنا كذا وكذا. أليست الدلالة اللغوية حينئذ –بعد افتراضنا حصر الجمع في الثلاثة– هي أن هؤلاء الجماعة (الثلاثة) الذين يدل عليهم الضمير (نحن) هم ثلاث ذوات: المتكلم ومعه اثنان آخران غيره: أليسوا هم فلاناً بكل ما له من هيئة وخلقة، وصفات وشخصية... إلخ، وفلاناً بكل ما له من طول، وعرض، وصفات وملامح تختلف عن الأول... إلخ، وفلاناً الثالث المختلف في ذاته وملامحه... إلخ، عن الاثنين السابقين، مما يجعل الضمير يدل على ثلاث ذوات منفصل بعضها عن بعض؛ لذا يقول عبدالرحمن الجزيري: "لنفرض أن ذلك الضمير للجماعة بخصوصها فإنما يدل على جماعةٍ متعددةٍ متباينةٍ كما إذا قال شخص: قمنا أو قعدنا وكان معه غيره فإنه لا يفهم منه لغة إلا أن المتكلم معه زيد وعمرو وهما غيره، فمن أين يأتي هذا الاتحاد والتركيب المزجي؟"(١).

كما يقول ابن تيمية: "وقوله: «إنا نحن» لفظ يقع في جميع اللغات على من كان له شركاء وأمثال وعلى الواحد"(٢). ولذلك إن كان الضمير –فرضاً– دالاً على الثلاثة فإنه يعني–كما مر– ثلاث ذوات مختلفة إحداهن عن الأخريين. وهذا أمر يرفضه النصارى

(١) الجزيري: "أدلة اليقين" ص (٢٢٠، ٢٢١).

(٢) ابن تيمية: "الجواب الصحيح" ج ٣، ص (٤٤٨).

أنفسهم؛ إذ يتناقض مع ما يعتقدونه من أن إلههم ذات واحدة وليس ثلاث ذوات، وتفصيل اعتقادهم -كما هو معروف- ثلاثة أقانيم في ذات واحدة في مصادمة للعقل والمنطق لا يقبلها سليم عقل ألبتة، بينما ضمائر الجمع تدل على ثلاث ذوات متغايرة، وذلك بعد افتراضنا الحصر على الثلاثة.

وعليه ليس للنصارى مُتمسَّك في ضمائر الجمع إن دلت على ظاهرها؛ لأنها سوف تدل على اثنين فأكثر دون وجود مسوغٍ يحصر الدلالة في الثلاثة، وهذا كما مر آنفاً مسقط لدعواهم.

فإن حصرت فرضاً في ثلاثة دلت على ثلاث ذوات متباينة ومتغايرة، وهو كسابقه مسقط لدعواهم في محاولة إثبات التثليث من خلال الضمائر الآنفة الذكر، ومن ثم محاولة إثبات ألوهية عيسى عليه السلام من خلال القرآن الكريم؛ لأنه يدل على ثلاث ذوات متباينة.

فكيف إذا كانت هناك مسوغات بل آيات محكمة وحجج وبراهين قاطعة من القرآن والتوراة والأناجيل تجعل ضمائر الجمع -الآنفة الذكر- تدل بداهة على خروجها عن ظاهرها إلى ما يخالف الظاهر فتدل حينئذ على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- وأنه لا شريك له وأنه واحدٌ أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد، وأن عيسى عبد الله ورسوله، بشرٌ مخلوق من تراب مثله كمثل آدم -عليهما السلام- وليس إلهاً ولا ابن إله، وأنه سوف يموت... إلخ.

إن ذلك وحده كافٍ في إيضاح وجهة دلالة ضمائر الجمع الآنفة الذكر وأنها تدل على الوحدانية ليس إلا. فكيف إذا انضاف إلى ذلك أن من الأساليب العربية الفصيحة الشائعة في اللغة استخدام ضمائر الجمع للدلالة على غير الجمع ولا سيما المفرد؟ وهذا ما يدعو إلى دراسة الحالة الثانية تفصيلاً. وهي:

خروج ضمائر الجمع عن الظاهر (الجمع) إلى غيره ولا سيما المفرد:

وهنا موضوعان:

الأول: ما يقوله بعض علماء اللغة عن هذا الأسلوب والشواهد اللغوية المستخرجة من القرآن الكريم، والشعر الجاهلي.

الآخر: النصوص اللغوية التوراتية والإنجيلية في الموضوع نفسه.

أما عن الموضوع الأول فهناك نقاط عدة منها:

١- أن هذا أسلوب سائغ لغة يقول ابن قتيبة: "ومنه [أي من خروج ضمير الجمع عن ظاهره إلى ما يخالف الظاهر] أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع كقوله سبحانه ﴿ ... قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٩). وأكثر من يخاطب بهذا الملوك لأن مذاهبهم أن يقولوا: نحن فعلنا يقوله الواحد منهم يعني نفسه فخوطبوا بمثل ألفاظهم"[1].

---

(١) عبدالله بن مسلم ابن قتيبة "تأويل مشكل القرآن" شرح السيد أحمد صقر الطبعة الثالثة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٢٩٣.

كما يقول ابن فارس -رحمه الله-: "ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا لأن الرجل العظيم يقول: نحن فعلنا، فعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب"(١) . فهل هناك من هو أعظم من مالك الملك وأولى منه بمثل هذا الأسلوب؟.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: "إن ضمير الجمع يقع على من كان له شركاء وأمثال، وعلى الواحد المطاع العظيم الذي له أعوان يطيعونه وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالى خلق كل ما سواه فيمتنع أن يكون له شريك أو مثيل والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى... فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنا ونحن ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك فمالك الملك رب العالمين، ورب كل شيء ومليكه هو أحق بأن يقول: إنا ونحن مع أنه ليس له شريك، ولا مثيل بل له جنود السموات والأرض"(٢) .

٢- اللغة العربية مليئة بالشواهد على خروج ضمائر الجمع عن ظاهرها للدلالة على المفرد ومن ذلك ما في الشعر الجاهلي:

يقول امرؤ القيس -حين رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب الذي مات عنده-:

---

(١) أحمد بن فارس: "الصاحبي" تحقيق السيد أحمد صقر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ص (٣٥٣).

(٢) ابن تيمية: "الجواب الصحيح" ج ٣ ص (٤٤٨).

أجـارتنـا إِن الخطوب تنوب وإِنـي مقيـم مـا أقـام عسـيب
أجـارتنـا إِنَّا غـريبان ههنـا وكـل غـريـب للغـريـب نسـيب
فـإِن تَصِلينا فالقـرابة بيننـا وإِن تَصْـرمينـا فـالغـريب غـريـب
أجارتنا ما فات ليس يؤوب وما هو آتٍ في الـزمان قـريب(١)

ويقول عمرو بن كلثوم متغزلاً:
قفـي قبــل التفــرق يـاظعينـا نُخَبِّــرْك اليقــين وتُخْبــرينـــا
قفي نسألْك هل أحدثتِ صَرْما لوَشْك البين أم خنت الأمينا(٢)

ويقـول زهيـر بن أبي سلمى مـخـاطبـاً هرم بن سنان والحـارث بن عوف:
سألنا فأعطيتم وعُدْنا فعدتُـمُ ومَنْ أكثر التَّسْآل يوماً سيحرمِ(٣)

ويقول الحارث بن حلِّزة متغزلاً:
آذَنَتــنـــا ببَيْـنِهـا أسمــاء رب ثـاوٍ يُمَـلُّ منـه الثَّــواء(٤)

---

(١) "ديوان امرئ القيس" دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) ص (٧٩).
(٢) الحسين بن أحمـد الزوزني "شـرح المعلقـات العشـر" طبعة (١٩٨٣م) دار مكتبة الحياة، بيروت ص (٢٠٢).
(٣) المرجع السابق ص (١٥٥).
(٤) المرجع السابق ص (٢٦٣).

ويقول الجميح منقذ بن الطماح في زوجته:

أمست أمامة صمتاً ما تكلمنا	مجنونة أم أحسَّتْ أهل خَرُّوبي
فإن تقري بنا عيناً وتختفضي	فينا وتنتظري كرِّي وتغريبي[1]

فضمائر المتكلمين في: **أجارتنا، وتصلينا، وتصرمينا، ونخبرك، وتخبرينا، ونسألك، وسألنا، وعدنا، وآذنتنا**، كلها ضمائر جمع للمتكلمين قصد بها الواحد كما هو واضح من السياق.

٣- من الشواهد اللغوية في القرآن التي استخدمت فيها ضمائر الجمع للدلالة على غير الجمع مع أن الضمائر فيها تعود إلى غير الله سبحانه وتعالى ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٨). وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١). فالضمير في قوله: ﴿ لِحُكْمِهِمْ ﴾ ضمير جمع يدل على المثنى وليس على الثلاثة فأكثر ولا على الواحد، وكذلك ياء الجماعة في قوله: ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ ومثل ذلك قوله: ﴿ أَتَيْنَا ﴾. هذه بعض أمثلة استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى.

أما استخدام ضمائر الجمع في القرآن للدلالة على المفرد فمن شواهدها:

---

(١) المفضل بن محمد الضبي: "المفضليات" تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف بمصر، ص (٣٤، ٣٥).

قوله تعالى عن الخضر: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف: ٨٠، ٨١).

وقال تعالى: ﴿ ... قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (الكهف: ٨٦ – ٨٨). وقال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النمل: ١٦).

فالضمائر في: ﴿ فَخَشِينَآ ﴾، ﴿ فَأَرَدْنَآ ﴾، ﴿ نُعَذِّبُهُۥ ﴾، ﴿ وَسَنَقُولُ ﴾، ﴿ أَمْرِنَا ﴾، ﴿ عُلِّمْنَا ﴾، ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ ضمائر جمع تدل على واحد وليس على اثنين أو ثلاثة أو أكثر.

٤– من العجيب أن عبد المسيح الكندي نفسه استخدم ضمير الجمع للدلالة على المفرد على نفسه هو في عرض شبهته نفسها حيث قال: "... وشبيه بما ذكرنا..."(١) . وهذا في رسالته كثير فهل هو ثالث ثلاثة؟. وهكذا القسيس فندر حيث قال: "وإنما أوردنا ذلك إشعاراً بأننا لا نخطئ"(٢) . إن هذا دليل على أن هذا الأسلوب شائع مستخدم بكثرة ولا سيما في الكتب وعند الكتّاب، ويجري في سليقة العرب وسنن العربية قديماً وحديثاً، وليس فيه أدنى غرابة أو شبهة لكن النصارى قوم مُلبسون.

---

(١) انظر ص (١٥).

(٢) انظر ص (١٦).

أما الموضوع الآخر:

فهو نصوص لغوية من خلال التوراة والأناجيل تدل على المفرد أو المثنى وهي في صورة الجمع:

أولاً: شواهد توراتية: وهي إما أن تدل على المفرد أو على المثنى:

أ- شواهد تدل على المفرد منها:

١- جاء في سفر التكوين: "وقال الله: **نعمل** الإنسان على **صورتنا**"[١] .

٢- وجاء فيه: "وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ **منا**"[٢] .

٣- وجاء فيه: "هلم **ننزل ونبلبل** هناك لسانهم"[٣] .

فهذه ضمائر جمع تدل على المفرد. وعلى الرغم من أن النصارى قد يحرفونها كما حاولوا ذلك في القرآن إلا أن مما يوضح دلالتها على المفرد النصوص التوراتية التي تدل على الوحدانية -كما مر سابقاً[٤]- كما يؤيد ذلك أن اليهود الذين نزلت التوراة بلغتهم على مختلف عصورهم وتعدد أنبيائهم ما فهموا من ضمائر الجمع هذه إلا دلالتها على المفرد؛ إذ إن ذلك هو معتقد الدين اليهودي كما هو معروف.

---

(١) التكوين (١ : ٢٦).

(٢) التكوين (٣ : ٢٢).

(٣) التكوين (١١ : ٧).

(٤) انظر ص (٢٤).

٤- جاء في نشيد الإنشاد "ارجعي ارجعي ياشولميت ارجعي ارجعي فننظر إليك"(١) .

وسياق هذا النص تشبيب من حبيب بمحبوبته ودلالة هذا النص على الواحد واضحة جداً؛ إذ يقوله محب بزعمهم في محبوبته، وسياق هذا السفر كله غزلي.

ب - شواهد تدل على المثنى:

جاء في العهد القديم قوله: " تعال ياحبيبي **لنخرج** إلى الحقل **ولنبث** في القرى، **لنبكرن** إلى الكروم **لننظر** هل أزهر الكرم"(٢) .

وقوله: "اجذبني وراءك **فنجري**"(٣) فهذه ضمائر جمع أريد بها المثنى كما هو واضح من السياق.

ثانياً: شواهد إنجيلية:

من الشواهد الإنجيلية لاستخدام ضمائر المتكلمين التي تدل على الفرد، قول بولس: "كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو **فماذا نقول** ألعل عند الله ظلماً حاشا"(٤). ويقول أيضاً: "إذاً **نحسب** أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس... **أفنبطل** الناموس بالإيمان حاشا بل نثبت الناموس"(٥) . ويقول أيضاً: "**فماذا نقول** إن

---

(١) نشيد الإنشاد (٦ : ١٣).

(٢) نشيد الإنشاد (٧ : ١١).

(٣) نشيد الإنشاد (١ : ٤).

(٤) رومية (٩ : ١٣، ١٤).

(٥) رومية (٣ : ٢٨ - ٣١).

أبانا إبراهيم قد وجد حسب الجسد"[1] . ويقول: "**فماذا نقول** إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر الذي بالإيمان"[2] . بل قال بولس: "لذلك **أردنا** أن **نأتي** إليكم أنا بولس مرة ومرتين، وإنما **عاقنا** الشيطان"[3] .

فقوله: (**فماذا نقول**) و(**نحسب**) و(**أفنبطل**) و(**نثبت**) و(**أردنا**) و(**نأتي**) و(**عاقنا**) تشتمل على ضمائر جمع مستترة وجوباً أو ضمائر ظاهرة أسندت إلى أفعال، وهي تدل على مفرد هو بولس وحده، وليس ثلاثة هو ثالثهم.

وهكذا نرى أن من الأساليب المعهودة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن وترجمت إليها التوراة والإنجيل استخدام ضمائر الجمع للدلالة على المثنى أو على المفرد فقط، وقد استخدمت لتعود إلى غير الله، مما يبين فساد دعوى النصارى والمنصرين في أن ضمائر الجمع المسندة لله سبحانه وتعالى في القرآن تدل على ألوهية عيسى عليه السلام بزعم دلالتها على التثليث، وإنما هو أسلوب من أساليب التعظيم، أولى به الخالق سبحانه وتعالى من كل مخلوق، واستخدامه جرى على لسان العرب كثيراً حتى النصارى -كما مَرَّ- وهو إلى اليوم معهود غير مستغرب، سواء في مخاطبات الملوك أو غيرهم.

---

(١) المصدر نفسه (٤ : ١).

(٢) المصدر نفسه (٩ : ٣٠).

(٣) (١) تسالونيكي (٢ : ١٨).

المطلب الثاني: الرد على ادعاء المنصرين أن المسيح روح من الله- بجعل مِنْ للتبعيض- وكلمة الله التي تجسدت وصارت إنساناً:

يزعم المنصرون أن (الكلمة) هي عيسى -عليه السلام- وادعاؤهم هذا نابع من إسقاط اعتقاداتهم ومعانيهم الباطلة على الآيات التالية أو بعضها:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: ١٧١). وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم: ١٧). وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١). وقوله تعالى: ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم: ١٢). وقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٩). وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٥).

وادعاءات المنصرين هنا تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يتعلق بكون عيسى كلمة الله أوكلمة من الله.

والقسم الثاني: ما يتعلق بكون عيسى روحاً من الله أو روح الله.

أما القسم الأول ففيه نقاط عدة:

أ - زعم الكندي أن القرآن "صرح بأن المسيح كلمة الله تجسدت وصارت إنساناً"[1] . فهو يشير إلى معتقد النصارى المعروف، وهو أن عيسى هو الكلمة والكلمة هي الله، فعيسى هو الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وهذا صريح في إنجيل يوحنا كما مر سابقاً[2].

ونسبة هذا الكفر إلى القرآن بهتان عظيم وكذب صريح على القرآن المحفوظ كما أنزل، فليأت النصارى بنص يدل على هذا المعنى الباطل. إنما الذي في القرآن ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩)

فمن الواضح أن عيسى مخلوق ليس هو الكلمة (كن) وإنما بها كان وسمي بكلمة الله لأنه بها خُلق وليس له أب، وسوف يمر بنا هذا تفصيلاً[3].

ب - آية سورة النساء -السابق ذكرها (آية ١٧١)- تكفي وحدها للرد على ادعاءات النصارى واستنتاجاتهم المزعومة من خلال قوله تعالى: ﴿ ... وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ... ﴾ (النساء: ١٧١) أو ﴿ ... بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ... ﴾ (آل عمران: ٤٥) أو ما يشاكل ذلك من الآيات.

---

(١) انظر ص (١٦).

(٢) انظر ص (١٧).

(٣) انظر ص (٦٦).

فالآية تدل على أمور منها :

١- نهي النصارى عن الغلو في دينهم، وتحذيرهم بأن لا يقولوا على الله -سبحانه وتعالى- إلا الحق، ومن أول ذلك : عدم الغلو في المسيح، فهو ليس إلا رسول الله -سبحانه وتعالى- وعبداً من عبيده .

٢- نسبت الآية عيسى نسباً بشرياً بيناً إلى أمه مريم بنت عمران عليهما السلام .

٣- حذر الله النصارى عن أن يقولوا بالتثليث ومنه إدخال عيسى واحداً من الثلاثة المزعومين بوصفه أنه إله منهم .

٤- أوضحت الآية على سبيل الحصر أن الله -سبحانه وتعالى- ليس إلا إلهاً واحداً منزهاً عن أن يكون له ولد، وهذا يردُّ على ادعائهم أن عيسى ابن الله .

٥- هذه الآية حجة برهانية قاطعة تثبت بلغة الأرقام أن الله واحدٌ أحدٌ وحدانية لا يشوبها أدنى احتمال للشراكة معه، وذلك من خلال نفيها للثلاثة والتثليث وإثباتها في الوقت نفسه أن الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، وليس واحداً في ثلاثة أو ثلاثة في واحد، مع تحذير النصارى عن القول بالتثليث وتوعدهم على القول به .

٦- أبانت الآية أن عيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم، فما المقصود بأنه كلمة الله؟ أو كلمة منه؟ .

يقول الإمام أحمد -رحمه الله-: "المعنى في قوله جل ثناؤه: ﴿ ... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ... ﴾ (النساء: ١٧١). فالكلمة التي ألقاها إلى مريم: حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان. فالكن من الله قول، وليس الكن مخلوقاً. وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى... وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة"[1].

ويقول أبو عبيد القاسم بن سلام: "وأما المسيح فالمراد أن الله خلقه بكلمة لا أنه هو الكلمة لقوله: ﴿ ... أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ... ﴾ (النساء: ١٧١) ولم يقل ألقاه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾"[2] (آل عمران: ٥٩). وكذلك قال شاذان بن يحيى: "ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى"[3].

---

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: "الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله" ويليه "كتاب السنة" صححه وعلق عليه إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ص (٤٣).

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز وآخرين، دار المعرفة بيروت. ج (١٣)، ص (٤٩٨).

(٣) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٥٩٠).

كما يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ... ﴾ (النساء: ١٧١)، "أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل"(١) .

كما يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ... ﴾ (آل عمران: ٤٥). "أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله أي: يقول له كن فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿ ... مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾ (آل عمران: ٣٩) كما ذكر الجمهور"(٢). ويقول ابن جرير: "قال آخرون: بل هي [أي قوله كلمة منه] اسم لعيسى سماه الله بها، كما سمَّى سائر خلقه بما شاء من الأسماء"(٣) .

(١) المرجع السابق ج (١)، ص (٥٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٣٦٣).

(٣) محمد بن جرير الطبري: "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" دار الفكر (١٤٠٥هـ) ج (٣)، ص (٢٦٩).

ويروي بإسناده عن قتادة أنه قال: "قوله ﴿ ... بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ... ﴾ قال: قوله ﴿ ... كُن ... ﴾ فسماه الله عز وجل كلمته لأنه كان عن كلمته"[1] . وقال أبو عبيد: "كلمته: كن فكان"[2] .

وكلمة الله التي قيلت لعيسى في القرآن وسمي بها هي مضافة إلى الله سبحانه وتعالى. وقد قسم ابن تيمية رحمه الله المضاف إلى الله تعالى إلى قسمين: إضافة صفات وإضافة أعيان "فالصفات إذا أضيفت إليه تعالى كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك، دلت الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به، ليست مخلوقة؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها ولابد لها من موصوف تقوم به، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها، فيسمى المقدور قدرة والمخلوق بالكلمة كلاماً والمعلوم علماً والمرحوم به رحمة"[3] . فعيسى عليه السلام ليس هو عين الكلمة وإنما قيل له كلمة الله لأنه خلق بالكلمة، ولم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ ومخلوق عن الكلمة: كن.

ثم إن الإضافة من حيث اللغة "نسبة بين اسمين"[4]. ويشترط فيها أن "لايضاف الاسم إلى مرادفه فلا يقال: ليث أسدٍ"[5] .

---

(١) المرجع السابق ج (٣)، ص (٢٦٩).

(٢) صحيح البخاري ج (٤) كتاب (٥٤) باب (٤٦) حديث (١٠٩) ص (١٣٢).

(٣) ابن تيمية "الجواب الصحيح" ج (٢) ص (١٥٨).

(٤) مصطفى الغلاييني "جامع الدروس العربية" الطبعة الثامنة عشرة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ج (٣)، ص(٢٠٥).

(٥) المرجع السابق ج (٣)، ص (٢١١).

بينما يزعم النصارى أن عيسى هو الكلمة وأن الكلمة هي الله[1] مما يعني تبعاً لذلك أن اسم عيسى ولفظ الجلالة (الله) اسمان ومسميان مترادفان عند النصارى -والعياذ بالله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً مما يبطل هذه الإضافة لغة وعقلاً؛ لأنها حينئذ حسب اعتقاد النصارى تصبح مكونة من اسمين مترادفين، ولا تصح هذه الإضافة إلا إذا كانت تدل على اسمين وذاتين يختلف كل منهما عن الأخرى.

ثم من جهة أخرى فإن هذا التركيب المكون من المضاف والمضاف إليه يدل لغة على معنى يختلف عن المقصود بالمضاف إليه وحده فقط، أو بالمضاف فقط، فإذا قلنا: محمد رسول الله ﷺ فإن المراد بالتركيب الإضافي في هذه الجملة -وهو قولنا (رسول الله)- المكون من المضاف (رسول) ومن المضاف إليه لفظ الجلالة (الله) هو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ الإنسان المخلوق، أما المضاف إليه وحده فإنه لفظ الجلالة اسم الله سبحانه وتعالى، وشتان مابين الرسول المخلوق والمرسِل الخالق سبحانه وتعالى، فالمضاف إليه يدل على مسمى معين والتركيب من المضاف والمضاف إليه يدل على مسمى آخر مختلف كلياً عمايدل عليه المضاف إليه وحده.

وهذا يعني من حيث اللغة أن كلمة الله (المضاف والمضاف إليه) التي قيلت لعيسى والتي هي اسم له عليه السلام ليست هي المضاف إليه هنا وهو لفظ الجلالة (الله) فهذان اسمان يدلان على ذاتين

(١) انظر ص (١٦، ١٧).

وقد جاءت "من" لابتداء الغاية في القرآن كثيراً وفي كتبهم أيضاً وعلى نحو لا يصح أن تأتي للتبعيض في مثل قوله: "امتحنوا الأرواح هل هي من الله، نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا، ومن ليس من الله لا يسمع لنا، وكل من يحب فقد ولد من الله"[1].

ولكنهم يحاولون التلبيس على المسلمين لتحقيق أغراضهم ولو كانت حقيقة اعتقاداتهم تناقض دعاواهم وافتراءاتهم على كتاب الله.

أما عن القسم الثاني: وهو ما يتعلق بكون عيسى عليه السلام روحاً من الله أو روح الله:

فإن في ذلك أموراً عدة:

١- ما معنى قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؟

يقول الإمام أحمد: "وأما قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...﴾ (الجاثية: ١٣) يقول من أمره وتفسير روح الله، إنما معناه أنها روح بكلمة الله خلقها كما يقال: عبدالله وسماء الله وأرض الله"[2].

ويقول ابن جرير: "وأما قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معنى قوله "وروح منه" ونفخة منه؛ لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله لأنه بأمره كان"[3].

---

(١) (١ يوحنا ٤ : ١ - ٧).

(٢) ابن حنبل: "الرد على الجهمية" ص (٤٣).

(٣) تفسير ابن جرير ج (٦)، ص (٣٥، ٣٦).

ويقول ابن كثير في تفسير قوله: ﴿ ... وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ... ﴾ أي: عيسى "إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب يولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل"(١) .

٢- أن (مِنْ) في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لابتداء الغاية وليست للتبعيض يقول ابن كثير: "وليست من للتبعيض كما تقول النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ (الجاثية: ١٣). وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: رسول منه. وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله"(٢). ويقول الشنقيطي: "ولكن "مِنْ" هنا لابتداء الغاية يعني أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حياً من الله تعالى لأنه هو الذي أحياه به.

(١) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٥٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٥٩٠).

ويدل لما ذكرنا ما روي عن أُبَيّ بن كعب أنه قال: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم فكان منه عيسى عليه السلام"[1] .

ولو فرض أن (مِنْ) هنا للتبعيض لفسد المعنى نصرانياً كما سبق بيانه في قوله تعالى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ فلو قلنا على سبيل الفرض: وروح بعض منه باعتبار أن الروح هو عيسى عينه لكان المعنى فاسداً من وجوه، منها: أن عيسى يصبح جزءاً وبعضاً من الإله. والبعض ليس مساوياً للكل عقلاً، والنصارى يعتقدون أن المسيح (الابن) بزعمهم إله مساوٍ للأب في الجوهر وليس جزءاً منه، بل يعتقدون أن الكلمة كما مر آنفاً -وهي عيسى- هي الله فعيسى ليس بعضاً من الله سواء كان هو الروح أو هو الكلمة بحسب اعتقادهم. وهذا مبطل لكون (مِنْ) للتبعيض، فضلاً عما مر سابقاً من استخدام (مِنْ) لابتداء الغاية في كتبهم على نحوٍ يمنع من خلال السياق أن تكون للتبعيض وهو ما يماثل ما ههنا.

٣- وعلى كل حال إذا قيل لعيسى عليه السلام: كلمة الله أو كلمة منه أو روح الله أو روح منه فإنه لا يغير من حقيقته البشرية شيئاً لما مر

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي: "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" طبع على نفقة سمو الأمير أحمد بن عبد العزيز (عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ج (١)، ص (٤٩٤، ٤٩٥).

من الآيات المحكمة القاطعة في القرآن[1] والنصوص الكثيرة في الأناجيل[2] الدالة على أن عيسى عليه السلام بشر مخلوق من تراب تطرأ عليه عوارض الحدوث والتغير من حال إلى حال، بل من حال الضعف في الطفولة إلى حال القوة في الكهولة ثم الموت بعد ذلك -في آخر الزمان- إلى غير ذلك من أمور.

لكن الذين في قلوبهم مرض وزيغ يغمضون أعينهم عما عظم من المتشابه عندهم كتسمية موسى إلهاً بنص التوراة الحالية[3]، ويأخذون من القرآن "بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ (آل عمران: ٧)، أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ... ﴾ (الزخرف: ٥٩) وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). وغير ذلك من الآيات المحكمة

---

(١) انظر ص (٣٧).

(٢) انظر ص (٣٩).

(٣) جاء في التوراة الحالية فيما نسب إلى الله مخاطباً موسى أنه قال له: "وأنت تكون له [لهارون] إلهاً" الخروج [٤ : ١٦] وجاء قوله: "أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك" [الخروج (٧ : ١)].

المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله[1].

٤- أما قوله تعالى: ﴿ رُوحَنَا ﴾ في مثل قوله: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ... ﴾ (مريم: ١٧).

فيقول ابن كثير "يعني جبرائيل عليه السلام"[2]. وكذلك روح القدس في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ... ﴾ (النحل: ١٠٢). يذكر ابن كثير أنه جبريل[3].

ويقول ابن تيمية: "إن المضاف في الثاني [أي القسم الثاني][4] من أقسام المضاف إلى الله مملوك لله مخلوق له بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصَّه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى، كما خص ناقة صالح من بين النوق، وكما خص بيته بمكة من بين البيوت، وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ... ﴾ (مريم: ١٧)، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشراً سوياً وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقياً، وأنه قال: ﴿ ... إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ... ﴾ (مريم: ١٩). وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها[5]. كما يقول رحمه الله عن الموضوع

---

(١) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٣٤٥).

(٢) المرجع السابق ج (٢)، ص (١١٥).

(٣) تفسير ابن كثير ج (٢)، ص (٥٨٦).

(٤) انظر كلامه على القسم الأول ص (٦٨).

(٥) الجواب الصحيح ج (٢)، ص (١٥٦، ١٥٧).

من الآيات المحكمة القاطعة في القرآن[1] والنصوص الكثيرة في الأناجيل[2] الدالة على أن عيسى عليه السلام بشر مخلوق من تراب تطرأ عليه عوارض الحدوث والتغير من حال إلى حال، بل من حال الضعف في الطفولة إلى حال القوة في الكهولة ثم الموت بعد ذلك -في آخر الزمان- إلى غير ذلك من أمور.

لكن الذين في قلوبهم مرض وزيغ يغمضون أعينهم عما عظم من المتشابه عندهم كتسمية موسى إلهاً بنص التوراة الحالية[3]، ويأخذون من القرآن "بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دافع لهم وحجة عليهم ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ (آل عمران: ٧)، أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ... ﴾ (الزخرف: ٥٩) وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩). وغير ذلك من الآيات المحكمة

---

(١) انظر ص (٣٧).

(٢) انظر ص (٣٩).

(٣) جاء في التوراة الحالية فيما نسب إلى الله مخاطباً موسى أنه قال له: "وأنت تكون له [لهارون] إلهاً" الخروج [٤ : ١٦] وجاء قوله: "أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك" [الخروج (٧ : ١)].

المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله وعبد ورسول من رسل الله[1].

٤- أما قوله تعالى: ﴿ رُوحَنَا ﴾ في مثل قوله: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ... ﴾ (مريم: ١٧).

فيقول ابن كثير "يعني جبرائيل عليه السلام"[2] . وكذلك روح القدس في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (النحل: ١٠٢). يذكر ابن كثير أنه جبريل[3].

ويقول ابن تيمية: "إن المضاف في الثاني [أي القسم الثاني][4] من أقسام المضاف إلى الله مملوك لله مخلوق له بائن عنه، لكنه مفضل مشرف لما خصَّه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى، كما خص ناقة صالح من بين النوق، وكما خص بيته بمكة من بين البيوت، وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق. ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ... ﴾ (مريم: ١٧)، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشراً سوياً وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقياً، وأنه قال: ﴿ ... إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ... ﴾ (مريم: ١٩). وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها[5]. كما يقول رحمه الله عن الموضوع

(١) تفسير ابن كثير ج (١)، ص (٣٤٥).

(٢) المرجع السابق ج (٢)، ص (١١٥).

(٣) تفسير ابن كثير ج (٢)، ص (٥٨٦).

(٤) انظر كلامه على القسم الأول ص (٦٨).

(٥) الجواب الصحيح ج (٢)، ص (١٥٦، ١٥٧).

نفسه: "فأخبر هذا الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً أنه رسول ربها، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء: إنه جبريل عليه السلام، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس وسماه جبريل"[1] .

وهذا يوضح أنه ليس لهم أدنى شبهة في هذا؛ إذ المقصود بالروح القدس (وروحنا): جبريل عليه السلام وليس المسيح، بل إن البعض جعل معنى الروح في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أيضاً جبريل عليه السلام يقول ابن جرير: "وقال آخرون معنى الروح ههنا: جبريل عليه السلام. قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم وألقاها أيضاً إليها روح من الله. قالوا: فالروح معطوف به على ما في قوله: "ألقاها" من ذكر الله بمعنى أن إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله ثم من جبريل عليه السلام"[2] .

٥- الروح أو الروح القدس أو روح الله عند النصارى هو الأقنوم الثالث في ثالوثهم الوثني[3] وهذا مبطل لادعاء النصارى على القرآن فيما يتعلق بقوله: وروح منه أو روحنا من أساسه؛ لأن القرآن قال عن عيسى عليه السلام إنه روح من الله سبحانه وتعالى أو سمّاه بذلك،

(١) المرجع السابق ج (١)، ص (٢٤٠).

(٢) تفسير ابن جرير ج (٦)، ص (٢٣٦).

(٣) انظر: "القاموس الموجز للكتاب المقدس" ج (١)، ص (٣٠٤، ٣٠٥).

بينما المسيح عند النصارى هو الابن أو "الأقنوم الثاني" بزعمهم وليس هو روح الله؛ لأن روح الله، أو الروح، أو الروح القدس عندهم ليس عيسى عليه السلام وإنما هو الأقنوم الثالث ولكل أقنوم بحسب اعتقاداتهم وظائف وأعمال ومهمات لا يقوم بها الأقنوم الآخر، فجعلهما أقنوماً واحداً لا شك أنه مبطل للتثليث النصراني جملة وتفصيلاً.

وقد جاء في الأناجيل ما يوضح أن عيسى عليه السلام كان يخرج الشياطين بروح الله مما يعني أن عيسى شيء والمقصود بروح الله شيء آخر؛ إذ ينسب إلى عيسى قوله: "ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله"[١] . وفي نص آخر يقول: "وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ومن قال كلمة على ابن الإنسان [أي عيسى عليه السلام بزعم النصارى] يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي"[٢] وفي نص آخر: "لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس"[٣] وفي غيره: "فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه"[٤] .

---

(١) متى (١٢ : ٢٨).

(٢) متى (١٢ : ١٣ – ٣٢).

(٣) متى (١ : ٢٠).

(٤) متى (٣ : ١٦).

فروح الله أو الروح أو الروح القدس الواردة في النصوص السابقة لا شك أن المقصود بها غير عيسى، والمقصود بذلك عند النصارى الأقنوم الثالث (الروح القدس). والذي هو غير عيسى مما يبطل كل شبههم التي يحاولون من خلالها تأليه عيسى استناداً إلى كتاب الله القرآن العظيم منطلقين من إنزال بعض معتقداتهم الفاسدة على قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أو ﴿رُوحَنَا﴾ ومخفين بعضاً.

والعجيب أن في الأناجيل ما يدل على أن المقصود بالروح أو الروح القدس أو روح الله إنما هو الملك جبريل عليه السلام، وليس ما افتروه من أقنوم ثالث أو رابع، فإنجيل لوقا يوضح ويشرح النص الآنف الذكر وهو: "لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس" فيبين لمن يعقل أن هذا الروح القدس إنما هو جبريل عليه السلام حيث يقول في قصة حمل مريم بعيسى: "وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء..."[1] ويقص قصة حمل مريم عليها السلام بعيسى إلى آخرها.

فالمنصرون والنصارى يكيلون بمكيالين وينظرون بمنظارين، فاعتقاداتهم المعتمدة لديهم تبطل أن يكون الروح أو روح الله أو الروح القدس -وهو الأقنوم الثالث- هو المسيح؛ لأنه عندهم الابن وهو الأقنوم الثاني بزعمهم، لكنهم إذا جاؤوا للقرآن أخفوا معتقداتهم هذه

(١) لوقا (١ : ٢٦ – ٣٨).

–تلبيساً على المسلمين– وزعموا أن القرآن يدل على ألوهية عيسى استنتاجاً بزعمهم من أنه قال عنه أو جعله روح الله أو روحاً منه، وهو عين ما ترفضه معتقداتهم –كما مر آنفاً– لأن جمعهما في أقنوم واحد مبطل حسب اعتقاداتهم لأقانيم النصارى وتثليثهم من أصوله، وهو تناقض بيِّن بين ما يدَّعونه على القرآن وما يعتقدونه، فهم يسيرون وفق مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة.

المطلب الثالث: الرد على ادعاء المنصرين: أن المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام والتي ذكرت في القرآن ولا سيما إحياء الموتى تدل على ألوهية المسيح عليه السلام:

والمعجزات التي ذكرت في القرآن هي:

١- كلام عيسى عليه السلام في المهد بإذن الله[١].

٢- خلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله[٢].

٣- إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله[٣].

٤- إحياء الموتى بإذن الله[٤].

٥- إنباؤه لبني إسرائيل بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم بإعلام الله له بذلك[٥].

٦- المائدة التي أنزلها الله -سبحانه وتعالى- على عيسى وحوارييه[٦].

ولإيضاح الرد على المنصرين قسم هذا المطلب إلى الموضوعين التاليين:

---

(١) انظر سورة آل عمران آية (٤٦).

(٢) انظر سورة آل عمران آية (٤٩).

(٣) انظر سورة آل عمران آية (٤٩).

(٤) انظر سورة آل عمران آية (٤٩).

(٥) انظر سورة آل عمران آية (٤٩).

(٦) انظر سورة المائدة آية (١١٢ - ١١٥).

الموضوع الأول: معجزات كمعجزات عيسى وذلك من خلال القرآن.

والموضوع الثاني: معجزات كمعجزات عيسى من خلال التوراة والأناجيل.

أما الموضوع الأول فهو:

معجزات كمعجزات عيسى من خلال القرآن:

فقد مر آنفاً بيان المعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السلام والتي ذكرت في القرآن الكريم. ومعلوم أن بعض هذه المعجزات لم يرد فيها شيء ألبتة في الأناجيل الحالية، ولا يعلم النصارى عنها شيئاً -فيما اطلع عليه الباحث- من خلال الأناجيل إلا ما اطلعوا عليه من خلال القرآن الكريم، وذلك مثل: كلام عيسى في المهد وكهلاً. ومثل: خلقه من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله. ومثل: إنبائه لهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم[1]. وإن كان قد ورد أنه أنبأهم ببعض الأمور المستقبلية كتهدم الهيكل مثلاً[2].

وهذا يدل على جهل النصارى بكثير من أحوال عيسى عليه السلام سواء معجزاته -كما مر- أو حياته قبل الثلاثين من عمره أو غير ذلك

(١) انظر: علي الحربي: "نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس"، ص (٢٣، ٢٤).

(٢) انظر ص (٣٣).

حيث "لا نجد ذكراً لعيسى عليه السلام [في الأناجيل] إلا حينما كان طفلاً لا يتجاوز عمره ثمانية أيام –أي حينما ختن– ثم لا تدلك الأناجيل على شيء من حياته عليه السلام حتى يبلغ اثنتي عشرة سنة، فتذكر أنه (لما كانت له اثنتا عشرة سنة صعد إلى أورشليم كعادة العيد) ثم لا تتكلم الأناجيل عن شيء من أحوال عيسى عليه السلام حتى يبلغ الثلاثين من عمره فتذكر أنه بعث آنذاك"[1] كما ذكرت الأناجيل أنه ذهب إلى مصر وهو صبي هو وأمه مع يوسف النجار[2] –والله أعلم بذلك– إضافة إلى ما زعمت الأناجيل أنه نسب للمسيح عليه السلام ذلك النسب المضطرب اضطراباً كبيراً كما هو معروف[3].

لعل هذا –فيما اطلع عليه الباحث– هو أغلب ما يعرفه النصارى من تاريخ عيسى عليه السلام إلى مبعثه انطلاقاً من الأناجيل الحالية؛ ولذا فإن القرآن الكريم ﴿ ... يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ (النمل: ٧٦).

لهذا كله سوف يُقتصر في الرد عليهم من خلال القرآن على أهم المعجزات التي بنى بعض النصارى والمنصرين عليها دعوى ألوهية المسيح عليه السلام، ولا سيما إحياء الموتى والإخبار بالغيب.

---

(١) علي الحربي: "نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس"، ص (٣٣).

(٢) متى (٢ : ١٣ – ١٥).

(٣) انظر متى (١ : ١ – ١٧) ولوقا (٣ : ٢٣ – ٣٨).

وقبل الدخول في هذا الموضوع لابد من بيان ما يأتي:

١- أن هذه المعجزات بإذن الله كما قال جل وعلا على نحو عام: ﴿ ... وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ (الرعد: ٣٨).

وكما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧).

وكما قال تعالى على نحو خاص في عيسى عليه السلام: ﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ... ﴾ (المائدة: ١١٠). وقوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ (آل عمران: ٤٩).

فكما هو صريح في هذه الآيات فإن المعجزات المذكورة كلها بإذن الله تعالى، وهي آية لبني إسرائيل ليؤمنوا برسالة عيسى عليه السلام وليتقوا الله ويطيعوه فيما أرسله الله به.

٢- لو انفرد عيسى عليه السلام -على سبيل الفرض- بهذه المعجزات لما كان ذلك دليلاً على ألوهيته؛ لأنه أوتيها بإذن الله تعالى كما مر آنفاً. فكيف وقد شاركه غيره من الرسل والأنبياء في أنواع المعجزات التي أنعم الله بها عليه؟ إضافة إلى من ليس بنبي ولا رسول، وإن من أول ما شورك به إحياء الموتى، بل سوف يقوم بإحياء ميت بإذن الله فتنة للناس وابتلاء لهم إنسان كافر كفراً بواحاً ألا وهو المسيح

الدجال[1]. وهذه الأمور كلها تقطع بأن المعجزات التي جاء بها المسيح عليه السلام ليست دليلاً على الألوهية ألبتة.

وسوف ندرس موضوع إحياء الموتى أولاً ثم الإخبار بالغيب.

أولاً: إحياء الموتى:

ذكر القرآن الكريم معجزات عدة لإحياء الموتى إنعاماً من الله على بعض رسله وإجابة لدعواتهم وتأييداً لهم وتحدياً لأعدائهم من ذلك:

١- أَخْذ إبراهيم عليه السلام للطيور الأربعة بأمر الله له بعد دعائه الله أن يريه كيف يحيي الموتى وتمزيقه لهن وتفريقه لأجزائهن على كل جبل منهن جزءا، ثم دعوته لهن أن يأتينه، فأتينه سعياً، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

فهل حدوث هذه المعجزة على يد إبراهيم عليه السلام الذي هو أب لعيسى -من خلال القرآن ومن خلال الأناجيل- مسوغ لاتخاذ إبراهيم إلهاً؟

---

(١) انظر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق عليه الذي يقتل فيه الدجال شاباً ثم يحييه بإذن الله، البخاري كتاب (٨٥) باب (٢٨) حديث (٨٥). ج (٩)، ص (١٠٩) حديث رقم (٥٧)، ومسلم بن الحجاج القشيري: "صحيح مسلم" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار إحياء التراث العربي كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال ج (٤)، ص (٢٢٥٦) حديث رقم (٢٩٣٨) وحديث النواس بن سمعان عند مسلم ج (٤)، ص (٢٢٥٠ - ٢٢٥٥) حديث رقم (٢٩٣٧).

٢- إلقاء موسى لعصاه الجماد التي لا روح فيها، ثم تحولها إلى ثعبان عظيم عند فرعون والملأ من قومه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٠٤ - ١٠٧). وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الأعراف: ١١٧).

فهذه معجزة عظيمة أنعم الله بها على موسى عليه السلام إذ أحيا الله هذه القطعة الصغيرة من الخشب الجماد التي لا حياة فيها، وجعلها حية عظيمة تسعى وتبتلع بفيها ما وضعه السحرة من عصي وحبال ... إلخ.

٣- إحياء الميت الذي قُتل في بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام بإذن الله بعد أمر الله لهم أن يضربوا الميت ببعض البقرة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن[١]. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٧٢، ٧٣).

فهؤلاء الذين ضربوا الميت ببعض لحم البقرة فقام حياً بإذن الله ليسوا من الرسل -على ما يظهر- وعلى الرغم من هذا حدثت على أيديهم هذه المعجزة بإذن الله، فهل كان هذا مدعاة لتأليه أحد منهم؟ أو تأليه موسى عليه السلام؟

---

(١) سورة البقرة الآيات (٦٧ - ٧١).

إن النصارى زعموا أن علة تأليه عيسى عليه السلام هي إحياؤه للموتى[1] ولو فرض أنها علة لتأليه أحد ما من البشر، لكان العقل موجباً أن يؤله كل من اشترك في هذه العلة فقام بمثل هذه المعجزات أو الأمور الخارقة للعادة. وقد شارك عيسى غيره في معجزة الإحياء كما مر آنفاً، مما يبطل ادعاء النصارى في تأليه عيسى عليه السلام لإحيائه الموتى على نحو عام ويبطل نسبة هذا التأليه إلى القرآن على نحو خاص؛ لأن القرآن أوضح أن كل ذلك بإذن الله، وأن هناك من أنعم الله عليه بمثل معجزات عيسى عليه السلام في إحياء الموتى، ولم يجعل ذلك منهم آلهة.

ثانياً: الإخبار بالغيب:

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم عن بعض من أنعم عليهم باطلاعهم -من لدنه- على بعض الغيوب من ذلك:

أ- ما أنزل على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه من الغيوب سواء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، وهو شيء كثير لا يتسع المقام لذكره، مثل الإخبار عن الأقوام السابقين له صلوات الله وسلامه عليه وعن رسلهم وما جرى لهم مع أقوامهم، ومثل الإخبار عن قصة سليمان والهدهد وملكة سبأ، إلى غير ذلك من أمور غيبية ماضية بل وأمور غيبية مستقبلية[2].

---

(١) انظر ص (١٣).

(٢) انظر رحمت الله الهندي "إظهار الحق" ج (٢)، ص (٨١) فما بعد، وعبد العزيز السلمان "من معجزات النبي ﷺ" الطبعة الثانية والعشرون (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ومحمود مهدي الاستانبولي "إعجاز القرآن العلمي" الطبعة الثانية، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة.

ولما كانت الدعوى (دعوى الألوهية وما يرتبط بها) مدعاة من النصارى والمنصرين على القرآن، ولأن بعض أهل الكتاب كما يقول ابن تيمية: يقول "لا نصدق إلا بما في القرآن"[1] ، أي من معجزات الرسول ﷺ[2] فإنه يحسن ذكر بعض ما أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله ﷺ في القرآن من الأخبار الغيبية ولا سيما بعض ما يرتبط بعيسى عليه السلام وأمه مما انفرد به القرآن الكريم ومن ذلك:

١- أن مريم حملت بعيسى عليه السلام ﴿ . . . فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ (مريم: ٢٢ – ٢٥).

٢- أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد و﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ (مريم: ٣٠ – ٣٣).

٣- أن عيسى عليه السلام خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فصار طيراً بإذن الله[3].

---

(١) ابن تيمية "الجواب الصحيح" ج (٦)، ص (٦٨).

(٢) لا شك أن هذا من باب الجدل فقط وعلى زعم محاولة إلزام المسلم من خلال مسلماته، فيما يعتقدون أنه حجة لهم مثل: "معجزات عيسى عليه السلام" أو غيرها.

(٣) انظر ص (٨١).

٤– أن عيسى عليه السلام كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم[١].

كل هذه الأخبار الغيبية لا يعلمها حتى النصارى أنفسهم وفق أناجيلهم الحالية، كما مر[٢]. فإنما أنزلها الله على يد عبده ورسوله محمد ﷺ في القرآن.

ب – ما جاء في القرآن من إخبار نبي من أنبياء بني إسرائيل لهم عن آية ملك طالوت عليهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨). فهذا نبي من بني إسرائيل يخبرهم عن أمور غيبية مستقبلية لم تحدث بعد آنذاك فما جعل ذلك منه إلهاً.

ج – ما أعطاه الله سبحانه وتعالى للخضر من العلم الغيبي الذي لم يُعطَه رسول من أولي العزم من الرسل وهو موسى صلوات الله وسلامه عليهم، فإن الخضر خرق سفينة المساكين الذين يعملون في البحر حفاظاً عليها؛ لأن الله أعلمه أن وراءهم ملكاً يأخذ كل سفينة غصباً، وقتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً، وأقام الجدار الذي كان يريد أن ينقضَّ، إذ كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة منه[٣].

---

(١) انظر سورة آل عمران (٤٩).

(٢) انظر ص (٨٢).

(٣) انظر سورة الكهف الآيات (٦٠ – ٨٢).

كل ذلك من الإنباء بالغيب الذي منحه الله تعالى للخضر مما لم أطلع على أن عيسى عليه السلام أعطي مثله لا في القرآن ولا في الأناجيل.

هذا فيما يتعلق بمعجزات مشابهة لمعجزات عيسى عليه السلام من خلال القرآن.

فماذا عن المعجزات المشابهة من خلال التوراة والأناجيل؟ هذا هو الموضوع التالي.

الموضوع الثاني:

معجزات كمعجزات عيسى عليه السلام من خلال التوراة والأناجيل:

إن المعجزات التي أنعم الله بها على عبده ورسوله عيسى عليه السلام تأييداً له وتصديقاً لرسالته ونبوته ليست بدعاً من المعجزات. فقد جاء في التوراة والأناجيل معجزات كمعجزات المسيح عليه السلام ولا سيما إحياء الموتى.

وقبل الخوض في ذكر ذلك لابد من الإشارة إلى أن معجزات المسيح عليه السلام التي وردت في الأناجيل إنما هي -بنص الأناجيل- بإذن الله تعالى يدل على ذلك من الأناجيل ما يلي:

١- قوله: "فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينه إلى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا أعلم أنك في كل حين تسمع لي ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك

أرسلتني. ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لِعَازَر هلم خارجاً فخرج الميت..."(١) فانظر كيف رفع عيسى بصره إلى السماء ودعا الله ومجَّده، وأوضح النص أن هذه المعجزة إنما هي من أجل أن يُصدقوا به رسولاً من عند الله، وقد استجاب الله دعاءه فخرج الميت حياً بإذن الله.

٢- قوله: "فأجاب يسوع وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الأب"(٢) . وينسب إلى عيسى عليه السلام أنه قال: "والآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك"(٣) . فكل ما أوتيه المسيح عليه السلام من إحياء للموتى، ومن إنباء بالغيب إلى غير ذلك من معجزات إنما هو بنص أقوال المسيح عليه السلام من عند الله وبإذن الله سبحانه وتعالى. وهذا مثبت أنه ليس له من الأمر شيء ومبطل لدعوى ألوهية المسيح من خلال الأناجيل، كما بطلت هذه الدعوى قبل من خلال القرآن.

٣- جاء في نص آخر: "فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي لكن الآن أعلم أن كل ما تطلبه من الله يعطيك إياه(٤)" . فهذه المرأة تعلم أن الأمر ليس بيده وإنما إذا دعا الله أعطاه الله سؤله، فإحياء الموتى الذي حدث على يد المسيح إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يوحنا (١١ : ٤١ - ٤٣).

(٢) يوحنا (٥ : ١٩).

(٣) يوحنا (١٧ : ٧).

(٤) يوحنا (١١ : ٢١، ٢٢).

٤- وفي نص آخر: "أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل [!] قد تبرهن لكم **من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم تعلمون**"(١). فالأمر بدهي عند المؤمنين بعيسى آنذاك من بني إسرائيل: أن المعجزات التي جاء بها إنما أوجدها وصنعها الله وليس عيسى عليه السلام، وإنما حصلت على يد عيسى فهي من (قبل الله) أو من عند الله وبإذن الله وأوجدها الله سبحانه وتعالى وما عيسى إلا (رجل) أو عبد من عبيد الله ورسول من رسله، ثبت صدقه بما أنزله الله على يديه من المعجزات (القوات والعجائب).

ولذا على الرغم من إحياء عيسى للموتى بإذن الله، لم يجعل ذلك منه عند الجموع التي قام بالمعجزات في وسطها إلا أنه نبي فقط فلم يتجاوزوا به طور البشرية. جاء في الأناجيل: "فقال [أي عيسى]: أيها الشاب لك أقول قم. فجلس الميت وابتدأ يتكلم، فدفعه إلى أمه فأخذ الجمع خوف، ومجَّدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه"(٢).

وفي النص الذي قبل هذا قالوا عن عيسى إنه (رجل تبرهن لكم من قبل الله)، ولم يقولوا: إله، أو ابن إله. وهذا مما يوضح حقيقة عيسى وأنه عند بني إسرائيل الذين أرسل إليهم وآمنوا به، إنما هو رسول نبي وعبد من عباد الله؛ لأن المعجزات التي جاء بها إنما كانت بإذن الله سبحانه وتعالى ومن عنده وليست من عند المسيح ابتداءً.

---

(١) أعمال الرسل (٢ : ٢٢)، وانظر: أعمال الرسل (١٠ : ٣٨).

(٢) لوقا (٧ : ١٤ - ١٦).

وقد جاء في الأناجيل أن عيسى قال للحواريين: "اشفوا مرضى طهروا برصاً أقيموا موتى أخرجوا شياطين مجاناً"(١) . وهذا دليل على أن إحياء الموتى ليس علة ولا مبرراً لتأليه أحد من البشر مما يسقط دعوى النصارى في ألوهية عيسى استناداً إلى إحيائه للموتى. فعلى فرض صحة هذا النص وافتراض تحققه من قبل الحواريين يوضح بجلاء أن إحياءهم للموتى لم ولن يجعل منهم آلهة، وليس هذا مسوغاً لتأليه أحد من البشر. فإن زعم النصارى أن ذلك بسلطة أو بإذن من الله سبحانه وتعالى فإن هذا الكلام هو عين الرد عليهم في حالة إحياء عيسى للموتى إذ أحيا عيسى الموتى بإذن الله، كما أوضحت ذلك آيات القرآن ونصوص الأناجيل الآنفة الذكر.

هذا فيما يتعلق بكون معجزات عيسى عليه السلام بإذن الله سبحانه وتعالى كما تدل عليه الأناجيل، فما المعجزات التي تشبه معجزات عيسى عليه السلام؟

إن من المعجزات التي كمعجزات عيسى من خلال التوراة والأناجيل ما يلي:

أولاً- إحياء الموتى:

جاء في سفر الملوك الأول: "... قال [إيليا]: يارب إليه لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش... وقال إيليا [لأم الولد] انظري ابنك حي فقالت

(١) متى (١٠ : ٨).

المرأة لإيليا هذا الوقت: علمت أنك رجل الله، وأن كلام الرب في فمك حق"[١] . فأقصى ما قالته المرأة لإيليا بعد أن أحيا الله على يديه ابنها "إنك رجل الله" أي نبي الله. ولم تغل فيه فتقول له: إنك إله.

كما جاء في التوراة قوله: "ودخل أَليشَع البيت وإذا بالصبي ميت ومضطجع على سريره فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب... فعطس الصبي سبع مرات، ثم فتح الصبي عينيه ... فدعاها [أي أم الصبي] ولما دخلت إليه قال احملي ابنك"[٢]. فما اتخذ اليسع إلهاً لذلك الإحياء الذي هو بإذن الله وهو كمعجزات عيسى عليه السلام.

كما جاء فيها قوله: "ومات أَليشَع فدفنوه وكان غزاة موآب تدخل على الأرض عند دخول السنة وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قد رأوا الغزاة فطرحوا الرجل في قبر أَليشع فلما نزل الرجل ومس عظام أليشع عاش وقام على رجليه[٣]" فأَليشَع فيما تروي التوراة حتى وهو ميت تحيي عظامه بإذن الله ميتاً.

وجاء عن حزقيال أنه أحيا جيشاً عظيماً جداً جداً بإذن الله كانت عظام أفراده رميماً[٤].

---

(١) (١٧ : ٢١ – ٢٤).

(٢) الملوك الثاني (٤ : ٣٢ – ٣٦).

(٣) الملوك الثاني (١٣ : ٢٠ – ٢١).

(٤) حزقيال (٣٧ : ١ – ١٠).

فهؤلاء أحيوا بإذن الله أمواتاً وبعضهم أحيا جيشاً عظيماً من الأموات فلِمَ لم يكونوا آلهة مثل عيسى تدرجاً مع زعم النصارى؟ علماً أن العلة التي ادعاها النصارى والمنصرون لتأليه عيسى هي إحياء الموتى، وهؤلاء اشتركوا مع عيسى عليه السلام في العلة نفسها وقاموا بالأفعال أو المعجزات نفسها؛ مما يوجب على النصارى -عقلاً- الاشتراك مع عيسى في النتيجة نفسها وهي الألوهية، فعدم تأليه النصارى لمن شارك عيسى -عليه السلام- في الفعل والعلة (المقدمة الصغرى والكبرى) مكابرة ومعاندة يرفضها العقل، فهي من باب التفريق بين المتماثلات والمتطابقات؛ لأن تطابق المقدمات مفضٍ لتطابق النتائج.

ومنطقياً كل من شارك عيسى عليه السلام بإحياء الموتى فهو إله كعيسى بجامع إحياء الموتى، وتأليه هؤلاء البشر نتيجة كاذبة يكذبها النصارى قبل غيرهم. ولما كانت النتائج كاذبة والمقدمات (الصغرى) مسلمة -ولا سيما المقبول منها عند المسلمين والنصارى- ثبت عقلاً أن العلة -أو المقدمة الكبرى في قياس الشمول- هي سبب بطلان النتائج وكذبها. وهذا ما تدل عليه آيات القرآن ونصوص التوراة والأناجيل من أن حصول معجزة إحياء الموتى على يد أحد من البشر وإن كان نبياً أو صالحاً ليس دليلاً على ألوهيته، مما يسقط دعوى النصارى في تأليه عيسى لأنه أحيا موتى؛ إذ تبين أن هذا ليس علة للألوهية، حيث قام بهذا الإحياء مَنْ ليس بإله من الرسل والأنبياء بإذن الله بل ومن ليس من الأنبياء أو الرسل.

ثم كيف وقد نص القرآن قبل هذا وورد في الأناجيل فيما يختص بعيسى أن معجزاته كانت بإذن الله سبحانه وتعالى[1] خالق عيسى وإلهه وإله الخلق أجمعين، كما مر[2] من الآيات والنصوص الدالة على بشرية عيسى وعبوديته الشيء الكثير. إن هذا كما أنه نافٍ لألوهية عيسى مبين لكذب دعواهم على القرآن أنه قد يلمح إلى ألوهية المسيح، فضلاً عن أن يؤيدها.

ثانياً: الإخبار بالغيب:

من أمثلة ذلك ما جاء في العهد الجديد وهو قول بولس: "والآن أنذركم أن تسيروا لأنه لا تكون خسارة نفس واحدة منكم إلا السفينة لأنه وقف بي هذه الليلة ملاك الإله الذي أنا له والذي أنا أعبده قائلاً: لا تخف يا بولس ينبغي لك أن تقف أمام قيصر، وهو ذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك"[3].

وفي العهد القديم أخبر صموئيل شاول أخباراً مستقبلية متعددة مما كان سيمر بها شاول إلى أن ينتهي الأمر بنبوة شاول[4].

---

(١) انظر ص (٨٤).

(٢) انظر ص (٣٧).

(٣) أعمال الرسل (٢٧ : ٢٢ – ٢٤).

(٤) انظر: صموئيل الأول (١٠ : ١ – ١٠).

والإخبار بالنبوءات المستقبلية من الأنبياء السابقين كثيرة في العهدين القديم والجديد ولا سيما في العهد القديم، وهي من الإخبار بالغيب الذي أذن الله به لمن يشاء من عباده، وإن من أول ذلك البشارة بالرسول ﷺ المبثوثة في كثير من أسفار العهدين. وسواء قصد بهذه البشارات محمد ﷺ كما هو الحق أو عيسى عليه السلام كما يزعمه النصارى فهي إنباء بالغيب من أنبياء ورسل بشر لم يجعلهم ذلك آلهة أو أبناء آلهة باتفاق المسلمين والنصارى، فضلاً عن أن كل ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى.

الخاتمـــــة

أولاً: الخلاصة:

الحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فعنوان هذا البحث هو: افتراءات المنصرين على القرآن أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام، "دراسة نقدية". وهو مكون من مقدمة، وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

ففي المقدمة: أوضحت أهمية الموضوع وسبب اختياره والمنهج المتبع وشيئاً من الدراسات السابقة والمصطلحات. أما في التمهيد فقد ألقى الباحث نظرة تاريخية على المؤلفات التنصيرية في الموضوع وأوضح أن بدايات الافتراء من النصارى على كتاب الله في هذا الموضوع بدأت منذ عهد الرسول ﷺ على يد نصارى نجران.

أما في المبحث الأول: فقد استعرض الباحث ادعاءات النصارى التي زعموا أنها تدل على أن القرآن يؤيد زعمهم في ألوهية المسيح وهي: زعمهم أن ضمائر الجمع التي تكلم الله بها عن نفسه في القرآن تدل على ألوهية المسيح، وزعمهم أن القرآن جعل المسيح روحاً من الله وكلمة الله التي تجسدت وصارت إنساناً والمعجزات التي ذكرها القرآن للمسيح ولا سيما إحياء الموتى.

أما المبحث الثاني: فكان رداً على ادعاءات النصارى الآنفة الذكر على نحو مجمل وذلك من خلال دراسة الأمور الآتية: وحدانية الله من خلال القرآن والتوراة والأناجيل، ثم دراسة ما ينفي الألوهية عن المسيح عليه السلام من خلال القرآن والأناجيل، ودراسة بشرية عيسى وعبوديته ونبوته ورسالته أيضاً من خلال القرآن والأناجيل.

أما المبحث الثالث: فكان رداً تفصيلياً على ادعاءات المنصرين التي ذُكرت في المبحث الأول. وكان ذلك في ثلاثة مطالب. ففي المطلب الأول: رُد على زعمهم أن ضمائر الجمع التي أسندت إلى الله في القرآن تؤيد ألوهية المسيح وذلك من ناحية لغوية. أما في المطلب الثاني: فقد رُد عليهم فيما ادعوه من أن القرآن جعل المسيح روحاً من الله أو كلمة من الله على المعاني النصرانية التي حاولوا إنزالها على آي القرآن الكريم. وفي المطلب الثالث: رُد على ادعائهم أن المعجزات التي أنعم الله بها على المسيح ولا سيما إحياء الموتى تدل على ألوهية المسيح.

وأخيراً الخاتمة وفيها خلاصة موجزة وبعض النتائج والتوصيات.

ثانياً: النتائج والتوصيات:

مما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات ما يأتي:

أ-النتائج:

١- أن المنصرين يَدَعُون المحكم الواضح من آي القرآن ويأخذون بما قد يكون متشابهاً ليصرفوه إلى ما يوافق معتقداتهم الباطلة، وإن كان في حقيقته لايدل على ما يَدَّعون.

٢- سَعْيُ المنصرين والنصارى لتضليل المسلمين والهجوم عليهم من خلال مسلماتهم، ولا سيما القرآن الكريم، وذلك منذ أيام الإسلام الأولى إلى اليوم.

٣- عدم ارتداع النصارى عن ادعاء دعاوٍ على القرآن وإن كانت كاذبة أو مما تخالف معتقداتهم -في حقيقتها- ما دامت تخدم غاياتهم وأهدافهم.

٤- خطورة منهج المنصرين في محاولة إثبات بعض معتقداتهم الباطلة من خلال القرآن؛ مما يحتاج إلى مواجهة تتناسب مع ذلك.

٥- بطلان ما افتراه المنصرون على القرآن وكذبه من أن القرآن يؤيد زعم ألوهية المسيح، بل ثبوت بشريته وعبوديته ورسالته وعدم ألوهيته سواء من القرآن أو الأناجيل.

ب- التوصيات:

١- يوصي الباحث بالاهتمام بمنهج المنصرين في محاولة التهجم على القرآن من خلال آياته، وذلك بمواجهة هذا الأسلوب بحثياً وعلمياً وكشف زيف دعاوى المنصرين، وتوعية المسلمين بذلك، وترجمة ما يصلح من الدراسات في هذا الجانب إلى لغات المسلمين، ولا سيما الذين تشتد بينهم الهجمات التنصيرية الفكرية المرتبطة بهذا الموضوع.

٢- يوصي الباحث أن تُضَمَّن كتب تفسير القرآن ولاسيما المختصرة والمترجمة إلى لغات المسلمين مايغرس في ذهن القارئ ابتداءً الجواب على الشُّبه التي يزعمها النصارى على القرآن وعلى نحو غير مباشر مع عدم ذكر الشبهة.

٣- يوصي الباحث بدراسة موضوعات تنصيرية أخرى تحاول التهجم على القرآن مدعية أنه يؤيد معتقداتهم مثل محاولة إثبات أن القرآن يبين صحة كتبهم الحالية، وعدم تحريفها ولعل هذا من أخطر موضوعاتهم المعاصرة في هذا الجانب فيما أرى، وادعاء أن القرآن مقتبس من التوراة، وزعم أن القرآن يقول بصلب المسيح، وادعاء أن في القرآن أخطاء لغوية، أو تاريخية إلى غير ذلك من افتراءات وأباطيل على القرآن الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: كتب العهدين.

ثالثاً: كتب عامة.

١- "أدلة اليقين في الرد على كتاب ميزان الحق وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام": عبدالرحمن الجزيري. (الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م).

٢- "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن": محمد الأمين بن محمد المختار. (طبع على نفقة سمو الأمير أحمد بن عبدالعزيز عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

٣- "إظهار الحق": رحمت الله بن خليل الهندي. (تحقيق عمر الدسوقي). (المكتبة العصرية في بيروت).

٤- "إعجاز القرآن العلمي": محمود مهدي الإستانبولي. (الطبعة الثانية مكتبة السوادي للتوزيع ـ جدة).

٥- "الإنجيل والصليب": عبدالأحد داود. (تعريب مسلم عراقي) (القاهرة، ١٣٥٠هـ).

٦- "بماذا يؤمن المسيحيون": جورجيا هاركنس، ترجمة إسحاق مسعد القاهرة. (دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية).

٧- "تأويل مشكل القرآن" : عبدالله بن مسلم بن قتيبة. شرح ونشر السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية. المدينة المنورة (الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٨- "تفسير إنجيل متى" : مجموعة من أشهر مفسري الكتاب المقدس: (مكتبة النيل المسيحية).

٩- "تفسير القرآن العظيم" : إسماعيل بن كثير القرشي. (دار المعرفة -بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٠- "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" : عبدالرحمن ابن ناصر السعدي. (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

١١- "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" : محمد بن جرير الطبري. (دار الفكر - ١٤٠٥هـ).

١٢- "جامع الدروس العربية" : مصطفى الغلاييني. (الطبعة الثامنة عشرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

١٣- "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" : أحمد بن عبدالحليم ابن عبدالسلام ابن تيمية. تحقيق وتعليق د.علي بن حسين ناصر ود.عبدالعزيز العسكر ود.حمدان الحمدان. الطبعة الثانية (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

١٤- "ديوان امرئ القيس" : دار بيروت للطباعة والنشر (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

١٥- "الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوهُ على غير تأويله" : أحمد بن محمد بن حنبل. قام بتصحيحه والتعليق عليه: إسماعيل الأنصاري، نشر وتوزيع: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

١٦- "رسالة راهب فرنسا للمسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها" : دراسة وتحقيق: د. محمد عبدالله الشرقاوي. طبع ونشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٧- "رسالة عبدالله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبدالمسيح بن إسحاق الكندي يدعوه إلى الإسلام ورسالة عبدالمسيح إلى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه إلى النصرانية" . طبع في مصر عام (١٩٨٥م).

١٨- "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" : محمود الألوسي. (إدارة الطباعة المنيرية).

١٩- "السيرة النبوية" : عبدالملك بن هشام الحميري. (تحقيق مصطفى السقا وآخرين مؤسسة علوم القرآن).

٢٠- "شرح المعلقات العشر" : الحسين بن أحمد الزوزني. (طبعة عام ١٩٨٣م) دار مكتبة الحياة. بيروت.

٢١- "الصاحبي" : أحمد بن فارس. (تحقيق السيد أحمد صقر) (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه).

٢٢- "صحيح أبي عبدالله البخاري" : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري. تحقيق وتعليق: محمد النواوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد خفاجي. ثلاثة مجلدات، تسعة أجزاء. الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م). الناشران: مكتبة النهضة الحديثة -مكة، ومكتبة الرياض الحديثة- الرياض.

٢٣- "العقائد الوثنية في الديانة النصرانية" : محمد طاهر التنير، بيروت، عام ١٣٣٠هـ.

٢٤- "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز وآخرين دار المعرفة، بيروت.

٢٥- "القاموس الموجز للكتاب المقدس" : حنا الله جرجس ووهيب مالك طبع في مكتبة كنيسة الأخوة، مصر، عام ١٩٨٣م.

٢٦- "القرآن والمبشرون" الطبعة الثانية: محمد عزة دروزة (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٢٧- "المسيحية" أحمد شلبي ط (٧) القاهرة مكتبة النهضة المصرية (١٩٨٣م).

٢٨- "معالم حضارات الشرق الأدنى القديم" محمد عصفور، لبنان دار النهضة ١٩٨١م.

٢٩- "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" : عبد الله بن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.

٣٠- "المفضليات" : المفضل بن محمد الضبي : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف، مصر.

٣١- "من معجزات النبي ﷺ" : عبدالعزيز السلمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٢- "النحو الوافي" : عباس حسن، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر.

٣٣- "نزول عيسى بن مريم آخر الزمان" : جلال الدين السيوطي : دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا. ط (١) دار الكتب العلمية ببيروت.

٣٤- "نصرانية عيسى عليه السلام ونصرانية بولس" : دراسة مقارنة من خلال أسفار العهد الجديد : علي عتيق الحربي بحث ماجستير عام ١٤٠٧هـ.

الفهرس

الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم

إعداد

د. عبد الراضي بن محمد عبد المحسن

الأستاذ المساعد

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بالرياض

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. وبعد:

فربما كانت أطروحة صمويل هنتنجتون التي دوّت في الهزيع الأخير من القرن الميلادي المنصرم، أمثل تعبير عن حقيقة ما يعتور عالمنا المعاصر من صراع حضاري ذي جوهر دينيّ.

ولم يكن سيل الكتابات الغربية التي تجعل من الإسلام وأمته وحضارته وعالمه عدوّ الغرب الحاليّ والمستقبليّ الذي يمثل امبراطورية الشر بعد زوال المعسكر الشيوعي، إلا تجسيداً لأحد أبعاد ذلك الصراع الضاري[1].

---

(١) يأتي في مقدمة تلك الكتابات دراسة بعنوان Christianity and Islam للكاتب البريطاني Edward Mortimer وأخرى بعنوان Islam and Marxism للعالم الأنثروبولوجي Ernest Gellmer وقد نشرت الدراستان كملف خاص عن الإسلام في مجلة " International Affairs B :67 . 1 Junuary 1991 " وشهادة ثالثة جاءت على لسان سياسي بارز ومسؤول كبير كان يشغل منصب رئيس المجلس الوزاري الأوربي ووزير خارجية إيطاليا "جياني ديميكليس" عندما برر سبب وجود حلف الأطلنطي بعد زوال المواجهة مع حلف وارسو، بأن المواجهة مع العالم الإسلامي هي مبرر بقاء الحلف.

راجع: د. محمد عمارة، استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي ص ٢٨، مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطة، ط١، ١٩٩٢م.

وهذا الجانب الملتهب من جوانب الصراع وإن كان هو المستحوذ على غالب الاهتمام ، إلا أن هنالك جوانب أخرى تماثله في الأهمية ، بل قد تفوقه في الخطورة ؛ لأن المستهدف فيها هو القلوب النابضة والعقول المحركة للقاطرة البشرية .

ومن تلك الجوانب حرب المعتقدات ومعركة الثقافة ، التي تأتي في مقدمتها الغارة التنصيرية على القرآن الكريم . تلك الغارة الشرسة التي استهدفت أصالة القرآن الكريم بوصفه كلام الله المنزل على خاتم رسله محمد بن عبد الله ﷺ ، فكانت الدافع إلى هذه الدراسة بفعل ما خلَّفته من افتراءات وشبهات ودعاوى روَّجتها الجدليات التنصيرية، فقد كانت هذه الافتراءات قوية الأثر إلى الحدِّ الذي انخدع به بعض الدارسين[1] .

ولم تكن الردود على تلك الافتراءات تدانيها في الأثر، في الوقت الذي كان ينبغي أن تكون الردود أقوى حتى لا تبقي مجالا للشكوك أو الشبهات .

وربما يعود ذلك في جانب منه إلى عدم التخصص المنهجي للدارسين، حيث جاءت هذه الردود عرضاً في سياقات مختلفة من الحديث عن الإسلام أو الفكر الإسلامي وعلاقته بالغرب من غير المتخصصين، وقد مثَّل ذلك التناول الثانوي ثاني أسباب قصور تلك الردود .

---

(١) منهم على سبيل المثال فيما يخص موضوعنا : طه حسين –محمد خلف الله– –محمد أركون– نصر أبو زيد .

بينما يتطلب هذا النوع من الدراسات إلماماً بجوانب معرفية عديدة، مثل: تاريخ الأديان، والمعتقدات الدينية لدى أهل الكتاب، ومضمون الكتب المقدسة، ومناهج النقد العلمي: كالمنهج المقارن، ومنهج نقد النصوص، والنقد الشكلي والنقد التاريخي.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحصين المسلم المعاصر وتزويده بنظرة نقدية للفكر التنصيري حول القرآن الكريم، وتاريخ الجدل ضد أصالته، ومسالك المنصرين في جدلياتهم ضد أصالة القرآن الكريم بما يتمكن معه المسلم المعاصر من الفكاك من أسر الأطروحات التي قدمها التنصير خلال مراحل ارتقائه التاريخي منذ نشأته حتى يومنا هذا.

كما تهدف الدراسة من جانب آخر إلى توجيه الدعاة إلى الله بين غير المسلمين إلى الردود والشواهد العقلية والنقلية، والبراهين العلمية، والحقائق التاريخية التي تعينهم في الدعوة إلى كتاب الله، وتمكنهم في الوقت نفسه من تصحيح المفاهيم المغلوطة التي رَوَّجها المنصِّرون حول القرآن الكريم بغرض صرف الناس عنه.

وقد جاءت الدراسة في خمسة مباحث ، وفق الخطة التالية:

المبحث الأول: حقيقة التنصير.

١- مفهوم التنصير.

٢- خطورة التنصير في مجال القرآن الكريم.

٣- ضرورة مواجهته.

المبحث الرابع : مسالك الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم .

المسلك الأول : ترجمة القرآن .

المسلك الثاني : البحوث التنصيرية حول القرآن .

المسلك الثالث : إصدار الدوريات والقواميس ودوائر المعارف المتخصصة .

المسلك الرابع : ترويج المزاعم وإثارة الشبهات .

المبحث الخامس : تفنيد مزاعم الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم .

١ ـ دلائل تهافت الدعوى الأولى "القرآن تلفيق من اليهودية والنصرانية" :

أولاً : شخصية الرسول ﷺ .

ثانياً : تاريخ كتب العهدين القديم والجديد .

– النسخة العربية .

– عدد نسخ العهد القديم والجديد .

ثالثاً : إعجاز النظم القرآني .

رابعاً : الاختلاف بين اليهودية والمسيحية والإسلام في أصول الإيمان .

خامساً : أثر القرآن والتوراة والإنجيل في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية .

الجانب الأول: الأخلاق.

الجانب الثاني: المجتمع.

الجانب الثالث: العلم.

سادساً: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية.

٢- دلائل تهافت الدعوى الثانية "القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل":

الدليل الأول: اختلاف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل.

الدليل الثاني: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

الدليل الثالث: القصص الذي انفرد به القرآن.

الدليل الرابع: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل:

أ - رواية خلق العالم.

ب - الطوفان.

جـ - قصة يوسف.

مصادر ومراجع البحث.

المبحث الأول: حقيقة التنصير

التنصير يطلق على النشاط الذي تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية في الأراضي الإسلامية ضد العقيدة والمجتمع في الإسلام.

وقد طرحت الكلمة ترجمة للمصطلح الأوربي Missions بديلاً عن كلمة "التبشير"[1]، وهو ما نختلف معه، وذلك لأسباب تتعلق بصحة ترجمة اللفظ وبمفهومه، وهي:

١- الترجمة الصحيحة لكلمة Mission هي (التبشير بالدين المسيحي - المأمورية - البعثة) وليس التنصير[2].

٢- الهدف النهائي لذلك النشاط الهدام ليس إدخال المسلمين في النصرانية، كما سيتبين لنا فيما يأتي.

٣- لا مسوغ لعدم الرضا عن مصطلح التبشير خشية ظلاله الحسنة؛ لأن التبشير قد عبّر به القرآن الكريم عن الحسن والطيب، وعبَّر به كذلك عن السوء والشر وما لا تحمد عقباه، كما قال تعالى:

---

(١) راجع هذا الاتجاه لدى: محمد عثمان بن صالح، النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير، ص: ٦٩، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م د. علي النملة، التنصير، ص: ١٧، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م بدون بيانات، د. عبد العزيز العسكر، التنصير ومحاولاته في الخليج العربي، ص: ١٤، مكتبة العبيكان، ط١، الرياض ١٤١٤هـ د. علي جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص: ٢٧.

(٢) Goetz Schregle, Deutsch - Arabisches Woerterbuch, S : 830 London - Beirut 1977.

﴿ ... فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران: ٢١) وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ... ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩) وكقوله تعالى: ﴿ ... فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٧) . فالعبرة بمضمون البشارة وليس بظلال المصطلح.

٤- أن المستهدف بهذه الإرساليات والبعثات الدينية ليس المسلمين وحدهم، بل إن التبشير يمارس ضد طوائف النصارى الشرقيين من أرمن وقبط وأرثوذكس[١].

٥- كثير من أفراد البعثات التبشيرية قد انضم إليها لتحقيق أغراض ومآرب شخصية، مثل: السياحة والتجارة وغير ذلك[٢].

٦- التبشير هو إحدى مؤسسات التنصير وليس كلَّ التنصير؛ مما يجعل مِنْ قصر مصطلح التنصير على العمل التبشيري وتخصيصه به تمويهاً على المستهدفين بالتنصير وتحويل أنظارهم بعيداً عن نشاط المؤسسات التنصيرية الأخرى، التي ربما يفوق تأثيرها الهدَّام تأثير التبشير.

٧- أن كلَّ مبشِّر منصِّر، لكن ليس كلُّ منصِّر مُبشِّراً.

أما عن مفهوم التنصير في البيئة الإسلامية فقد صيغ المفهوم وتحدَّدت وظيفته فيما يؤدي إلى إخراج المسلمين من دينهم، وليس بالضرورة إدخالهم في النصرانية[٣].

---

(١) د. علي النملة، التنصير، ص ١٥ .

(٢) د. فروخ - الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص ٤٩ ، ٥٠ ، المكتبة العصرية. بيروت ١٩٨٦م.

٣- د. فروخ - الخالدي، التبشير والاستعمار، ص ٣٩ .

وهذا المفهوم الحديث للتنصير يلمس أحد أبعاد العمل التنصيري، لكنْ هناك أبعاد أخرى لحقيقة التنصير، لا يمكن الوقوف عليها إلا بإدراك طبيعة الصراع الكوني بين الديانات الكبرى من أجل استحقاق شرف ريادة الإنسانية وقيادتها، تلك القيادة التي تستمد مشروعيتها من امتلاك الحقيقة المطلقة المؤسَّسة على الوحي.

ولـمَّا كان الإسلام قد أثبت صدق دعواه امتلاك الحقيقة المطلقة، والقدرة على قيادة الإنسانية باختلاف أجناسها وشعوبها وتطلعاتها وآمالها ، وذلك بما أنجزه في حيز التطبيق الفعلي لذلك الاستحقاق، حيث استطاع في قرن ونصف من الزمان أن يجمع تحت رايته أكثر من ثلثي المسكونة من بيض وسود، وعرب وعجم، وبربر وترك، وهنود وقوقاز، سوّى بينها في الحقوق والواجبات، وصَهَرَها في بوتقة ألَّفت أزهى عصور التاريخ: حضارة وعلماً وأخلاقاً.

فإن تلك القدرة الهائلة للإسلام قد أذهلت أهل الكتاب الذين قعدت بهم دياناتهم عن تبوّء تلك المنزلة أو ما يدانيها، على الرغم من الفترة الزمنية السحيقة التي قرعت العالم فيها نواقيس اليهودية والنصرانية.

لهذا أدرك أهل الكتاب خسارتهم معركة التحدي الكونية، بسبب فقد ديانة العهد القديم والعهد الجديد المقومات الذاتية اللازمة لقيادة الإنسانية والارتقاء بها حضارياً وأخلاقياً، فعمدوا إلى سلوك طريق

آخر يستهدف إقصاء الإسلام[1] عن الحلبة الكونية نهائياً ؛ حتى يتسنى لهم قيادة السفينة وامتلاك مقدراتها بما يدّعون من حقٍّ إلهي مقدس.

فكانت المواجهة مع الإسلام والصراع ضده هي السبيل لتحقيق ذلك الهدف ، وقد اتخذ ذلك الصراع شكلين أساسيين هما: الحروب العسكرية التدميرية، وحرب العقيدة والفكر التي تسعى للنيل من: الإسلام، ونبيِّه، وكتابه، ومعتقداته، وشرائعه، ونُظُمه؛ بهدف زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه في دينه، مما يقود إلى الخروج من الإسلام وليس بالضرورة الدخول في النصرانية[2].

ويكشف لنا هذا الغرض النهائي من حرب العقيدة والفكر سرَّ المشاركة الفعالة لليهود في الصراع ضد الإسلام جنباً إلى جنب مع النصرانية رغم كراهيتهم واحتقارهم لها؛ إذ إن المسلم الذى يخرج عن دينه لن يصلح للإنسانية في شيء فيكون خروجه نكاية من اليهودية في الإسلام، فإذا اعتنق النصرانية فذلك نكاية من اليهودية في الإسلام

(١) يصرح المنصرون برغبتهم فى إقصاء الإسلام؛ فالمنصر جسب يود أن يمحو الإسلام من العالم، ويصرح غيره بأن الغاية من عملهم هي: "القضاء على الأديان غير النصرانية".

راجع: فروخ – الخالدي، مرجع سابق، ص ٣٦، ٤٥.

(٢) راجع في هدف الإرساليات والوعاظ من النصارى واليهود:

– مصطفى الخالدي – عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص ٤٦.

– إبراهيم الجبهان، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، ص ٢٧، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. الرياض ١٤٠٤هـ.

والنصرانية معاً . قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . . . ﴾ (البقرة: ١٠٩) .

وعلى ذلك يكون الصراع ضد الإسلام عملاً يهودياً نصرانياً مشتركاً تنوعت فيه الأدوار وتوزعت التخصصات ما بين: الخبراء ، وشركات الأعمال، والمؤسسات، والإرساليات، والجيوش، ووزارات الخارجية، ووكالات الاستخبارات، وأساتذة الجامعات، والمراكز والمعاهد العلمية، والمستشرقين، وصانعي السياسة[١] .

وهذا الصراع الذي يؤلف جوهر الغارة التنصيرية على العالم الإسلامي[٢]، يجعل من حصرنا فعاليات التنصير في نشاط الإرساليات التبشيرية فهماً قاصراً لطبيعة التنصير وأبعاده وأدواته، فما هذا النشاط إلا أحد آليات التنصير، ولذلك فإن تخصصه وحده باسم التنصير وصرف الهمم تجاهه وحده واستنزاف الجهد في تتبع وسائله وممارساته، ليكون وجها ثانياً من وجوه القصور في فهم طبيعة الغارة

---

(١) بتصرف من: إدوارد سعيد ، الاستشراق، ص ٣٠٠، بترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط ٢، ١٩٨٤ م .

(٢) ربما يكون الأستاذ عبد الرحمن الميداني قد وقف على الطبيعة الشمولية لعداء أهل الكتاب للإسلام، ذلك العداء المتمثل في الصراع ضد الإسلام بما أسماه: أجنحة المكر الثلاثة : الاستعمار –التنصير– الاستشراق .

راجع كتابه: "أجنحة المكر الثلاثة" ، دار القلم، دمشق ط ٥، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

التنصيرية في جانبها العقدي ، فهذا الجانب يشتمل على: جدليات ، ودعاوى ، ومزاعم ، وشبهات مثارة من قِبَل دوائر تنصيرية عديدة إلى جانب الإرساليات التبشيرية ووعاظها، منها: الاستشراق، وكالات الاستخبارات، وسائل الإعلام، مراكز البحوث والمعاهد العلمية.

من جهة ثانية فإن أخطر نتاج الغارة التنصيرية الذي يجب أن يكون محل الاهتمام عبر دوائر التنصير المختلفة هو الجدليات التي استهدفت أصالة القرآن الكريم ؛ نظراً للتلازم بين القرآن والرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ... ﴾ (فصلت: ٥٣).

فالضمير في "أنه الحق" كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "يرجع إلى القرآن، فإذا كان القرآن حقاً لزم كون الرسول الذى جاء به صادقاً يجب التصديق بما أخبر وإطاعة ما أمر واجتناب ما نهى"[١] .

وتكمن خطورة الجهد التنصيري في هذا المجال ليس فقط فيما يستهدفه ، بل في كثرة المؤسسات والمنظمات التنصيرية التي تقوم به وتنوعها ما بين علمية وثقافية ودينية واجتماعية ، فقد أثمر ذلك الجهد الهائل عن نجاح، إن لم يكن في تحقيق المسعى بتحويل المسلمين عن دينهم ، فقد تمثل في تنشئة طبقة من المثقفين المتعاطين لمنتجات

(١) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤ / ٢٥٠) وانظر (٤ / ٢١، ٢٢) مطبعة المدني ، مصر ، بدون ترقيم .

الفكر التنصيري الثقافية والعقدية ، وإسهام هذه الطبقة في حقل الجدل التنصيري ضد القرآن الكريم ربما يكون أكبر بسبب ما لها من سلطة فكرية وحضور ثقافي ومكانة علمية برّاقة ، مكنتها من القيام بدور المخبر الثقافي والنائب المحلّي للفكر التنصيري في بلاد العالم الإسلامي .

ومثل هذا الجهد التنصيري الضخم يتطلب لمواجهته عملا جماعياً منظماً لا يفي به بحث هنا أو مقال هناك . إن متابعة هذا النشاط الواسع لا تقوم به إلا مؤسسات ، ونحن نفتقد حتى يومنا هذا مؤسسة متخصصة في هذا النشاط والرد على جدلياته .

المبحث الثاني: دوافع الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم

تتعدد دوافع الجدل التنصيري ضد القرآن الكريم، فمنها دوافع خاصة بأهل الكتاب ومنها دوافع عامة لكل خصوم القرآن من كتابيين وغيرهم. ومن تلك الدوافع التي يمكن رصدها:

١- صرف الأنظار بعيداً عن القرآن .

وقد كان ذلك هدفاً لمشركي مكة ، وسعوا إلى تحقيقه بوسائل عدة منها : صدُّ الناس عن القرآن، والتصفيق والصفير عند تلاوته، وإثارة المزاعم والشكوك حوله .

وكان ظن المشركين أن ذلك مجلبة للغلبة والنصر، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

وهذا ما اعتقده المنصرون تماماً ، يقول المنصِّر وليم جيفورد بالكراف: "متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه"[١] .

---

(١) جلال العالم، دمروا الإسلام وأبيدوا أهله، ص ٦٣، مكتبة الصحابة جدة – مكتبة التابعين، القاهرة، ١٩٩٤م .

والمعنى نفسه كرره المبشر وليم موير: "إن سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهم العالم عناداً حتى الآن" إدوارد سعيد ، الاستشراق، ص ١٦٨، مرجع سابق .

والمقصود بالحضارة التي حال القرآن بين المسلمين وبينها فيما أشار إليه المنصِّر هي الحضارة ذات المفهوم الغربي للكون والحياة ، ذلك النموذج الذي أكد "جياني ديميكليس" رئيس المجلس الوزاري الأوربي ضرورة فرضه وإلا فالحرب هي الخيار[1] .

ولا شك أن المناعة الذاتية الجبارة التي خلقها القرآن في المسلمين قد حالت بينهم وبين الاندحار والسقوط المدوي أمام التكالب الأممي لجحافل التتار والصليبيين في الماضي وأمام الغزو الاستعماري في العصر الحديث ، وقد تجلّى انكشاف تلك الحقيقة الثمينة في تأكيد غلاد ستون أحد موطدي دعائم الامبراطورية البريطانية في الشرق الإسلامي : "ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان"[2] .

٢- موقف القرآن الكريم من كتب أهل الكتاب ومعتقداتهم.

حدد القرآن الكريم بوضوح وجلاء موقفه من الكتب السابقة ، متمثلا في :

أ – الهيمنة عليها، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴾ (المائدة : ٤٨) .

---

(١) د . محمد عمارة ، استراتيجية التنصير ، ص ٢٩ . مرجع سابق .

(٢) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م .

ب – أفضليته وكماله ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ . . . ﴾ (الزمر : ٢٣) ، وترجع أفضلية القرآن على غيره من الكتب إلى كماله من جهتين :

أولاهما : تبيانه لكل شيء ، قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ . . . ﴾ (الأنعام : ٣٨)، وقال تعالى : ﴿ . . . وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ . . . ﴾ (النحل : ٨٩) .

والثانية : إرشاده إلى غاية ما يصبو إليه الإنسان وما يحقق له كمال الدنيا والدين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ . . . ﴾ (الإسراء : ٩) .

جـ – كشف التحريف والتبديل الواقع فيها : بالإخفاء والكتمان : ﴿ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ . . . ﴾ (الأنعام : ٩١)، أو بالنسيان : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ . . . ﴾ (المائدة : ١٤)، أو بالكذب والتزوير : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩)، أو بالتغيير والتحريف المتعمد : ﴿ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) .

ورفض القرآن زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه ،

وبكّتهم وذم أخلاقهم وفضح خطيئاتهم بما يعنيه ذلك من طعن في مشروعية امتلاك حق مقدس في قيادة البشرية. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ... ﴾ (المائدة: ١٨).

وأنكر عليهم دعواهم صلب المسيح: ﴿ ... وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٧، ١٥٨).

وكفّر الذين قالوا ببنوة المسيح وألوهيته: ﴿ ... وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠).

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ... ﴾ (المائدة: ١٧).

وقد كان هذا الموقف القرآني الدقيق من العهدين القديم والجديد ومعتقداتهما جداراً صلباً أمام نجاح الفكر التنصيري أو ما يرتبط به من رؤى حضارية في اختراق الحياة الروحية أو صمود العقيدة الإسلامية، مما دفع بدهاقنة العمل التنصيري إلى التساؤل بعد أربعة عشر قرناً من بدء الغارة التنصيرية[1]:

---

(١) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (الترجمة الكاملة لأعمال مؤتمر كلورادو التبشيري) ص ١٨٨ - ٢٠٣، دون بيانات.

– هل من الممكن حقاً إقناع المسلم بأن النصارى لم يزوِّروا الكتاب المقدس ؟ أو أنهم ليسوا مشركين ؟ أو أن المسيح هو أكثر من كونه ابن مريم كما هو مذكور في القرآن؟ أو أن صلب المسيح وبعثه قد تم فعلا ؟

– هل الإسلام بوصف كونه ديناً قائماً على الكتاب (القرآن) يعقِّد عملية قبول النصرانية أو ييسِّرها ؟ وبأية وسيلة؟.

– كيف يمكننا التغلب على النصوص القرآنية التي تكذب بعض الأجزاء المهمة من رؤية العهد الجديد؟.

٣- إبطال المعجزة القرآنية.

لما كان القرآن الكريم هو دليل نبوة محمد ﷺ الأكبر، وبرهانها الساطع، وحجتها البالغة، وأخص آياتها، وأظهر علاماتها بسبب اجتماع الوحي المدَّعى والدليل المعجز الذي تحدى به النبي ﷺ العالم إنسه وجنّه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨) لذلك فقد أدرك المنصرون أن القرآن أقوى أسلحة المسلمين وأمضاها في صراعهم ضد جحافل التنصير ، فعملوا جاهدين على إبطال فاعلية هذا السلاح ، بالتقليل من قيمته، ونفي أصالته، تمهيداً لمحاولة سلب محمد ﷺ شرف النبوة بحجة: "عدم وجود معجزة تؤيد نبوته"[١] .

---

(١) تيودور أبو قرة/ميمر في وجود الخالق والدين القويم، ص ٨٥، بتحقيق: اغناطيوس ديك، بيروت ١٩٨٢م .

وانظر Adel Theodore Khoury, Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam , S : 38 - 39 .

وقد حدد الواعظ التنصيري "جون تاكلي "هذا الباعث من الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم ، قائلا : "يجب أن نستخدم كتابهم -وهو أمضى سلاح في الإسلام- ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تماماً . يجب أن ترى الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً"(١) .

ويمكن القول بأن افتراض نجاح الجهد التنصيري في فك التلازم الضروري في الإسلام بين القرآن والوحي والرسول المبلِّغ ، ذلك التلازم المستند إلى إلهية مصدر القرآن ، لسوف يؤدي إلى "الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له ، وسوف يفضي بعد انتشاره في كل الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها"(٢) .

---

(١) مصطفى خالدي - عمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية ، ص ٤٠ ، مرجع سابق .

(٢) أ . ل شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص ٩ ، مرجع سابق ، نشرة محب الدين الخطيب . بيروت ، د . ت .

المبحث الثالث: تاريخ الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم

بدأ الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن -مبكراً جداً- مع أول صدام بين المسلمين والجماعات المسيحية في الأراضي الخاضعة للدولة البيزنطية، وقامت الشام بأكبر الأدوار وأهمها في تاريخ الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن، وقد تعددت مراحل الجدل التنصيري ضد القرآن، وتباينت معها أساليب الجدل وأطروحاته، فيما يمكن رصده من خلال الأدوار التالية التي مرَّ بها الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن:

أ- دور التأسيس (جدليات المشرقيين):

كان الشرق مهداً لنشأة الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم، نظراً لأنه كان نقطة التقاء الإسلام الفاتح بعقائده وكتابه وشرائعه مع المسيحية الشرقية بمذاهبها المختلفة من أرثوذكسية بيزنطية حاكمة، ونسطورية مخالفة، وآريوسية توحيدية.

يضاف إلى ذلك العامل اللغوي الذي مكّن مجادلي التنصير المشرقيين من الاطلاع بيسر وسرعة على القرآن الكريم في لغته العربية، والوقوف على ما احتواه من عقائد وشرائع وأخلاق وقصص، ومن ثمّ الشروع في الجدل ضده، بخلاف مجادلي الغرب اللاتين الذين احتاجوا إلى عدة قرون كي يتمكنوا من قراءة القرآن في إحدى ترجماته.

ويمكن في هذه المرحلة تمييز عدد من رموز الجدل التنصيري. وهي:

١- يوحنا الدمشقي (ت ٧٥٠م):

يوحنا الدمشقي (ت: ٧٥٠ م) أحد أكبر آباء الكنيسة الأرثوذكسية، وبسبب قيمته الدينية الكبرى نال لقبين ذوي شأن، فلقِّب بـ "القديس يوحنا"، و"يوحنا ينبوع الذهب"، وبحكم كونه في خط الصراع الأول ضد الإسلام فإنه سارع بالعكوف على القرآن الكريم تفلية ونبشاً، مسخِّراً إتقانه العربية، وموظِّفاً إلمامه بالبيئة الثقافية الإسلامية التي يعيش في رحابها، ويعايش أعلى مستوياتها العلمية والسلطوية حيث كان من كبار موظفي بلاط الخلافة الأموية[١].

وقد عُدَّ يوحنا الدمشقي بالنسبة للكنيسة الشرقية مثل توما الإكويني بالنسبة للكنيسة الغربية بسبب استخدامه الدلائل العقلية إلى جانب الدينية في خدمة الإيمان الأرثوذكسي وتسويغه وذلك باستخدامه الفلسفة اليونانية والهللينستية في تفسير الدين والدفاع عنه[٢].

---

(١) د. جواد علي، يوحنا الدمشقي، مجلة الرسالة (مصر)، (عدد ٦١٠)، ص ٢٤٣، ربيع الأول ١٣٦٤ هـ، مارس ١٩٤٥ م.

(٢) Dena John Geanakoplos, Byzantine East and Latin Christiondom West : Two Worlds of in Middle Ages and Renaissance, PP.22F. Harpertoneh Books, NewYork 1966.

وللتوسع في معرفة أثر يوحنا الدمشقي، ومن ثمّ فضل المجادلين الشرقيين على المجادلات التنصيرية ضد الإسلام في الغرب، راجع:

Anton Pegis, St Anselm and the Argument of the Proslogion, Mediaeval Studies 28. (1966) 228 - 267, 231, 233 - 234.

وفي المجلّة نفسها راجع مقالة دياني ي دوبرول بالعدد رقم ٣٢ عام ١٩٧٠ م، ص ١٢٨ – ١٣٧.

وقد انتهى يوحنا الدمشقي إلى عدة آراء جدلية ضد الإسلام والقرآن والرسول ، لخّصها في كتابه (ينبوع المعرفة) الذي قسمه ثلاثة أقسام ، أولها عن المنطق والفلسفة، والثاني عن البدع، والثالث شرح لمبادئ الدين القويم ، وقد خصص الفصل (١٠٠، ١٠١) في قسم البدع للجدل ضد الإسلام ، وتتلخص رؤية يوحنا الدمشقي للإسلام ونبيه وكتابه فيما يلي[١]:

أ- التشكيك في كون الإسلام امتداداً لحنيفية إبراهيم ، لذلك يصف المسلمين على نحو لا يخلو من الخبث، بالسرازانيين[٢] (Saracens) ويعد أول كاتب مسيحي يستخدم هذا التشويه الإتيمولوجي لأغراض الجدل العنيف، كذلك يصف المسلمين بـ"المفسدين" وهي التسمية التي ستكثر في الجدليات التالية ليوحنا.

---

(١) دانييل ساهاس ، جدل يوحنا الدمشقي مع الإسلام ، ص ١٢٣ – ١٢٨ ، الاجتهاد . بيروت ، عدد (٢٨) السنة السابعة (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م).

– جورج عطية ، الجدل الديني المسيحي – الإسلامي في العصر الأموي وأثره في نشوء علم الكلام ، ص ٤١٥، ٤١٦، كتاب المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ـ جامعة اليرموك . عمان ١٩٨٩م.

– د . جواد علي ، يوحنا الدمشقي ، ص ٣٠٧ ، مجلة الرسالة. مصر . عدد (٦١٢) ربيع الأخر ١٣٦٤هـ / مارس ١٩٤٥م .

(٢) السرازانيين نبذ بالألقاب للمسلمين؛ إذ تعني الكلمة: الذين أبعدتهم سارة باحتقار .

ب – يعالج الإسلام على أنه هرطقة مسيحية.

جـ – يقدم الإسلام على أنه مُؤْذن بالمسيح الدجّال.

د – يجعل الرسول ﷺ أحد أتباع آريوس ، كما يجعله على عقيدة المذهب النسطوري، وذلك بسبب تأكيده أن المسيح مخلوق وإنسان مجرد، وذلك ما قال به آريوس ونسطور.

هـ – يحصر ما جاء به النبي ﷺ في أمرين:

أولهما: معرفته الضحلة بما قلَّتْ قيمته من أسفار العهدين القديم والجديد اللذين وقع عليهما النبي ﷺ مصادفة.

الثاني: ما أخذه النبي ﷺ عن الراهب الأريوسي (بحيرا) .

و – القرآن نتاج لأحلام اليقظة ؛ لأن الرسول ﷺ تلقاه وهو نائم.

ويمكن القول بأنه لا خلاف على ريادة الدمشقي للجدل التنصيري ضد الإسلام، كذلك يمكننا القول بأن جدليات يوحنا ضد القرآن هي الأهم في تاريخ الجدل التنصيري ضد القرآن؛ حيث وضع الدمشقي آراءه في قوالب جدلية مكثفة أصبحت ركيزة الجدل التنصيري في كل أدواره ومراحله التالية ، فقد ردد جميع المجادلين بعده بعض أو كلّ قوالب الدمشقي: "الإسلام هرطقة مسيحية –القرآن تلفيق من العهد القديم والعهد الجديد– تعلم النبيﷺ من بحيرا الراهب – المسلمون سراسنة" .

٢- تيودور أبو قرة (ت ٨٢٦م) :

تلميذ ليوحنا الدمشقي، وقد تبع رأي أستاذه في النبي والقرآن ، فعدّ النبي محمداً ﷺ نبياً أريوسياً مزيفاً[١] .

٣- بارشو لوميو الرهاوي (ت حوالي القرن الثاني عشر الميلادي) :

تركزت جدلية بارشو لوميو من مدينة الرها في أخذ النبي ﷺ القرآن عن راهب نسطوري، يقول الرهاوي: "فعندما شهد ذلك الراهب الفاسق سذاجة القوم رأى أن يمنحهم عقيدة وشريعة على غرار مذهب أريوس وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي حرم من أجلها، فراح يسطر كتاباً هو الذي يسمونه القرآن ، وهو شريعة الله، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق ... وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه (مؤمد) وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على محمد من السماء حيث كان في حفظ جبريل الملك فصدقوه فيما قال ، وبذلك مكّن الراهب لذلك القانون الجديد"[٢] .

---

(١) Klaus Hock , Der Islam im Spiegel westlicher Theologie S : 99 , Deutschland 1989. 101 , 112 .

وانظر : رشا الصباح ، الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى ، ص ٧٠٦ ، مجلة عالم الفكر ، عدد (٣) المجلد الخامس عشر . وزارة الإعلام ، الكويت .

(٢) د . محمد الفيومي ، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣٦٤، ٣٦٥ ، دار الفكر العربي . القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

٤- عبد المسيح الكندي (عاش في القرن العاشر الميلادي تقريباً) :

كان عاملاً في بلاط الخليفة المأمون، وكتب ردًّا على رسالة الهاشمي التي يدعوه فيها إلى الإسلام ، وقد لقيت رسالة عبد المسيح الكندي عناية كبيرة من دوائر التنصير حيث نشرت أكثر من مرة لخدمة الإرساليات ليتعلموا منها أساليب مجادلة المسلمين حول القرآن والنبي[١] .

٥- بولس الأنطاكي (عاش في القرن السابع الميلادي تقريباً) :

بولس الراهب الأنطاكي وقيل إنه أحد أساقفة سوريا : إما أن يكون أسقف مدينة صيدا أو أسقف مدينة أنطاكية .

وله عدة رسائل مطوّلة ضد الإسلام[٢] ، أهمها رسالته إلى أحد المسلمين التي ضمَّنها خلاصة معتقد النصارى في الإسلام وفي عقائد النصرانية ، حيث يدلل على صحة الديانة النصرانية ، وعلى عدم حاجة العالم إلى القرآن؛ إذ جاءت التوراة بشريعة العدل وجاء الإنجيل بشريعة الفضل ، ولا يتبقى بعدهما جديد يحتاج الناس إليه[٣] .

---

(١) أ . ل شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

– توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٠٤ ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية .

– د. قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص ٥٧، دار الرفاعي – الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٢) رشا الصباح ، الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى ، ص ٨٥ ، مرجع سابق .

(٣) الرسالة منشورة بمجلة المشرق المسيحي ، العدد (١٥) من السنة السابعة ، عام ١٩٠٤م .

وتكشف الرسالة عن معرفة جيدة ودقيقة بالقرآن ، فأكثرها نقول قرآنية احتج بها المؤلف -جدلا وشغباً- على المعتقدات النصرانية في الصلب والتثليث والفداء وصحة الأناجيل .

وعلى الرغم من أهمية الرسالة فإن صاحبها مجهول ، حتى إن لويس شيخو ظن أن بولس الأنطاكي كان يعيش في القرن الثالث عشر الميلادي[1] ، وهذا غير صحيح ، فالرسالة من أوائل الجدليات التنصيرية، ولو تأمل لويس شيخو قول بولس الأنطاكي في نص الرسالة عند حديثه عن الأناجيل: "وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا فقوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٤٦) ، ثم قوله أيضاً: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ ... ﴾ (يونس: ٩٤) ، فثبت بهذا المعنى ما معنا ، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التهم بالتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

قلت: فإن قال قائل: إن التبديل قد يجوز أن يكون بعد هذا القول .

---

(١) لويس شيخو ، مقالات دينية قديمة ، ص ١ ، مرجع سابق .

- لويس شيخو ، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، ص ٦٩ ، طبع الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٤ م .

قالوا: هذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله؛ لأن كتبنا قد جاز عليها من نحو ستمائة سنة وصارت في أيدي الناس يقرؤونها باختلاف ألسنتهم"[١] .

فالنص واضح في تحديد زمن كتابة الرسالة بالنصف الأول من القرن السابع الميلادي – الأول الهجري .

٦- ابن كمونة اليهودي (ت ١٢٨٤م) :

يُعَدُّ ابن كمونة أول مجادل تنصيري من اليهود ضد القرآن الكريم ، وقد ضمّن جدلياته ضد القرآن كتابه (تنقيح الأبحاث للملل الثلاث)، فعقد فصلا للقرآن الكريم أورد فيه خمسة عشر اعتراضاً على القرآن ، منها ثلاثة تتعلق بأصالة القرآن الكريم :

أ – لِمَ لا يجوز أن يكون القرآن أنزل إلى نبي آخر دعا محمداً أولا إلى دينه وإلى هذا الكتاب، فأخذه محمد منه وقتله[٢]؟

ب – يحتمل أن محمداً طالع في كتب من تقدمه أو سمعها فانتخب أجودها، وضمّ البعض إلى البعض[٣].

جـ – كيف يستبعد سماعه ذلك من الآخرين وقد سافر إلى الشام قبل دعواه النبوة مرتين ، وهي مملكة أهل الكتاب؟ وأيضاً فقد كان في العرب من أهل الكتاب جماعة فلا يبعد أنه سمع ذلك منهم[٤].

---

(١) رسالة بولس أسقف صيدا الراهب الأنطاكي ، ص ١٧ من نشرة لويس شيخو ، مرجع سابق .

(٢) سعد بن منصور بن كمونة، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، ص ٧٠، نشرة موسى برلمان، مطبوعات جامعة كاليفورنيا .

(٣) السابق .

(٤) السابق ص ٨٩ .

وقد تسببت جدليات ابن كمونة ضد أصالة القرآن الكريم في هياج العامة عليه ومحاصرة داره، إلا أنه تمكن من الهرب واختفى عدة أيام توفي بعدها[1].

وتعد مرحلة بدايات الجدل التنصيري في المشرق من أهم أدوار الجدل التنصيري وأخطرها ، إذ ألّفت قاعدة الجدل والأساس الذي بنى عليه المنصرون جدلياتهم في مراحل التنصير وأدواره المختلفة ، وبالإضافة إلى هذه الملاحظة هناك ملاحظتان أخريان جديرتان بالرصد، هما :

١- أن الجدل في هذه المرحلة جهد فردي يتوقف على قدرات المجادل وثقافته ، لكن بسبب إجادة المجادلين للغة القرآن الكريم ، فقد جاءت مجادلاتهم مكتظة باستشهادات مغلوطة من النصوص القرآنية مما أعطى لها نفوذاً روحياً وفكرياً وعقدياً على التراث الجدلي التنصيري بأكمله ، ولا يخفى -في هذا الشأن- المكانة المرموقة التي تبوّأتها جدليات يوحنا الدمشقي ، الذي امتُدح بأنه لم يأت برأي أصيل إلا في الإسلام[2]، وجدليات بولس الأنطاكي التي تلقتها

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، ص ٤٤١، ٤٤٢، بتحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٩٣٢ م .

وانظر : الدكتور سعد العتيبي ، نفوذ اليهود في عهد المغول الإيلخانيين ، ص ٥١٨، ٥١٩، مجلة الدرعية (عدد ٦ ، ٧) ربيع الآخر ، رجب ١٤٢٠هـ / أغسطس ، نوفمبر ١٩٩٩م.

(٢) بابا دوبولس، تاريخ كنيسة أنطاكية، ص ٥٢٨، منشورات النور، بيروت ١٩٨٤م.

-لويس غرديه- جورج قنواتي ، فلسفة الفكر الديني (٢ /٤٣) دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ١٩٦٧م .

الأوساط التنصيرية بالتقدير لما تمتاز به في نظرهم من ألفاظ جيدة وآراء سديدة صائبة وبراهين واستدلالات وحجج جلية[1]، إلى حد دعوة بعضهم إلى الاكتفاء بها في بيان موقف النصرانية من الإسلام[2].

وكذلك جدل عبد المسيح الكندي في رسالته الشهيرة التي أصبحت عمدة العمل التنصيري في مجال الإرساليات[3].

٢– عقم الجدل الذي تمثله تلك المرحلة ، إذ إن المجادلين على اختلاف مشاربهم لم يزيدوا على تكرار الشبهات الجدلية لمشركي مكة، بعد أن قاموا بإحلال رموز يهودية ـ نصرانية محل رموز المشركين في الدعاوى التالية:

الدعوى الأولى: القرآن قول شاعر بإلهام شيطان الشعر ، حيث كان العرب يتوهمون أن لكل شاعر شيطاناً من الجن يقول الشعر على لسانه[4]، وهذا ما نفاه الله عن القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة: ٤١)، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ (التكوير: ٢٥).

---

(١) لويس شيخو ، مقالات دينية قديمة ، ص ١ ، مرجع سابق .

(٢) ابن العسال، الصحائح في جواب النصائح، ص ٤٠، القاهرة سنة ١٦٤٣م قبطية.

(٣) أ . ل شاتيله ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص ٣٠، مرجع سابق .

(٤) د . حسن طبل ، حول الإعجاز البلاغي للقرآن، ص ١١٣، مكتبة الإيمان، ط ١، مصر ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

فاستبدل مجادلو التنصير شيطان الشعر الجاهلي ، وأحلوا محله الراهب النسطوري الفاسق الملحد كما تصور بارشولوميو الرهاوي ، أو أحلام اليقظة كما اقترح يوحنا الدمشقي .

الدعوى الثانية : بشرية مصدر القرآن :

زعم المشركون أن الرسول ﷺ : ﴿ ... إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل : ١٠٣) .

فجعل الدمشقي وتلميذه أبو قرة من هذا البشر هو بحيرا الراهب الأريوسي، ولما زعم المشركون جماعية مصدر تعليم الرسول القرآن : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ ... ﴾ (الفرقان : ٤) ، زاوج ابن كمونة في احتمالاته وأرجحها بين بحيرا الراهب أو أحد أهل الكتاب ممن كانوا بمكة أو الشام .

الدعوى الثالثة : القرآن من أساطير الأولين :

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤ ، ٥) .

ففسر مجادلو المشرق كلهم أساطير الأولين بأنها قصص التوراة والإنجيل .

ب – الجدل البيزنطي:

البيزنطيون هم أول من كتب من الأوربيين ضد الإسلام والقرآن[١]. وكان أول هجوم مفصل على القرآن في أعمال "نيكتياس البيزنطي" في مقدمة كتابه "نقد الأكاذيب الموجودة في كتاب العرب المحمديين" أما أكبر هجوم جدلي ضد القرآن فهو ما قام به إمبراطور بيزنطة جان كنتا كوزين في كتابيه "ضد تمجيد الملة المحمدية" و "ضد الصلوات والتراتيل المحمدية" وكان هذا الهجوم باللغة اليونانية[٢].

جـ – مرحلة الأندلس:

كانت فترة الحكم الإسلامي للأندلس عصر ازدهار علمي وحضاري في مختلف الجوانب ، وفيها ارتفع صوت الحرية الدينية والنقاش حول قضايا الأديان والعقائد، وقد استغل المنصرون ذلك فصنفوا مؤلفات جدلية كثيرة ضد الإسلام، وتصدى لهم علماء الإسلام رداً وتفنيداً، مثل: ابن حزم والقرطبي وأبي الوليد الباجي... إلخ .

---

(١) عبد اللطيف الطيباوي ، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ص ٥١٧ ، الترجمة العربية الملحقة بكتاب الفكر الإسلامي الحديث. د. محمد البهي. مكتبة وهبة ، ط ٨ ، ١٩٧٥ م .

– محمد الفيومي ، الاستشراق رسالة استعمار ، ص ٣٧٣ ، مرجع سابق .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، ص ٥ ، دار الجليل ، ط ١ ، بترجمة كمال جاد الله . القاهرة ١٩٩٧ م .

وتكمن أهمية هذا الدور من أدوار الجدل التنصيري ضد القرآن في أنه كان معبراً انتقلت خلاله الجدليات التنصيرية إلى الغرب .

وأبرز الأمثلة على ذلك كتاب (نقض الفقهاء Contrarietas elfolica) لأحد النصارى الأسبان ، الذي كان له تأثير بالغ في ريكولدو دي مونت كروس الحانق على الإسلام ، وقد أفاد كروس من هذا الكتاب في تصنيف أشهر كتبه (تفنيد القرآن Canfutatia Alcorani) الذي عُني به مارتن لوثر وسارع إلى ترجمته إلى الألمانية عام ١٥٤٢م[١].

د - مرحلة الحروب الصليبية (٤٩١هـ/ ١٠٨٩م - ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) :

بدأت الحروب الصليبية بخطب البابا أوربانوس الثاني في كليرمون فيران Clermont - Ferrand بفرنسا ، وإعلانه الحرب على الإسلام والمسلمين، ووعده المشاركين فيها بالفوز ببركة الكنيسة وبالغفران الكامل لخطاياهم مكافأة لهم على حمل السلاح تحت راية الصليب[٢].

وكان بطرس الناسك ذا أثر كبير في تعبئة العامة من أجل النهوض بأعباء القتال والحملات الصليبية[٣].

---

(١) قاسم السامرائي ، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، ص ٦١ مرجع سابق .

(٢) روم لاندرو ، الإسلام والعرب ، ص ١٢٢ ، دار العلم للملايين ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٧م .

(٣) السابق ، ١٢٤ .

ولما كانت الحروب الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان "لتدمير الإسلام"(١) ، فإن عهدها يعد لدى المنصرين "أروع العهود في العصور الوسطى كلها"(٢) .

وقد استمرت الحروب الصليبية على المستوى الدولي، وفي ذلك -كما يقول روم لاندو- برهان قاطع على أن كرّ السنين لم يخفف إلا قليلا من أعمال اللاتسامح التي قام بها الصليبيون باسم الله(٣) .

وتزامن مع عمليات الإبادة الجماعية التي مارسها الصليبيون ضد المسلمين حركة جدل واسعة استهدفت أصالة القرآن الكريم على يد عدد من الجدليين المشهورين في العصور الوسطى ، لكن أبرز ما يميز تلك المرحلة هو كونها إرهاصاً بظهور التنصير المؤسَّسي عقب نهاية حرب الفرسان حاملي السيف والصليب ، كذلك فإن أهم نتاج هذه المرحلة هو ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، تلك الترجمة التي ستكون محل دراسة موسعة عند عرض مسالك الجدل التنصيري ضد القرآن .

وأهم الرموز الجدلية في هذه المرحلة ، هم:

---

(١) فروخ - الخالدي ، التبشير والاستعمار ، ص ١١٥ ، مرجع سابق .

(٢) Julius Richter , A History of the Protestant Missions in the Near East , P 14 , New York 1910 .

(٣) روم لاندرو ، الإسلام والعرب ، ص ١٣١، ١٣٢ مرجع سابق .

١- بطرس المحترم (١٠٩٢-١١٥٦م):

بطرس المحترم هو أول جدليّ ضد الإسلام في الكنيسة الغربية كما يقول المنصِّر إديسون[١]، وهو راهب لاهوتيّ رئيس لدير "كلوني" الذي سيقوم بدور كبير في حركة الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن .

وقد قام برحلة إلى الأندلس ، ألّف عقب عودته منها كتاباً في الرد على الإسلام والقرآن عام ١١٤٣ م، وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية[٢].

٢- روجر بيكون الراهب الفرنسيسكانى (١٢١٤-١٢٩٤م):

وجّه بيكون رسالة إلى البابا إكليمنص الرابع سنة ١٢٦٦ م ضمَّنها دعوته إلى[٣]:

- وجوب إدخال اللغات الأجنبية إلى مناهج الدراسات الجامعية، وبخاصة اللغة العربية للإفادة منها وسيلة للتبشير ضد الإسلام .

- دراسة أحوال المسلمين للوقوف على الطرق التي يمكن النفاذ منها إلى هدم عقيدتهم وتقويضها.

---

(١) قاسم السامرائي ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) Trevor - Roper , Hugh , The Rise of Christian Europe , P 145 , Oslo - London 1978 .

(٣) نجيب العقيقي ، المستشرقون (١ / ١٢٠) ، دار المعارف ، ط ٤ ، مصر .

٣ ـ وليم الطرابلسي (١٢٧٣ م):

صنف جدلاً ضد أصالة القرآن ، جاء فيه: "بعد أن مات (محمد) أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه، فلما تبينوا أن الرجل الذي نيط به العمل لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل طلبوا إلى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه، وعند ذلك رأى هؤلاء من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد، وأن يمزجوها بالكتاب كيفما اتفق ، وبذا أصبح الكتاب على عظيم من الرونق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ما بين مسيحية ويهودية"[١] .

٤ ـ ريموند مارتيني (١٢٢٠ ـ ١٢٨٤ م):

راهب مبشر دومينيكاني أسباني ، تبحر في دراسة القرآن ، واجتهد في الجدل ضده ، فألف كتاباً بعنوان: "الخلاصة ضد القرآن" ، وبلغت به رغبته في تفنيد القرآن أن حاول معارضته بعد أن علم أنه معجزة النبي ﷺ ، فوضع سورة غاية في السخافة والسقامة[٢]: "بسم الله الغفور الرحيم ، أعارض قرآن مَنْ آخر اسمه الدال وأوله الميم ، بلسان فصيح عربي مبين ، لا يمنعني منه سيف ولا سكين ، إذ قال لي بلسان

(١) محمد الفيومي ، الاستشراق رسالة استعمار ، ص ٣٦٨ .

(٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٢١٣ – ٢١٥، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٨٩م .

الإلهام سيد المرسلين: قل المعجزة لا شريك فيها لرب العالمين وفي الفصاحة يشترك كثير كثيرين يغلب فيها أحيانا الصالح الطالح والكافر المؤمنين ، فليست الفصاحة ولو في النهاية آية ولا معجزة اللهم إلا عند الذين أوطاهم عشوة معلم مجنون حتى قالوا عنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، مع أنه بإقراره في سورة الأحقاف لم يدر قط ما يُفْعل به ولا بتباعه أجمعين أكتعين ، فقل يامن اسمه / رمند ولقبه مرَتْين : آه، لقومٍ يقبل الباطل والخرافات والترهات كأنها اليقين ، وإن كنتم في شك مما ألهمنا إليه عبدنا يا معاشر المسلمين فأتوا بحلٍّ هذه الحجة ، وبمثل هذه السورة وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين. فإن لم تقدروا ، ولن تقدروا فقد زهق الباطل، وانتقام اليقين والحمد والشكر لله آمين ، آمين"[(١)] .

وبصرف النظر عن مدى سقم محاولة مارتيني إلا أنها تكشف عن قفزة كبيرة وتطور في مستوى الجدل التنصيري في عهد الحروب الصليبية، وانتقاله من مجرد الطعن في أصالة القرآن إلى محاولة المعارضة ، وفي هذا دليل كاف على عدم دقة ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي من أن الجدل ضد القرآن بدأ في المسيحية الغربية على يد نيقولا دي كوزا (١٤٠١ - ١٤٦٤م)[(٢)].

---

(١) قاسم السامرائي ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ، ص ٥ .

هـ - مرحلة التنصير المؤسَّسي :

بدأت هذه المرحلة إثر فشل الحروب الصليبية في تدمير الإسلام ، فعندما خابت دول أوروبا في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف أرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير(١) .

وقد جاء هذا التحول بناء على وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابقة التي انتهت بالفشل ووقوع لويس نفسه في الأسر والسجن في مدينة المنصورة بمصر .

وتلفت الوصية الأنظار إلى صعوبة قهر المسلمين عن طريق القوة بسبب روح الجهاد لديهم، وتوصي بتلمس طريق الغزو الفكري الهادف إلى دحض العقائد الإسلامية وتزييفها(٢) .

ويمكن القول بأن بطل هذه المرحلة بلا منازع هو (ريموند لول Raymond Lull) وهو مبشر حانق على الإسلام ، كان حلم حياته هدم الإسلام ، وصرف حياته لمهمة تنصير المسلمين ، وسعى جاهداً لتحقيق هدفه من طريقين(٣) :

---

(١) Julius Richter , A History of the Protestant Missions in the Near East , P. 14 .

(٢) علي جريشة - محمد الزيبق ، أساليب الغزو الفكري ، ص ٢١ ، ط٢ ، دار الاعتصام . مصر .

(٣) ارنست رينان ، ابن رشد والرشدية ، عادل زعيتر ، ص ٢٦٧ القاهرة ١٩٥٧م .

– طريق شخصي بتصنيف الكتب الجدلية ضد الإسلام والقرآن.

– طريق مؤسِّسي ، بإقناع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين للعمل ضد الإسلام ، وفي الغرب بتقديم ثلاث عرائض إلى البابا كليمان الخامس لإنشاء كلية لدراسة العربية ، وعدد من كراسي تعليم اللغة العربية في الجامعات المختلفة لتكون من أهم وسائل الجدل ضد الإسلام والقرآن وأفضل الوسائل لتنصير المسلمين .

وبالفعل نجحت مساعي ريموند لول المؤسَّسية ، فقد أمر يعقوب الأول ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس لإعداد المبشرين وقام لول نفسه بإعدادهم فيها[1].

وقرّر مجمع فيينا الكنسي (١٣١١م) إنشاء خمسة كراسٍ لتعليم اللغة العربية في أكبر خمس جامعات في أوربا (باريس ، أكسفورد ، بولونيا ، سلمنكا ، جامعة الإدارة المركزية البابوية) وعين للتدريس فيها مدرسين كاثوليكيين[2].

– يوهان فوك ، تاريخ حركة الاستشراق ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، بترجمة عمر العالم ، ط ١ ، دار قتيبة، دمشق - بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

– سعيد عاشور ، الحركة الصليبية (٢ / ١٢٧٩) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣م.

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية (٢ / ١٢٧٩) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٣م.

– يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق ، ص ٢٦، ٢٧ ، مرجع سابق

(٢) يوهان فوك ، ص ٣١ ، مرجع سابق .

ويعد هذا القرار الكنسي البداية الرسمية للتنصير المؤسَّسي ؛ إذ أثمر عن ظهور أكبر مؤسستين تنصيريتين للعمل ضد الإسلام والقرآن حتى اليوم ، وهما :

المؤسسة الأولى : التبشير :

كانت كلية الثالوث المقدس القاعدة التى انطلق منها التنصير المؤسَّسي فهى أولى لبنات مؤسسة التبشير ضد الإسلام ، ولم يكن ريموند لول أول معلم فيها فقط ، بل كان "أول من مارس التبشير ضد الإسلام ، فجال في بلاده وناقش علماءه"[١] .

ولما كان الرهبان ورجال الدين النصارى يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوروبا، كان من الطبيعي أن يقودوا العمل التبشيري ضد الإسلام نظراً لمعرفتهم لغات المسلمين ، فأصبحت الكنائس والأديرة مرتكزات وقواعد للعمل التبشيري لتخريج أهل الجدل الذين يجادلون ضد الإسلام والقرآن[٢] .

ومن أوائل المبشرين الرهبان الجدليين ضد القرآن الراهب الدومنيكاني (ريكولدو دى مونت كروس) (١٢٤٣ - ١٣٢٠ م) الذى بعثه البابا نقولا الرابع إلى الشرق ، فتجول مبشراً في فلسطين ومجادلاً باللغة العربية ضد القرآن ، ثم ألّف أهم الكتب الجدلية ضد القرآن بعنوان :

---

(١) أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص ١٢ ، ١٣ . مرجع سابق .

(٢) نجيب العقيقي ، المستشرقون (١ / ١٠٤) . مرجع سابق .

(الجـدل ضـد المسلمـين والقــرآن) Disputatio Contra Saracenos et Alchoranem[1].

ثم كتب الكاردينال نيقولا دي كوزا (١٤٠١ - ١٤٦٤م) بتوجيه من البابا بيوس الثانى :

١ - "نقد الإسلام وتفنيده" .

٢ - "غربلة القرآن"[2].

وقام عدد من الآباء الدومينيكانيين واليسوعيين بتصنيف جدليات ضد القرآن منهم[3]:

- دينيس : (حول الخداع المحمدي) ١٥٣٣ م .

- ألفونس سينا : (التحصين الإيماني) ١٤٩١ م .

- جان دى تيريكريماتا : (بحث للرد على الأخطاء الرئيسية الخادعة لمحمد) ١٦٠٦ م .

- لويس فييف : (الإيمان المسيحى الحقيقى ضد المحمديين) ١٥٤٣ م .

- ميشيل نان : (الكنيسة الرومانية اليونانية في الشكل والمضمون للدين المسيحي ضد القرآن والقرآنيين دفاعاً وبرهاناً) ١٦٨٠ م .

- لودو فيجو مرتشي : (مقدمة في دحض القرآن) ١٦٩٨ م.

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص ٢١١ ، دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٩م .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ، ص ٥ ، مرجع سابق .

(٣) السابق ، ص ٦ .

وبرز من المبشرين الجدليين ضد القرآن في العصر الحديث كل من:

١- هنرى لامانس، مبشر يسوعى وراهب متعصب خلف لويس شيخو في إدارة مجلة المشرق، وإدارة المجلة التبشيرية (البشير)، وقد أودع جدليته ضد القرآن في مقاله: "هل كان محمد أميناً؟"، وفي كتابه: "الإسلام عقائد ونظم"[١].

٢- وليم موير (١٨١٩-١٩٠٥م)، مبشر إنجليزي أحد أعضاء البعثة التبشيرية الإنجليزية في شمال الهند، كتب جدليتين ضد القرآن:

- "القرآن تأليفه وتعاليمه" ١٨٧٧م.

- "الجدال مع الإسلام" ١٨٩٧م[٢].

٣- ريتشارد بل (توفي في النصف الثاني من القرن العشرين)، أحد رجال الدين المسيحي، وصرف سنين كثيرة في دراسة القرآن[٣]، وله في الجدل ضد القرآن عدة كتب ومقالات حول ما زعمه من التأثير المسيحي في النبي ﷺ، وأهمها مقدمته لترجمة القرآن التي ضمّنها جدليته الأساسية ضد أصالة القرآن الكريم.

٤- سانت كلير تسدال (توفي في أوائل القرن العشرين)، قسيس مبشر في إيران[٤]، صنف أعنف وأخطر جدلية ضد أصالة القرآن

(١) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٤٠٤، ٤٠٥، مرجع سابق.

(٣) العقيقى، المستشرقون (٢/ ٩٢، ٩٣).

(٤) أ. ل. شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٣٦.

الكريم: (المصادر الأصلية للقرآن) وكتبها بالألمانية، ثم ترجمها المبشر وليم موير إلى الإنجليزية[1].

٥- آرثر جيفري (توفي في النصف الثاني من القرن العشرين)، من محرري مجلة العالم الإسلامي التبشيرية وأبرز كتّابها، وقد بُعث للعمل في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم للتبشير في أمريكا اللاتينية، ثم إلى مدرسة اللغات الشرقية بالقاهرة.

وله عدة جدليات ضد القرآن الكريم وأصالته نشر بعضها في مجلة العالم الإسلامي ١٩٣٥م، ونشر بعضها في كتابه: "مصادر تاريخ القرآن"، وأودع بقيتها في مقدمة تحقيقه لكتاب المصاحف لأبي بكر ابن أبي داود[2].

٦- آرينز، مبشر، له جدلية بعنوان: "عناصر نصرانية في القرآن"[3].

٧- كينث كراج، خليفة زويمر في توجيه النشاط التبشيري في منطقة الشرق الأوسط، ورئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي التبشيرية، ورئيس مؤتمر التبشير المنعقد في أكسفورد عام (١٩٨٦م)، له جدليتان ضد أصالة القرآن، طبعتا أكثر من مرة لمساعدة وعاظ التنصير، وهما: "نداء المئذنة"، "القبة والصخرة".

---

(١) Saint Clair Tisdall, The Original Sources of the Qur_an , Landon , 1905 .

(٢) إسماعيل سالم عبد العالم، المستشرقون والقرآن (١/٢٥) سلسلة دعوة الحق – عن رابطة العالم الإسلامي، العدد ١٠٤، مكة المكرمة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، وقد قام –رحمه الله– بالرد التفصيلي على مقدمة جيفري لكتاب المصاحف.

(٣) العقيقي، المستشرقون (٣/٥٣٧).

٨ – بول بوبارد ، راهب فرنسي معاصر أشرف على إعداد قاموس للأديان "Dictionnaire des Religio" نشرت طبعته الأولى عام ١٩٨٤ م، وقامت على طبعه "المنشورات الجامعية الفرنسية" ، وأنجز أغلب مواده أساتذة المعهد الكاثوليكي بباريس .

وقد ردد المبشرون القائمون على الكتابة فيما يخص أصالة القرآن الجدليات القديمة نفسها، بإرجاع القرآن إلى الأصول التوراتية والإنجيلية التي وقف عليها النبي ﷺ ، مستدلين على ذلك بالعناصر المشتركة بين القرآن وكتب العهدين(١) .

المؤسسة الثانية : الاستشراق :

بدأ الاستشراق بقانون كنسي حدد مهمة المؤسسة الاستشراقية في التمهيد والإعداد لارتداد العرب إلى المسيحية(٢) .

ولذلك نصَّ قرار إنشاء كرسي اللغة العربية بجامعة كمبردج عام ١٦٣٦م –مثلا– على أن الكرسي أنشئ : "بهدف توسيع حدود الكنيسة ونشر المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الظلمات"(٣) .

---

(١) محمد عبد الواحد عسيري ، صورة الإسلام والمسلمين في قاموس الأديان ، ص ٢٢ – ٢٤ ، بحث مقدم إلى ندوة مصادر المعلومات في العالم الإسلامي المنعقدة في الرياض (٢٢ – ٢٥ رجب ١٤٢٠ هـ / ٣١ أكتوبر – ٣ نوفمبر ١٩٩٩م) .

(٢) Francis Dvornik , The Ecumenical Councils , PP. 65 - 66 , Hawthorn Books. New York 1961 .

(٣) عبد اللطيف طيباوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص ٤٧٧ ، مرجع سابق .

ولم تقتصر جوانب التنصير في المؤسسة الاستشراقية على الهدف وسلطة الإنشاء، بل تعدَّتها إلى الممارسة والتنظيم .

فقد كان الرهبان في طليعة المستشرقين[١]، ولا تزال لهم اليد العليا في العصر الحديث حيث يزيد عددهم على مائة راهب من: (البندكتيين، والفرنسيسكان، والكيوشيين، والكرمليين، والدومنيكان البيض، واليسوعيين)[٢].

أما التنظيم والإعداد فقد اضطلع به الفاتيكان ، واصطنع للمؤسسة الاستشراقية النفوذ لدى السلطات الحاكمة واضطلع بوسائل التمويل[٣].

وربما كانت الطبيعة التنصيرية الخالصة للمؤسسة الاستشراقية بعناصرها الأربعة: (سلطة الإنشاء ، والهدف ، والتنظيم ، والممارسة)، تسبب الالتباس في أمر المؤسستين، وتحول في كثير من الأحيان دون التفرقة بين العمل التبشيري والعمل الاستشراقي.

لكن على الرغم من الطبيعة التنصيرية المشتركة بعناصرها الأربعة بين المؤسسة التبشيرية والمؤسسة الاستشراقية ، فهناك فوارق بين المؤسستين تتمثل في أداة العمل التنصيري ومجاله ، حيث إن:

---

(١) العقيقي ، المستشرقون (٣/ ٢٤٩) مرجع سابق .

(٢) علي النملة ، الاستشراق فى الأدبيات العربية ، ص ٧٦ ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط ١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

(٣) العقيقي ، المستشرقون (١/ ١٠٤) مرجع سابق .

" الاستشراق أخذ صورة البحث العلمي وادعى لبحثه الطابع العلمي الأكاديمي ، أما دعوة التبشير فقد بقيت في حدود مظاهر العقلية العامة ، أي العقلية الشعبية، وبينما استخدم الاستشراق الكتاب والمقال في المجلات العلمية وكرسي التدريس في الجامعة، والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة ، سلك التبشير طريق التعليم المدرسي في دور الحضانة ودور الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء ، كما سلك سبيل العمل الخيري الظاهري في المستشفيات ودور الضيافة والملاجئ للكبار ودور اليتامى واللقطاء"(١) .

وهذا يعنى أن مؤسسة التبشير استهدفت تنصير العامة وذوي الحاجات بما يناسبهما من وسائل، واختص الاستشراق بتنصير النخبة والمثقفين ، بوسائط علمية وفكرية .

وهناك فارق آخر يمكن رصده ، يتمثل في المشاركة اليهودية في نشاط المؤسستين ؛ حيث شارك اليهود في الاستشراق بنسبة كبيرة وفعالة لا يمكن مقارنتها بالمشاركة الضئيلة في النشاط التبشيري، وإن كان الدور التبشيري الخطير الذى مارسه "زويمر" حركياً وتنظيمياً وجدلياً لا يمكن إنكاره.

---

(١) محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، ص ٢، الإدارة العامة للثقافة – مطبعة الأزهر. القاهرة، د. ت. الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٥٩، ٤٦٠، ط ٨ ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٥م .

أما فيما يخص أصالة القرآن الكريم والتكييف العقدي للإسلام، فإن المؤسستين تتفقان وتتحدان في استلهام التراث التنصيري وتكراره للمراحل السابقة في أطروحاته الأساسية:

- الإسلام هرطقة مسيحية.
- محمد ﷺ نبي مزيف لا أخلاقي.
- القرآن تلفيق من كتب العهدين القديم والجديد.

لذلك فإنه كما يقول إدوارد سعيد ساخراً: "سيكون مستشرقاً بحاثة ومختصاً ألمعياً ذلقاً في أيامنا هذه من يشير إلى الإسلام على أنه هرطقة آرية من الدرجة الثانية، وأن محمداً نبي لا أخلاقي، وأنه ألّف كتابه معتمداً على كتب التوراة والإنجيل"[1].

وقد بلغ الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم ذروته في هذه المرحلة بسبب الوسائل والإمكانات التي توافرت للمؤسسة الاستشراقية، ومن أبرز الجدليات الاستشراقية ضد أصالة القرآن الكريم[2]:

---

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٤٤ - ٩٤.

(٢) راجع: إدوارد سعيد، الاستشراق، مرجع سابق. نجيب العقيقى، المستشرقون، (٥٣١-٥٤١).

- عمر رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٢٢٠ - ٢٣١).
- عبد الرحمن بدوى، دفاع عن القرآن، ص ٢٣، ٢٤.

- **جدليات ذات نزعة يهودية :**

١- (الحاخام) أبراهام جيجر، ماذا أخذ محمد من النصوص اليهودية؟ ، بون ١٨٣٣م ، ط ٢ ليبزج ١٩٠٢م ، إعادة طبع ١٩٦٩م.

٢- هيرشفيلد :

- العناصر اليهودية في القرآن ، برلين ١٨٧٨م .

- مقالة في شرح القرآن ، ليبزج ١٨٨٦ م .

- أبحاث جديدة في فهم القرآن وتفسيره ، لندن ١٩٠٢ م .

٣ - سيدرسكي ، أصل الأساطير الإسلامية في القرآن ، باريس ١٩٣٢م.

٤ - هورفيتز ، بحوث قرآنية ، برلين - ليبزج ١٩٢٦ م .

٥ - إسرائيل شابيرو، الحكايات التوراتية في أجزاء القرآن، برلين ١٩٠٧م.

- عناصر من الهجادة في قصص القرآن . ليبزج ١٩٠٧ م .

٦ - فايل ، التوراة في القرآن ١٨٣٥ م .

٧ - جولدزيهر ، العقيدة والشريعة في الإسلام ، ترجمة محمد يوسف موسى وزميله، القاهرة (١٩٤٨ م).

٨ - س . د . جويتين ، اليهود والعرب : علاقاتهم عبر التاريخ . نيويورك (١٩٥٥م) .

٩ – بيرنات هيللر ، عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية، (١٩٨٢ م) .

١٠ – جوزيف هاليفي ، السامريون في القرآن (المجلة الآسيوية ١٩٠٨ م).

١١ – ج. فانسبرف، مصادر وطرق لتفسير الكتاب المقدس. طبع بتمويل من جامعة لندن عام ١٩٧٢م.

١٢ – ميشائيل كوك ، محمد ، مطابع جامعة أكسفورد ١٩٨٧م.

١٣ – رودي بارت ، محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته ، نشر دار كول هامر ضمن سلسلة أربان الألمانية عام ١٩٥٧م. وأعيد طبعه ١٩٦٦م.

جدليات ذات توجه مسيحي:

١– ج . بوستل ، توافق القرآن والإنجيل ، (١٥٤٣ م) .

٢– كراديفو ، راهب بحيرا والقرآن ، (١٨٩٨ م) .

٣– فلهلم رودلف ، صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، بترجمة عصام الدين حفني ناصف ، دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤م .

٤– جون بيرتون، جمع القرآن ، جامعة كمبردج ١٩٧٧م .

٥– ريجي بلاشير ، القرآن ، بترجمة رضا سعادة، وإشراف الأب فريد جبر ، دار الطليعة. بيروت ١٩٧٤م .

٦– وولكر باسيلي ، طابع الإنجيل في القرآن ، (١٩٣١ م) .

٧- بوم شتارك ، مذهب الطبيعة الواحدة في القرآن . مجلة المشرق المسيحي١٩٥٣م.

٨- سترشتين ، القرآن : الإنجيل المحمدي ، (١٩١٨ م) .

٩- ريتشارد بيل، أصل القرآن في بيئته المسيحية، لندن ١٩٢٦م، وأعيد طبعه عام ١٩٦٨م.

١٠- تور أندريا ، أصل الإسلام والمسيحية ، أوسلو ١٩٢٦م .

ويلاحظ أن مرحلة التنصير المؤسَّسي كانت أكثر المراحل وأبعدها أثراً في الجدل ضد أصالة القرآن الكريم ، وذلك لطول فترتها الزمنية منذ بدايتها ١٣١١م حتى اليوم، ولضخامة الجيش العامل في مؤسستيها : التبشير والاستشراق، وكذلك عِظَم الإمكانات المسخرة لعمل المؤسستين .

ويكفي دليلا على ذلك الطابور الخامس من المثقفين الذين أفرزتهم هذه المرحلة من الباحثين المسلمين "الجالسين تحت أقدام المستشرقين" كما وصفهم إدوارد سعيد، الذين ردّدوا الأطروحات التنصيرية نفسها، وكان لهم أثر بالغ في محيط ثقافي واسع ، مثل : طه حسين بكتابه : "في الشعر الجاهلي" ، محمد خلف الله بكتابه : "الفن القصصي في القرآن الكريم" ، محمد أركون بكتابه : "الفكر العربي" وبحثه المنشور : "مسألة صحة نسبة القرآن إلى الله" ، نصر أبو زيد بكتابه : "مفهوم النص" .

المبحث الرابع
مسالك الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم

سلك المنصرون في جدلياتهم ضد أصالة القرآن الكريم ثلاثة مسالك سعوا من خلالها إلى نفي ربانية مصدر القرآن، وهي:

المسلك الأول: ترجمة القرآن:

كانت ترجمة القرآن هي السلاح الذى سلَّه مجادلو التنصير لمحو القرآن أو منعه من الغلبة أو تفعيل دوره في الحفاظ على الذات الإسلامية.

إذ إن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية لم تتم بقصد المعرفة الخالصة أو الفهم المجرد، أو التفاعل والتكامل مع الآخرين، بل إنها تمت بقصد معرفة المواطن التي يمكن الوثوب منها عليه، أو البحث عما يمكن أن يكون نقاط ضعف يتم التركيز عليها لقهر "الآخر" وهزيمته والسيطرة عليه[١].

يقول يوهان فوك في تاريخه للدراسات العربية في أوروبا: "لقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن"[٢].

---

(١) عبد الحميد مدكور، الترجمة والحوار مع الآخر، ص ٤٧، كتاب المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية "الفلسفة الإسلامية والتحديات المعاصرة" المنعقد بدار العلوم. القاهرة ١٩٩٦ م.

(٢) يوهان فوك، مرجع سابق، ص ١٤.

ويضيف أن هذه الفكرة التي أدت إلى ترجمة القرآن قد شهدت توسعاً من خلال تنقلات الوعاظ الدينيين لطائفتي الدومنيكان والفرنسيسكان[١].

ويظهر هذا بجلاء من خلال أمور:

أولها: أن أول نصوص مترجمة من القرآن إلى اللغات الأجنبية قد جاءت ضمن كتاب "الجدل" الذي ألّفه ابن الصليبي مطران ديار بكر (ت ١١٧١م) وهو مخطوط بالسريانية في كنيسة بطريركية السريان ببيروت[٢].

الثاني: أن بطرس الموقر أمر بترجمة القرآن للمرة الأولى عام ١١٤٣ م حتى يستطيع دحضه[٣].

وقد أكد زويمر المبشر اليهودي على أن تلك الترجمة تمت بدافع تنصيري[٤].

الثالث: ما ذكره جورج سيل في مقدمة ترجمته للقرآن بأن الهدف منها هو تسليح النصارى البروتستانت في حربهم التنصيرية ضد الإسلام والمسلمين؛ لأنهم وحدهم قادرون على مهاجمة القرآن بنجاح، وأن العناية الإلهية قد ادَّخَرَتْ لهم مجد إسقاطه[٥].

---

(١) السابق، ص ٢٢.

(٢) محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص ٩٧، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(٣) Trevor - Roher , Hugh , The Rise of Christian Europe , P . 145

(٤) Zwemer S., The Translation of the Quran , The Muslim World, P. 295, 5 (1973) .

(٥) أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٣٥، المنتدى الإسلامي، لندن ١٤١١هـ.

ولما أعيد نشر هذه الترجمة في طبعة أخرى عام ١٨٩٦م بتقديم المبشر "هويري" وتحقيقه ، أعاد هويري تأكيد دور هذه الترجمة في تنشيط العمل التنصيري ضد الإسلام وتدعيمه[١].

الرابع: أن الكنيسة حرمت طبع أو نشر ترجمة القرآن ، حتى إن ترجمة بطرس الموقر ظلت حبيسة محفوظات دير كلوني ولم يفرج عنها إلا بعد أربعة قرون[٢]. ثم أعيد تحريم الطبع والنشر مرة ثانية ، ولم يسمح بطباعة الترجمة إلا عام ١٦٩٤م ، عندما قام راهب مدينة هامبورج الألمانية إبراهام هنكلمان بطبعه[٣].

وقد سُخِّرت ترجمة القرآن في الجدل التنصيري من طرق :

الأول: تشويه الترجمة :

عمد المترجمون إلى تشويه ترجمة القرآن بإسنادها إلى مترجمين من الدرجة الثانية والثالثة، ومعاملة النص القرآني معاملة مؤلفات بشرية ، وذلك للحد من إمكان إقبال غربيّ على هذه الترجمات والإفادة منها ، وبذلك تألَّف حاجز نفسي عميق بين غير المسلم والقرآن ، وكانت هذه الترجمات أحد أسباب سيول الأباطيل والمطاعن والشتائم التي ساقها كتَّاب التنصير ضد القرآن الكريم[٤].

---

(١) السابق ، ص ٣٦ .

(٢) محمد صالح البنداق ، مرجع سابق ، ص ٩٥، ٩٦ .

(٣) يوهان فوك ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

(٤) قاسم السامرائي ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

ويعدد صالح البنداق وجوه تشويه ترجمات القرآن، فيما يلي[1]:

١- إزاحة الآيات من مكانها التوقيفي لتضليل القارئ وإبعاده عن الإحاطة بحقيقة النص القرآني .

٢- الترجمة الحرّة وتحاشي الترجمة العلمية إمعاناً في التحريف والتضليل ، مما يترتب عليه تحوير المعاني وتبديلها ، وعرض النص القرآني كما يراه المترجم ، لا كما تقتضيه آياته وألفاظه .

٣- التقديم والتأخير والحذف والإضافة .

مما يمكن معه القول بأن "ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر"[2] .

فالترجمة اللاتينية الأولى للقرآن "ترجمة بطرس الموقر" التي تمت عام ١١٤٣م اضطلعت فقط بتقديم مضمون الفكرة ، ولم تكترث بأسلوب الأصل العربي وصياغته ، وقام الدافع التنصيري حائلا أمام الوفاء بتحقيق هذا الغرض[3].

وقد كانت هذه الترجمة "المشوّهَة" الأصل الذي نبعت منه الترجمات الأخرى ؛ فمنها نبعت الترجمة الإيطالية الأولى التي أشرف

---

(١) محمد صالح البنداق ، مرجع سابق ، ص ١٠١ - ١٠٨ .

(٢) رشيد رضا ، الوحي المحمدي ، ص ٢٤ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

(٣) يوهان فوك ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

عليـهـا أريفـابيني عـام ١٥٤٧م ، وفي سنة ١٦١٦م ترجم سـالمون شفايجر إلى الألمانية عن الإيطالية، وعن الألمانية إلى الهولندية في سنة ١٦٤١م[١].

وعن هذه الترجمة اللاتينية الأولى وضع الحاخام اليهودي يعقوب ابن إسرائيل أول ترجمة بالعبرية عام ١٦٣٤م[٢].

الثاني: إضافة المقدمات والملاحق:

أضيف إلى نصوص الترجمات "المشوّهة" للقرآن الكريم مقدمات تفسيرية وملاحق شارحة لا لمضمون النص المترجم ، بل جدليات ضد أصالته، وسخرية من محتواه ، ومحاولات للحط منه .

أما الترجمات الفرنسية للقرآن سواء اعتمدت على الترجمة اللاتينية الأولى أم على الأصل العربي أم على ترجمة مرتشي الإيطالي ، فإنها شوهت النص الأصلي وابتعدت عنه كما تقول الباحثة هداية عبد اللطيف مشهور في دراستها حول ترجمات القرآن الفرنسية: "رجعت إلى خمس وعشرين ترجمة للقرآن بالفرنسية ، فوجدتها كلها محرَّفة ، وتضيف نصوصاً من التوراة إلى آيات القرآن الكريم دون الإشارة إلى ذلك"[٣] .

---

(١) يوهان فوك ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٢) محمد صالح البنداق ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٣) مجلة الحرس الوطني، ص ٣٧، العدد ١٢٩ . المملكة العربية السعودية (ذو القعدة ١٤١٣هـ – مايو ١٩٩٣ م).

وهكذا فقد تضمنت الترجمة اللاتينية الأولى "ترجمة بطرس الموقر" التى قام بها الراهب الإنجليزي روبرت الرتيني ، والراهب الألماني هرمان الدالماني، عدداً من المقدمات والملاحق سميت بمجموعة "دير كلوني" ، وهي[١]:

١ – خطاب بطرس إلى بيرنهارد (القديس برنار دى كليوفر) .

٢ – مجموعة مختصرة من الوثائق الشيطانية المضادة للطائفة الإسلامية الكافرة.

٣– مقدمة روبرت الرتيني .

٤– "تعاليم محمد" لهرمان الدالماني .

٥– "أمة محمد ونشوزها" لهرمان الدالماني .

٦– تاريخ المسلمين (أخبار المسلمين المعيبة المضحكة) .

ولما انتهى الكاردينال يوحنا الأشقوبي الإسباني (ت ١٤٥٦ م) من ترجمة القرآن إلى اللاتينية بمساعدة آخرين ألحق بالترجمة جدلية ضد الإسلام بعنوان: "طعن المسلمين بسيف الروح[٢]" .

---

(١) يوهان فوك ، مرجع سابق، ص ١٧ – عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص ٣٠٧ .

(٢) أورد الألماني هانبت سجلاً للحدث في مقاله: "حوار يوحنا الأشقوبي مع نيكلاوس القوسي وجيان الجرماني حول الثالوث المقدس وإعلانه بواسطة المحمديين" M TH Z 2 (1915) S : 5 ,

وحينما نشرت مطبعة بتافيا بإيطاليا الترجمة اللاتينية الذائعة الصيت التي قام بها الراهب الإيطالي لودوفيجو مرّتشي ١٦٩٨م بموافقة البابا إنوسنت الحادي عشر ، جاءت الترجمة في قسمين:

يشتمل القسم الأول على النص العربي للقرآن مع ترجمته اللاتينية وحواشي جزئية للرد على بعض المواضع ، ويشتمل القسم الثاني على كتاب : "الرائد إلى الرد على القرآن"(١) .

أما ترجمة جورج سيل الإنجليزية التى ظهرت في لندن عام ١٧٣٤م وأعيد طبعها أكثر من ثلاثين مرة ، فقد تضمنت مقدمة جدلية ضد القرآن وصفت في أدبيات التنصير بأنها قيِّمة، وأنها أفضل وصف موضوعي للإسلام(٢).

لذلك أصبحت هذه المقدمة إحدى الجدليات الأساسية التي يعتمد عليها التنصير في الجدل ضد أصالة القرآن الكريم(٣).

الثالث : عنونة ترجمات القرآن:

لم تكرّس العنوانات التي وضعها مجادلو التنصير على أغلفة ترجمات القرآن جدلياتهم ضده فقط ، بل ألفت بذاتها جدليات مستقلة ضد

---

(١) عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص ٣٠٣ ، مرجع سابق .

(٢) أحمد عبد الحميد غراب ، مرجع سابق ، ص ٣٥، ٣٦ .

(٣) يراجع في ذلك ما ذكره المبشر القبطي المهتدي للإسلام إبراهيم خليل أحمد في كتابه: المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي، ص ٥٨ . مكتبة الوعي العربي. القاهرة ١٩٦٤ م.

أصالة القرآن ، حيث تحاشت عقد أية صلة بين القرآن والوحي السماوي ، فكتب المترجمون على الأغلفة عنوانات من قبيل : (كتاب محمد ، قرآن محمد ، القرآن العربي ، القرآن التركي ، مبادئ السراسنة ، الشرائع التركية، الكتاب المقدس التركي ، تشريعات المسلمين)[1] .

المسلك الثاني : البحوث التنصيرية حول القرآن :

بدأ هذا المسلك مع بداية مرحلة التنصير المؤسَّسي، حيث عكفت مؤسستا التنصير : التبشير والاستشراق، على إجراء بحوث ودراسات حول القرآن لتقرير إنسانية مصدره، وتطبيق مناهج نقد النصوص الأدبية على القرآن .

وقد أسهمت مدرسة النقد التاريخي في الغرب التي أسسها الكاثوليكي ريتشارد سيمون بكتابه : "التاريخ النقدي للعهد القديم" عام ١٦٧٨م[2]، بدور فعّال في هذا المجال؛ حيث تناولت القرآن الكريم ضمن مبحثين من مباحث النقد التاريخي للنصوص ، وهما :

---

(١) راجع رصداً لهذه العنوانات لدى : محمد أبو فراخ ، تراجم القرآن الأجنبية في الميزان ، مجلة كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . العدد الرابع (عام ١٤٠٢ / ١٤٠٣هـ) .

– محمد صالح البنداق ، مرجع سابق .

– عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين ، الفصل الذي عقده لترجمات القرآن .

(٢) ظن الدكتور محمد خليفة حسن في كتابه : "آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية" ، ص ١٠٣ ، دار عين للبحوث والدراسات . القاهرة ١٩٩٧م، أن فلهاوزن مؤسس علم النقد التاريخي، وهذا غير صحيح؛ لأن جهود فلهاوزن في اكتشاف مصادر التوراة الأربعة مسبوقة بجهود ريتشارد سيمون صاحب أول مؤلّف في علم النقد =

أ- مصادر القرآن :

لم ير هذا المبحث النور إلا في أعقاب نجاح جهود مدرسة النقد التاريخي من خلال بحوث : ريتشارد سيمون ـ يوهان سملر ـ القس الألماني تلننج برنارد فيتر ـ جان استروك ـ كارل دافيد إيلجن ـ دي فيته ـ هيرمان هونفلد ـ تيودور نولديكه ـ فلهاوزن، في اكتشاف الوثائق أو النسخ أو التقاليد (الكهنوتية ـ الإيلوهيمية ـ اليهوية ـ التثنية) التي كوّنت مصادر كتابة التوراة على يد محرريها من اليهود.

ولما كان الأخيران من رجال مدرسة النقد التاريخي (نولديكه، وفلهاوزن) من كبار علماء المؤسسة الثانية من مؤسسات التنصير (الاستشراق)، فقد وجّها البحث في هذا المجال إلى القرآن الكريم، وذلك لإضفاء ثوب براق من العلمية والمنهجية الزائفة على الادعاء التنصيري القديم بأن القرآن تلفيق من التوراة والإنجيل .

لذلك أصبح موضوع "مصادر القرآن" أو "مصادر الإسلام" فرعاً مستقلا بذاته في دراسات مؤسستي التنصير: الاستشراق والتنصير.

= التاريخي وتلته جهود خلفائه المذكورين في المتن والذين اكتشفوا كلٌّ على حدة أحد مصادر التوراة الأربعة، وقام فلهاوزن بترتيبها وتصنيفها وكشف دلالاتها .

راجع في ذلك:

Hans Joachim Kraus , Geschichte der historisch - kritischen Erforschung des Alten Testament , Neukirchen - Vluyn . 1969 .

Rudolf Smend , Epochen der Bibelkritik , Muenschen 1991 .

وقد حرص مجادلو التنصير في هذا المجال على إرجاع كل كبيرة وصغيرة في القرآن إلى مصدر سابق سواء أكان دينياً أم غير ديني، وقد دارت مصادرهم المقترحة للقرآن الكريم حول مصادر ستة[1]:

١- الوسط الوثني في شبه جزيرة العرب (معتقدات، عادات، عبادات، أشعار) وعلى الأخص شعر أمية بن أبي الصلت.

٢- الحنفاء .

٣- الصابئة .

٤- الزرادشتية وديانات الهند القديمة .

٥- النصرانية .

٦- اليهودية .

ومن بين الجدليات التنصيرية ضد أصالة القرآن في هذا المجال:

١- المصادر الأصلية للقرآن ، للمبشر البروتستانتي سانت كلير تسدال .

٢- مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء ، سايدر سكاي ، باريس ١٩٣٢م .

٣- تاريخ الإسلام ، إصدار جامعة كمبردج عام ١٩٧٠م بإشراف برنارد لويس .

---

(١) عمر رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٢٣٧ - ٣٦٥) . محمد الشرقاوي ، الاستشراق، ص ٨٤ - ١١٤ ، مطبعة المدينة . القاهرة. د . ت.

٤- مصادر القص الكتابي في القرآن، سباير .

٥- مصادر تاريخ القرآن ، آرثر جيفري .

٦- محمد ، ميشائيل كوك ، طبع جامعة أكسفورد ١٩٨٧م .

٧- القرآن والكتاب ، الخوري الحداد ، مطبعة حريصا البولسية ، لبنان .

٨- مصادر الإسلام ، المبشر وليم موير ، لندن ١٩٠١م .

وغيرها الكثير مما سبقت الإشارة إليه في النتاج الجدليّ لمرحلة التنصير المؤسّسي واكتفينا بذكره في موضعه تجنباً للتكرار .

ب ـ تاريخ القرآن :

أدرج هذا الموضوع ضمن مباحث منهج النقد التاريخي التي عالجت كتاب العهد القديم والعهد الجديد معالجة تاريخية، بوصفهما عملين أدبيين بإسهام إنسانيّ يمثل أرقى إنتاج إنساني متطور عبر العصور، لأنه لم يُؤَلَّف دفعة واحدة أو بقلم واحد، بل مرَّ بمراحل تطور تاريخية وأدبية يمكن رصدها وتحليلها ، حيث مرّ في مرحلة تكوينه: تأليفاً وجمعاً وتثبيتاً ، بما يزيد على ألف عام بالنسبة للعهد القديم، وما يقارب نصف الفترة بالنسبة للعهد الجديد ، وفي تلك الرحلة الطويلة تغيرت المضامين الدينية عبر مراحل التطور ، وتغير البناء التركيبي للنصوص أدبياً ولغوياً ، مما استوجب بحثاً نقدياً تاريخياً ، يفسر، ويبيّن ، ويفصل ما بين تلك المراحل[1].

---

(١) محمد خليفة حسن ، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، ص ١٠٢ ، مرجع سابق .

وقد صنّف مجادلو التنصير من أتباع مدرسة النقد التاريخي عدة مصنفات جدلية ضد أصالة القرآن الكريم تضعه في مصاف الأعمال ذات المراحل التطورية المتعاقبة، بما يعنيه ذلك من دمغ له بالبشرية، تصنيفاً، وتحريراً، وتطويراً .

ومن هذه المصنفات[1]:

١- تاريخ القرآن، بوتيه (١٨٠٠ - ١٨٨٣م)، باريس ١٩٠٤م .

٢- التطور التاريخي للقرآن، إدوارد سل، مدراس (الهند) ١٨٩٨م.

٣- القرآن ، فلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨م) مقال بالمجلة الشرقية الألمانية عام ١٩١٣م .

٤- مواد لدراسة تاريخ نص القرآن ، آرثرجفري ، ليدن ١٩٣٧م.

٥- تاريخ النص القرآني، إجناس جولدتسهر، جوتنجن ١٨٦٠م، وقد أعيد طبعه والتعليق عليه في مجلدين بواسطة ف. شواللي، ليبتزج ١٩٠٩م .

٦- تاريخ النص القرآني، نولديكه .

٧- تاريخ قراءات القرآن، برجشتراسر .

وذلك بخلاف المداخل التي صنفها مجادلو التنصير للتعريف

---

(١) عمر رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره (١ / ٢٢٠ - ٢٣١).
محمد خليفة حسن ، مرجع سابق ، ص ١٠٣، ١٠٤.

بالقرآن الكريم وتناولت قضية "مصادر القرآن"، "تاريخ القرآن"، مثل المدخل الذي وضعه: بلاشير الفرنسي ونُشر في باريس ١٩٤٧م بعنوان "مدخل إلى القرآن"، وكذلك المدخل الذي وضعه د. بل، ونشر في إدنبره ١٩٥٤ م بعنوان "مدخل إلى القرآن".

المسلك الثالث: إصدار الدوريات والقواميس ودوائر المعارف المتخصصة:

من أبرز الدوريات التنصيرية المتخصصة في الجدل ضد القرآن الكريم: مجلة العالم الإسلامي، الحقيقة الواضحة، مجلة الإسلام: الألمانية، والفرنسية، والروسية.

ومن أهم دوائر المعارف التنصيرية في هذا المجال "دائرة المعارف الإسلامية"[١]، التي صدرت طبعتها الأولى باللغات الثلاث: الإنجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من ١٩١٤م إلى ١٩٤٢م، وحرص على إصدارها عتاة المستشرقين والمبشرين بإشراف الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، ولما نفدت هذه الطبعة بدأ إصدار طبعة جديدة اعتباراً من سنة ١٩٥٤م.

---

(١) راجع تاريخ نشأة الموسوعة وبيانات المؤلفين والموضوعات، لدى:

- محمد فتحي عبد الهادي، المصادر المرجعية العربية عن الإسلام والمسلمين، ص ٨ - ١٠، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، مرجع سابق.

- أعراب عبد الحميد، دائرة المعارف الإسلامية، ص ٨ - ١٥، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، مرجع سابق.

وبدأ صدور الترجمة العربية للطبعة الأولى منذ عام ١٩٣٤م ، وفي عام ١٩٩٧م صدرت ترجمة كاملة لدائرة المعارف الإسلامية بالتعاون بين الهيئة المصرية العامة للكتاب ومركز الشارقة للإبداع الفكري .

وتعد هذه الدائرة أضخم عمل مرجعي عن الإسلام ، كما أنها تتصف بصفة العالمية حيث شارك في تصنيفها قرابة ثلاثة آلاف مؤلف ينتمون إلى مختلف الجنسيات والديانات ، مما أعطاها زخماً كبيراً في مجال الجدل ضد أصالة القرآن بما لها من انتشار وقبول .

وقد وفّرت كل تلك الخصائص للدائرة سمات العمل التنصيري الناجح في تشويه حقائق الإسلام وإثارة الشبهات حول أصالة القرآن .

يقول فريد وجدي : "إن أكثر كتّاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يحيفوا الإسلام لا أن ينصفوه" ، لذلك يصف رشيد رضا مباحث الدائرة بما فيها من أغلاط ومطاعن ومخالفة الحقائق، بأنها : "أضرُّ من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم"(١) .

ويكفي استعراض ما سطره المبشر الأمريكي ماكدونالد في الدائرة .

المسلك الرابع : ترويج المزاعم وإثارة الشبهات :

اتجه المنصِّرون في جدلياتهم منذ البداية إلى إثارة الشبهات والمزاعم حول المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وكانت جدلية الدمشقي ضد الإسلام هي المنطلق والفرضية الأساسية التي بنيت عليها مزاعم وشبهات الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم .

---

(١) أعراب عبد الحميد، دائرة المعارف الإسلامية، ص ٩، ندوة مصادر المعلومات . مرجع سابق .

فمنذ أرسى الدمشقي دعائم جدليته الأساسية "الإسلام هرطقة مسيحية" ، ولا زال الجدل التنصيري يرددها عبر مراحله المختلفة، ففي العصور الوسطى تلقفها توما الإكويني الذي صبغ العصور الوسطى برؤيته، فوصف الإسلام بأنه دين زائف وهرطقة بدعية[١].

وفي العصر الحديث أكد المبشر الأمريكي ماكدونالد، مؤسس مدرسة كنيدي لإعداد الإرساليات التبشيرية، وصاحب الدراسات الواسعة عن الإسلام ومؤلف أكثر من "مادة" من مواد دائرة المعارف الإسلامية، أكّد فيها أن "الإسلام مسيحية مهرطقة"[٢] .

وتجسدت هذه الجدلية في الأعمال الأدبية والفنية التنصيرية ففي "الكوميديا الإلهية" لدانتي الذي كان يتبنى الفلسفة اللاهوتية لتوما الإكوينى، يظهر محمد ﷺ في فصل (كانتو) ٢٨ من الجحيم، وقد وُضع في الدائرة الثامنة من دوائر الجحيم التسع، وهي دائرة من الخنادق الكئيبة التي تحيط بمعقل الشيطان ولا يفصل بين محمد ﷺ وقعر الجحيم حيث يقبع الشيطان، سوى المزيفين والخونة مثل: (يهوذا الإسخريوطي، وبروتس الروماني) . كما أن عقابه فريد مثير للاشمئزاز حيث يقطع نصفين من ذقنه إلى شقين. وهو يسوِّي بينه في استحقاق العقوبة وبين قسيس شهواني مرتد ادعى لنفسه مكانة دينية بارزة اسمه: "فرا دولشينو" .

Montgomery Watt, The Influence of Islam on Medieval Europe , p . 74, (١) Edinborough up 1972 .

(٢) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٢٢٠ مرجع سابق .

بينما يضع كلاً من ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين في الدائرة الأولى من الجحيم حيث يقاسون أخف ألوان العقاب؛ لأنهم أفاضل فاتتهم فقط نعمة الوحي المسيحي[1].

وقد ترتب على هذه الجدلية الادعاء بأن القرآن ليس كتاباً سماوياً أصيلا بل كتاب هرطقة، وهو ما تفرع عنه زعمان وشبهتان رئيستان روجتهما دوائر الجدل التنصيري في جدلياتها ضد أصالة القرآن، وهما:

أ- القرآن تلْفيق من اليهودية والنصرانية:

يقول المستشرق اليهودي إبراهام جيجر في كتابه: "ماذا اقتبس محمد من اليهودية؟": "إن القرآن مأخوذ باللفظ أو بالمعنى من كتب اليهود"[2].

ويؤكد اليهودي برنارد لويس: "أن محمداً خضع للتأثيرات اليهودية والمسيحية كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن"[3].

ويشرح جولدتسهر قائلا: "تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة .... فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعد هذه التعاليم وحياً إلهياً"[4].

---

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٩٧، مرجع سابق.

(٢) نقلا عن محمد صالح البنداق، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٣) غراب، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٤) جولدتسهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، القاهرة ١٩٤٨م.

ويستدل الخوري الحداد المبشر اللبناني في جدليته الضخمة ضد أصالة القرآن[1]، على صحة مزاعم أسلافه من المنصرين، بقوله: "فوجود العالِم المسيحي ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عاماً قبل البعثة، وأعواماً بعدها في أوائل الدعوة، ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبي في كل زمان ومكان حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها، وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل"[2] .

---

(١) صدرت هذه الجدلية منتصف القرن العشرين في أربعة مجلدات طبعتها مطبعة حريصا البولسية في لبنان بعنوان "دروس قرآنية"، مع عنوان خاص لكل كتاب، يجسد فيه مضمون جدليته، وجاءت على النحو التالي:

١- الإنجيل والقرآن.

٢- القرآن والكتاب.

٣- القرآن والكتاب وهو تكملة للجزء الثاني.

٤- نظم القرآن والكتاب.

وقد تصدى له الشيخ محمد عزة دروزة في ردٍّ تفصيلي في كتابه "القرآن والمبشرون" الصادر عن المكتب الإسلامي بدمشق، في مؤلف عدّه الدكتور/ فريد مصطفى من أفضل ما كتب الشيخ دروزة.

راجع : فريد مصطفى سليمان، محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، ص ٤٢٤، مكتبة الرشد، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

(٢) الحداد، القرآن والكتاب (٢ / ١٠٦٠) مرجع سابق .

ب ـ القرآن تكرار لقصص العهد القديم والجديد :

ساق مجادلو التنصير هذا الزعم تخصيصاً لما أجمل في الشبهة السابقة، استناداً إلى العناصر المشتركة بين القصص القرآني وقصص العهدين.

يقول جولدتسهر: "لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء ليذكِّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم"(١) .

ويستطرد موضحاً طريقة الإفادة، بقوله: "إن محمداً أخذ يجمع ما وجده في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من دون أي تنظيم"(٢) .

أما المستشرق اليهودي فنسنك فيخرج بدائرة الإفادة عن حدود العهد القديم، ويربط لنا بوضوح بين هذا الزعم وسابقه والفرضية الأساسية والمنطلق الذي تفرعت عنه هذه الادعاءات قائلا : "النبي كان يبشر بدين مستمد من اليهودية والنصرانية، ومن ثمَّ كان يردد قصص الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل، لينذر قومه بما حدث لمكذِّبي الرسل قبله، وليثبِّت أتباعه القليلين من حوله"(٢) .

---

(١) جولد تسهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٥ مرجع سابق، والمعنى نفسه أورده بلفظ مقارب في "مذاهب التفسير الإسلامي" ، ص ٧٥، بترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة ١٩٥٥م .

(٢) غراب، مرجع سابق، ص ٩١ .

ولأن هذه المزاعم التنصيرية تستمد أصولها من مزاعم مشركي مكة حول أصالة القرآن الكريم كما اتضح ذلك من خلال رصد خصائص الجدل التنصيري في مرحلة بداياته المشرقية، فإن القرآن الكريم نفسه قد تصدى لهذه المزاعم مفنداً إياها من طرق:

أولها: طريق التحدي، وهو طريق الردع لذوي اللجاجة في الجدل غير المنقادين إلى المسلمات والحقائق، والرافضة لكل برهان يقينيّ ودليل إلزامي وحجة دامغة. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

فإن كان محمد ﷺ قد استطاع بمساعدة أهل الكتاب أن يأتي بالقرآن من عند نفسه، فليحاول أهل الكتاب أنفسهم ومعهم الثقلان من الجن والإنس أن يأتوا بمثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم مبدأ الإفادة.

وهذا التحدي القرآني لمجادلي التنصير يشتمل على دليل بطلان مزاعمهم؛ إذ التحدي مكلَّل بفشلهم وهو دليل على بطلان دعواهم.

الثاني: طريق المقارنة ، حيث يدعو القرآن إلى تأمل آياته وقصصه وأخباره، إذ ينتهي ذلك التأمل إلى نتيجة حتمية مؤداها تنزيه القرآن عن الاختلاف والتناقض، وهذه سمة الوحي الإلهي الأصيل فقط، أما غيره فيشتمل على وجوه من الاختلاف والتضارب، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

الثالث: طريق النقد التاريخي، وفيه ألزم القرآن مجادليه بحقيقتين تاريخيتين تبطلان مزاعمهم:

الحقيقة الأولى: أمية الرسول ﷺ وعدم معرفته بالقراءة والكتابة. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

الحقيقة الثانية: عجمة المُعَلِّمين المزعومين، فالحدَّاد الذي نسبوا إليه تعليم النبي ﷺ كان لسانه أعجمياً لا يجيد العربية، بينما القرآن في أعلى طبقات الفصاحة التي سجد لها بعض الأعراب، والتي لا يستقيم عقلا أن يتعلمها النبي ﷺ من أعجمي، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

المبحث الخامس
تفنيد مزاعم الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن الكريم

فرضت طبيعة الجدل التنصيري ضد أصالة القرآن بما أثارته من مزاعم وشبهات وبما سلكته من ضروب ومسالك، نوع المنهج المناسب لتفنيد تلك المزاعم وبيان تهافتها، وليس ثمة شك في أهمية الدور الذي يمثله المنهج في هذا المجال، لأن مجادلي التنصير ألبسوا مزاعم جدلياتهم ثوب المنهجية، وبثوها من خلال الجالسين تحت أقدامهم من المخبرين الثقافيين المحليين عبر بوابات العلم ومداخله.

لذلك فإن المنهج المقارن إلى جانب منهج النقد التاريخي ومنهج نقد النصوص وبحوث تاريخ الأديان هي الأبرز شأناً في مناقشة مزاعم الجدليين ضد أصالة القرآن الكريم، ولهذه المناهج القدرة على إثبات أصالة الحقيقة التاريخية الثابتة لتلقي النبي محمد ﷺ الوحي القرآني من ربه من خلال الشواهد التاريخية ومن خلال نتائج بحوث تاريخ الأديان ومقارنة النصوص ونقدها .

وستأتي هذه المناقشة على النحو الذي سلكته دوائر التنصير من طرح جدلياتها عبر دعويين، مما يستوجب أن تكون المناقشة –أيضاً– من خلال معبرين:

١ – دلائل تهافت الدعوى الأولى : القرآن تلفيق من اليهودية والنصرانية .

لا شك أن العلاقة بين الإسلام واليهودية والنصرانية غير منكورة ابتداءً ؛ إذ يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ . . . ﴾ (الشورى : ١٣) .

كذلك شأن العلاقة بين القرآن والكتب السابقة، لقوله تعالى في شأنها : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس : ٣٧) .

لكن هذه العلاقة غير المنكورة بين القرآن والكتب السابقة ليست علاقة اقتباس ومتابعة من القرآن كما أشاعت جدليات التنصير، بل هي كما قرر القرآن الكريم نفسه :

١ – هيمنة قرآنية وتصديق، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ . . . ﴾ (المائدة : ٤٨) .

٢ – كشف للمستور، كما قال تعالى : ﴿ . . . قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ (المائدة : ١٥) .

٣ – فصل في مواضع الخلاف : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦) .

٤ – تفصيل : ﴿ . . . وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس : ٣٧) .

ومثل هذه العلاقة التغايرية التقابلية بين القرآن وكتب العهد القديم والجديد، علاقة: المهيمن بالمهيمن عليه، المبين بالمُسْتَبْيَن، الفيصل بالمفصول فيه، المفصِّل بالمبهم، لابد أن تتضمَّن اختلافاً بعيداً بين الفاعل والمنفعل، بين المؤثِّر (القرآن) والمتأثر (كتب العهدين).

وذلك يجعل من القول باقتباس القرآن من التوراة والإنجيل مناقضاً لطبائع الأشياء وبدهيات الأمور، ومنافياً لحقيقة الاختلاف والتباين البعيد بين القرآن وكتب العهدين القديم والجديد.

وهذا ما نطق به المبشر الدومنياني الراهب دي مونت كروس في أحد مقاطع جدلياته ضد أصالة القرآن، قائلا: "يا محمد أنا لا أصدق أنك قد تسلمت هذه الآراء من الله؛ لأنك عجيب غريب في رسالتك؛ لأنك لا تتفق مع أي كتاب مقدس آخر... يجب أن ننبذ ما ادعى محمد أنه تسلمه من الله؛ لأنه مناقض تماماً للأحكام التي كتبها موسى والأنبياء والرسل بعده"[1].

وليست طبيعة العلاقة بين القرآن وكتب اليهود والنصارى هي العائق الوحيد أمام صحة الزعم باقتباس القرآن من كتب العهدين القديم والجديد، بل هناك عوائق أخرى يحول كل منها أمام أيّ احتمال للقول بسلامة هذا الزعم من وجه من الوجوه، وتتمثل هذه العوائق التي تؤلف في الوقت نفسه دلائل تهافت شبهة اقتباس القرآن من كتب اليهود والنصارى، فيما يلي:

(١) قاسم السامرائي، مرجع سابق، ص ٦٢.

أولاً : شخصية الرسول ﷺ :

تقدم حياة النبي ﷺ برهاناً ساطعاً على صحة تلقيه الوحي القرآني عن ربه، وعدم صحة الزعم باقتباسه ﷺ من كتب اليهود والنصارى أو تعلمه من أحدهم، وذلك من وجوه:

١- حياته ﷺ المعروفة بتفاصيلها ودقائقها، حيث لم يؤثر عنه الجلوس إلى أحد النصارى أو اليهود بمكة أو غيرها للتعلم والمدارسة، وليس هناك أيُّ دليل محسوس أو ملموس على تعلمه ﷺ شيئاً من أهل الكتاب، بل ولا دليل على جلوسه للتعلم على يد أحد من غيرهم في أيٍّ من فروع العلم والثقافة أو الصناعات والحرف، وقد استدل القرآن على لسان النبي ﷺ بذلك الدليل في مواجهة قومه. قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

أما ما تذكره جدليات التنصير من مصادر تعليمية حية للنبي ﷺ على يد بعض أسماء من أهل الكتاب، فهي أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وهنا يقدم لنا علم نقد النصوص البرهان الكافي على أصالة تلقي النبي ﷺ الوحي القرآني من ربه ، وامتناع تعلمه شيئاً من ورقة أو غيره، حيث يقول ورقة ما نصه: "وإن يدركني يومك

أنصرك نصراً مؤزراً"[1] ، إذ لم يكن ورقة ليؤمن بنبوة رجل يجلس منه مجلس المتعلم.

الثاني: بحيرا الراهب، ونسبة تعلم النبي ﷺ شيئاً منه هي نوع من الخيال القصصي الذي يتهاوى أمام الفحص النقدي لمتون القصص، حيث تقطع وقائع القصة بأنها تمت في جزء من نهار أمام أعين القرشيين، وأن النبي ﷺ كان مستخبراً عنه، ولم يكن مُخْبَراً بشيء، وأن الراهب أخبرهم أن محمداً ﷺ رسول إلى العالمين بدليل خاتم النبوة أسفل كتفه[2].

الثالث: مَنْ كانوا في صحبة النبي ﷺ، مثل بلال الحبشي، أو صهيب الرومي، أو ماريا القبطية، وهؤلاء وغيرهم لا يقوم بهم دليل على شبهة تعليم النبي ﷺ؛ وذلك لسببين:

(١) صحيح البخاري، [كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ٣].

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (٢/٢٧٨، ٢٧٩)، ط ٥، دار المعارف. القاهرة.

- ابن هشام الحميري، السيرة النبوية (١/١٨٠ - ١٨٣)، ط ٢، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٧٥هـ.

- أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية (٣/٤٣٥ - ٤٤٢)، دار هجر. القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م. وقد أورد الترمذي في جامعه إخبار بحيرا بنبوة محمد ﷺ إلى العالمين واستدلاله بخاتم النبوة تحت كتفه ﷺ.

جامع الترمذي [كتاب المناقب / باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ، حديث رقم ٣٦٢٠].

أولهما: تاريخيّ؛ حيث لم يظهروا في صحبة النبي ﷺ إلا بعد بدء نزول القرآن وبعد ظهور الإسلام، **وثانيهما**: كونهم مسلمين آمنوا بصحة نبوته ونزول الوحي عليه بالقرآن الكريم، وليس هناك برهان على انتفاء شبهة التعلم أوقع من تصديقهم لتلقيه الوحي بالقرآن وإيمانهم به.

٢- أمانته وصدقه ﷺ، حتى إنه كان يلقّب بالصادق الأمين، ولم يكن هذا الصادق ليذر الخيانة والكذب على الناس، ثم يقترفهما في حق الله.

ثانياً: تاريخ كتب العهدين القديم والجديد.

يقوم تاريخ العهد القديم والعهد الجديد حائلا أمام شبهة التعلم منهما، وذلك من جانبين:

الجانب الأول: النسخة العربية من كتب العهدين:

هذه النسخة لم تكن في عهد النبي ﷺ، ولا بعده بقرون، فقد بحث القس روبير شدياق محقق كتاب "الرد الجميل" للغزالي عن ترجمة عربية للعهد الجديد، فلم يعثر على أي ترجمة حتى عصر الغزالي في القرن الخامس الهجري(١).

وهذه النتيجة هي ما انتهت إليه أحدث دائرة للمعارف الدينية (Theologische Realenzyklopädie) من خلال تتبعها الدقيق لتاريخ أقدم تراجم العهد الجديد(٢).

---

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص ٢٤٧، بترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

(٢) Theologische Realenzkylopädie , 4 , 211 - 213, London - New York - Bonn.

أما وجود نص عربي للتوراة فأبعد في الاستحالة، وإلى جانب ذلك فلم يكن بمكة أحد من علماء اليهود يمكن الادعاء بأن محمداً ﷺ قد تعلم منه، أما الزعم بإمكان الإفادة من يهود المدينة، فذلك باطل تاريخياً؛ لأن السور المكية هي التي عرضت أطوار قصص التوراة بتفاصيلها الدقيقة، على النحو التالي[1].

سورة الأعراف عن آدم ١١ ـ ٢٥ وموسى ١٠٢ ـ ١٧٦، وسورة يونس عن موسى ٧٥ ـ ٩٢، وسورة هود عن نوح ٢٥ ـ ٤٩، وإبراهيم ولوط ٦٩ ـ ٨٢، وسورة يوسف عن يوسف، وسورة الحجر عن آدم وإبراهيم ولوط ٢٦ ـ ٧٧، وسورة الإسراء عن بني إسرائيل ٤ ـ ٨، وسورة الكهف عن أهل الكهف ٩ ـ ٢٥، وموسى ٦٠ ـ ٨٢، وسورة مريم عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى ... إلخ ١ ـ ٣٣، وسورة طه عن موسى ٩ ـ ٩٨، وسورة الأنبياء عن إبراهيم ٥١ ـ ٧٠ وداود وسليمان ٧٨ ـ ٨٢ وسورة الشعراء عن موسى وإبراهيم ونوح .... إلخ ١٠ ـ ١٨٩، وسورة النمل عن موسى وداود وسليمان ٧ ـ ٤٤، وسورة القصص عن موسى ٣ ـ ٤٣، وقارون ٧٦ ـ ٨٢، وسورة العنكبوت عن نوح وإبراهيم ولوط ١٤ ـ ٣٥، وسورة سبأ عن داود وسليمان ١٠ ـ ١٤، وسورة صٓ عن داود وسليمان وأيوب ١٧ ـ ٤٤، وسورة الذاريات عن إبراهيم ٢٤ ـ ٣٧.

---

(١) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ١٥٦، ١٥٧، دار القلم، الكويت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

وذلك يعني انهيار الدعوى محل النزاع من أساسها، فلا النص موضع الدعوى موجود في زمنه ﷺ، ولا إمكان القراءة سبيل الإفادة من النص متوافرة لدى المدعى عليه.

الجانب الثاني: نسخ العهد القديم والجديد:

تؤلف نسخ العهد القديم والجديد أكبر عائق أمام الزعم بتعلم النبي ﷺ أو غيره من كتب اليهود والنصارى؛ لأن العهد القديم والجديد ليس نسخة واحدة معتمدة من معتنقيها، بل يمكن القول بدون أيّ تجاوز علمي: إن العهد القديم ثلاثة كتب مختلفة الحجم والمحتوى والأسلوب، وهي:

١- توراة السامرة.

٢- الترجمة السبعينية.

٣- توراة العبرانيين[١].

ولا يختلف الأمر بالنسبة للعهد الجديد الذي يختلف باختلاف الكنيسة التابع لها، ولذلك توجد أكثر من ثلاث نسخ رئيسة للعهد الجديد، وهي: العهد الجديد للأرثوذكس، العهد الجديد للكاثوليك، العهد الجديد للبروتستانت، العهد الجديد للأقباط، العهد الجديد للأرمن[٢].

---

(١) R . Smendl , Die Entstehung des Alten Testament , Stuttgart - Mainz .
Wemer . Kuemmel , Einleitung in das Neue 1978.
Testament , Heidlberg 1983.

(٢) -B . F . Westcott , The Bible in the Church , Grand Rapids . (U.S.A 1980)

وفي النصف الأول من القرن الماضي اكتُشفت في وادي قمران بالأردن وفي نجع حمادي بصعيد مصر عدة مخطوطات بيَّنت أن هناك كتباً مقدسة أخرى لدى طوائف اليهود والنصارى[1].

ولا شك أن الاعتماد على أية نسخة من النسخ سيقود حتماً إلى التناقض مع معطيات النسخ الأخرى، ويكفي للتدليل على ذلك، ذكر مثال واحد للاختلاف بين نسخ التوراة الثلاث حول أعمار الخليقة من آدم إلى الطوفان، كما يبينها الجدول التالي[2]:

الاسم	العبرانية	السامرية	اليونانية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥
آنوش	٩٠	٩٠	١٩٠
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠
يارد	١٦٢	٦٢	٢٦٢
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٨٧
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨
الزمان من خلق آدم إلى الطوفان	١٦٥٦	١٣٠٧	٢٢٦٢

---

(١) J . M . Robinson , Die Bedeutung der Bibliothek von Nag Hammadi Fuer die Heutige Theologie und Fruhe Christentum, Bamberg 22 .6 . 93 (vortrag) .

(٢) سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ، ص ٨٦.

وانظر في محتوى مخطوطات البحر الميت:

– محمود العابدي، مخطوطات البحر الميت، دائرة الثقافة والفنون. عمان ١٩٦٧م.

– أنيس فريحه، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران. بترجمة إبراهيم مطر. بيروت ١٩٥٧م.

وكذلك الشأن فيما يخص الأناجيل، إذ الاختلاف بينها أعمق، وبخاصة فيما يتعلق بنسب المسيح -عليه السلام- من حيث أعداد الأنسال وأسماؤهم من آدم إلى المسيح، كما يظهر من خلال الجدول التالي[1]:

(أ) نسب المسيح قبل إبراهيم		(ب) نسب المسيح قبل داود	
حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا	حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا
إنجيل متى لا يذكر أي اسم قبل إبراهيم	١ آدم	١ إبراهيم	١ إبراهيم
	٢ شيث	٢ إسحاق	٢ إسحاق
	٣ أندش	٣ يعقوب	٣ يعقوب
	٤ قينان	٤ يهوذا	٤ يهوذا
	٥ مهلتيل	٥ فارص	٥ فارص
	٦ يارد	٦ حصرون	٦ حصرون
	٧ أخنوخ	٧ آرام	٧ عرني
	٨ متوشالح	٨ عمينا داب	٨ أدمنى
	٩ لامك	٩ نعشون	٩ عمينا داب
	١٠ نوح	١٠ سليمان	١٠ نحشون
	١١ سام	١١ بوعز	١١ شالح
	١٢ أرفكشاد	١٢ عبيد	١٢ بوعز
	١٣ قينان	١٣ يسى	١٣ عويبد
	١٤ شالح	١٤ داود	١٤ يسى
	١٥ عابر		
	١٦ فالج		
	١٧ راعو		
	١٨ سروح		
	١٩ ناحور		
	٢٠ تارح		

(١) موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٠٨ - ١١٠، دار المعارف، لبنان ١٩٧٧م .

(ج) نسب المسيح بعد داود

حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا	حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا	حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا
١ سليمان	١ سليمان	النفي إلى بابل			٢٨ شمعي
٢ رحيعام	٢ ناتان	١٥ شالتئيل	١٥ بوسي		٢٩ متتبا
٣ أبيا	٣ مناتا	١٦ زربابل	١٦ عير		٣٠ مآت
٤ أسا	٤ منا	١٧ أيهود	١٧ المودام		٣١ نجاي
٥ بوشافاط	٥ مليا	١٨ ألياقيم	١٨ قوسام		٣٢ حسلي
٦ بورام	٦ ألياقيم	١٩ عازور	١٩ آدي		٣٣ ناحوم
٧ عزيا	٧ يونان	٢٠ صادوق	٢٠ ملكي		٣٤ عاموس
٨ يوتام	٨ يوسف	٢١ أكيم	٢١ نيري		٣٥ متتبا
٩ أحاز	٩ يهوذا	٢٢ اليهود	٢٢ شاتئيل		٣٦ يوسف
١٠ حرقيا	١٠ شمعون	٢٣ العازار	٢٣ زربابل		٣٧ ينا
١١ منسى	١١ لاوي	٢٤ متان	٢٤ ريسا		٣٨ ملكي
١٢ أمون	١٢ منات	٢٥ يعقوب	٢٥ يوحنا		٣٩ لاوي
١٣ يوشيا	١٣ يوريوم	٢٦ يوسف	٢٦ يهوذا		٤٠ متات
١٤ يكنيا	١٤ عازر	٢٧ عيسى	٢٧ يوسف		٤١ عالي
					٤٢ يوسف
					٤٣ عيسى

ويظهر جلياً التضارب الشديد بين متى ولوقا من حيث:

١- الأجداد قبل إبراهيم: لا يذكر متى عنهم شيئاً .

٢- يزيد لوقا في أعداد أجداد المسيح من إبراهيم إلى داود فيذكر ١٥ جداً، أما متى فيذكر ١٤ جداً .

٣- الأجداد من بعد داود: إلى جانب الاختلاف الشديد في الأسماء تختلف الأعداد اختلافاً كبيراً إذ يذكر متى ٢٦ جداً ، أما لوقا فيذكر ٤١ جداً .

ثالثاً : إعجاز النظم القرآني :

النظم القرآني هو طريقة التأليف العجيبة التي تفرد بها القرآن ، وخالفت جميع طرق العرب في البلاغة وأعجزتهم عن إجابة التحدي الذي دعاهم إليه[١] .

ويتضمن إعجاز النظم القرآني جوانب يظهر من خلالها تفرده، وهي:

أ - اللفظ ، حيث جاءت ألفاظ القرآن على غير المعهود من الجزالة .

ب - المعنى ، وتبدو بلاغة المعاني في مطابقتها للألفاظ ، وفي تعبيرها التام بأقل لفظ ممكن .

جـ - التركيب ، وجاء معتدلا غير متباين ، متناسباً غير متنافر ، محكماً إذا نزعت إحدى لبناته، ثم أديرت كلمات العرب كلمة كلمة لم يوجد أنسب منها.

---

(١) حسن طبل ، حول الإعجاز البلاغي للقرآن ، ص ٧٤ - ٧٦ ، مرجع سابق .

وهذا الجانب من جوانب الإعجاز القرآني لا تعرفه كتب اليهود والنصارى التي يزاد فيها السفر والسفران ، والإصحاح والإصحاحان ، والآية والآيتان ، والكلمة والكلمات من دون إحساس بتغيير أو تبديل في الأسلوب؛ لأن طرائق التعبير لدى المؤلفين متقاربة .

كما أن هذه الكتب صُنِّفت على مراحل زمنية طويلة ونسخت بلغات عدة مما أوهن من قيمتها التعبيرية .

فهل من الممكن أن يحاكي السامي في طبقته المتدنِّي عنه؟ !

رابعاً : الاختلاف بين اليهودية والمسيحية والإسلام في أصول الإيمان :

جاءت أصول الإيمان في القرآن وكتب العهدين متباينة تبايناً واضحاً تتهاوى معها كل محاولة للقول بتأثير وتأثر بين سابق ولاحق ، وذلك على النحو الآتي :

١- **الألوهية** : الإله في اليهودية عنصريّ قبليّ ذو صفات بشرية، وفي المسيحية الإله مثلث، أحد أضلاعه ابن يولد لأب يسمح بتقديمه إلى الضرب والإهانة والصلب والموت، ثم يقوم الإله الميت من قبره ويصعد إلى جوار أبيه، وبدون أن يلقى عوناً من أبيه أو من الروح القدس الرب الثالث المنبثق من الأب الوالد والابن المولود، أما في الإسلام فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

٢- **النبوة** : تكون النبوة في اليهودية فردية وجماعية وتكتسب بالتعليم، وفي النصرانية مرسل الأنبياء هو المسيح، وفي الإسلام اصطفاء النبوة من الخالق لبعض عباده المؤيَّدين بما يثبت صدق دعواهم في التبليغ عن ربهم .

٣- **اليوم الآخر**: تصمت اليهودية، ولا تنضبط المعتقدات الغامضة للنصارى فيه، ويفصِّل الإسلام أخبار اليوم الآخر تفصيلاً دقيقاً.

٤- **الكتب السماوية**: يكفر اليهود بالإنجيل والقرآن، ويكفر النصارى بالقرآن، ويؤمن المسلمون بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله وثبتت صحة سندها إليهم.

٥- **الملائكة**: يصور العهد القديم الملائكة على أنهم أبناء الله المجتمعون في حضرة رب السماء ومعهم الشيطان[١]، وفي بدء الخليقة اتخذوا صورة بشرية حيث تزوجوا من بنات آدم وأنجبوا منهن عمالقة جبابرة[٢].

ويقدم العهد الجديد الملائكة على أنهم أبناء الله الذين لا يموتون[٣]، وهم واقعون تحت سلطان الخطيئة حيث يخطئون فيقيدون في السلاسل ويطرحون في جهنم[٤]، والذي يقوم بمحاسبتهم هم رسل المسيح[٥].

---

(١) العهد القديم (نسخة الكاثوليك)، سفر أيوب (١/٦، ٧، ٢/١، ٢)، دار المشرق. بيروت ١٩٨٩م.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين (٦/١ - ٤)، مرجع سابق.

(٣) العهد الجديد (نسخة الكاثوليك)، إنجيل لوقا (٢٠/٣٦)، دار المشرق. بيروت ١٩٨٩م.

(٤) العهد الجديد، رسالة بطرس (٢/٤)، رسالة يهوذا (١/٦) مرجع سابق.

(٥) العهد الجديد، الرسالة إلى أهل كورنثوس (٦/٢، ٣).

أما الملائكة في الإسلام فمخلوقات نورانية منزّهة عن الخصائص البشرية ومبرّأة من المعصية، فهم عباد مكرمون مفطورون على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم وكلّفهم به من أعمال[1].

٦- **القدر**: بينما في الإسلام لا يقع شيء في الكون سواء أكان مادياً أم كان متعلقاً بأفعال الإنسان إلا بإذن الله ، وأن جميع تلك الأحداث مسطورة بعلم الله في كتاب سابق ، فإن المسيحية ترجع الأفعال إلى المحبة ، ولا يتضح في اليهودية أي تأثير للقدرة الإلهية في أفعال العباد .

وكما اختلفت أصول الإيمان بين الديانات الثلاث اختلف الأساس الذي يقوم عليه الإيمان:

ففي اليهودية الإيمان وراثيّ عنصريّ ، وفي المسيحية يقوم الإيمان على إلغاء العقل، كما أرسى ذلك القديس أوغسطين في محاورته: "أنا أومن لأني لا أعقل" ، والقديس أنسلم أسقف كانتربوري: " آمن كي تعقل"[2] .

---

(١) البيجوري ، تحفة المريد في شرح جوهرة التوحيد، ص ١٣١، دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٣ م .

- عمر الأشقر ، عالم الملائكة ، ص ٢٢ - ٣٢ ، دار النفائس. الأردن ١٩٩٥ م .

(٢) راجع ترجمة المحاورتين لدى: حسن حنفي ، نماذج من الفلسفة المسيحية ، الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٨ م .

أما القرآن فلم يكتف بإعلان عدم فرض الإيمان من الخارج: ﴿ ... فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴾ (الكهف: ٢٩). ولكنه أدان بقوة كل اتباع أعمى يلقي بزمامه إلى سلطة لا تستند إلى العقل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠)، وقد دعا دائماً وباستمرار إلى التأمل الفردي المنسحب من تأثير الوسط الخارجي والأفكار السابقة ومن كل فكرة مستقاة بدون تمحيص: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦).

وقد أقرّ المنصِّر لودوفيكو مرتّشي بذلك التفرد للإسلام في مقدمته الجدلية "دحض القرآن" حينما كان يفتش عن سر إقبال الوثنية على الإسلام دون المسيحية. يقول مرتّشي: "القرآن والإنجيل حين يُعْرَضَان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب ألا نشك في أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكاراً يصعب على العقل فهمها ولا سيما العقل الفاسد وعدو الغموض.

فمثلا لا يوجد إلا إله واحد حكيم وقدير، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ومخالف للحوادث، ويجب أن يصلَّى له بخشوع وخضوع، وأن يكون الإنسان متسامحاً مع الفقراء، ويؤدي مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة،

وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى ، فلا يجوز أن يُؤذى إنسان بل يجب أن يُحمى من السرقة والقتل والزنى وأي جريمة أيا كانت ، ويجب أن يحتقر كل ما في الدنيا بوصفه عابراً وغير ثابت ، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التي لن يضيع أجرها، وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنجزى على ما فعلنا : فالطيبون سيجدون في السماء نعيماً مقيماً وما يشتهون وسيذوق الأشرار في جهنم عذاباً لا نهاية له .

كل هذه المبادئ وغيرها تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من المبادئ الإنجيلية .

ومن ناحية أخرى إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد الذي يتكلم عليه واحد وثلاثة ، وأن الإله حلَّ في رجل ، وأنه فقير ، وأنه عانى وصلب ومات ودفن وكان هو نفسه معجزة ، وفي سر القربان المقدس أن سر التوبة ضروري مطلقاً ، وأن الزواج الأحادي لابد منه وأن الرباط المقدس لا يفصم ، وأن الحياة يجب أن تكون صليباً مفصلا ، وأنه يجب أن يحسن الإنسان حتى إلى أعدائه، وأن السعادة الحقة تكمن في أشياء لا تراها العين ، ولم تسمعها الأذن ولم تخطر على قلب الإنسان، وحكم أخرى مشابهة تكون في متناول السماع الإنساني أو تكون صعبة جداً إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لحياتنا وحماقتنا الطبيعية .

فأي وثنيّ سيسمع هذه الأشياء ويقارنها بمذهب القرآن، انظر إلى أيّ جهة سيتوجه" ؟[1] .

خامساً: أثر القرآن والتوراة والإنجيل في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية:

جاءت الكتب السماوية لهداية الإنسان وإرشاده إلى ربه وتحقيق العبودية الكاملة له.

وهنا يبرز التفاوت الكبير في أثر القرآن والتوراة والأناجيل في تنظيم حياة الإنسان ورقيه الحضاري .

ويبدأ هذا التفاوت من منهج المعالجة ، فبينما يغيب معنى الإنسانية عن العهد القديم ، ويختفي من العهد الجديد الجانب التشريعي ، نجد الشمول[2] في المعالجات القرآنية لقضايا الاعتقاد والتشريع والنفس الإنسانية والسلوك، يقول تعالى: ﴿ . . .مَّافَرَّطْنَافِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ. . . ﴾ (الأنعام: ٣٨) .

فالقرآن يتناول حقائق الكون والحياة بدءاً بذرة الوجود المستودعة في باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحار: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ. . . ﴾ (لقمان: ١٦)

---

(١) نقلا عن عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ، ص ١٤١، ١٤٢ .

(٢) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، بترجمة عبد الصبور شاهين ، ص ١٨٧ ، دار الفكر . دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.

إلى النجم السابح في فلكه نحو مستقره المعلوم : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (يسٓ : ٣٨) .

وكذلك يتقصى أبعد الجوانب في النفس الإنسانية مسجلا أدق الانفعالات والخلجات الشعورية ، ونتيجة التعمق في تناول النفس الإنسانية جاءت تقريراته الأخلاقية ثمرة للمعرفة العميقة بالطبيعة الإنسانية ، فسجل القرآن خرائط تفصيلية للفضائل الإنسانية المتجسدة لدى الأسوة الحسنة من الأنبياء والرسل ، وبيّن ما يجب على ذي الخلق اجتنابه من رذائل الأعمال وكبائر الإثم والفواحش .

أما تاريخ الإنسانية فيتجه القرآن نحو ماضيها البعيد ، ويوجّه مستقبلها، ويُعْلم بحاضرها من خلال تتبّع أخّاذ لمشاهد الحضارات وارتقاء الأمم .

ويتجلى التفاوت الكبير بين أثر القرآن وكلٍّ من العهد القديم والعهد الجديد في الارتقاء بجوانب الحضارة الإنسانية ، في الجوانب التالية :

الأول : الأخلاق :

جاءت التعاليم الأخلاقية في العهد القديم قاصرة على توجيه بني إسرائيل وإصلاح الفساد الأخلاقي المتأصل في نفوسهم جيلاً بعد جيل على امتداد عشرات القرون .

فقد وصفهم سفر التثنية -من أوائل المكتوبات التوراتية- بأنهم "جيل متقلب أولاد لا أمانة فيهم"[1] ، ثم وصفتهم أسفار أنبيائهم الكبار بأن "أعمالهم أعمال إثم، وفعل الظلم في أيديهم ، أرجلهم إلى الشر تجري وتسرع إلى سفك الدم الزكي ، أفكارهم أفكار إثم ، في طرقهم اغتصاب وسحق، طريق السلام لم يعرفوه ، وليس في مسالكهم عدل ، جعلوا لأنفسهم سبيلاً معوجة كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً"[2] . وجاء أجمع تشخيص لأخلاق اليهود على لسان أرميا: "وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم، وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير"[3] .

وكان هذا هو محور التعاليم الأخلاقية في العهد القديم التي دارت حول إصلاح الفساد الأخلاقي وتهذيب النفوس الشريرة ؛ ولذلك جاءت الوصايا العشر -وهي أبرز التعاليم الأخلاقية في اليهودية- بصيغة السلب أو الانتهاء عن فعل الشر: "لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كلَّ ما لقريبك"[4] فالتعاليم الأخلاقية في اليهودية -إذاً- تعاليم خاصة بعنصر بشري ذي طبيعة سلوكية مريضة .

---

(١) سفر التثنية (٢٠/ ٣٢).

(٢) إشعياء (٢٩/ ٦-٨) .

(٣) أرمياء (١٢/ ١٦) .

(٤) سفر التثنية (٥/ ١٧-٢١)، وانظر: سفر الخروج (٢٠/ ١٣-١٦).

ولم تبتعد التعاليم الأخلاقية في الإنجيل عن ذلك كثيراً ، إذ تدعو إلى الكف عن فعل الشر وإلى عدم مقاومته ، كما جاء في موعظة المسيح على الجبل "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين ، من سألك فأعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوّك، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصَلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم"[1] .

وكما أن هذه التعاليم الأخلاقية قد جاءت -خاصة- للحد من غلواء بني إسرائيل الذين أرسل المسيح إليهم ، فإنها إلى جانب ذلك تعاليم غير واقعية لا يقدر عليها كثير من البشر ، حتى المسيح نفسه -كما تحكي عنه الأناجيل- عندما لطمه أحد خدّام رئيس الكهنة لم يدر له المسيح خده الآخر، بل قال له: "إن كنتُ تكلمت رديّاً فاشهد على الردي ، وإن حسناً فلماذا تضربني"؟[2] .

أما القرآن فقد اشتمل على دستور أخلاقي متكامل يقوم على عناصر ثلاثة هي[3]:

---

(١) إنجيل متى (٥/٣٨-٤٤) .

(٢) إنجيل يوحنا (١٨/٢٣) .

(٣) عبد الراضي محمد عبد المحسن ، أسس فلسفة الأخلاق الإسلامية ، ص ٤١ - ٧٢، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة السادسة. عدد ٦، القاهرة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١- **المعرفة**، حيث بينت نظرية الأخلاق الإسلامية أمهات المسائل والقضايا الأخلاقية المتعلقة بمبادئ الأخلاق ، وأصولها ، وطبيعتها ، وطرق اكتسابها ، وغايتها ، ومصادر الإلزام فيها .

٢- **التربية**، وهي الوسائل والوسائط الأخلاقية المنوط بها تحويل المعرفة والمبادئ الأخلاقية إلى سلوك عملي ، أي أنها تخرج الأخلاق من حالة القوة إلى الفعل من النظرية إلى التطبيق ، وهذا العنصر تتفرد به منظومة الأخلاق في الإسلام، حيث تقدم دستورها الأخلاقي مقروناً بمنهج تطبيقه، وبوسائل تنقله من حالة النظر المجرد إلى واقع الحياة والعمل، عن طريق الوسائل الدافعة، مثل: القدوة الصالحة، الموعظة ، الصحبة ، والوسائل المانعة ، مثل: الاعتبار، العقوبة .

٣- **السلوك**، وهو الأفعال الأخلاقية الإرادية التي تشمل الفعل الظاهر وأعمال القلب من نية وإرادة واعتقاد ، مما يترتب عليه الجزاء والمسؤولية سواء أكان متعلقاً بعلاقة الفرد بنفسه، أم بالمجتمع، أم بالكائنات الحية الأخرى ، وهذا المفهوم جعل الحياة الإنسانية كلها ميداناً للعمل الأخلاقي في الإسلام.

ويعني هذا أن الأخلاق الدينية جزء رئيسي من العمل الأخلاقي في الإسلام، وهذا مما تفردت به -كذلك- منظومة الأخلاق في الإسلام .

ويمكن القول إن دستور الأخلاق الإسلامية هو الدستور الوحيد متكامل الجوانب في تاريخ الأخلاق ذات المصدر الديني أو الفلسفي ، بما تضمنه من دائرة خطاب تشمل الإنسانية كلها ، وبما اشتمل عليه التكليف الأخلاقي من دوائر ثلاث:

١- فعل الخير والدعوة إليه .

٢- اجتناب الشر ودواعيه .

٣- مقاومة الشر والتصدي له ، وهو ما يجعل مبادئ الأخلاق فيه إيجابية بخلاف غيره .

وإلى جانب هذا التكامل في الجوانب الأخلاقية في الإسلام ، هناك الوسطية والواقعية التي تعد أهم خصائص الدستور الأخلاقي في الإسلام والتي تَمكَّنَ بها من أن يكون الدستور الأخلاقي الوحيد الذي طُبِّق بحذافيره من قِبل مبلِّغه محمد ﷺ ، ومن قِبل صحابته الأخيار والأجيال الفاضلة من بعدهم ، ولا زال يطبّق حتى يوم الناس هذا .

الثاني : المجتمع :

على أرض فلسطين وضع العهد القديم أسس مجتمع عنصريّ خاص بالعبرانيين؛ لذلك فإن الدول التي كوّنها شعب العهد على أرض فلسطين حملت أسماءه العنصرية السلالية ، دولة يهوذا في الجنوب ودولة إسرائيل في الشمال .

ولزم عن ذلك أن حق الحياة وحق المواطنة الكاملة كانا مكفولين للإسرائيلي فقط ، أما غير الإسرائيلي فحكمه إما القتل وإما الاستعباد . يقول سفر التثنية : "وحين تقرب مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك .

وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاها الرب إلهك .

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هذه الأمم هنا ، وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما"[1] .

وقد لخص مناحيم بيجن رئيس الوزراء اليهودي واجب اليهود تجاه المجتمع الإنساني كما تعلمه من التوراة ، قائلاً: "بالدم والنار والدموع والدخان وبنوعٍ جديد من الإنسانية ، نوع مجهول للعالم منذ أكثر من ألف وثمانمائة عام اليهودي المحارب ، قبل كل شيء يجب أن نبدأ الهجوم ، فمن الدم والعرق سوف يولد جيل فخور كريم قوي"[2] .

وفي جانب المعاملات مع غير اليهود يوصي العهد القديم أتباعه قائلا: "للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا"[3] . ويشدد على أهمية التضييق على الأجانب في المعاملات قائلا: "الأجنبيَّ تطالب، وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدُك منه"[4] .

---

(١) سفر التثنية (٣/١٠-١٦) .

(٢) رشاد عبد الله الشامي ، الشخصية اليهودية ، ص ١٨٦ ، سلسلة عالم المعرفة العدد (١٠٢) . وزارة الإعلام بالكويت .

(٣) سفر التثنية (٢٠/٢٣) .

(٤) سفر التثنية (٣/١٥) .

لكن المسيحية فتحت الباب أمام الوثنيين في حق الحياة والمواطنة ، إلا أن روح الاستعباد والتدمير ما فتئت حية في الخلق المسيحيّ ، فلا زالت "المدنية الأوربية في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة"(١) ، وقد اتضح ذلك من خلال ممارسات الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش ، والحروب التدميرية العالمية الأولى والثانية ، والحروب الاستعمارية الطويلة ضد العالم الإسلامي ، وفي أيامنا هذه حروب الإبادة ضد المسلمين في أوربا كحرب البوسنة والهرسك ، وحرب كوسوفا .

أما القرآن فقد أرسى دعائم مجتمع إنساني متكافئ، دعامة التميز فيه هي التقوى. قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وأساس الحكم فيه العدل بين الجميع حتى الخصوم والأعداء منهم. قال تعالى : ﴿ ... وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة : ٨)، وحق الحياة مكفول للجميع، فحرمة النفس ذات شأن عظيم القدر : ﴿ ... مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا... ﴾ (المائدة: ٣٢) .

ولذلك انصهرت في بوتقة الإسلام مختلف الأمم والشعوب التي ضمتها دولته ، بل برزت من أبناء الشعوب الإسلامية غير العربية قمم في العلوم التجريبية والعربية والإسلامية ، فكانت ظاهرة لافتة للنظر .

---

(١) محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤١ ، مرجع سابق .

بل إن أبناء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أتيحت لهم فرص النبوغ والتفوق العلمي في ظل الدولة الإسلامية، فعاش واشتهر موسى ابن ميمون، وسعديا الفيومي، وابن كمونة، ويوحنا الدمشقي، وابن العسال، وغيرهم ممن تبوأ كذلك المناصب الإدارية العالية في الدولة الإسلامية.

الثالث: العلم:

إذا كان العهد القديم كتاب إصلاح لجماعة محدودة من البشر في فترة محدودة من الزمن ، فإن قضايا العلم وموضوعاته لا تحتل أيّ مكان يعتد به في أسفاره وإصحاحاته ؛ لأن العلم يتطلب استقراراً روحياً ، واجتماعياً ، ودافعاً إيمانيًّا لخدمة بني الإنسان ، وكلها عوامل افتقدها شعب العهد القديم .

لذلك لا يمكن بحال الحديث عن أثر للعهد القديم في إسهام علميّ أو معرفيّ عبر التاريخ ، بل يمكن الحديث عن معوِّقات وعراقيل وضعها العهد القديم أمام التطور العلمي ؛ لأن بإمكاننا رصد عدم ظهور أية عقلية علمية يهودية قبل الإسلام ، وبخصوص علماء اليهود الذين عرفهم العالم بعد الإسلام فذلك راجع لفضل الإسلام . كما سيتبين ذلك عند بحث تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية .

ولعل أهم أسباب الخصومة بين العهد القديم والعلم ، وبالتالي انتفاء أي أثر للعهد القديم في نشأة العلوم أو تطورها ، هو افتقاد رب العهد القديم نفسه صفة العلم التي تمكنه من مجرد القدرة على التمييز بين

بيوت أتباعه وبيوت أعدائهم ؛ لذلك فإنه لمّا أراد إخراج شعبه من مصر وإنزال العقاب بالمصريين ، أمر بني إسرائيل أن يلطِّخوا بيوتهم بالدم كي يميزها عن بيوت المصريين فلا ينزل بها العقاب ، يقول سفر الخروج: "ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر"(١) .

ولم تكن المسيحية أقل هوادة في خصومتها للعلم استناداً إلى قول بولس الرسول مؤلف الجزء الأكبر من أسفار العهد الجديد : "حكمة هذا العالم حماقة عند الله . إن الرب عليم بأفكار الحكماء ويعلم أنها باطلة"(٢) .

ولذلك استأسدت الكنيسة في حربها ضد العلم والعلماء ، فلما تجرّأ جاليليو على مقاومة اعتقاد الكنيسة في أن الأرض محمولة على قرني ثور وأن الشمس تدور حولها ، وأعلن أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، كان جزاؤه التكفير والمطاردة ، ولم يصدر الفاتيكان وثيقة تبرئة جاليليو من الكفر إلا عام ١٩٩٢م(٣) .

---

(١) سفر الخروج (١٢/١٣) .

(٢) الرسالة الأولى إلى قورنتس (٣/١٩، ٢٠) وانظر : (١/١٩، ٢٠-٢٧) .

(٣) محمد السماك، مقدمة إلى الحوار الإسلامي – المسيحي، ص ١٠٩، دار النفائس، بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

وقد كان كل ذلك طبيعياً ومتفقاً مع فكرة مؤلفي العهد الجديد عن العالم والتي جاءت غير علمية[١]. مما دفع بالعلامة "ماكس بلانك" لإصدار حكمه الشهير عام ١٩٤٧م ، بأنه "للإبقاء على قيمة ما للمسيحية للعالم المعاصر ومن ثمَّ للعالم الغربي ، يجب على الإنسان أن يقرر بإخلاص التخلي عن المعجزات التي تشكل عائقاً شائكاً أمام وصول المسيحية إلى إنسان الحضارة المعاصرة بسبب تعارضها مع العلم"[٢] .

وبالفعل لم يتقدم العالم المسيحي علمياً إلا بتأثير الحضارة الإسلامية، وبعد الفصل بين ديانة العهد الجديد وتعاليمه، وبين شؤون الدنيا ومنها العلم، يقول محمد أسد : "وهكذا تكون نسبة نتاج المدنية الغربية الحديثة إلى النصرانية خطأ تاريخياً عظيماً، إن النصرانية ساهمت في جزء يسير جداً من الرقيّ العلمي المادي الذي فاق به الغرب في مدنيته الحاضرة كل ما سواه. وفي الحق أن ذلك النتاج قد برز من كفاح أوروبا المتطاول للكنيسة المسيحية ولاستشرافها للحياة"[٣] .

---

(١) Willim Born , Christlicher Glaube und Naturwissenschaft , S : 4, Blefeld 1954 .

(٢) Hermann Lais , Was sagt die Kirche zum Wunder ? S : 18 , in : Wunder umd Magie , Gesmmelten Beitraege , Wuerzburg 1962 .

(٣) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤٠ – ٤٦ ، مرجع سابق.

أما القرآن فكان أكثر الكتب احتفاء بالعلم؛ حيث وردت لفظة العلم ومشتقاتها أكثر من ٨٢٣ مرة؛ لأن العلم في القرآن أحد وسائل المعرفة التي منحها الله للإنسان لمساعدته في القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض، ولمعرفة الله تعالى والإيمان به؛ لذلك استشهد الله تعالى على وحدانيته بشهادة العلماء: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ... ﴾ (آل عمران: ١٨)، فالعلماء أكثر الناس خشية لله بما علموا من خلقه: ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟... ﴾ (فاطر: ٢٨).

وقد بلغ عدد الآيات القرآنية المتعلقة بالعلوم وحقائقها أكثر من ٧٥٠ آية، شملت معظم مجالات العلم: كالفلك، والطب، والجيولوجيا، والزراعة، وعالم النبات، والحيوان، والتناسل، والاقتصاد، والتجارة، والزراعة، وعالم البحار... إلخ.

لذلك جاء أثر القرآن في تطور العلم وتأسيس العلوم والمعارف بعيداً ومدهشاً[١]. يقول روم لاندو: "ففي الإسلام لم يُوَلِّ كلٌّ من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقاً معاكسة. لا، والواقع أن الأول كان

---

(١) في ذلك يقول جورج سارطون مؤرخ العلوم: "إن معجزة العلم العربي كانت ترجع في الأكثر إلى الأثر الذي حدث بفعل النشاط والجد العربيين وبفعل الإيمان الإسلامي".

نقلا عن ترجمة عمر فروخ لمحاضرة سارطون التي دعت إليها مؤسسة جورج ل كايزر. راجع الفيومي، الاستشراق والاستعمار، ص ٤٣٥. مرجع سابق.

باعثاً من البواعث الرئيسة للثاني، إن الرياضيات هي كما نعلم أمُّ العلوم التجريبية كلها، ولقد لعبت الرياضيات من غير ريب دوراً حاسماً في العلم العربي، ومع ذلك فحتى في علم تجريدي كالرياضيات كان الدين كما سوف نعلم هو الذي قرر طبيعة منجزات العرب ومداها، ولم يكن لدى العرب في الأصل أي رياضيات خاصة بهم طبعاً"(١) .

وحينما تتبع لاندو الفترة الزمنية التي احتاجها المسلمون لتشييد الصروح الشامخة للتقدم العلمي وجد أنهم: "أحرزوه خلال مائتي سنة انقضت على وفاة الرسول ﷺ ليس غير ، وعمق ذلك التقدم أمر يدعو إلى الذهول حقاً .

ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية(٢)" .

ويلخّص قاموس "برتلس مان" لديانات العالم المجالات العلمية التي طورها المسلمون ، والمجالات البحثية التي أنشؤوها ، قائلا: "تلقى الغرب من الشرق الإسلامي معارف هامة في مجالات كثيرة ، فقد جمع المسلمون علوم العالم ومعارفه: هندية ، بابلية ، مصرية ، فارسية، ويونانية ، وترجموا أهم الكتب والمصادر، ونقلوا تلك العلوم والمعارف إلى الآخرين ثانية.

---

(١) روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ص ٢٤٦ ، بترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٧م .

(٢) السابق .

وفي الوقت نفسه أسسوا قواعد البحث العلمي في مجالات: الجبر، الحساب، الكيمياء، الفيزياء، الجيولوجيا .

وكان استخدام الصفر العربي أساس التقدم في الرياضيات الحديثة، وأكمل المسلمون ما أخذوه من معرفة فلكية من البابليين واليونان بواسطة ملاحظاتهم الفلكية الدقيقة .

واكتشف الأطباء المسلمون لأول مرة في تاريخ العلم الدورة الدموية، وامتلكوا معرفة عن العدوى والتعقيم، ووقفوا على وظيفة الرحم، وقاموا بعمليات التخدير الكامل، وخطوا خطوات واسعة في طرق وأساليب الجراحة.

وعلى أيديهم تطور علم الوسائط الطبية تطوراً كبيراً، وكذلك العناية بالمرضى في المستشفيات كانت نموذجية، وعُمّمت لتشمل الطبقات الفقيرة .

وظلّت صناعات الحديد الإسلامية لا تبارى أزماناً طويلة، واخترع المسلمون البوصلة، واستعملها بحارتهم في القرن الحادي عشر الميلادي، ويبدو أثر التقدم المعماري الإسلامي واضحاً في كل من بريطانيا وفرنسا بخاصة في مجال القلاع والحصون والأسوار والمنارات"[١] .

---

(١) Religionen der Welt , S : 183 , Bertlsmann Handbuch , Heraus gegeben von : Monika und Udo Tworuschka . Muenschen Guetersloh 1992 .

وانظر بالعربية : جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٣٥، ٥٧٩، بترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٦٩م .

– محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤٣ .

ويظهر أثر القرآن في تطور العلم بشكل أكثر جلاء حينما نقارن بين أثره في أمة العرب بعد اعتناقها الإسلام وبين أثر العهدين: القديم والجديد في أمة اليونان بعد اعتناقها النصرانية .

فقد ارتقى المسلمون العرب أعلى قمم النضج الحضاري والعلمي والعقلي ، بينما النصارى اليونانيون كانوا في أعلى القمم في الفلسفة والطب ، وحينما اعتنقوا النصرانية زالت فلسفتهم ، وانقرضت حكمتهم ، وولّت علومهم ، بسبب تعارض كتابهم المقدس مع العقل والعلم .

ويكشف الجدول الآتي الفارق بين تأثير القرآن في نهضة العلوم والمعارف بعد مائتي عام من نزول القرآن على محمد ﷺ ، وبين تأثير العهد القديم والعهد الجديد بعد عشرات القرون من تلقيهما بالقبول من أهل الكتاب[1]:

---

(١) روم لاندو ، الإسلام والعرب ، ص (٢٨٣ - ٢٨٧) .

جدول كرونولوجي للعلوم في العصور الوسطى

العلوم	في العالم الإسلامي	في أوروبا والغرب
(١) الفلك والرياضيات:		
	المثل الأعلى الإسلامي: اللامتناهي	المثل الأعلى الإغريقي في الجمال يقوم على أساس من النسب والأعداد بوصفها مقادير متناهية، اعتبار المكان والزمان سكونيين، والكون (كينونة).
الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠)	يخترع جبراً (عصرياً) يحول الأعداد إلى عناصر علاقة.	
البتاني (٨٥٨ - ٩٢٩)	يحل الجيب sine محل الوتر chord يصطنع الظلال tangents وظلال التمام cotangent يقدم فكرات هامة عن النسب المثلثية.	
أبو الوفاء (٩٤٠ - ٩٩٧)	يخترع طريقة جديدة لوضع جداول الجيب sine يدخل القاطع secant وقاطع التمام cosecant سبقت دراساته في علم المثلثات دراسات كوبرنيكوس.	
البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨)	يعين خطوط العرض وخطوط الطول يخترع المسائل (البيرونية) يحول الأعداد من مجرد كميات ومقادير إلى عناصر وظيفية. الكون عنده (صيرورة).	
عمر الخيام (١٠٣٨ - ١١٢٣)	يخترع (جبراً متقدماً) يعد تقويماً أدق من التقويم الغريغوري. صاحب (الرباعيات). المسلمون يدخلون الأرقام العربية، والصفر، والنظام العشري (القرن التاسع).	في القرن الثاني عشر ترجم جيرار الكرموني وروبرت التشيستري وغيرهما من العلماء اللاتين المؤلفات العربية في الرياضيات وعلم الفلك. أوروبا ترفض طوال مئتين وخمسين سنة (حتى القرن الخامس عشر) أن تتبنى النظام العشري).

(٢) الجغرافيا وعلم وضع الخرائط :

الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)	يصدر أمره بقياس درجة جغرافية، ويأمر بوضع (صورة للأرض).	الإغريقي، وبطليموس بخاصة، يقدمون الأساس لجهود العرب ومآثرهم الجغرافية.
	علماء الفلك : الفرغاني (حوالي ٨٦٠) والبتاني (٩٠٠) والبيروني (حوالي ١٠٣٠) يعدون جداول جغرافية لخطوط الطول والعرض.	
	الملاحون والتجار والحجاج المسلمون يجمعون معلومات جديدة عن البلدان الأجنبية.	
المسعودي (٩١٢ - ٩٥٧)	يضع أول موسوعة علمية تاريخية - جغرافية.	
الإدريسي (١٠٩٩ - ١١٦٦)	يتصور الأرض كروية. يضع خرائط دقيقة. يؤلف (كتاب روجار يصنف موسوعة جغرافية).	آثاره تترجم في روما عام ١٦١٩م.
ياقوت الحموي (١١٧٩ - ١٢٢٩)	يؤلف موسوعة في الجغرافيا والعلم.	النظرية العربية في (ذروة العالم) أو (قبة أرين) تؤثر في العلماء النصارى تأثيراً عظيماً، وتقولب وجهات كولومبس.
ابن بطوطة (١٣٠٤م - ١٣٦٩م)	واحد من أعظم الرحالين في جميع العصور. في كتابه معلومات زادت معرفتنا بالشرق الأوسط وبآسيا زيادة عظيمة.	
الحسن الوزازي Leo Africanus (١٤٩٥م - ١٥٥٠م)	رحالة عظيم كتب أول كتاب شامل عن أفريقيا.	كتابه يترجم، على التو، في أوروبا.

(٣) الطب:

حنين بن إسحاق (٨١٠ – ٨٧٧)	أول مترجم للمصنفات الطبية الإغريقية. يضع في الطب كتباً ذات أصالة.	الإغريق، وبخاصة جالينوس وأبقراط، يقدمون الأساس للطب العربي.
الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥)	واحد من أعظم الأطباء في جميع العصور. يقدم أول وصف سريري للحصبة والجدري، يؤلف أضخم كتاب في الطب.	آثاره تترجم مرات متعددة في أوروبا، فتؤثر في الأطباء الغربيين تأثيراً عظيماً.
ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٨)	أبعد العلماء المسلمين أثراً، مؤلف (القانون في الطب) يدرك طبيعة المرض السارية.	كتبه تترجم في أوروبا منذ القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر، يتمتع بالسلطان الطبي الأعظم، في الغرب.
ابن زهر (١٠٩١ – ١١٦١)	الطبيب الشهير في بلاط الموحدين في مراكش.	كتابه (التيسير) يؤثر في الأطباء الأوروبيين تأثيراً عظيماً.
ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨)	طبيب عظيم لكنه عُرف أكثر بالفلسفة.	
ابن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٤)	مؤرخ ورجل دولة وطبيب دافع في رسالته (في الطاعون) عن فكرة العدوى.	
ابن خاتمة (١٣٢٣ – ١٣٦٩)	مؤلف أهم رسالة في الطاعون وضعت في القرون الوسطى. يوفق هو وابن الخطيب إلى إن يحل المفهوم القائل بأن الإنسان عضو في الأسرة الكونية متبادل العلاقة معها، محل المفهوم الإغريقي السابق القائل بأن الإنسان كل مستقل بذاته.	

(٤) الكيمياء والحمياء والفيزياء:

جابر بن حيان (حوالي ٧٧٦)

أبو الكيمياء الخمياء الإسلاميتين.

يحضِّر عدداً من المواد الكيميائية الجديدة. يقوم بعمل ذي شأن في حقل المعادن وصناعة الزجاج.

يدخل كثيراً من المصطلحات الكيميائية إلى اللغات الأوروبية خيميائي بارز.

الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥)

اشتهر أكثر ما اشتهر بوصفه طبيباً. يقدم تصنيفاً دقيقاً للمواد والعمليات الكيميائية، خيميائي بارز.

إخوان الصفا (حركة علمية سياسية في القرن العاشر)

يصدرون عدداً من الرسائل الكيميائية والخيميائية، ظهر بعضها باسم جابر بن حيان في الفيزياء، انصب اهتمام المسلمين في المحل الأول على الساعات، والأدوات العاملة بقوة الماء وكانت لهم عناية بالدمى الميكانيكية.

ابن الهيثم (٩٦٥ – ١٠٣٩)

أول عالم يصحح نظريات بطليموس الخاطئة في علم البصريات، يضع الأسس لعلم البصريات الحديث، أول من استعمل (الغرفة المظلمة).

يترك أثراً كبيراً في المؤلفين في علم البصريات خلال القرون الوسطى، وفي جملتهم روجر بيكون، وكلير، وليوناردو دافنشي.

(٥) علم النبات والزراعة والبستنة:

	المسلمون يدخلون في أوروبا البرتقال، والليمون، والخوخ، والمشمش، والرمان، والزعفران، والقهوة، وزراعة قصب السكر، والأرز، ويدخلون أيضاً عدداً من النباتات الطبية، ويحسنون طرائق الري، ونحن مدينون لهم بالنظرة العلمية إلى الزراعة.	
ابن العوام (نهاية القرن الثالث عشر)	يؤلف أهم رسالة في الزراعة في القرون الوسطى، يدرس، على نحو علمي، تطعيم النبات، والسماد ومعالجة أمراض النبات.	ترجمات فرنسية وأسبانية لكتابه الرئيسي تظهر في القرن التاسع عشر.
ابن البيطار (توفي عام ١٢٤٨)	أعظم عالم نباتي وصيدلي في القرون الوسطى يؤلف أكمل موجز في علم النبات، ويدرس العقاقير والأغذية في توسع.	أوروبا لم تعترف بأهميته إلا في القرن التاسع عشر.

إن مآثر المسلمين البارزة في البستنة هي: إدخال مختلف الرياحين إلى أوروبا، والجنائن الفارسية والأندلسية، وإن بعض منتجات الفاكهة الإسلامية وأسمائها قد نقلت إلى أوروبا، مثل Julep (جلاب) وSyrup من لفظتي (شراب) و(رب) وAttar (عطر)، وكانت العطور العربية والفارسية ذات شعبية واسعة في أرجاء الغرب كله.

سادساً: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية:

لعل هذا الوجه من أبرز دلائل تهافت المزاعم التنصيرية حول تلفيق القرآن من اليهودية والنصرانية ؛ لأن واقع الأمر وحقيقة الحال أن اتجاه التأثير كان عكسياً ، من اللاحق إلى السابق ، وليس من السابق إلى اللاحق ، وهذا الاتجاه التأثيري العكسي وإن كان على غير المألوف إلا أن له ما يسوغه ، حيث جاءت اليهودية والنصرانية دعوة مرحلية لجماعات قبلية محدودة من البشر ، فلمّا أرادت تجاوز طبيعتها وأهداف رسالتها احتاجت إلى عناصر تمكنها من ملاءمة الدائرة الزمانية والمكانية والثقافية الجديدة التي أرادتها لنفسها ، ولمّا كانت تفتقد إلى تلك العناصر التي لم تتوافر إلا للإسلام بحكم طبيعة رسالته العالمية الخاتمة ، فإن اليهودية والنصرانية تلمّستا تلك العناصر في الإسلام واقتبستها منه .

حتى إننا لا ندري إلى أي مدى يمكن أن تكون ثورات الفكر المسيحي منذ الحركة الألبية حتى حركة الإصلاح البروتستانتي محسوبة كنتائج مباشرة أو غير مباشرة لمفهوم العقيدة في القرآن(١).

يقول قاموس "برتلس مان" لديانات العالم: "لقد أثَّر الإسلام تأثيراً عظيماً في العقيدة المسيحية والفلسفة ، وقاد على سبيل المثال إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية"(٢) .

لكن تأثير الإسلام لم يكن قاصراً على العقيدة في المسيحية فحسب، بل يمتد إلى الشريعة والكتب المقدسة ، كذلك فإن تأثير

---

(١) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ١٩٢ ، مرجع سابق .

(٢) Religionen der Welt , Bertelsmann Handbuch , S : 183 , ders .

الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية ، وذلك في عدد من الجوانب يمكن إجمالها فيما يلي :

١ - المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها موسى بن ميمون أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه ، فصاغها على غرار أصول الإيمان في الإسلام ، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفاً في اليهودية من قبل أو مدرجاً في العهد القديم ، كالاعتقاد بأن الله عالم ، وبالثواب والعقاب في الآخرة ، والاعتقاد في بعث الموتى[١].

وقد أقرَّ ابن كمونة بعدم ذكر الثواب والعقاب الأخروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسويغه[٢] ، وهذا يؤكد اقتباس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام .

٢- تحديد مفهوم النبوة والمعجزة لأول مرة في اليهودية، وكان متأثراً بنظرية الفلاسفة المشائين كالفارابي وابن سينا ، أو متابعاً لجمهور علماء الإسلام في استدلالهم على هذه المعتقدات بالنصوص القرآنية[٣].

٣- نقد التوراة ، يقول "واكسمان" صاحب كتاب "الأدب اليهودي" : "في القرن الحادي عشر دخلت الفلسفة اليهودية مرحلة جديدة متأثرة بالمؤلفات الفلسفية الإسلامية والأفكار الإسلامية ، وكان من أثر هذا أن بدأ

---

(١) راجع المبادئ الثلاثة عشر في :
Moses ben Maimone : Sein Leben , Seine Werke und sein Einfluss , S : 112 , Hrsg von : W. Bacher . Leipzig 1908 .

(٢) ابن كمونة ، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث ، ص ٤٠ - ٤٣ .

(٣) راجع رسالتنا للدكتوراه ، النبوة بين اليهودية والمسيحية والإسلام ، بمكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٩٦ م .

الشك في التلمود ، وبدأت تظهر أفكار حرة ، ولم يقتصر الهجوم والنقد الذي قام به القراؤون والطوائف المتصلة بهم على التلمود، بل شمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي"[1] .

٤- إقرار المسيحية بالوظيفة النبوية للمسيح الأرضي عيسى -عليه السلام- والتي لم تجد لها مكاناً في وثائق الكنيسة إلا في قرار مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥م[2].

٥- دعوة البروتستانت إلى حرية قراءة الكتاب المقدس ورفض احتكار الكنيسة تفسيره والتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب ، تلك الحركة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسلام كابن حزم والقرطبي وابن تيمية وابن القيم ، وغيرهم .

٦- تحريم البروتستانت لعبادة الأيقونات، ومنع وضعها في الكنائس؛ لأنها عمل وثني .

٢- دلائل تهافت الدعوى الثانية : القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل :

سبق القول بأن هذه الدعوى تفصيل للدعوى الأولى ، وتحديد لمجمل مزاعمها ، وتعيين القصص القرآني بأنه موضع الاقتباس والإفادة

---

(١) نقلا عن إبراهيم موسى هنداوي ، الأثر العربى في الفكر اليهودي . ص ١٤٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

(٢) Katechismus der katholischen Kirche . Leipzig - schwens 1993 .

من قصص التوراة والإنجيل ، ولن يجدي في رد هذه الشبهة سوى منهج نقد النصوص المقارن لإبراز جوانب التباين بين مرويات القصص القرآني ومنهجها ، وبين القصص التوراتي والإنجيل.

وبواسطة هذا المنهج أمكن الوقوف على أربعة دلائل تتهافت معها دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل ، وهي :

الدليل الأول : اختلاف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل :

يختلف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل من عدة جوانب منها :

١- مصدر القصص، حيث إن الذي يقصُّ في القرآن هو الله تبارك وتعالى[1] ، فهو المتكلم بالكلمة القرآنية ، يقول تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ . . . ﴾ (يوسف : ٣).

ويقول تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف : ١٣).

أما في التوراة والإنجيل فالله تعالى متحدَّث عنه بطريق الحكاية لتعريف الناس به .

---

(١) التهامي النقرة ، سيكولوجية القصة في القرآن ، ص ٨٠ ، الشركة التونسية للتوزيع . تونس ١٩٧٤م .

٢- الخيال القصصي ، بينما يقوم الخيال القصصي في التوراة والإنجيل بأكبر الأدوار في صياغة وتأليف قصصهما ، وهو ما كشفت عنه دراسات حديثة تعد مرجعيات في هذا الباب ، مثل دراسة: جيمس فريزر عن الفلكلور في العهد القديم[١]، ودراسة "زينون كاسيدوفسكي" عن الحقيقة والأسطورة في التوراة والتي لخّص فيها. مكانة الخيال والخرافة في القصص التوراتي، بقوله: "تناقل اليهود تراثهم الديني من جيل إلى جيل ، وساهم الطابع الفلكلوري لنقل الروايات الحقيقية بتطعيمها بكثرة من الخرافات والأساطير والأمثال والأقصوصات ، جعلت من الصعب الآن التمييز بين الواقع والخرافة فيها"[٢] .

وكذلك الأمر فيما يخص العهد الجديد، مما حدا "برودولف بولتمان" أحد رواد مدرسة الأشكال الأدبية وتاريخ الأديان ، إلى السعي نحو مشروع تطهير العهد الجديد من الأساطير حتى تكون له قيمة في الوقت الراهن ، بقوله: "تقف المسيحية اليوم أمام خيار عسير: فبمطالبتها الإيمان بعقائدها فإنها تشق على البشرية بإلزامها التسليم بقصص وخرافات أسطورية عفا عليها الزمن .

---

(١) جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم ، بترجمة نبيلة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٢) زينون كاسيدوفسكي ، الحقيقة والأسطورة في التوراة ، ص ٥٢ ، الأبجدية للنشر . دمشق ١٩٩٠م .

فإن كان هذا المطلب غير ممكن التحقيق ويترتب عليه التساؤل عما إذا كان العهد الجديد يتضمن ذاتية مستقلة عن عالم الأساطير!؟.

فإن الواجب اللازم للباحث في الأديان تطهير الدعوة المسيحية من الأساطير تطهيراً كاملا ، وليس جزئياً ، فإما أن يقبل المرء الأساطير أو يرفضها كلية"[1] .

أما القرآن الكريم فلا يعرف الخيال القصصي طريقاً إلى مادة مروياته، حيث يلجأ القرآن في قصصه إلى الاحتكام لمعياره النقدي في الأخبار: ﴿ ... إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ... ﴾ (الحجرات: ٦) .

فهو يطالب قارئ قصصه بتلمس دلائل واقعيتها وصدقها التاريخي في آثارها الماثلة للعيان: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧) .

وقد وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي ، مثل آثار سيل العرم الذي هدّم سد مأرب باليمن ، فلازالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد وشماله ماثلة حتى اليوم تؤكد صحة قصة سبأ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ ... ﴾ (سبأ: ١٥ – ٢١).

---

(١) Rudolf Bultmann , Neues Testament und Mythologie , S : 21 , in : Mythos, Hrsg von : Hans - Werner Hamburg Kergma und 1960 .

وكذلك اكتشف علماء الآثار النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء ولازالت مزاراً سياحياً حتى اليوم.

ولذلك يصف القرآن قصصه بأنه ﴿ ... أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ... ﴾ (يوسف: ٣) ، لما توافر له من علم ومعاينة ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ (الأعراف: ٧) ، وما اتسم به من حقيقة وصدق ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ... ﴾ (آل عمران: ٦٢) .

٣- التشخيص البياني ، وهو التعبير بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات الشعورية والمشاهدات والأحداث الحقيقية، وهذا النهج التشخيصي هو الأداة المفضلة في القصص القرآني . يقول سيد قطب: "إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التى يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري لا قصة تروى ولا حادثاً قد مضى"(١).

٤- التصريح والتلميح ، في الوقت الذي يهتم القرآن بإبراز أدق التفاصيل النفسية والشعورية لأشخاص قصصه ، فإنه يكتفي بذلك التشخيص معرضاً عن التصريح بالأسماء كما في قصة "العبد الصالح" و"الفتى" مع موسى ، وكما في قصة ثمود: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ (الشمس: ١٢)، وكما في مؤمن آل فرعون .

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٥٦، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦م.

وقد يكون هذا التلميح إلى جانب ملاءمته للمنهج القصصي الذي يهتم بإبراز الحدث وقيمته ومغزاه لكونه الهدف من القصّ ، فإنه يناسب طبيعة التشريع الإسلامي فيما يخصُّ أسماء النساء مثلا : امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وكذلك زوجة إبراهيم هاجر وسارة ، وأسماء زوجات النبي ﷺ ، والمجادلة في زوجها[١] .

٥- التجريد الزماني والمكاني ، حيث لا يحدد القرآن زمن الحدث أو مدته أو مكانه إلا ما كان محورياً في الحدث أو مسرحاً له كمصر في قصة يوسف ، أو المسجد الحرام والمسجد الأقصى في الإسراء والمعراج ، أو مدة رسالة نوح ، أو مدة لبث أهل الكهف في نومهم ، أو المدة التي أماتها الله للمارّ على القرية الخاوية[٢] .

وترجع أسباب التجريد في الزمان والمكان في قصص القرآن إلى أمرين :

أولها : عناية القصة بالحدث وتقرير الحقائق الدائمة المستقلة عن الأشخاص ، والتي يمكن الإفادة من حكمتها ومغزاها في كل زمان ومكان بما يتلاءم مع عالمية رسالة القرآن واستمرارها، فما الأشخاص في القصص القرآني والحال كذلك إلا أمثلة لتلك الحقائق المقصودة لذاتها[٣] .

---

(١)حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، ص ١١٢، القاهرة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.

(٢) التهامي نقرة، سيكلوجية القصة في القرآن ، ص ٩٧ . مرجع سابق .

حسين علي محمد، القرآن ونظرية الفن، ص ١١٣ . مرجع سابق .

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن (٢ /٢١٧) ، دار الشروق . القاهرة ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م .

الثاني: تحقيق الإيجاز غير المُخِلّ[1].

٦- التنويع بين الإجمال والتفصيل، ففي مواضع التحذير من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل، والتخويف من مصائر المكذبين، يكون الإيجاز والفواصل القصيرة دون ذكر للأسماء أو للمحاورات[2]، فيورد القرآن -مثلا- في تسع آيات من سورة الفجر ثلاث قصص لمكذبي الرسل تشمل أعمالهم وعقابهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ٦-١٤). وهذا ما لا نظير له في التوراة أو الإنجيل.

٧- عاقبة القصص، يأتي ختام القصة في القرآن بعكس ختام قصص التوراة والإنجيل حيث تختم القصة مع نهاية السفر أو الإصحاح، ففي قصة يوسف مثلا يفترض أن تكون الخاتمة في لقاء يوسف بأبيه يعقوب الذي صورته التوراة على النحو التالي: "فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان، ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً. فقال إسرائيل ليوسف أموت الآن بعد ما رأيت وجهك أنك حيّ بعد"[3].

---

(١) عبد الجواد المحص، أدب القصة في القرآن الكريم، ص ٢٥٥، الدار المصرية بالإسكندرية ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(٢) التهامي نقرة، سيكلوجية القصة في القرآن، ص ٩١.

(٣) سفر التكوين (٤٦ / ٢٩، ٣٠).

وعلى الرغم من أن عبارة يعقوب لم تمس سبب العقدة الأصلية في القصة وهي رؤيا يوسف وتآمر إخوته عليه ، فإن القاصّ في التوراة يكمل الأحداث بعد هذا اللقاء ليصف لقاء يعقوب بالفرعون ، والمكان الذي أقطعه لبني إسرائيل ، ومرض يعقوب وموته.

أما ختام القصص في القرآن فيكون غالباً في شكل عبرة ، أو عظة ، أو حكمة، أو تقرير موجز [1]، كما في قصة السامري مع العجل: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه: ٩٨) ، وفي قصة أهل الكهف: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٦)، وفي قصة يوسف: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ١٠٠) وفي قصة مريم وابنها المسيح: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم: ٣٥).

الدليل الثاني: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل:

تختلف أهداف القصة في التوراة والإنجيل عنها في القرآن ، وذلك على النحو التالي:

---

(١) حسين محمد علي ، القرآن ونظرية الفن ، ص ١١٣ ، مرجع سابق .

أ- أهداف القصة في التوراة والإنجيل:

يمثل العهد القديم والجديد سجلا تاريخياً لحياة الشعب الإسرائيلي والنصراني، فهو كتاب تاريخ وتاريخ للاعتقاد والرؤساء والأنساب والتقاليد والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية ؛ لذلك جاءت عناوين الأسفار ملخّصة لمضمون تاريخها ، مثل سفر التكوين الذي يؤرخ لبدء الخليقة، وسفر الخروج الذي يؤرخ لخروج اليهود من مصر ، وسفر العدد الذي يحصي أعدادهم ، وسفر اللاويين الذي يؤرخ لأحكام الكهنة من بني لاوي ، وسفر التثنية الذي يعيد الأحكام والفروض والوصايا.

ولما كان الهدف من الكتابين التاريخ جاءت القصص فيهما في إطار الهدف العام، فجاءت سردية تاريخية متنوعة ما بين التاريخ للأنساب كما في الإحصاءات التي يقوم بها العهد القديم لأعداد بني إسرائيل الداخلين إلى مصر والخارجين منها والداخلين إلى فلسطين والمهجّرين منها .... إلخ.

وكذلك التاريخ لنسب المسيح كما في شجرتي النسب الشهيرتين لدى متى ولوقا في العهد الجديد.

وما بين التاريخ للسير الذاتية والتيارات الأدبية ، كما في خطابات

بولس الشخصية لأصدقائه . تيموتاوس[١]، فيلمون[٢]، وكما في التاريخ لقصائد داود في المناسبات المختلفة[٣].

وما بين القصص التاريخي للأحداث ، مثل إنجيل لوقا الذي يصرح مؤلفه أن قصصه تاريخ لأحداث جرت بذكرها الألسنة . يقول لوقا: "إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاما للكلمة.

رأيت أنا أيضا إذ قد تتبَّعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس ؛ لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمْتَ به ، كان في أيام هيرودس ملك اليهودية..."[٤] .

وفي سفر أعمال الرسل يخبر الكاتب أن قصصه تكملة لمشروع القصص التاريخي الذي بدأه في كتابه إلى ثاوفيلس وتوقف فيه عند رفع المسيح[٥].

وربما يكون هذا الهدف التاريخي أحد أهم أسباب مجيء القصص التوراتي والإنجيلي سردياً بارداً غير مؤثر وجدانياً في المتلقي أو مشوق له.

---

(١) العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس.
العهد الجديد، رسالة بولس الثانية إلى تيموتاوس.

(٢) العهد الجديد، رسالة بولس إلى فيلمون.

(٣) العهد القديم، سفر المزامير، مزمور رقم: ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٨٥ ، ٨٩ .
وانظر : سفر الأمثال ، الإصحاح الأول.

(٤) إنجيل لوقا (١ / ١-٥).

(٥) العهد الجديد، سفر أعمال الرسل (١ / ١-٩).

ب ـ أهداف القصص القرآني :

القصص القرآني ليس مسوقاً لذاته ، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص ؛ لقوله تعالى : ﴿ ... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٦) . ومن هذه الأهداف :

١ــ الاستدلال على التوحيد، وهو من أهم أهداف القصص القرآنى، كما في قصص إبراهيم مع قومه ، ونوح مع قومه ، وموسى مع فرعون . . . إلخ .

٢ــ تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدعون إليه رغم ما يلقونه من مشقة ويتكبدونه من تضحيات، قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ... ﴾ (هود : ١٢٠) .

٣ــ الحكم والفصل في مواضع الاختلاف والتضارب في قصص التوراة والإنجيل، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦)، ولعل هذا الهدف الذي حدده القرآن لقصصه أبلغ رد وأوقع دليل على تهافت دعوى الجدليات التنصيرية بأن القرآن تكرار للقصص في التوراة والإنجيل ؛ لأنه يتضمن التفسير المقنع لمواضع التشابه بين القصص القرآني وقصص الكتب السابقة ، فما جاءت به الكتب السابقة في مقام ادعاء المدعي ، أما قصص القرآن فهو حقيقة الحدث الذي جرى يحكيه القاضي الفاصل في دعوى المدّعي ، مبيِّنا به وجه الخطأ والصواب في مزاعم الادعاء ومقرراً الحقيقة التاريخية في الحدث لكل العالمين .

٤- العظة والاعتبار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ... ﴾ (يوسف: ١١١)، ويمكن القول إن معظم قصص القرآن يُقصد به العظة والاعتبار من باب: إما قياس الطرد وإما قياس العكس، فما يحيق بالمشركين وبمخالفي الرسل هو جزاء كل من جاء بمثل فعلهم، أما من جاء بعكس فعلهم فله عكس جزائهم.

ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد الأخلاقي لدى الأمم السابقة، يقرن ذلك بما تلاه من جزاء ومصير ناله المفسدون، ويصدّر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف. يقول تعالى عقب قصة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٤).

ويعقّب القرآن على قصة ثمود بالترهيب من جزاء من يفعل السيئات مثلهم، وبالترغيب في ثواب من آمن واتقى من قوم صالح. قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (النمل: ٥١-٥٣).

٥- الحجة والإقناع، وذلك بإيراد القصة المناسبة للموقف بما تتضمنه من حوار تبرز فيه دعاوى المخالفين القدامى ضد أنبيائهم، ثم تأتي ردود الأنبياء الإقناعية وكأنها ردود من النبي محمد ﷺ على قومه أو ردود من كل داعية إلى الإسلام على مخالفيه في كل زمان ومكان، من ذلك مثلا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه.

قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٣١).

٦- إظهار قدرة الله المطلقة، وذلك في باب الخلق من عدم كقصة خلق آدم، أو الخلق من أم بلا أب كقصة مريم وابنها المسيح عيسى، أو إثبات القدرة على إحياء الموتى كقصة إبراهيم مع الطير، أو البعث والنشور كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.

الدليل الثالث: القصص الذي انفرد به القرآن:

يعد هذا الدليل من أبرز أدلة "نقد النص" وأهمها في بيان تهافت دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، بسبب كون المصدر المزعوم الإفادة منه يفتقد مادة المرويات القصصية ويجهل كل شيء عنها، وذلك في حالة القصص الكاملة التي انفرد بها القرآن، ويزيد الأمر قوة في الإثبات والإفحام عندما تتعلق المرويات ببعض التفاصيل الدقيقة التي أتى بها القرآن في القصص المتناظرة مما لم تذكره كتب العهدين.

ومن القصص الذي انفرد به القرآن ما يلي:

أ- القصص الكاملة:

مثل قصص: صالح، هود، شعيب، الخضر، ذى القرنين.

ب- تفاصيل دقيقة في القصص المتناظر انفرد بها القرآن أو خالف فيها كتب التوراة والإنجيل مثل[1]:

(١) عبد الجواد المحص، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، ص ٤٦-٤٨، الدار المصرية. الاسكندرية ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

١- ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود .

٢- ما ورد في القرآن الكريم من قصص الخليل عليه السلام مع قومه وتحطيمه لأصنامهم ونظرته في النجوم، وحجاجه مع قومه، ومحاولتهم إحراقه في النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل في رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة .

٣- ما قصه علينا القرآن الكريم من محاورة بين نوح وابنه الكافر ، وعدم ركوب ابنه هذا في السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله في ذلك.

٤- ما قصه علينا القرآن الكريم من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، وحديث النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن .

٥- ما قصه القرآن الكريم عن خبرة سحرة فرعون والتقام العصا التي انقلبت حية لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون.

٦- الشخص الثاني الذي أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش به من عدوه، في حين أن العهد القديم يدعي أن هذا الشخص عبراني .

٧- السامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل في حين أن التوراة تذكر أنه هارون عليه السلام .

٨- ما قصه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه ، ودافع عن موسى حين هموا بقتله ، وذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح موسى بالخروج من أرض مصر.

٩- القرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المدْيَني اثنتان ، في حين أن التوراة تذكر أنهن سبع .

١٠- ما ورد في القرآن الكريم من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صَرْح لِيَطَّلِعَ إلى إله موسى .

١١- ما جاء في القرآن الكريم من خبر أمر موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم .

١٢- أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سجداً ومخالفتهم لهذا الأمر .

١٣- قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة بعد أن اعتدوا فيه .

١٤- ما قصه القرآن الكريم من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود عليه السلام .

١٥- تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام .

١٦- قصة الهدهد ، وكتاب سليمان لملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلمح البصر من قِبَل الذي عنده علم الكتاب .

١٧- كلام عيسى في المهد .

١٨- صنع عيسى من الطين كهيئة الطير وصيرورته طيراً بإذن الله.

١٩- قصة المائدة .

الدليل الرابع: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل:

لا شك أن المقابلة بين نصوص القصص القرآني ونصوص القصص في التوراة والإنجيل تعدُّ معياراً موضوعياً في بيان تهافت مزاعم الجدليات التنصيرية بتكرار القصص القرآني لقصص العهد القديم والجديد ، وذلك لما يكشف عنه هذا المنهج المقارن للنصوص من اختلافات وفوارق تفصيلية وجوهرية بين متون القصص في الكتب الثلاثة، مما يحسم بشكل جليّ وقاطع أمر الاقتباس والمتابعة ، وذلك في ضوء الاعتبارات التالية:

١- تكرار المقتبس لأخطاء مصادره .

٢- وقوع المقتبس في الخطأ عند محاولته مخالفة المصدر الأصلي ، نظراً لبعد المدة الزمنية التي تفصله عن الأحداث مع قرب المصدر زمنياً من تلك الأحداث ، بل وافتراض معايشته لبعضها .

فإذا ما أضيف إلى تلك الاعتبارات بُعْد موضوعي آخر يتمثل في الاسترشاد بمقررات العلوم ونتائج مكتشفات علماء الحفريات والآثار فيما يخص مرويات القصص المتعلقة بالحقائق الكونية أو التاريخية . فإنّ جوانب الموضوعية ولوازم المنهجية العلمية ودواعي الإفادة تكون قد توافرت في ذلك النهج .

فإن قادت نتائجه إلى أن القصص القرآني قد خالف القصص التوراتي والإنجيلي في تفصيلات دقيقة ، وأن مقررات العلوم : الطبيعية والفيزيائية والإنسانية والأثرية ، قد وافقت التفصيلات القرآنية بينما خطّأت الروايات التوراتية والإنجيلية ، فسوف يكون ذلك أنصع برهان علمي على تهافت مزاعم الجدل التنصيري حول القصص القرآني خاصة ، وحول أصالة القرآن عامة .

وسوف تكون المقابلة بين القصص القرآني والقصص في التوراة والإنجيل ، حول القصص التالية :

أ- رواية خلق العالم :

جاءت قصة خلق العالم في التوراة في روايتين من سفر التكوين ، أولاهما تسمى الرواية الكهنوتية التي كتبت بواسطة الكهنة في عصر المنفى، والثانية رواية (يهوية) ، أي من بين النصوص التوراتية التي تستخدم لفظ (يهوه) للتعبير عن اسم الإله ، وهي أقدم تاريخياً من الرواية الأولى وإن جاءت في النصوص تالية لها ، على النحو التالي[1] :

الرواية الأولى

"في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه . وقال الله ليكن نور فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين

(١) سفر التكوين (١ / ١ - ٢ / ٩).

النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً . ورأى الله ذلك أنه حسن . وقال الله: لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك . فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً .

وقال الله: لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل . وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين . وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض . وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين . النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل . والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله: لتفض المياه زحّافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء . فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلا أثمري وأكثري واملأي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض . وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً .

وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا . فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض . فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكر وأنثى خلقهم . وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض . وقال الله: إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبذر بذراً . لكم يكون طعاماً. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك .

ورأى الله كل ما عـمله فإذا هو حـسن جداً . وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً .

فأكملت السموات والأرض وكل جندها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه . لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً .

الرواية الثانية

هـذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت . يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد ؛ لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان ليعمل الأرض . ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض . وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض . ونفخ في أنفه نسمة حيوة . فصار آدم نفساً حية . وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً . ووضع هناك آدم الذي جبله . وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل .

أما رواية خلق العالم في القرآن فلم تأت مجتمعة في مكان واحد شأن غيرها من القصص القرآني ، وإنما جاءت متضمنة في نقاط أساسية هي :

١- خلق السموات والأرض في مراحل ستة ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (سورة ق: ٣٨).

٢- تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: ٩-١٢).

٣- خلق الكون من كومة أوليّة فريدة متماسكة. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

٤- تعدد السموات والكواكب التي تشبه الأرض: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ (الطلاق: ١٢).

٥- خلق عالم وسيط بين السموات والأرض. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾ (الفرقان: ٥٩)، ويقول تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (طه: ٦).

وتتفق الرواية القرآنية مع الرواية التوراتية في مسألتين فقط:

١- عدد أدوار الخلق الستة.

٢- جعل النجوم مصدر النور.

أما وجوه الاختلاف فكثيرة يمثل كل منهما خطأ علمياً وقعت فيه الرواية التوراتية، وتأكيداً علمياً على صحة الرواية القرآنية، وهذه الوجوه هي:

١- انفراد القرآن ببيان كيفية نشأة الكون من الكتلة الأولية التي تفتقت بفعل انفجار كبير يطلق عليه العلم الحديث نظرية الانفجار العظيم "The Big Bang"[١].

٢- المراحل الست في القرآن مراحل زمنية مديدة وليست ستة أيام بشرية بحساب تعاقب شروقين أو غروبين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٤، ٥).

وهذا ما يؤكده علماء الفيزياء الكونية من أن انفصال الأرض عن الشمس كان منذ خمسة آلاف مليون سنة تقريباً، وأن الأرض ظلت مئات الألوف من السنين كي يبرد سطحها[٢].

ويقابل هذا المفهوم القرآني لمراحل الخلق الستة حصر توراتي خاطئ للمراحل الست في ستة أيام بشرية تبدأ بالأحد وتنتهي بالجمعة ويعقبها يوم السبت المقدس يوم الراحة الذي استراح الله -تعالى- فيه من عملية الخلق، وباركه وقدسه.

---

(١) كارل ساغان، الكون، ص ١٢٤، سلسلة عالم المعرفة (١٧٨)، وزارة الإعلام بالكويت.

(٢) A . K . Wells , Outlines of geoloical History , pp . 3 -37 , London 1938 .

ويفسر جيمس فريزر عالم الديانات المقارنة الشهير أسباب وقوع الرواية التوراتية في هذا الخطأ العلمي الشنيع ، بأن رواية خلق العالم في التوراة لم تكن سوى تمهيد من الكهنة لخلع القداسة على يوم السبت يوم العبادة والراحة لدى اليهود[١] . وكان المصدر الذي استقى منه الكهنة تقديس اليوم السابع من أيام الخلق هو ملحمة خلق العالم البابلية (انوما ايليش)[٢] .

وقد ترتب على هذا الخطأ في رواية الخلق التوراتية خطأ آخر وقعت فيه روايات العهد القديم وكذلك العهد الجديد كما يبدو في تصور إنجيل لوقا لشجرة أنساب المسيح، ألا وهو حساب عمر الإنسان على الأرض بأنه بدأ في التاسعة صباح يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد[٣] . أي قبل ستة الآف سنة من عامنا هذا .

٣- إشارة القرآن إلى حالة غازية في بداية عملية الخلق ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت : ١١) .

وهي تتطابق مع معطيات العلم الحديث[٤] .

---

(١) جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم (١ /١٠٨) مرجع سابق .

(٢) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التوراة ، ص ٢٣، الأبجدية للنشر . دمشق ١٩٩٠م .

(٣) السابق ، ص ٢٤ .

(٤) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، ص ١٧١، ١٧٢ .

٤– وجود العوالم الوسطية التي أخبر القرآن بخلقها بين السموات والأرض يسميها العلم الحديث بالبواقي أو المادة الكونية المنتشرة بين النجوم ، ويصفها بأنها ذات كتل هائلة[١] .

٥– اشتمال رواية العهد القديم ـ منفردة ـ على الأخطاء التالية[٢] :

– الإشارة إلى وجود المياه في المرحلة الأولى من مراحل الخلق .

– ذكر النور في اليوم الأول قبل أن تخلق النجوم .

– ذكر الليل والنهار في اليوم الأول قبل وجود الأرض ودورانها حول الشمس .

– وجود العالم النباتي في اليوم الثالث قبل خلق الشمس في اليوم الرابع .

– خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض ، وذلك يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل النظام الشمسي .

– الإشارة إلى عالم الحيوان والطيور في اليوم الخامس مع أن وجود الطيور تال لوجود عالم الحيوان .

ب – الطوفان :

تتفق رواية القرآن لقصة الطوفان مع رواية التوراة في العناصر التالية :

١– أسباب السيل (الأمطار الغزيرة وتفجر عيون الماء من الأرض) .

٢– صنع نوح لسفينة النجاة .

٣– حمل بعض البشر وبعض الحيوانات والطيور في سفينة النجاة .

---

(١) السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) السابق ، ص ٤١ – ٤٥ .

وتختلف الروايتان في أمرين جوهريين:

الأول: حجم الطوفان:

يأتى الطوفان في القرآن عقاباً خاصاً لقوم نوح شأن غيرهم من مكذّبى الرسل: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفرقان: ٣٧).

أما في التوراة فإن الطوفان عقاب عالمي لكل البشرية. يقول سفر التكوين: "فقال الله لنوحٍ نهاية كل بشر قد أتت أمامي لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً... فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت"[١].

وهذا التدمير الشامل للأرض كما تحكيه التوراة غير مقبول من الناحية التاريخية، فبحسب تقويم العهد القديم يرجع تاريخ الطوفان إلى القرن الحادي أو الثاني والعشرين قبل الميلاد وهو يقابل تاريخ وجود الأسرة الحادية والعشرين من أسر الفترة الوسطى في مصر[٢].

ومن الناحية العلمية فإن القول بوقوع تدمير شامل للكرة الأرضية يتعارض مع أبسط مبادئ الجيولوجيا[٣].

(١) سفر التكوين (٦/١٣-١٧).

(٢) موريس بوكاي، ص ٤٣، ٥٤، مرجع سابق.

(٣) جيمس فريزر، الفلكور في العهد القديم (١/٩٢) مرجع سابق.

لذلك يفسره جيمس فريزر بأنه مناسبة خلقها الكهنة لإقامة عهد بين الرب وفئة الناجين المنتقاة حسب الشروط الكهنوتية[١].

الثاني: موقع الطوفان:

تحدد التوراة مكان استقرار سفينة نوح: "في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط"[٢].

وجبال أراراط تقع في تركيا كما توضح ذلك خريطة الشرق الأوسط في العهد القديم الملحقة بالبحث[٣].

أما القرآن فيحدد استقرار السفينة على "الجودي" وهو اسم جبل يقع في الموصل بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات غير بعيد من مدينة "أور" عاصمة السومريين القديمة.

وذلك ما أكدته الاكتشافات الكبيرة لعالم الآثار الإنجليزى ليونار وولى الذي اكتشف مدينة أور وتحت مقابر ملوكها اكتشف طبقة من الطمي النهري سمكها ثلاثة أمتار، وتحتها آثار عمرانية لجماعة بشرية عاشت في زمن سحيق وأغرقها سيل مائي هائل، وبعد أن انحسرت مياهه جاءت بلاد الرافدين موجات بشرية أخرى سكنت المكان وهم السومريون[٤].

---

(١) السابق (١/١٠٨).

(٢) سفر التكوين (٨/٤).

(٣) ملحق رقم (١).

(٤) زينون كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة في التوراة، ص ٢٦.

جـ - قصة يوسف :

قصة يوسف هي القصة القرآنية الوحيدة التي جاءت في مكان واحد من سورة تحمل اسم النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام ؛ لذلك يسهل وضعها بالتوازي في مقابلة القصة التوراتية للوقوف على وجوه تباين التفاصيل بين القصتين . وذلك من خلال الجدول التالي[1]:

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية التوراتية	ملاحظات
١ - ٣	مدخل يضع القصة في الإطار الديني	مدخل يضع القصة في الإطار العائلي	اختلاف
٤ - ٦	رؤيا واحدة ليوسف	رؤيبان ليوسف	اختلاف
٧ - ١٥	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب عقب تآمر الإخوة عليه	ذهاب يوسف بأمر يعقوب	اختلاف
١٦ - ١٨	ارتياب يعقوب في أولاده عقب المؤامرة وأمله في عودة يوسف	سرعة تصديق يعقوب المؤامرة ويأسه من عودة يوسف	اختلاف
١٩ - ٢٠	بيع يوسف ووصوله إلى مصر	نفس الرواية	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله
٢٤	همُّ يوسف وظهور برهان الله له	لم يرد	
٢٥	القميص تقده المرأة	القميص تأخذه المرأة	
٢٧ - ٢٩	إدانة خلقية من الزوج لزوجته	غضب الزوج على يوسف	اختلاف
٣٠ - ٣١	فضيحة في المدينة واجتماع النسوة	لم يرد	
٣٤	دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة	لم يرد	النبي يتحدث أكثر في القرآن
٣٦ - ٤٠	وعظ يوسف لأصحابه في السجن	لم يرد	
٤١	تعبير الرؤيين بطلب من يوسف	تعبير الرؤيين يتقدم به يوسف	اختلاف
٤٢ - ٤٨	حل نفسي لعقدة السجن باعتراف المرأة	حل سياسي مترتب على رؤيا فرعون	

---

(١) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ص ٢٤٠، ٢٤١ .

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الرواية التوراتية	ملاحظات
٤٩	تنبؤ بعام الرخاء والنجاة	لم يرد	
٥٣	وعظ في حضرة الملك	لم يرد	شخصية النبي أكثر ظهوراً في القرآن
٥٤	رد اعتبار يوسف	مهمة معهود بها إلى يوسف	عدالة في القرآن وسياسة في التوراة
٥٥	يوسف يطلب مسؤولية الخازن	مسؤولية الخازن تعرض عليه	اختلاف
٥٧	اهتمام بالآخرة	لم يرد	الدين يتكلم أكثر في القرآن
٥٨ - ٦٢	مشهد يوسف مع إخوته	صورة بتصرف	يوسف أكثر نبوة في القرآن
٦٣ ٦٧	بواعث العودة إلى مصر : مسعى أبناء يعقوب لدى يوسف	بواعث العودة إلى مصر : أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون لمصيره	الاتهام بالجاسوسية اعتقال شمعون غير وارد في القرآن
٦٨ - ٦٩	وصول الإخوة إلى مصر وكيد يوسف	نفس الصور	
٧٠ - ٧٩	رحيل إخوة يوسف واعتقال بنيامين	مع بعض التصرف	
٨٠	تشاور الإخوة	لم يرد	
٨١ - ٨٧	عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة	لم يرد	
٨٨	عودة إلى مصر لدى يوسف	لم يرد	
٨٩ - ٩٢	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته	حل الموقف بانفعال يوسف	اختلاف
٩٣	إرسال قميص يوسف إلى أبيه	لم يرد	
٩٤ - ٩٥	وجدان يعقوب	لم يرد	
٩٦ - ٩٩	شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بنيه	لم يرد	
١٠١	ختام يوسف للقصة بحمد الله والثناء عليه	لم يرد	المعالم الروحية في القرآن

ويكشف جدول التفاصيل السابق عما يلي من وجوه تباين واختلاف بين رواية القرآن ورواية العهد القديم[1]:

١- القرآن يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله القصة.

أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير إلى ما وراء الأحداث من عظات.

٢- يذكر القرآن الكريم أن إخوة يوسف تضايقوا من حب والدهم له ولأخيه، ولم تشر التوراة إلى الأخ بشيء.

٣- رؤيا يوسف التي قصَّها على أبيه كما في النص القرآني تتلخص في أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، والذي في التوراة أن يوسف رأى قبلها رؤيا، فقد رأى أنه وإياهم يحزمون حزماً في الحقل في الصحراء، فإذا حزمته قامت وأحاطت بحزم إخوته فسجدت لحزمته حزمهم فقال له إخوته: ألعلك تملك علينا ملكاً؟ أم تتسلط علينا تسلطاً؟ وازدادوا بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه.

وأما الرؤيا الثانية فهي كما في القرآن من حيث المضمون، ولكن يوسف قصها على أبيه وإخوته، ولم يعلق الإخوة، ولكن الأب انتهره وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟.

---

(١) أحمد نوفل، سورة يوسف: دراسة تحليلية، ص ٦٠، ٦٦، دار الفرقان. عمّان ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٤- لم تذكر التوراة أن الإخوة تفاوضوا على قتل يوسف، أو أنهم راودوا أباهم لإخراجه معهم، ولكن الأب يرسل يوسف لينظر سلامتهم وسلامة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر فذهب إليهم، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه.

٥- تآمر إخوة يوسف عليه إما قتلا أو طرحاً أو إلقاء في الجب هكذا في القرآن، والذي في التوراة أن أحد الإخوة راؤبين استبعد فكرة القتل وأشار بالطرح في البئر التي في البرية ، لا لتلتقطه السيارة ، ولكن ليغافلهم ويستخرجه من البئر ليعيده إلى أبيهم .

٦- في القرآن أن إخوة يوسف جاؤوا على قميص أخيهم بدم كذب وجاؤوا أباهم وقت العشاء يبكون أخاهم فأجابهم بما نعلم ، والذي في التوراة أنهم لم يجيئوا إلى أبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه.

٧- في القرآن أن يعقوب تجلد للمصاب الجلل وما زاد على أن قال كلمات نورانية سامقة: ﴿ ... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف: ١٨) ومثل هذا الموقف الرجولي الإيماني الرفيع هو اللائق بالنبي الكريم.

وأما التوراة فتقول: "فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة" .

٨- في التوراة استطراد عن زنى أحد الأسباط بكنته !! ولا علاقة قطعاً بين الخبر المحشور في السياق وبين القصة.

٩- ليس في التوراة من قول العزيز لامرأته أكرمي مثواه ، بل تقفز مباشرة إلى قول المرأة ليوسف عندما دخل بيتها الخاص ورفعت عينيها إليه وقالت : اضطجع معي . وليس في التوراة ذكر تعرض المرأة له بالمراودة غير ما ذكر ولا تغليق الأبواب ولا قدّ الثوب ولا استباق الباب، ولكن فيها أن المرأة أمسكت بثوب يوسف فتركه عندها وخرج.

١٠- ليس في التوراة قصة الشاهد على روعة مغزاها ، وليس فيها خبر النسوة على الرغم من دوره في النسيج القصصي ، ولكن الذي في التوراة بعد أن حمي غضب العزيز أنه أخذ يوسف ووضعه في بيت السجن.

١١- في التوراة أن رؤيا الملك حصلت بعد سنتين من خروج الساقي.

١٢- وبالنسبة لمجيء إخوة يوسف إلى مصر فإن التوراة تذكر أن يوسف حبسهم وسلك معهم مسلك إعنات حتى يأتوه بأخيهم وقال لهم : جواسيس أنتم . لتروا عورة الأرض جئتم. بهذا تمتحنون وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير.

١٣- ختام القصة ، حيث تقول التوراة بعد أن ذكرت موت يعقوب ودفنه: "واستحلف يوسف بني إسرائيل قائلاً: الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف ، وهو ابن مائةٍ وعشر سنين وحنطوه ووضع في تابوت في مصر"، هكذا تنتهي القصة في التوراة بخاتمة ميتة فنياً .

ولكن جاءت الخاتمة الفنية في القرآن الكريم مناسبة ومعبّرة:

﴿ . . . وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٠، ١٠١).

أما وجوه الاختلاف ذات الصلة بالناحية العلمية والتاريخية فأمران:

الأول: وسيلة سفر أبناء يعقوب:

يذكر القرآن في ثلاثة مواضع من القصة أن العير هي وسيلة الترحال التي اتخذها أبناء يعقوب، والعير في اللغة هي ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير[1].

أما التوراة فتنصُّ على أن وسيلة السفر وحمل الطعام كانت الحمير، وهو غير ملائم من وجهين:

١- أن الحمار حيوان حضريّ غير مألوف في البادية وحياة الصحراء كوسيلة انتقال ولذلك لم يعرفه بنو إسرائيل إلا في الحياة الحضرية الزراعية بمصر.

٢- من غير المعقول أن يستطيع الحمار قطع المسافة من كنعان في بادية الشام إلى مصر مخترقاً فيافي وصحراوات شاسعة، أوعرها شبه جزيرة سيناء، كل ذلك وهو محمل بالحبوب والغلال يعاني جفاف الصحراء وقيظ الحر الشديد.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة عير (٢ / ٦٦٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط ٣.

الثاني: حاكم مصر:

تذكر التوراة أنه فرعون، ويحكي القرآن أنه "ملك" وليس فرعون، وهذا ما أكّدته الدراسات التاريخية المعاصرة التي أجراها عالم المصريات الفرنسي "بيير مونتيه" استناداً إلى تحديد العاصمة التي كان يحكم منها يوسف وهي "أفاريس" الواقعة في دلتا النيل قرب قرية سان الحجر المعاصرة ذات الكتابات الهكسوسية الغزيرة وهو ما يقطع بأن قصة حياته تعود إلى فترة حكم الهكسوس؛ لأن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة نقلوا العاصمة إلى طيبة بعد طرد الهكسوس[1].

كذلك تذكر الوثائق المصرية التي يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد القبائل الكنعانية الرعوية التي جاءت واستقرت في مصر.

كما أن المؤرخ اليهودي يوسفس فيلافيوس يتحدث عن الهكسوس على أنهم أجداده[2].

وتتطابق نتائج هذه الدراسات التاريخية مع بعض إشارات النص التوراتي، حيث يذكر سفر التكوين في سياق القصة أن المصريين كانوا يعدُّون العبرانيين رجساً، فيكون من غير الطبيعي والمنطقي أن يسمح حكام مصر من الفراعنة أن يتسلط على المصريين من يعدونه رجساً.

بل الشيء المنطقي الوحيد أن يكون الهكسوس المحتلون الأجانب عن مصر قد استعانوا بآسيوي أجنبي مثلهم في حكم البلاد.

---

(١) زيتون كاسيوفسكي، الحقيقة والأسطورة في التوراة، ص ٨٠، مرجع سابق.

(٢) السابق، ص ٧٨.

مصادر و مراجع البحث

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب السنة النبوية .

١- جامع الترمذي : طبع مصطفي البابي الحلبي، القاهرة ، ط ٢، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

٢- صحيح البخاري : فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

ثالثاً : الكتب المقدسة لدى أهل الكتاب .

١- العهد الجديد (نسخة الكاثوليك) ، اعتماد بولس باسيم ، دار المشرق . بيروت ١٩٨٩م .

٢- العهد القديم (نسخة الكاثوليك) ، اعتماد بولس باسيم ، دار المشرق . بيروت ١٩٨٩م .

رابعاً : المعاجم .

المعجم الوسيط ، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

خامساً : دوائر المعارف المتخصصة .

Theologische Realenzyklopädie , London - New York - Bonn .

سادساً : مصادر ومراجع أخرى .

١- إبراهيم الجبهان ، ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير ، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد . الرياض ١٤٠٤هـ .

٢- إبراهيم خليل أحمد ، المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي ، مكتبة الوعي العربى ، القاهرة ١٩٦٤م .

٣- إبراهيم موسى هنداوي ، الأثر العربي في الفكر اليهودي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣م .

٤- أحمد عبد الحميد غراب ، رؤية إسلامية للاستشراق ، المنتدى الإسلامي ، لندن ١٤١١هـ .

٥- أحمد نوفل ، سورة يوسف : دراسة تحليلية ، دار الفرقان . عمّان ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٦- إدوارد سعيد ، الاستشراق ، ص ٣٠٠ ، بترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية . بيروت ط٢، ١٩٨٤م .

٧- ارنست رينان، ابن رشد والرشدية ، عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٧م.

٨- إسماعيل سالم عبد العالم، المستشرقون والقرآن، سلسلة دعوة الحق - عن رابطة العالم الإسلامي، العدد ١٠٤، مكة المكرمة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٩- أعراب عبد الحميد ، دائرة المعارف الإسلامية ، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي الرياض (٢٢ - ٢٥ رجب ١٤٢٠هـ ، ٣١ اكتوبر - ٣ نوفمبر ١٩٩٩م) .

١٠- أ . ل شاتيله ، الغارة على العالم الإسلامي، نشر محب الدين الخطيب. بيروت ، د . ت.

١١- أنيس فريحة ، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران. ترجمة إبراهيم مطر. بيروت ١٩٥٧م.

١٢- بابا دو بولس ، تاريخ كنيسة أنطاكية ، منشورات النور ، بيروت ١٩٨٤م.

١٣- البيجوري ، تحفة المريد في شرح جوهرة التوحيد ، دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٣م .

١٤- التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (الترجمة الكاملة لأعمال مؤتمر كلورادو التبشيري) ، دون بيانات .

١٥- التهامي نقرة ، سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع . تونس ١٩٧٤م .

١٦- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية.

١٧- ابن تيمية ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، مطبعة المدنى ، مصر، بدون ترقيم .

١٨- تيودور أبو قرة ، ميمر في وجود الخالق والدين القويم ، بتحقيق: اغناطيوس ديك. بيروت ١٩٨٢م.

١٩- جلال العالم ، دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، مكتبة الصحابة جدة - مكتبة التابعين ، القاهرة . ١٩٩٤م .

٢٠- جواد علي ، يوحنا الدمشقي ، مجلة الرسالة (مصر) ، (عدد ٦١٠)، والعدد (٦١٢) ربيع الأخر ١٣٦٤هـ / مارس ١٩٤٥م .

٢١- جورج عطية ، الجدل الديني المسيحى - الإسلامي في العصر الأموى وأثره في نشوء علم الكلام ، كتاب المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام - جامعة اليرموك . عمّان ١٩٨٩م .

٢٢- جوستاف لوبون ، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٦٩م .

٢٣- جولد تسهر ، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٥٥م .

العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة ١٩٤٨م .

٢٤- جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

٢٥- حسن حنفي، نماذج من الفلسفة المسيحية ، الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٨م .

٢٦- حسن طبل ، حول الإعجاز البلاغي للقرآن ، مكتبة الإيمان ، ط١ ، مصر ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م .

٢٧- حسين علي محمد ، القرآن ونظرية الفن، القاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٢٨- دانييل ساهاس ، جدل يوحنا الدمشقي مع الإسلام ، مجلة الاجتهاد بيروت، عدد (٢٨) السنة السابعة (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م) .

٢٩- رشا الصباح ، الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى ، مجلة عالم الفكر، عدد (٣) المجلد الخامس عشر. وزارة الإعلام ، الكويت.

٣٠- رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية ، سلسلة عالم المعرفة العدد (١٠٢). وزارة الإعلام بالكويت .

٣١- رشيد رضا ، الوحي المحمدي، المكتب الإسلامي، دمشق ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٣٢- روم لاندو ، الإسلام والعرب ، بترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م .

٣٣- زينون كاسيدوفسكي ، الحقيقة والأسطورة في التوراة ، الأبجدية للنشر. دمشق ١٩٩٠م .

٣٤- سعد العتيبي ، نفوذ اليهود في عهد المغول الإيلخانيين ، مجلة الدرعية (عدد ٦ ، ٧) ربيع الآخر-رجب ١٤٢٠هـ/ أغسطس، نوفمبر ١٩٩٩م المملكة العربية السعودية .

٣٥- سعد بن منصور بن كمونة ، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث ، نشرة موسى برلمان ، مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧م .

٣٦- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م.

٣٧- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦م.

في ظلال القرآن، دار الشروق . القاهرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣٨- عبد الجواد المحص ، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني ، الدار المصرية. الإسكندرية ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

أدب القصة في القرآن الكريم، الدار المصرية بالإسكندرية ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م .

٣٩- عبد الحميد مدكور ، الترجمة والحوار مع الآخر ، كتاب المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية "الفلسفة الإسلامية والتحديات المعاصرة" المنعقد بدار العلوم. القاهرة ١٩٩٦م .

٤٠- عبد الراضي محمد عبد المحسن، أسس فلسفة الأخلاق الإسلامية، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة السادسة. عدد ٦ ، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

٤١- عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، دار الجليل، ط١، بترجمة كمال جاد الله . القاهرة ١٩٩٧م .

موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط٢ ، بيروت ١٩٨٩م .

٤٢- عبدالرحمن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة، دار العلم، دمشق، ط٥، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٤٣- عبد العزيز العسكر ، التنصير ومحاولاته في الخليج العربي، العبيكان ، ط١، الرياض ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .

٤٤- عبد اللطيف الطيباوي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، الترجمة العربية الملحقة بكتاب الفكر الإسلامي الحديث . د . محمد البهي. مكتبة وهبة ، ط٨ ، ١٩٧٥م .

٤٥– ابن العسال ، الصحائح في جواب النصائح، القاهرة سنة ١٦٤٣ قبطية.

٤٦– علي النملة ، الاستشراق في الأدبيات العربية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
التنصير ، ١٩٩٣م بدون بيانات .

٤٧– علي جريشة ـ محمد الزيبق ، أساليب الغزو الفكري ، ط٢ ، دار الاعتصام. مصر.

٤٨– عمر الأشقر ، عالم الملائكة ، دار النفائس . الأردن ١٩٩٥م .

٤٩– عمر رضوان ، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ، دار طيبة. الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

٥٠– فروخ ـ الخالدى ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية ، المكتبة العصرية. بيروت ١٩٨٦م .

٥١– ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، بتحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٩٣٢م .

٥٢– فريد مصطفى سليمان ، محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم ، مكتبة الرشد ، الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٥٣- قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعى– الرياض ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م .

٥٤– كارل ساغان ، الكون ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٨) ، وزارة الإعلام بالكويت.

٥٥- ابن كثير، البداية والنهاية، دار هجر. القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٥٦- لويس شيخو ، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، طبع الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٤٢م .
مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى ، طبع الآباء اليسوعيين. بيروت ١٩٠٦م .
٥٧- لويس غرديه - جورج قنواتي، فلسفة الفكر الديني، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ١٩٦٧م .
٥٨- مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية، بترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر. دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
٥٩- محمد أبو فراخ ، تراجم القرآن الأجنبية في الميزان ، مجلة كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . العدد الرابع (عام ١٤٠٢هـ / ١٤٠٣هـ).
٦٠- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ، العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م .
٦١- محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، الإدارة العامة للثقافة ـ مطبعة الأزهر . القاهرة ، د . ت .
٦٢- محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ط٥ ، دار المعارف، القاهرة .
٦٣- محمد خليفة حسن ، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، دار عين للبحوث والدراسات . القاهرة ١٩٩٧م .

٦٤- محمد السماك ، مقدمة إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي، دار النفائس، بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

٦٥- محمد الشرقاوي، الاستشراق، مطبعة المدينة. القاهرة. د. ت.

٦٦- محمد صالح البنداق ، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، دار الآفاق الجديدة، ط ٢ ، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٦٧- محمد عبد الله دراز ، مدخل إلى القرآن الكريم ، دار القلم ، الكويت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

٦٨- محمد عبد الواحد عسيري، صورة الإسلام والمسلمين في قاموس الأديان، بحث مقدم إلى ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي المنعقدة في الرياض (٢٢ - ٢٥ رجب ١٤٢٠هـ / ٣١ أكتوبر - ٣ نوفمبر ١٩٩٩م).

٦٩- محمد عثمان بن صالح ، النصرانية والتنصير أم المسيحية والتبشير ، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

٧٠- محمد عمارة ، استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي ، مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطة ، ط١ ، ١٩٩٢م .

٧١- محمد فتحي عبد الهادي ، المصادر المرجعية عن الإسلام والمسلمين ، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي.

٧٢- محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، دار الفكر العربي. القاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

٧٣- محمود العابدي، مخطوطات البحر الميت، دائرة الثقافة والفنون. عمان ١٩٦٧م .

٧٤- موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، دار المعارف. لبنان ١٩٧٧م .

٧٥- نجيب العقيقي ، المستشرقون ، دار المعارف ، ط٤ ، مصر .

٧٦- ابن هشام الحميري ، السيرة النبوية ، ط٢ ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٣٧٥هـ.

٧٧- يوهان فوك ، تاريخ حركة الاستشراق ، بترجمة عمر العالم ، ط١ ، دار قتيبة ، دمشق - بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

سابعاً : مراجع باللغات الأجنبية

1- A . K . Wells , Outlines of Geoloical History , London 1938 .

2- Adel Theodore Khoury , Der theologische Streit der Byzantiner mit dem Islam .

3- Anton Pegis , St . Anselm and the Argument of the Proslogion , Mediaeval Studies 28 (1966) .

4- B . F . Westcott , The Bible in the Church , Grand Rapids . (U.S.A 1980) .

5- Dena John Geanakohlos , Byzantine East and Latin West : Two Worlds of Christiandom in Middle Ages and Renaissance , Harpertoneh Books , New York 1966 .

6- Francis Dvornik , The Ecumenical Councils , Hawthorn Books . New York 1961 .

7- Goetz Schregle , Deutsch - Arabisches Woerterbuch, London - Beirut 1977.

8- Hans . Joachim Kraus , Geschichte der historisch - kritischen Erforschung des Alten Tesament , Neukirchen - Vluyn . 1969 .

9- Hermann Lais , Was sagt die Kirche zum Wunder in : Wunder und Magie , Gesmmelten Beitraege , Wuerzburg 1962 .

10- Julius Richter , A History of the Protestant Missions in The Near East , New York 1910 .

11- J. M . Robinson , Die Bedeutung der Bibliothek von Nag Hammadi Fuer die heutige Theologie und das Fruhe Christentum , Bamberg 22.6.93 (vortrag) .

12- Katechismus der katholischen Kirche . Leipzig - schweis 1993 .

13- Klaus Hock, Der Islam im Spiegel westlicher Theologie , Deutschland 1989 .

14- Moses ben Maimone : sein Leben , seine Werke und sein Einfluss, Hrsg von W . Bacher . Leipzig 1908 .

15- Montgomery Watt, The Influence of Islam on Medieval Europe , Edinburgh up 1972 .

16- R . Smend, Die Entstehung des Alten Testament, Stuttgart - Mainz 1978.

17- Rudolf Smend , Epochen der Bibelkritik , Muenscchen 1991 .

18- Religionen der Welt , Bertlsmann Handbuch , Heraus gegeben von : Monika und Udo Tworuschka . Muenschen Guetersloh 1992 .

19- Rudolf Bultmann , Neues Testament und Mythologie , in : Kergma und Mythos , Hrsg . von : Hans - Wemer . Hamburg 1960 .

20- Saint Clair Tisdall, The Original Sources of the Quran, London , 1905 .

21- Theologische Realenzyklopädie, London - New York - Bonn .

22- Trevor - Roper , Hugh , The Rise of Christian Europe , London 1978 .

23- Werner. Kuemmel , Einleitung in das Neue Testament, Heidlberg 1983 .

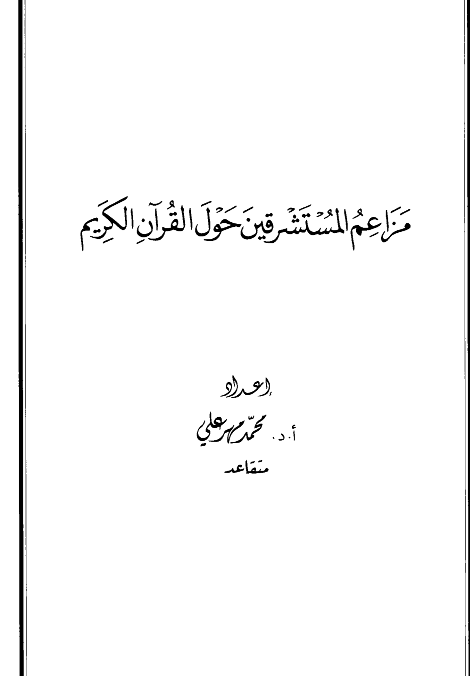
24- Willim Born, Christlicher Glaube und Naturwissenschaft, Blefeld 1954 .

25- Zwemer S., The Translation of the Quran , The Muslim World, 1973 .

الفهرس

الموضوع الثاني :

شبهات المستشرقين



مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم

إعداد

أ.د. محمد مهر علي

متقاعد

تمهيد

يحاول المستشرقون دائماً أن يثبتوا أن القرآن من وضع البشر، وأنه من تأليف محمد ﷺ. وموقفهم هذا من القرآن ليس بشيء جديد، بل هو في الحقيقة لا يختلف عن موقف مشركي مكة الذين بلّغهم الرسول رسالته والوحي القرآني مباشرة. فزعموا أن القرآن ما هو إلا قول البشر، أو أن صاحبهم «الأمين» و «الأمي» قد أصبح شاعراً أو ساحراً مجنوناً؛ أو أن بشراً آخر علّمه القرآن؛ والآيات القرآنية ليست إلا ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥).

ويردّ القرآن على جميع هذه المزاعم رداً قاطعاً وذلك بطرق سبعة رئيسة، هي:

١- يقول الله تعالى إن القرآن ليس بقول البشر، وما هو بقول شاعر، ولا بقول كاهن: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩).

٢- ويكرر الله بكل صراحة في القرآن أنه هو الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأنه تنزيل من رب العالمين، بلسان عربي مبين[1].

(١) انظر القرآن ٢٥: ١؛ ٢٦: ١٩٢، ١٩٥.

٣- كما يأمر الله رسوله ﷺ قائلاً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦-١٧). هذه المجموعة من الآيات القرآنية تدل على أن ما يلقى على الرسول ﷺ كان معيناً ولم يكن فكرة وتصوراً فقط.

٤- كما يواسي سبحانه وتعالى نبيه ﷺ مراراً ويشجعه على تحمل معارضة الكافرين وإعراضهم عن الحق بالصبر والمصابرة، مذكراً إياه بأنه لم يكن من قبله من نبي مرسل إلا وكذبه قومه وواجهوه بالظلم والاضطهاد.

٥- كما يعلن الله للجميع أنه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

٦- ويخبر الله الناس قائلاً: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٦٦). كما يأمر الله نبيه أن يقول للناس إن الله شاهد بينه وبينهم في أمر الوحي القرآني: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ (الأنعام: ١٩). وهذه المجموعة من الآيات مهمة جداً؛ فإنها تقرر أن وحي الله أمر خاص بينه وبين نبيه ولا يستطيع أحد آخر الاطلاع عليه.

٧- وفوق كل هذا، يتحدى الله الجميع ويحذرهم قائلاً: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤) والتحدي مفتوح إلى الأبد.

ومنذ عهد النبي ﷺ لم يزل النقاد من الكفار وغير المسلمين يكررون آراء مشركي مكة حيال القرآن، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على الأخص، أخذ بعض علماء الغرب من المستشرقين يعيدون اعتراضات وافتراضات مماثلة حول القرآن، وذلك بحجج وادعاءات متنوعة، وروواد هؤلاء المستشرقين: ألوي سبرنجر (Aloy Sperngerr)، ووليم موير (William Muir) وثيودور نولدكه (Theodore Noldeke)، وإجناز جولدتسيهر (Ignaz Golddziher)، ودبليو فلهاوسن (W. Wellhausen)، وليون كايتاني (Leon Caeteni)، ودافيد ساموئيل مرجليوث (David Samuel Margoliouth) . وقد قام بتطوير آرائهم وتضخيم استنتاجاتهم آخرون تبعوهم في القرن العشرين الميلادي، وفي مقدمتهم ريتشارد بيل (Ritchard Bell) وتلميذه وليم مونتغمري وات (William Montgomery Watt) . وجميع هؤلاء المستشرقين يسعون بشتى الأساليب إلى الاستنتاج أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ .

ولكن في الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي بدأ اتجاه جديد بين الجيل الجديد من المستشرقين الذين يقترحون أن القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ فحسب، بل إنه اتخذ شكله الحالي تدريجياً عبر تطورات وتعديلات تمت في القرن الأول والثاني من الهجرة. والجديرون بالذكر من بين هؤلاء المحدثين: ج. وانسبره (J. Wansbourough)، وج.أ.

بيـلامـي (J.A. Bellamy)، وأنـدرو ريـبين (Andrew Rippin) . وقـد قـام بـبـسـط ادعـاءاتهم وترويجـهـا آخـرون أمـثـال: باتريشـيـا كـرون (Patricia Crone)، ومـايكل كـوك (Michael Cook)، وكـينيث كـراج (Kenneth Cragg)، وتوبي ليستر (Toby Lester) .

إن الذين يذهبـون إلى أن القـرآن الكريم من تأليف مـحـمـد ﷺ يركزون على الادعاءات التالية:

١- أن مـحـمـداً ﷺ كـان رجـلاً طـموحـاً، واتخـذ خطوات مدروسة للدور الذي قام به فيما بعد[١].

٢- وهو بالأخص كرّس نفسه لفن الشعر ليستطيع نظم القرآن[٢].

٣- وأنه لـم يكـن رجـلاً دون مـعـرفـة بالكـتـابة والقـراءة كـمـا يزعم المسلمون، وأن لفظ « الأمي » المنسوب إليه يعني شيئاً آخر[٣].

٤- وأنه اقـتـبس الأفكار والقـصـص من اليـهـودية والنصـرانيـة ثم ضمّنها القرآن[٤].

---

(١) انظر: W. Muir: life of Mohamet, 3rd edition reprinted 1923,pp.25-26, D. S. Margoliuth: Mohammed and the Rise of Islam, London, 1905, pp.64-65, Montgomery Watt: Muhammad at Mecca, Oxford, 1960, p. 39, and Muhammad's Mecca, Edinburgh, 1988, pp. 50-51.

(٢) انظر: Margoliouth,op. cit, p. 52-53, 60, Muir: op. P. 15

(٣) انظر: Watt: Muhammad's Mecca, p. 52-53

(٤) انظر: Abraham Gelger: Judaism and Islam, Madras, 1898, Richard Bell: The Origin of Islam and its Christian Environment, London, 1926, C. C. Torrey: The Jewish Foundations of Islam, New York, 1933, A.I. Kash: Judaism in Islam, New York 1954.

٥– وأن كثيراً من الأخطاء العلمية المعاصرة، خصوصاً تلك التي تتصل بالعالم والكون، معكوسة في القرآن، كما يوجد فيه العديد من العبارات والمصطلحات الجارية والمفردات الأجنبية، وكل هذه تدل على أنه من تأليف محمد ﷺ(١).

٦– وأن كلمة «الوحي» لا تعني إلقاء النص من الله، بل تعني اقتراحاً أو إشارة (suggestion) أو «التكلم الذهني» (Intellectual Locution)(٢).

وأما الذين يدَّعون أن القرآن قد تطور عبر القرنين الأول والثاني من الهجرة فكلامهم يدور حول المزاعم التالية:

١– أن المصادر التاريخية الإسلامية ليست معاصرة ولا يمكن تصديقها.

٢– أن الحفريات الأثرية في جزيرة العرب –خصوصاً تلك التي جرت في منطقة النجف– كشفت العديد من النقوش القديمة وتدل على عدم وجود القرآن في القرن الأول الهجري.

٣– أن المخطوطات القرآنية القديمة التي عثر عليها مؤخراً في صنعاء تشير إلى تطور القرآن خلال فترة طويلة.

٤– وأن نقد النص القرآني يشير إلى أخطاء في نسخ القرآن.

---

(١) انظر: Watt: Muhammad's Mecca, pp. 45-46, C.C. Torrey: The Commercial Theological Terms of the Koran, Leiden, 1892, Arthur Jeffry: The Foreign Vocabulary of the Qur'an, Broda, 1938.

(٢) انظر: Richard Bell: "Mohammed's Call", The Moslem World, January 1934, pp. 13- 19, Mohammed's Vision, ibid, Watt: Muhammad at Mecca, pp. 52-58, and "The Islamic Revelation in the Modern Word", Edinburgh, 1969.

ويتضح مما سبق أن مزاعم المستشرقين لها جوانب متنوعة وأبعاد خطيرة، وأنهم لا يكفُّون عن محاولات النيل من القرآن.

كما يلاحظ أنَّ المجموعة الأولى من ادعاءاتهم تتصل بسيرة النبي ﷺ كذلك، وقد عالجتُ حججهم الرئيسة بالنسبة إلى هذه الادعاءات في كتابي «سيرة النبي ﷺ والمستشرقون»[١]. على أية حال، فإنه لا يمكن استقصاء جميع أقوالهم في حدود بحث واحد. لذا خصصت الصفحات التالية لإلقاء بعض الضوء على نظرياتهم بالنسبة للمجموعة الثانية من الادعاءات.

---

(١) انظر: M.M. Ali: Sirat al-Nabi and the Orientists, vol: 1A, King Fahd Qur'an Printing Complex, Madina, 1997, Chapters: x-xii and xvi-xxii.

٣- ج. وانسبره (J. Wansborough) وأعوانه
انتكاسهم في الفكرة الخاطئة القديمة

إن إجناس جولدتسيهر (Ignaz Goldziher) هو الذي حاول في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي التشكيك في صحة المصادر التاريخية الإسلامية قائلا بأن معظم الروايات (الأحاديث) -إن لم يكن جميعها- برزت إلى حيز الوجود في القرن الثاني (أو الثالث) الهجري إثر نشوء خلافات سياسية وعقدية وقانونية بين المسلمين، فجاءت كل فرقة منهم بروايات مفتريات تؤيد آراءهم ومواقفهم الخاصة، فلا يمكن الاعتماد عليها[١].

وقد أخطأ جولدتسيهر في نظريته هذه من عدة نواح، الرئيسة منها: أنه تجاهل اهتمام المحدّثين الشديد بنقد الحديث سنداً ومتناً[٢]. وفي الواقع قام بفحص فرضيته مستشرق شهير في الربع الأول من القرن

---

(١) انظر: Ignaz Goldziher,Mohammedarische Studien (first published 1890) vol: 2, tr. Into English by C.R. Borber and Snt. Sten under title: Muslim Studies, vol: 2, London, P. 170.

(٢) انظر: M.M. Al-Azami: Studies in Early Hadith Literature, Beirut, ١٩٦٨م، محمد لقمان السلفي: اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً ودحض مزاعم المستشرقين وأتباعهم، الرياض، ١٩٨٤م؛ محسن عبد الناظر: دراسات جولدزيهر في السنة ومكانتها العلمية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

العشرين، وهو هوروفيتس (J. Horovitz) الذي كتب سلسلة من رسائل علمية معمقة أثبت فيها أن جميع الأحاديث وتدوينها بدأ بدقة في الربع الثاني من القرن الأول الهجري [1]. فلم تلق نظرية جولدتسيهر قبولاً من قبل عامة المستشرقين أنفسهم. ولكن في منتصف القرن تأثر يوسف شاخت (Joseph Shacht)، وهو وقتئذ أستاذ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن (School of Oriental and African Studies)، بأفكار جولدتسيهر، فضخمها في كتاب بعنوان: (Origins of Muhammadan Jurisprudence) (أصول فلسفة التشريع الإسلامي)[2]. ذهب فيه إلى القول: إن الروايات الإسلامية لاصحة لها على الإطلاق، وحتى الروايات التاريخية لايمكن الاعتماد عليها؛ إذ إنها وضعت لأغراض تشريعية، وأن الشريعة الإسلامية كانت خارج نطاق الدين الإسلامي، وأن القرآن لم يكن مصدراً لها خلال القرنين الأول والثاني من الهجرة.

وبالطبع أثار كتاب شاخت انتقادات حادة لا من قبل العلماء المسلمين فحسب[3]، بل من قبل علماء الغرب كذلك. فقال ن. ج.

---

(١) انظر: J. Horovitz: The Earliest Biographies of the Prophet and Their Authors, translated from the German by Marmaduke Pickthall, Islamic Culture, vol: 1, 1927, pp. 535 - 559, vol: 2, 1925, pp. 22-50, 164-182 and 495-523.

(٢) انظر: Published at Oxford, 1950.

(٣) انظر مثلاً: M.M. Al-Azami: On Shacht's Origin of Muhammadan Jurisprudence, King Saud University and John Wily &Sons. Inc,. New York, 1985.

كولسون (N. J. Coulson) أستاذ آخر بجامعة لندن: إن فرضية شاخت تؤدي إلى إيجاد فراغ تاريخي لايمكن قبوله نظراً للواقع[١]. وقال وات: (W. M. Watt) : إن علماء الغرب يقبلون صحة عامة ما جاء في كتب السيرة ويكملونها بما يوجد من الإشارات في القرآن، وإن الأسلوب الأفضل هو اتخاذ الروايات والإشارات القرآنية ليتمّ بعضها بعضاً[٢].

وقال ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) : إن فترة قرن فاصلة لا تعدّ مفرطة، فإنه يعرف قبيلة سودانية يروي أفرادها ذكريات آبائهم لوقائع تاريخية لهم ترجع إلى وقت قبل ثلاثة قرون، كما أن له أصدقاء مسنين يروون عن آبائهم ذكريات إنجلس (Engels) ترجع إلى فترة ما بين ١٨٤٠ و ١٨٤٨م، وأن بعض هذه الذكريات قد أدخلت في مجلد نشره معهد الماركسية واللينينية بموسكو (Institute of Marxism-Leninism)[٣]. ويضيف رودنسون قائلا: إن هذا النوع من « الإسناد العائلي » قابل للاعتماد عليه وإن شكّ فيه شاخت[٤].

---

(١) انظر: N.J. Coulson: A History of Islamic Law, London, 1946, pp. 64-65.

(٢) انظر: M.M. Watt: Muhammad at Mecca, Oxford, 1960, p.xv, and his "The Materials used by Ibn Ishaq in B. Lewis and P.M. Holtfield (ed) : Historians of the Middle east, London, 1962, pp. 23-24.

(٣) انظر: Souvenires sur Marx et Engels, Russian edition, 1956.

(٤) Me Rodinson: "A Critical Survey of Modern Studies on Muhammad", in Merlin Swarty (ed), Studies in Islam, OUP, 1981, pp. 44 and notes 123 and 124 at pp. 75-76.

وبالرغم من هذه الانتقادات والرفض العام للأفكار الخاطئة المطروحة من قبل جولدتسيهر وشاخت، فإن بعض أعضاء هيئة التدريس بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن تبنوها في السبعينيات وتجاوزوا جميع الحدود في الغلو والمبالغة. وكان رائدهم جون وانسبره (John Wansborough) الذي أصدر كتابين متتاليين في سنتي ١٩٧٧م و ١٩٧٨م وهما: Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation (الدراسات القرآنية: مصادر ومناهج التفسير للكتاب الديني) و Sectarian Milieu: Content and Composition of Islamic Salvation History (البيئة الطائفية: محتويات تاريخ النجاة الإسلامي وتأليفه). استخدم فيها وانسبره ما يسمى بأدوات نقد الكتاب المقدس وأساليب تنقيحه ونقد النص وتاريخ تعديله، وخلص إلى ما يلي:

أ - أن القرآن تطور تدريجياً في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين من أصل روايات شفوية عن طريق تعديلات جرت عبر قرنين، ثم أعطيت شكلا رسمياً (Canonical Form)، وصادف ذلك بروز التفاسير القرآنية، وكانت هذه العملية مماثلة لما حدث في تقويم الكتاب المقدس لليهود[1].

---

(١) انظر: J. Wansborough: Quranic Studies, etc, Oxford, 1977, pp. 42- 45.

ب – أن الطابع الجدلي لكثير مما جاء في القرآن يدل على أن معارضة يهودية قوية كانت السبب في عملية الترسيم.

ج – أن الروايات الإسلامية مماثلة لما يسميه علماء الكتاب المقدس بـ «تاريخ النجاة» (Salvation History) أي قصة وضعت متأخرة لأغراض دينية ودعوية، ثم نسب إلى وقت مبكر (projected back in time).

إن تفسير عدم بقاء أية مواد تاريخية إسلامية من القرن الأول الهجري يعود إلى عدم وجودها، وأنه لا يمكن تصديق معظم الروايات الإسلامية بواسطة مصادر معاصرة غير إسلامية. كما يقول وانسبره استناداً إلى شاخت: إن القرآن لم يكن مصدراً للشريعة الإسلامية قبل القرن التاسع عشر الميلادي[1].

وتزامن صدور كتاب وانسبره الأول مع نشر كتاب جدلي آخر بقلم باتريشيا كرون (Patricia Crone) ومايكل كوك (Mickael Cook)، وقد كانا بمدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية وقتذاك، وعنوان كتابهما: Hagarism The Making of the Islamic World (الهاجرية: تكوين العالم الإسلامي)، وقد صدر عام ١٩٧٧م. ويعترف كوك وكرون أنهما لم يكتبا في كتابهما بشأن القرآن شيئاً ليس له أصل فيما كتبه وانسبره في كتابه الدراسات القرآنية[2]. وهذا يدل على أنهما كانا على علم بما يكتبه وانسبره حين كانا يؤلفان كتابهما.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٢) نقل القول توبي ليستر (Toby Lester) في مقالته What†is the Koran", The Atlantic Monthly, January 1999, p. 55.

علــى أي حــال، فــإن الأمـور التــي وردت في وانسـبـره مـتـشـابكة ومـشـوشـة للغـايـة. وبمـا أنهـا مـبنيـة علـى أفكـار جـولدتسـيـهـر وشــاخـت الخــاطئـة الفـاسـدة فــإن الفـــرع يعتريه ما يعتـــري الأصل البـاطل. وإضافـة إلـى ذلـك فـقـد أخطـأ وانسـبره في أمـور أخـرى، منهـا:

أولاً: تأثــر وانســبـــره بما يعـرفـــه عـن تـدويـن الكـتـاب المقـدس وتنقـيحـه، فيحـاول تطبـيق تلك القـصـة على القرآن، ولكنه يتـجـاهل تماماً أن عـمليـة إصـدار كـتـاب ديـنـي مـثـل الكـتـاب المقـدس، خـلافـاً لكتـاب عـادي، تتـم دائمـاً بواسطة مـجلـس أو مؤتمـر، وتكـون وقـائـع مـثل هذا الحـدث عـامـة ذات أهمـيـة كـبرى، ولا تفـوت أنظـار النـاس فـيسـجلهـا المـؤرخـون والمراقـبـون. والـوقت الـذي يشـير إليـه وانسـبـره كـان قـد شـهـد خـلافـات سـيـاسـيـة وعـقـدية بـين المسلمـين أنفـسـهـم، وكــانت الدولة العبـاسـيـة المترامـيـة الأطـراف مـشـتـمـلـة على أجـزاء مــن شبـه القــارة الهـنديـة فـي الشـرق، وأجـزاء من أوروبا في الغـرب. فلو جـرى إصـدار كـتـاب ديـنـي للمـسلمين في تلك الفـتـرة لسـجَّله التـاريخ بشكـل أو بآخـر. لكن وانسـبـره وأعـوانـه لا يسـتطيـعـون الإشـارة إلى أي حـادث مـثل هذا، لا مـن مـصــادر إسـلامـيـة ولا من مـصــادر يونانيــة أو فـارسـيـة أو هندية، فـافـتـراضـه لا أسـاس لـه من الصحة.

ثانياً: يزعم وانسبره أن الروايات القرآنية المتفرقة بقيت شفوية عبر قرنين، ثم جمعت في القرن التاسع الميلادي في حين يقول: إن الروايات الإسلامية التاريخية لم تكن من قبل، بل اختلقت في القرن التاسع ونسبت إلى وقت مبكر من بداية القرن الأول الهجري. فنظريته بالنسبة لمجموعة من الروايات -حسب زعمه- مناقضة لنظريتيه بالنسبة لمجموعة أخرى من الروايات، وإضافة إلى ذلك فزعمه غير منطقي؛ إذ لا يمكن تصور اختلاق روايات ذات عدد هائل ومتصلة بوقائع وتطورات متنوعة مع فروقها الواسعة في الأزمنة والأماكن والأشخاص.

ثالثاً: يخطئ وانسبره في قوله: إن القرآن كان جارياً في روايات شفوية متفرقة. ومعنى هذا القول أن المسلمين كانوا يحفظونه بكامله في صدورهم، ولكن بالإضافة إلى ذلك كان القرآن متداولاً أيضاً في شكل كتاب كامل، وذلك منذ خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

رابعاً: كما يخطئ في قوله: إن القرآن جدلي إلى حد كبير وإن ترسيمه تم في بيئة تسودها معارضة يهودية قوية. إن القرآن ليس جدلياً بل إنه ينتقد وينهى عن جميع أنواع الشرك والانحراف عن التوحيد، فيشجب الوثنية والمجوسية والصبئية عبادة النجوم والشمس والقمر وعبادة الأشجار والجبال، كما يدين التثليث وتأليه عيسى عليه السلام

والاعتقادات اليهودية الخاطئة. وبما أن القرآن يرفض جميع هذه الأنواع من الضلالة، وليس فقط ضلالة اليهودية وقتذاك، ويشير إلى معارضة المشركين والمنافقين واليهود على السواء، فإنه جاء في بيئة تسري فيها هذه الضلالة، وهي بيئة سادت الجزيرة العربية في عصر النبي ﷺ، لا في العصر العباسي. وإذا اعتبرنا معارضة اليهود فقط فقد حدثت في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها، لا في العهد العباسي. وإن في القرآن نفسه لدلالات عديدة على معاصرتها للنبي ﷺ. فهو لا يتحدث عن معارضته للمشركين والمنافقين واليهود والمعارك التي خاضها فحسب، بل يعاتبه أحياناً لانصرافه عن الأعمى الذي جاءه ليزكى[1]، أو ينهاه عن طرد الفقراء من قربه[2]، ويأمره بالمصالحة مع زوجاته[3]. وجميع هذه الآيات تدل على معاصرتها المطلقة للنبي ﷺ.

خامساً: يخطئ وانسبره في قوله: إنه لم توجد مصادر تاريخية للإسلام قبل القرن التاسع الميلادي (نهاية القرن الثاني الهجري). فإضافة إلى القرآن الكريم، هناك دلائل عديدة تثبت كتابة أقوال

(١) القرآن: ٨٠: ١-٤.

(٢) القرآن: ٦: ٥٢.

(٣) القرآن: ٦٦: ١-٣

النبي ﷺ إبان حياته[1] وعلى بدء تدوين الأحاديث والروايات بانتظام في الربع الثاني من القرن الأول الهجري[2]. وعلاوة على ذلك، فإن وجود المخطوطات القرآنية القديمة والآثار والنقوش التي ترجع إلى القرن الأول الهجري يبطل دعوى وانسبره، وتجدر الإشارة هنا إلى اكتشاف مجموعة من المخطوطات القرآنية في صنعاء عام ١٩٧٠م والتي يرجع بعضها (خصوصاً مخطوطة رقم ٢٠-١٠٣٣) إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجري.

وقبل أن نتحدث عن هذه المخطوطات الصنعانية، ينبغي أن نشير إلى بعض مزاعم أخرى للذين تأثروا بأفكار وانسبره.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، ح١١١ - ١١٢، ومسند أحمد، ج٢، ص: ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٥، ٤٠٣.

(٢) انظر مقالات هوروفيتس المشار إليها سابقاً ص ٢٧٢.

٣- يهودا دي نيفو (Yehuda De Nevo) والمنقحون (The Revisionist)

تأثر بعض المستشرقين الجدد بأفكار وانسبره، وعلى الأخص الذين يلقَّبون بـ "المنقحين" (Revisionists) ويعتقدون أنه لا بدّ لليهود في العصر الحديث من تنقيح تاريخ العصور الوسطى أو نسفه، وذلك لإفساح المجال لتمكينهم من التعايش مع الآخرين على أرضية متساوية. ومن بينهم يهودا دي نيفو، وج. كورن اللذان حددا منهجهما في نقطتين هما :

١-أنه لا بد من توثيق أية معلومات تنفرد بها الروايات الإسلامية بشواهد أثرية مادية (Archaeological evidence material) وفي حالة التناقض بينهما تفضل الثانية.

٢- أن عدم وجود شاهد خارجي لحدث تنفرد به الروايات الإسلامية يعد دليلا إيجابياً على أن الحدث لم يحدث.

وانطلاقاً من هذين الأساسين يقول دي نيفو، وج. كرون: إن حفريات أجريت في مناطق صحراوية من الأردن قد كشفت عن آثار يونانية ونبطية ورومانية، كما أن حفريات في النقب أظهرت آثارا تدل على وجود الوثنية والحياة الجاهلية هناك في القرن السادس والسابع الميلاديين (القرن الأول الهجري) وهذه الجاهلية مماثلة لما تذكره المصادر الإسلامية بالنسبة للحجاز في ذلك العصر، ولكن الحفريات في الحجاز

نفسه لم تكشف عن أية آثار للجاهلية والوثنية، ولا عن آثار تشير إلى وجود اليهود في المدينة أو في خيبر أو في وادي القرى. وهذا يعني أن المصادر الإسلامية أخذت معلومات عن الجاهلية والوثنية السائدة في النقب ثم نسبتها إلى تاريخ الحجاز ومكة في القرن السادس الميلادي[1] . ومن ناحية أخرى اكتشف في النقب عدد من النقوش العربية تشير إلى وجود اليهودية والنصرانية هناك جنباً إلى جنب مع فكرة التوحيد بدون ذكر نبي أو رسول، كما تحتوي على عبارات توجد في القرآن ولكنها لا تذكر القرآن ولا الإسلام ولا الرسول، وهذه النقوش ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، وفي الوقت نفسه لم تكتشف في الحجاز أية نقوش تدل على وجود القرآن والإسلام هناك في القرنين الأول والثاني الهجريين. فهذا يعني أن القرآن اقتبس الأفكار من اليهودية والنصرانية ومن فكرة التوحيد النقبي القديمة، وقد تم ترسيم[2] القرآن بعد أن أدخلت فيه العبارات العربية الموجودة في تلك النقوش الخاصة بالمصطلحات الدينية للمسلمين وذلك في نهاية القرن الثاني الهجري أو بعده[3].

---

(١) انظر: Koren & Y.D. Nevo: "methodological†Approaches to Islamic Studies", Der Islam, Band 68, Hapt 1, pp.91-102

(٢) المراد به نشر القرآن بصفة رسمية أقرها الخليفة.

(٣) انظر: Y.D. Nevo: "Towards a pre-history of Islam¢,†Jerusalem Studies in Arabic and Islam, vol:17, 1999, pp.125-126

من الواضح أن هذه المزاعم خليط مما يقوله المستشرقون القدماء: إن القرآن مقتبس من اليهودية والنصرانية، ومن أقوال جولدتسيهر، وشاخت، ووانسبره الذين يزعمون أن المصادر التاريخية الإسلامية مختلقة برمتها في القرن الثاني الهجري، وأن القرآن تم ترسيمه في الوقت نفسه. وقد حاول دي نيفو وأعوانه المنقحون تدعيم هذه الآراء بما يزعمونه شواهد أثرية. ولكن موقفهم غير معقول إلى حد أنَّ دَحْضَه جاء بادئ ذي بدء من قبل المستشرقين غير المنقحين. فقد كتب الأستاذ ف. م. دونار (F.M. Donner) كتاباً مستقلاً[1] يثبت فيه أن تدوين الروايات والتاريخ الإسلامي بدأ في وقت مبكر من القرن الأول الهجري، ويقول: إن عدم وجود أسلوب قرآني في النقوش العربية المكتشفة في النقب مع إشارة فيها إلى التوحيد يمكن اتخاذه شاهداً على جمع القرآن متأخراً. ولو ثبت أن جمع القرآن حصل أولا في الشام وليس في الحجاز -ولكن هذا ما لم يثبته نيفو ولا وانسبره- لأمكن استخدام الحجة نفسها لإثبات أن تعاليم القرآن وأساليبه تسربت تدريجياً إلى البلاد المجاورة مثل الشام[2].

وتشير المستشرقة إستيلا ويلان (Estelle Whelan) إلى ثلاثة شواهد

---

(١) انظر: Fred M. Donner: Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Historical Writings, Darwin Press, Inc, Preston, 1998.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.

تبطل ادعاءات نيفو ووانسبره[1]:

أولاً: النقشان الطويلان الموجودان على وجهي البواكي في قبة الصخرة بالقدس، واللذان يشتملان على مقتبسات من القرآن الكريم، ولاسيما الآيتان ٥٧ : ٢ و٤٦ : ١، مع إثبات كلمة الشهادة في كليهما، نصبهما الخليفة الأموي عبد الملك في سنة ٧٢هـ (٦٩١–٦٩٢م) إلا أن الخليفة العباسي المأمون وضع اسمه مكان اسم عبد الملك بدون تغيير التاريخ. وتقول ويلان: إن وجود اختلافات طفيفة في العبارات لا تعني أن المقتبسات ليست من القرآن، كما يزعم كرون وكوك،[2] بل أدخلت من أجل تنسيق النص مع الموضوع والسياق، وكان المسلمون ولا يزالون يخلطون النصوص القرآنية بعبارات أخرى مناسبة في النقوش والمؤلفات والخطب، وهذا يدل أن القرآن لم يكن نصاً مدوناً فحسب، بل كان متداولا ومألوفاً لدى عامة المسلمين المثقفين. وإلى جانب هذين النقشين في القبة الخضراء نصوص قرآنية قصيرة مثل ١١٢ : ١–٢ و٩ : ١٣٣ على عملات الأمويين المضروبة بين سنتي ٧٧هـ و١٣٢هـ (٦٩٧–٧٥٠م). وكل هذا يدل على وجود القرآن وتداوله بين المسلمين منذ منتصف القرن الأول الهجري خلافاً لما يزعم نيفو ووانسبره.

---

(١) انظر: Estelle Whelan : "Forgotten Witness: Evidence†for the Early Codification of the Qur'an", Journal of the American Oriental Society, vol : 48, no :1, 1998, pp. 1-14 .

(٢) انظر: P. Crone & M. Cook, Hagarism etc ., pp .18, 167 n .18

والشاهد الثاني: نقش طويل كان على الجدار الجنوبي (ناحية القبلة) للمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وكان يمتد من باب السلام عبر الجدار إلى باب جبريل وكان يشمل سورة الفاتحة والسور ٩١–١١٤. شاهد هذا النقش أبو علي بن رسته في سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م[١] كما شاهده زائر أندلسي وكان قد نصبه عمر بن عبد العزيز في سنة ٨٨هـ/٧٠٦م حينما كان والياً للخليفة الوليد بالمدينة. ويشير ابن رسته إلى أنه كانت هناك نقوش قرآنية أخرى في جدران المسجد التي هدمها الخوارج سنة ١٢٠هـ/٧٤٧م. كما يشير السمهودي –نقلا عن الواقدي وابن زبالة– إلى أن نقوشاً قرآنية أخرى كانت على الجدران بوجهيها الداخلي والخارجي وفوق أبواب المسجد.[٢] وتقول ويلان: "إن وجود (٢٤) سورة متتالية من أواخر القرآن في النقش على الجدار القبلي لدليل قاطع على أن ترتيب السور القرآنية كان قد تم قبل عهد عمر بن عبد العزيز بكثير"[٣].

والشاهد الثالث: وجود نساخ للقرآن بالمدينة منذ منتصف القرن

---

(١) ابن رسته: كتاب الأعلاق النفيسة، تحرير دي جيجي (M. J. De Geeje) ليدن، ١٨٩٢، ص ٧٠.

(٢) السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، المجلد الأول (تحرير: م. م. عبدالحميد)، القاهرة، ص ٣٧١.

(٣) ويلان: المصدر السابق، ص ١٠.

الأول الهجري اشتهروا بـ "أصحاب المصاحف"(١). كما تطورت فيها مدرسة للنحويين المهتمين بالكتابة القرآنية في أواخر القرن الأول الهجري(٢). ومما لا شك فيه أن المدينة كانت مركزاً علمياً وثقافياً للمسلمين قبل نشأة المدن في العراق، وأن هؤلاء النساخ كانوا يلبون طلباً متزايداً لنسخ القرآن للدراسات والتدريس في المساجد والمدارس وبيوت الناس. وتجدر الإشارة إلى أن الخلفاء الأمويين، بدءاً من معاوية، كانوا ينظمون جميع جوانب الحياة الدينية، فقام معاوية – مثلاً – بتزيين المنبر في المسجد النبوي وأمر ببناء المقاصير في المساجد الجوامع، واستخدم عبد الملك النصوص القرآنية استخداماً موزوناً مناسباً في النقوش وعلى العملات، وقام الوليد بتوسيع المسجد النبوي إلى حد كبير. ونظراً لهذا كله، فإن الاحتمال بأن اهتمامهم بهذه الأمور سبق اهتمامهم بجمع القرآن وتوزيعه بين الناس احتمال بعيد كل البعد.

وبالإضافة إلى هذه الحقائق فإن نيفو يخطئ في وجهة نظره من نواح أخرى. منها:

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠-١٢، نقلا عن الطبري، التاريخ، (ط. ليدن) ٣:٢٣٢٩؛ انظر أيضا مقالتها: "Writing the Words of God: Some early Quran Copyists and their Milieu", part 1, Ars Orientalis, 1990, pp.113- 47.

(٢) انظر: R. Talman: "An Eight century Grammatical School in Madina: The Collection and Evaluation of the Available Material", Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. 48, 1985, pp.225-228.

أولاً : افتراضه أن جميع ما تقوله المصادر والروايات الإسلامية بالنسبة لتاريخ الإسلام للقرنين الأول والثاني ينبغي توثيقهما بمصادر معاصرة غير إسلامية أو بآثار مادية، وإذا لم يمكن توثيقها فإنها تعدُّ معدومة. هذا منهج غير معقول وغير مناسب حتى بالنسبة لكثير من وقائع التاريخ الحديث، فضلا عن وقائع تاريخ العصور الوسطى والقديمة التي لا محالة من أن تعتمد في كثير من الأحيان على مصدر منفرد ليس بمعاصر.

ثانياً: إن ظنه أن قصة الجاهلية والوثنية بالنسبة للحجاز مختلقة يفترض أن جميع ما ينبغي من الحفريات في تلك المنطقة قد تم عمله وأنه لم يبق عمل شيء بهذا الصدد. وهذا ليس بصحيح على الإطلاق، فإن كثيراً من الأماكن لا يزال بحاجة إلى مسح ودراسة. كما يتغاضى في هذا القول عن أمر هام، وهو أن الأوثان والمعابد الوثنية تم تدميرها وطمسها في الحجاز على نطاق أوسع وأكمل بعد مجيء الإسلام مما كان عليه الحال في البلاد المجاورة التي دخل فيها الإسلام تدريجياً.

ثالثاً: يغفل نيفو كذلك عن طبيعة الوثنية في الحجاز، فإنها لم تكن أصيلة هناك بل كانت مستوردة من الشام، ومن ثم لم تكن عميقة الجذور ومتطورة ذات أساطير متشابكة مثلما كانت في اليونان والعراق والهند، وإن كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبيل ظهور الإسلام.

وتقول رواية إسلامية: إن عمرو بن لحي زعيم بني خزاعة هو الذي استورد الوثنية من الشام وقَدِم بصنم هبل فنصبه بمكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1]. كما جاء بأصنام وَدّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر[2]، وهي الآلهة التي كان قوم نوح عليه السلام يعبدونها، ويتحدث عنها القرآن[3]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاكتشافات الأثرية في النقب توثق المصادر الإسلامية من هذه الناحية، بدلاً من أن تناقضها، كما يظن نيفو.

رابعاً: يخطئ نيفو في تلميحه بأن الإسلام كان ردة فعل للوثنية إذ يقول: إن المسلمين اختلقوا قصة الوثنية في الحجاز تمهيداً لظهور الإسلام. القرآن طبعاً يدين الوثنية، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل ينتقدها و ينهى عن جميع أنواع الانحرافات عن التوحيد وجميع ألوان الشرك التي كانت سائدة لا في الجزيرة العربية فحسب بل في العالم أجمع. فالقرآن يحرم عبادة الشمس والقمر والأجرام الفلكية الأخرى

---

(١) صحيح البخاري: ح ٣٥٢١ و٤٦٢٣-٤٦٢٤؛ صحيح مسلم، ح ٢٨٥٦؛ مسند أحمد، ج٢، ص ٢٧٥-٢٧٦، و ج٣، ص ٣١٨، و ج٥ ص ١٣٧؛ وابن هشام: السيرة النبوية (تحرير مصطفى السقا وآخرين)، ج٥، ص٧٨ -٧٩؛ الكلبي: كتاب الأصنام (تحقيق أحمد زكي باشا)، القاهرة، ١٣٤٣هـ، ص. ٨ .

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، ص ٦٣٤ .

(٣) القرآن: ٧١ : ٢٣ .

التي كانت سائدة في بعض مناطق الجزيرة العربية ولكنها جاءت من الشرق إلى الغرب، كما يدل على ذلك وجود معبد السماء في بكين ووجود أهرامات لعبادة الشمس والقمر والأجرام الفلكية في جنوب شرق آسيا وعبر شمال إفريقيا إلى أمريكا الجنوبية(١). كذلك ينهى القرآن عن عبادة الجبال والأشجار والأنهار والظواهر الطبيعية مثل السحاب والبرق والرعد. قال تعالى: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ (فصلت: ٣٧). وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨). وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد: ١٢-١٣) كما ينهى الله في القرآن عن تأليه الملائكة والأنبياء والأشخاص البارزين كما كان الناس في شتى أنحاء العالم يفعلون ولا يزالون. يقول عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ (آل عمران: ٨٠)، ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (الأعراف: ١٩٤). كذلك ينهى الله عز وجلّ في القرآن عن عبادة إلهين، إله للخير وإله للشر، أو إله النور وإله الظلمات، كما كان المجوس يفعلون. يقول عز وجل في القرآن: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (النحل: ٥١)

---

(١) Alan F. Alford, Gods of the New Millennium, London, 1996.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام : ١) وفي السياق نفسه يستنكر القرآن تأليه عيسى عليه السلام وجعل الأبناء والبنات لله، وفكرة التثليث والتجسد، وغير ذلك من الشرك والانحرافات عن التوحيد، فالقرآن عالمي من ناحيتي المنطلق والرسالة على السواء، فلا داعي للمسلمين لاختلاق قصة للوثنية في الحجاز على غرار ما كان سائداً في النقب، كما يزعم نيفو وأمثاله.

وبما أن نيفو لا يدرك طبيعة القرآن هذه، فإنه يزعم أن القرآن خليط من الأفكار اليهودية والنصرانية والتوحيدية الموجودة في النقب قبيل ظهور الإسلام. إن القرآن لا ينكر وجود اليهودية ولا النصرانية، بل ينتقد ويرفض الانحرافات عن التوحيد، ويرفض تقاليد الشرك التي طرأت عليهما، كما يقول: إنما جاء لإحياء وإكمال رسالة التوحيد التي بلغها النبيون والرسل من قبل، ويقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى : ١٨-١٩). ويشير أيضاً إلى أنه بالرغم من الظلم والاضطهاد من قبل الكفار فإن مجموعة أو أفراداً من المؤمنين بالتوحيد لا يزالون في أماكن مختلفة[1]. كما تشير روايات إسلامية إلى وجود بعض الموحدين

---

(١) القرآن، ٨٥ : ٤-٨ .

(الحنفاء) في الحجاز قبيل ظهور الإسلام. فالمعلومات عن الآثار في النقب، وبخاصة تلك التي تشير إلى وجود فكرة التوحيد، تؤيد وتوثق ما يقول القرآن والمصادر الإسلامية، خلافاً لما يظنه نيفو.

خامساً: يغض نيفو النظر عن أن العرب ذوو عواطف، ويعتزّون بأسلافهم. فلو لم تكن قريش مشركة عند ظهور الإسلام، لما سمح أحفادها من الأمويين أو العباسيين بتدنيس ذكرى آبائهم بالوثنية، كما يخطئ في زعمه أنه لا توجد آثار تشير إلى وجود اليهود في المدينة أو في خيبر، فإن آثار حصن كعب بن الأشرف أحد زعماء اليهود بالمدينة في عهد النبي صلي الله عليه وسلم موجودة حتى اليوم في إحدى ضواحيها. وبالجملة فإن مزاعم نيفو فاسدة ولا أساس لها من الصحة.

٤- مخطوطات صنعاء القرآنية وتخمينات المستشرقين المتجددة

سبق أن أشرنا إلى مخطوطات صنعاء القرآنية[١]. ففي سنة ١٩٧٠م عثر على مجموعة من المخطوطات القرآنية القديمة في الدور العلوي للمسجد الجامع الكبير بصنعاء. وفي بداية الثمانينات دعا مدير إدارة الآثار في اليمن، القاضي إسماعيل الأكوع خبيرين ألمانيين هما الدكتور جيرد ر. بوين (Gerd R Puin) وهـ. س. غراف فون بوتمر (H.C. Graf Von Bothmer) لترميم المخطوطات وصيانتها وذلك بالتعاون مع وزارة الخارجية الألمانية. وعمل بوين وبوتمر في صنعاء بضع سنين، ويبدو أنهما لم يعملا خبيرين للترميم فحسب بل استهدفا عملا استشراقياً أيضاً. فالتقط بوتمر صوراً ميكروفلمية لأكثر من ٣٥,٠٠٠ ورقة، ورجع بها إلى ألمانيا، وفي ١٩٨٧م كتب مقالة تحدث فيها عن هذه المخطوطات وأشار إلى أن أحدها، وهو ذو الرقم ٢٣-١٠٣٣ يرجع إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجري[٢]، كما كتب بوين مقالة بعنوان "ملحوظات على المخطوطات القرآنية القديمة بصنعاء"[٣]. وقد

---

(١) انظر ص ٢٦٩ .

(٢) بوتمر، المصدر السابق.

(٣) انظر: Gerd R. Puin: "Observation on Early Qur'an†Manuscripts in San'a", in Stefan Wilde (ed), The Qur_an as Text, E.J. Brill, Leiden, 1996, pp. 107-111 .

أثار خبر هذه المخطوطات اهتماماً بالغاً بين المستشرقين، فعقدوا ندوة في ١٩٩٨م بليدن (Leiden) عن "الدراسات القرآنية" حيث ألقى كل من بوين وبوتمر محاضرة في موضوع المخطوطات الصنعانية.

لم ينشر بعد مضمون محاضرتي بوين وبوتمر، غير أن بوين أشار في مقالته إلى اتجاهاته هو والمستشرقين عامة في هذا الصدد، إذ يشير:

أولاً: إلى الجهود المبذولة من قبل المستشرقين السابقين مثل أرثر جيفري (Arthur Jeffery)، وأوتو برتزل (Otto Pretzel)، وأنتون شبيتالر (Anton Spitaler) ، وأ. فشر (A. Fischer) لجمع المخطوطات القرآنية القديمة ثم إعداد نسخة منقحة للقرآن بعد مقارنة ما يجدونه من اختلافات في النصوص في النسخ، ويقول: إن هذه الجهود لم تنجح لأن المخطوطات المقتناة بجامعة ميونخ (Munich) لهذا الغرض – وهي عدد هائل من المخطوطات – دمرتها قنبلة وقعت عليها أثناء الحرب العالمية الثانية. ثم يقول بوين: إن المخطوطات القرآنية بصنعاء تتيح الفرصة لتجديد الجهود في الاتجاه نفسه(١).

ثانياً: يشير بوين إلى النقاط التي لاحظها في المخطوطات وذكر منها: (أ) طريقة غير صحيحة في كتابة الألف همزة في عدد من المواضع. (ب) الاختلاف في إحصاء عدد الآيات بالنسبة إلى بعض

(١) المصدرالسابق، ص ١٠٧ .

السور. (ج) الاختلاف في ترتيب السور في ورقتين أو ثلاث[1].

ثالثاً : يؤكد بوين أن هذه الاختلافات جدّ طفيفة، وأنه إذا لم يتم جمعها بأكملها فإنه ربما لا يؤدي إلى اختراق أو تقدم مفاجئ في الدراسات القرآنية ولكنه يستطرد قائلاً : " إن القرآن ليس بواضح (مع ادعائه أنه مبين) وإن وجود هذه الاختلافات يشير إلى أن السور القرآنية لم تكتب في شكلها النهائي أثناء حياة محمد ﷺ، وأنه من المحتمل أن قرآناً ذا ترتيب مختلف للسور كان متداولاً لزمن طويل"[2].

ومما لا شك فيه أن كتابة بوين و بوتمر أثارت تخمينات واسعة في دوائر استشراقية، فقام أحد المستشرقين –واسمه توبي ليستر– (Toby Lester) باتصال هاتفي مع بوين[3] ثم حرَّر مقالة صحافية لها وزنها نشرتها مجلة The Atlantic Monthly في عدد يناير، ١٩٩٩م بعنوان "ما القرآن؟" (What is the Quran)[4] تشتمل المقالة على ثلاثة أصناف من المواد : (أ) خبر عن المخطوطات الصنعانية والاستنتاجات التي توصل

---

(١) المصدرنفسه ص ١٠٨–١١٠ .

(٢) المصدرنفسه ص ١٠٧ و١١١ .

(٣) انظر خطاب بوين إلى القاضي الأكوع بتاريخ ١٤ / ٢ / ١٩٩٩م المنقول في Impact Internationai. ج٣٠ (١) العدد لمارس ٢٠٠٠م، ص ٢٧ .

(٤) انظر: The Atlantic Monthly, January 1999, pp.43-56.

إليها بوين وبوتمر (ب) مزاعم المستشرقين الآخرين مثل وانسبره وكرون وكوك ونيفو وبيلامي (J.A. Bellamy) عن القرآن . (ج) إشارة إلى ما يقوم به المستشرقون حالياً من الدراسات القرآنية أو ما ينوون القيام به في المستقبل القريب .

أما بالنسبة للمخطوطات الصنعانية وعمل بوين و بوتمر فيها فكرر توبي ليستر ما قاله بوين في مقالته المشار إليها آنفاً، وأضاف أن بوين يرى أن القرآن تطور عبر زمن طويل ولم يكن كتاباً منزلاً من السماء على محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي، وأنه ليس بواضح و "مبين" ، بل كل خمس آيات من القرآن تكون الآية الخامسة منها لا يمكن فهمها أو تفسيرها، وأن هناك علامات في المخطوطات تدل على إعادة كتابة بعض العبارات في بعض المواضع (palipmsests) . وأن المسؤولين في صنعاء غير حريصين على القيام بدراسات مفصلة لهذه المخطوطات حتى لا تحدث بلبلة في العالم الإسلامي، ومع ذلك فإن المخطوطات الصنعانية ستساعد المستشرقين في إثبات أن للقرآن أيضاً تاريخاً كما أن هناك تاريخاً للكتاب المقدس[1] . وأما بالنسبة لأقوال وانسبره والآخرين فقد تحدثنا عنهما من قبل إلا قول بيلامي الذي سنشير إليه فيما بعد، وأما بالنسبة لما ينوي المستشرقون عمله فسنشير إليه في الخاتمة إن شاء الله .

---

(١) المصدر السابق .

أثارت هذه المقالة لتوبي ليستر موجة -أكثر من مقالتي بوين وبوتمر- من الاحتجاج والاغتياظ في الصحف اليمنية ضد المسؤولين في إدارة الآثار. فسارع بوين وبوتمر إلى توجيه خطابين إلى القاضي إسماعيل الأكوع وذلك لمنع تدهور العلاقة بينهما وبين المسؤولين اليمنيين. ودافع بوين عن نفسه وعن المجلة الأمريكية (The Atlantic Monthly) قائلاً إنه ليؤسفه "ما يزعم أن مجلة أمريكية نشرت اكتشافات مزعومة لباحثين ألمانيين، وأنه يوجد بين الرقوق التي تم ترميمها ضمن المشروع الألماني قرآن مختلف عن القرآن المتداول حاليا بين المسلمين ... إن هذه الحملة الصحفية ليس لها أساس فيما نشرته المجلة الأمريكية، وليس لها أساس فيما يخص المخطوطات الصنعانية، ولا أساس لها بالنسبة إلى البحوث القرآنية التي نقوم بها أنا وزميلي الدكتور جراف فون بوتمر ... أتأسف جداً لهذه الحملة التي تهدف إلى الإضرار بالتعاون العلمي بين اليمن وألمانيا ..."[١].

إن دفاع بوين لا يتفق وما تتضمنه مقالته ومقالة توبي ليستر. فهما شاهدان عليه، وقد قال ما أشرنا إليه آنفاً على أساس هاتين المقالتين. كما كان أبدى رغبته في إثبات أن القرآن له تاريخ، مشيراً إلى جهود المستشرقين السابقين في هذا الصدد. فينبغي أن نتحدث قليلا عن النقاط التي أثارها بوين.

---

(١) انظر صورة خطاب بوين في Impact International، ج٣٠، عدد لمارس ٢٠٠٠، ص ٢٧.

أولاً : إنه عندما يشير إلى المخطوطات القرآنية التي كانت قد جمعتها جامعة ميونخ في ألمانيا والتي دمرتها قنبلة أثناء الحرب العالمية الثانية، ليشير إلى حقيقة هامة وهي أن المسؤولين عن هذه المخطوطات كانوا نشروا تقريراً أولياً عنها قبيل اندلاع الحرب قائلين : إنه قد تمت المقارنة بين عدد كبير من النسخ وإن لم تتم المقارنة بينها جميعاً، وإنه لم يوجد اختلاف في النص القرآني ما عدا أخطاء طفيفة في الإملاء أو النسخ هنا أو هناك والتي لا تمس بوحدة النص[1]. فالاختلاف الذي لاحظه بوين في المخطوطات الصنعانية طبيعي، ولا يتعدى هذا النوع من الأخطاء الإملائية في زعمه.

ثانياً : إن إعادة كتابة لفظ أو عبارة في مكان ما (Palimpsests) لا تدل إلا على أن الكاتب كان قد أخطأ في كتابة اللفظ أو الحروف في أول الأمر فصححها بعد طمس الكلمة، أو أن الكلمة كانت قد طمست لسبب ما فكان من الضروري إعادة كتابتها. على أية حال، فإنها لا تدل على تطوير أو تعديل النص إلا في حالة وجود نسخة أخرى توجد فيها في الموضع نفسه عبارة أو كلمة أخرى، وهذا لم يثبت من المخطوطات الصنعانية أو من مخطوطات أخرى.

---

(١) انظر: محمد حميد الله، خطبات بهاولبور (باللغة الأردية)، تحقيقات إسلامي، إسلام آباد، ١٩٨٥، ص ٢٠-٢١، المنقول في Impact International ، لندن، مارس ٢٠٠٠، ص ٢٨.

ثالثاً : إن وجود سورة أو جزء منها وسورة أخرى أو جزء منها بترتيب مخالف للترتيب القرآني على ورقة واحدة لا يدل على وجود نسخة للقرآن بترتيب مختلف؛ لأنه كان من عادة المسلمين من البداية -ولا يزال- جمع سور مختارة في مفرد، وذلك للتحفيظ أو الدراسة أو التدريس في مختلف المراحل التعليمية، ومن الطبيعي أنه قبل ظهور فن الطباعة كان هذا النوع من المجموعات يعد عن طريق النسخ. فليس غريباً أن توجد مخطوطات فيها سور باختلاف الترتيب القرآني، وبخاصة تلك التي توجد في المساجد التي كانت مدارس للتعليم بلا استثناء.

وحتى وجود نسخة كاملة للقرآن بترتيب مختلف للسور لا يدل ألبتة على أن قرآناً مختلفاً كان بأيدي المسلمين في وقت ما، إلا إذا ثبت أن ذلك كان مقبولاً ومعمولاً به لديهم، وذلك نظراً لما يقوم به بعض الناس من حين إلى آخر بنشر القرآن بترتيب السور حسب أوقات أو ترتيب نزولها. فرودويل (A. Rodwell) -مثلا- قام بترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية، ورتّب فيها السور حسب أوقات نزولها، وسمّاها: The Coran : Translation with Suras Arranged Chronologically وفي ١٩١١م تبعه رجل مسلم من البنغال فقام بترجمة جديدة لمعاني القرآن ورتَّب فيها السور حسب أوقات النزول[1]. كما قام

---

(١) انظر: Mirza Abu al-Fazl, The Qur'an, Arabic Text and†English Translation, Arranged Chronologically, 1911, (British Library [British Museum] Catalogue Call mark 14512.d.15).

ر. بيل (Richard Bell) بترجمة أخرى على المنهج نفسه في سنة ١٩٣٧م[1]. وقد عرفنا أن من أهداف المستشرقين إعداد ما يسمونه نسخة منقحة للقرآن. وفي الآونة الأخيرة جاء ج. أ. بيلامي بهذا الاقتراح مجدداً بزعم أن في القرآن أخطاء عديدة ينبغي تصحيحها، وأشار توبي ليستر في مقالته إلى كتابات بيلامي في هذا الصدد، فلننظر فيها.

---

(١) انظر: R. Bell: The Quran: Translated with a†Critical Rearrangement with the Suras, T. & T. Clark, Edinburgh, 1937.

٥- أخطاء بيلامي ... (J.A. Bellamy)

كتب بيلامي سلسلة من المقالات في "مجلة الجمعية الاستشراقية الأمريكية" (Journal of the American Oriental Society)(١) يتحدث فيها عن (٢٢) كلمة وعبارة صعبة في القرآن يزعم أنها أخطاء من قبل النساخ أو أخطاء كانت في مصادر أو روايات اقتبس منها أجزاء من القرآن. ويقترح تصحيح هذه "الأخطاء" ويقول في مقالته الأخيرة: "إن علماء القرآن غير المسلمين متفقون على أن محمداً ألف القرآن بشكل أو آخر، ولذا ينسبون جميع المشكلات إليه"(٢).

وإنه من الضروري بادئ ذي بدء الإشارة إلى أن المسلمين لا يقبلون القول بأن محمداً ﷺ ألف القرآن بشكل أو آخر، وفي الحقيقة هذا هو موضوع النقاش، كما أن القول إنه قد تكون أخطاء في المصادر أو الروايات التي اقتبس منها القرآن مجرَّد ظنّ من قبل المستشرقين لا أساس له من الصحة. يأخذ بيلامي كلا الافتراضين ممن سبق من

(١) انظر: J.A. Bellami: "Al-raqim or al-Ruqa?": A note†on Surat 18:9", Journal of American Oriental Society:, 1991, pp.115-117; "Fa-Ummuhu Hayiyyah: A Note on Surah 101:9", ibid, 1992, pp.485-487; "Some proposed Emenuation to the Text of the Qur'an", ibid, 1993, pp.562-573; and "More proposed Emenuations to the Text of the Koran", ibid, 1996, pp.196-204

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

المستشرقين. أما الكلمات والعبارات التي يعالجها في مقالته فقد حللها وفسرها المفسرون والنحاة، قديماً وحديثاً، لكن بيلامي يستخف بهذه التحليلات والتفاسير ويستنتج على أساس الظن وسوء الفهم فيقع في أخطاء فاضحة. وفي الواقع يعترف في إحدى مقالاته بخطئه في تفسير الحروف المقطعات، وكان قد قدمه من قبل قائلاً: إنها اختصار البسملة، وتجدر الإشارة إلى أن المستشرق الشهير، ثيودور نولدكه (Theodore Noldeke) كان قد اقترح في القرن التاسع عشر الميلادي أن الحروف المقطعة قد تكون اختصارات لأسماء الرجال الذين ألفوا السور.

وسيتضح مدى أخطاء بيلامي لو نظرنا إلى بعض عينات مما يكتبه في هذا الشأن. فالكلمة الأولى التي يتحدث عنها في مقالته في المجلة لـ١٩٩٣م، هي كلمة "حصب" في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الأنبياء: ٩٨). فيقول إن معنى الكلمة "الحصاة" أو "البلور الصخري" وإن معنى "الوقود" الذي يعطيه إياها المفسرون والمعجميون مثل الزبيدي في "تاج العروس" أو لين (Lane) في معجمه ليس بصحيح، كما يرفض قول بعض المستشرقين إن الكلمة مأخوذة من كلمة "حصبة" العبرية والتي تعني "خشب" أو "قطع الخشب". ثم يذهب قائلا: "إنه ينبغي أن تكون الكلمة هنا "حطب"، فهي الكلمة التي تعني الخشب للنار والتي تستعمل في

موضع آخر في القرآن ... وإنه لسهلٌ جداً التصور كيف حصل هذا الخطأ عند كتابة "الحطب" نسي الناسخ وضع الخط العمودي للطاء فأصبحت الطاء صاداً"(١).

إن قول بيلامي هذا لظن فقط لا أساس له من الصحة، فهو يفترض بلا دليل أنه كانت هناك نسخة فيها كلمة "الحطب"، ولكنه لم يشر إلى شيء مثل هذا، ولم تكن النسخة المزعومة موجودة على الإطلاق.

ثانياً: يتجاهل حقيقة أن القرآن كان كتاباً مفتوحاً ومنشوراً منذ البداية، ولم يكن كتاباً محجوباً عن الناس في أي وقت، فلو أخطأ ناسخ في كتابة كلمة في نسخة ما لكشفه ألوف من الحفاظ والقراء وعامة المسلمين الذين كانوا يقرؤون القرآن يومياً في صلاتهم ودراساتهم.

ثالثاً: كما يتجاهل أن في كل اللغات كلمات لكل واحدة منها عدة معان حسب السياق والموضوع، فيظن أن لكلمة "الحصب" معنى واحداً فقط فلا يمكن استعمالها بمعنى آخر، ومن هذا المنطلق يسفِّه أقوال جميع المفسرين والمعجميين القدماء والمحدثين من المسلمين والأوروبيين.

رابعاً: يذكر بيلامي أن القرآن يستعمل كلمة "الحطب" بمعنى

---

(١) Journal of the American Oriental Society, 1993, p. 564.

خـــشب النار (١٥ : ٧٢ و ٤ : ١١١) ولكنه يغض النظر في الوقت نفسه عن أن القرآن يذكر بصراحة في موضعين أن "الحجارة" تكون وقـــوداً للنار ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ (البـــقـــرة : ٢٤) ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحـريم : ٦) . فلا غرابة أن يذكر القرآن "الحصب" وقوداً لجهنم.

خـامسـاً : إذا كـان بيـلامي يظن أن الحـجـر والحـصب ليـسـا قـابلين للاشتعال والتوقد فلا يمكن أن يكونا وقوداً للنار فهو مخطئ للغاية؛ لأن الحـجـر والمعـادن تذوب وتتـقـد كـمـا نرى في الحـمـم (Lava) التي تقذفها البراكين والتي تتحجر بعد أن تبرد. وفي الحقيقة فإن جميع الأشياء تتقد وذلك متوقف على درجة الحرارة. وعرف أن درجة حرارة الحمم ١١٥٠ (ألف ومائة وخمسون) درجة مئوية، والألماس (Diamond) -وهو أشد المعادن المعروفة حتى الآن- يذوب ويتقد بدرجة حرارة ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) درجة مئوية. وهذه الحقيقة العلمية الهامة تكمن في الآيات القـرآنيـة المذكـورة. عندمـا يقـول القـرآن إن الناس والحجارة (ومنها الأصنام) وقود النار فهو يشير إلى شدة حرارة النار من ناحية، وشدة العذاب للكافرين والمشركين من ناحية أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الناس يستعمل الحصباء أو قطع الحجارة لتزيد حرارة السخانة لتسخن فتشع بدورها الحرارة المتولدة منها، وذلك لوقت طويل حتى بعد إطفاء السخانة نفسها. وعاين كاتب هذه السطور

نفسه استخدام قطع الحجارة وقوداً للطبخ. فقد زار بكين (Bejing, China) العام الماضي حيث دعي إلى حفل عشاء في مطعم، فجيء بسمك طازج في آنية خزفية فيها ماء بارد، ثم جيء بقطعتين أو ثلاث من الحجارة مسخنة إلى درجة عالية ثم ألقيت قطعتان من الحجارة في الآنية فبدأ الماء يغلي لبضع دقائق حتى صار السمك مطبوخاً فأكله الضيوف وكان السمك المطبوخ لذيذاً جداً.

ونظراً لكل هذه الحقائق فإن العبارة "حصب جهنم" في الآية ٢١ : ٩٨ ملائمة وصحيحة، وما هي بخطأ من قبل الناسخ كما يظنه بيلامي.

والكلمة الثانية التي يتناولها بيلامي بالنقد في المقالة نفسها هي "الأمة" في الآية ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ...﴾ (هـود: ٨). ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ (يوسف: ٤٥)، فيقول إن المفسرين يفسرونها "بالوقت" أو "المدة" نظراً للسياق فقط، ولكنه ليس معناه الصحيح. كما يختلف عن المترجمين الأوروبيين مثل باريت (R. Paret) وبلاشير (Blachere) اللذين يفسرانها التفسير نفسه في هاتين الآيتين. ثم يقول بيلامي: إن المعنى هنا، خصوصاً في الآية: ٨، يلزم أن يكون وقتاً أو مدة، لكن يمكننا إعطاء هذا المعنى هنا إذا بدلنا التاء المربوطة في "الأمة" بالدال وجعلناها "أمداً"، ثم يقول: إن الناسخ أخطأ في قراءته للنص في الأصل فقرأ

"أمة" مكان "أمد" وأنث الصفة (معدود) فكتبها معدودة وذلك إما بالسليقة أو من أجل تصحيحه العبارة[1].

إن ادعاء بيلامي هذا يعتريه ما يعتري زعمه بالنسبة لكلمة "حصب" السالفة الذكر، وهو أنه يفترض أصلاً لا وجود له ولا يستطيع الإشارة إليه، كما أنه يتغاضى عن حقيقة أن نشر القرآن لم يكن قط أمراً فردياً لا ينظر إليه الآخرون من المسلمين. وإضافة إلى ذلك، فهو يفترض هنا عيبين في الناسخ المزعوم وهما خطؤه في قراءة الأصل المزعوم، وانتحاله تصحيح النص القرآني أو تعديله ، وكلاهما بلا دليل إلا الظن وهو غير مقبول. لو كان الناسخ المزعوم قادراً على تأنيث الصفة لموصوف مؤنث كما يقول بيلامي لانتبه للغرابة في معنى العبارة التي يكتبها، ولتأمل في الأمر، ولقام بإعادة النظر فيه، وبما أنه لم يفعل شيئاً من ذلك فإنه لم يشعر بغرابة في معنى العبارة ولم يخطئ في القراءة أو في الكتابة.

وثانياً: يغفل بيلامي عن أن كلمة "أمة" جاءت في القرآن الكريم بعدة معان، منها بمعنى "المدة" أو "الحقبة من الزمان"[2]. كما أنه

---

(١) انظر: Journal of the American Oriental Society, 1993, p.564.

(٢) انظر: مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي: "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" (تحقيق محمد علي النجار)، بيروت، دون تاريخ، ج٢، ص ٧٩-٨٠؛ الحسين بن محمد الدامغاني: قاموس القرآن (تحقيق عبد العزيز سيد الأهل)، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٤٢-٤٤ .

يغفل عما يعطيها المعجميون الأوروبيون من المعاني ، فمثلا يكتب هانزفير أن كلمة "أمة" تعني الجيل (Generation) بالإضافة إلى معان أخرى[1]. والجيل أو generation في الإنجليزية تعني جيلا من الناس أو زمانهم، وهو المدة التي يترعرع فيها الأولاد من الطفولة إلى سن الرشد والإنجاب[2]. لو أن بيلامي راجع هذا النوع من المعاجم العربية الإنجليزية لوجد أن كلمة "أمة" في الآيتين المذكورتين صحيحة وليست بغريبة.

وكلمة أخرى يتناولها بيلامي في مقالته الأخيرة في هذه السلسلة[3] هي "لما" في الآية ١١١ : هود ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ... ﴾. يرفض بيلامي التفاسير النحوية التي يقدمها المفسرون المسلمون والمستشرقون مثل ر. بيل (R. Bell) و ج. برجشتراسر (G. Bargstrasser) لهذه الكلمة. هنا لم يذهب إلى القول إن هذه الكلمة خطأ، وإنها ينبغي حذفها وتعديل الآية، ويضيف قائلاً: إن هذه الكلمة جاءت هنا بسبب خطأ من قبل النساخ. يقول: إن الناسخ عندما فرغ من كتابة "وإن كلا" من الآية ١١١، رفع نظره من الورقة فلفت النظر إلى

---

(١) انظر: Hans Wehr: A Dictionary of Modern Written Arabic (ed.).

(٢) انظر: Oxford Advanced Learners Dictionary of Current English, ed. A.S. Hornby and others, third edition, 1974, eighteenth impression, 1983, p. 357.

(٣) انظر: Journal of the American Oriental Society, 1996, pp. 196-204 .

الآية (١٠٩) حيث تقع العبارة "وإنا لموفوهم" فبدأ الكتابة من "لموفوهم"، ولكن بعد أن فرغ من كتابة "ل" و "م" شعر بخطئه فألغى الحرفين بوضع خط عمودي عبر "م" واستأنف كتابة الآية من "ليوفينهم". وهذه النسخة اعتمد عليها ناسخ آخر فقرأ الخط العمودي عبر "م" ألفاً فكتب هناك "لما" بين "كلا" و "ليوفينهم"، وهكذا دخلت "لما" في الآية[1].

لا حاجة للإشارة إلى التفاسير النحوية لـ "لما" في هذا المكان، وتكفي الإشارة إلى أن الحجة التي جاء بها بيلامي غير منطقية.

أولاً: إنه ليس من الطبيعي أن يلفت الناسخ المزعوم نظره إلى الوراء قبل آية كاملة (الآية ١١٠) وهي أطول من سطرين عاديين، ثم يبدأ بكتابة العبارة التي كان قد كتبها قبل قليل، ليس هناك أي تشابه بين العبارتين حيث إن (الآية ١١١) تبدأ بـ "وإنَّ" وتليها "كلاًّ" والتي في آية (١٠٩) تبدأ بـ "إنا" وتليها "لموفوهم"، وإضافة إلى ذلك، فإن الناسخ المزعوم كان قد بدأ كتابة آية جديدة (أي آية ١١١) والعبارة "وإن" تقع في أولها في حين تقع العبارة "وإنا لموفوهم" في نهاية الآية (١٠٩)، فالخطأ الذي يزعم بيلامي أن الناسخ المزعوم كان قد ارتكبه بعيد كل البعد عن المنطق والاحتمال.

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٧.

ثانياً: لو كان الناسخ المزعوم قد شعر بخطئه بعد كتابة حرفين وهما "اللام والميم"، لألغاهما بوضع خط أفقي عبر كليهما، وليس بوضع خط عمودي عبر كليهما، ولا بوضع خط عمودي عبر الميم فقط، كما يزعم بيلامي.

ثالثاً: إن الظن أن ناسخاً لاحقاً قرأ الخط العمودي ألفاً، فكتب "لما" في ذلك المكان ليس معقولاً على الإطلاق؛ حيث إن الناسخ الثاني المزعوم كان بطبيعة الحال يعرف اللغة ويفهم معنى العبارة التي يكتبها، كما أنه من المستحيل أن نسخة واحدة فقط من القرآن والتي كان قد أعدَّها الناسخ الأول المزعوم كانت موجودة، فاضطر الناسخ اللاحق المزعوم إلى اللجوء إليها لإعداد نسخته.

ونظرا لهذه الأمور فإن حجة بيلامي فاسدة ومضللة، ولا تقنع أحداً ذا عقل سليم.

هذه هي بعض نماذج لما كتبه بيلامي في هذا الموضوع، ولا حاجة للنظر هنا في بقية الكلمات التي يتناولها في مقالاته. إنه في كتابته عن هذه الكلمات الاثنتين والعشرين يرتكب في الحقيقة نفس العدد من الأخطاء الفاضحة.

٦- الخاتمـــة

يتضح مما سبق أن المستشرقين ينتمون إلى فريقين بالنسبة لموضوع بحثنا.

الفريق الأول: هم المعتدلون في موقفهم من المصادر الإسلامية فيقبلون صحة عامتها، ولكنهم لا يهتمون بإسناد الروايات وغير ذلك من عوامل صحتها، ويميلون إلى استخدام تلك الروايات التي تؤيد وجهات نظرهم بدون نقد أو اعتراض، و ينتقدون تلك التي تتعارض مع آرائهم واتجاهاتهم.

والفريق الثاني: هم المتطرفون في موقفهم من المصادر ويقولون إنها ليست معاصرة وقابلة للاعتماد عليها للتاريخ الإسلامي للقرنين الأول والثاني، وبالرغم من أن الكثيرين من الفريق الأول يقومون بدحض مزاعم الفريق الثاني في المصادر، وبالرغم من أن العلماء المسلمين أيضاً يقومون بدحض هذه المزاعم، فإنهم -أي الفريق الثاني- يصرون على موقفهم؛ وذلك من أجل النيل من القرآن.

أما بالنسبة للموقف من القرآن فإن الفريقين متساويان. فالفريق الأول يحاول بشتى الوسائل والحجج إثبات أن القرآن تأليف محمد ﷺ وأنه مقتبس من اليهودية والنصرانية والديانات القديمة الأخرى، والفريق الثاني يبني على هذه الاستنتاجات ومن ثم يذهب إلى أبعد الحدود

ويقول: إن المصادر التاريخية الإسلامية لا يمكن الاعتماد عليها للقرنين الأولين، والقرآن ليس فقط من تأليف محمد ﷺ، بل إنه تطور عبر قرنين ثم اتخذ شكله الحالي في نهاية القرن الثاني أو بعده. كما أن الفريقين يهدفان إلى جعل القرآن مساوياً لما يسمّى بالكتاب المقدس من حيث التاريخ، أو كما يقولون: إن للقرآن تاريخاً كما للكتاب المقدس تاريخ.

إن جميع استنتاجات الفريقين فاسدة وباطلة، لكن المنتمين إليهما لا يشعرون بذلك، وفي الآونة الأخيرة كثفوا جهودهم في بسط آرائهم وترويجها، فيقومون بإعادة طبع كتابات المستشرقين القدماء في هذا الموضوع من ناحية[1]، وفي إعداد منشورات جديدة أخرى من ناحية ثانية. ويخبرنا توبي ليستر أن المستشرقين الأوروبيين والأمريكيين قد تبنوا مشروعاً لإعداد ما يسمونه بـ"الموسوعة القرآنية" والتي ستتضمن جميع ما توصل إليه علماء الغرب في القرن المنصرم في الدراسات القرآنية[2]. وعليه فإن من الضروري متابعة ما يكتبونه وينشرونه ومواجهتهم في ساحتهم؛ وذلك بدحض كل استنتاجاتهم واحدة فواحدة.

هذا وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر مثلا: Andrew Rippin (ed): The Qur'an,†Formative Interpretation, Ashgate Publishing, Aldershot, 1999; and Ibn Warraq (ed): The Origin of the Koran, New York, 1998.

(٢) توبي ليستر في: The Atlantic Monthly, Tanuary 1999, p. 30.

الفهرس



الموضوع الثالث :

شبهات القرآنيين

شُبُهاتُ القُرآنيّينَ

إعداد

د. عثمان بن معلّم محمود

الباحث في مركز الدراسات القرآنية
بمجمّع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنوّرة

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، ثم إن الله رضي لنا الإسلام ديناً وأتم علينا النعمة بكتابه الداعي إلى اتباع رسوله محمد ﷺ وطاعته وتعزيره وتوقيره، وأخذ ما أتى به والانتهاء عما عنه نهى، ولا يقبل الله دعوى من ادعى محبته سبحانه حتى يتبع نبيه محمداً ﷺ ، وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعته، وضمن الهداية لمن أطاعه ﷺ .

تصديق ذلك في الآيات الآتية :

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٣٢) .

وقال جلّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد: ٣٣).

وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ ... ﴾ (الفتح: ٨، ٩).

وقال سبحانه: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ... ﴾ (الحشر: ٧).

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ... ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ... ﴾ (النساء: ٨٠).

وقال سبحانه: ﴿ ... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ... ﴾ (النور: ٥٤).

وحثّ الرسول ﷺ على الاعتصام بسنته بعد وفاته فقال: "إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضّوا عليها بالنواجذ". وحذّر من الابتداع الذي هو من هجر سنته فقال بعد الكلمات السابقة: "وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"(١). كما أخبر بالمترفين الذين يأتون بعده فيأبون سنته. فقال: "لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥) والترمذي (٢٦٦٣) والحاكم في المستدرك (١/١٠٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي.

فقد أخبر الله نبيه بما سيقع في أمته ، فوقع كما أخبر دليلاً على نبوته ورسالته ، وقد طابق خبره المخبر ، وتتابعت الفرق الضالة على ردّ سنته وإلغاء حكمه من مقلّ ومستكثر من القرن الأول إلى اليوم .

ومن تلك الفرق المارقة الجماعة التي اتخذت "أهل القرآن" اسماً لها، وحلّت نفسها بحليته وهي عاطلة منه.

كان نشوءها في الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري في شبه القارة الهندية على يد زمرة من أبناء تلك البقعة التي تفرّعت فيما بعد إلى ثلاث دول.

وكان هؤلاء المؤسسون ممن تأثروا بالفكر الغربي ورأوا في التمسك بالسنة عائقاً عن التقدم ومضعفاً للجامعة الإسلامية وتنفيذاً لمؤامرة أعجمية ، فجاءوا بما لم يأت به من سبقهم من أهل الضلال ، فأنكروا حجية السنة كلياً وعدُّوا اتباعها شركاً ولم يفرّقوا بين متواترة مجمع عليها وغير ذلك بل سلكوا مسلكاً واحداً وهو الردّ والدفع، وقاموا بتأليف الجمعيات وإصدار الكتب والرسائل والمجلات في الصدّ عنها وإثارة الشبه في وجهها ، فأقام الله لدفعهم من شاء من أهل العلم فصنّفوا الكتب والرسائل وأصدروا الفتاوى في تكفيرهم والتحذير منهم ، وكان ممن انتبه لخطرهم مبكراً العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله- فأصدر منذ أربعين سنة تقريباً فتوى في تكفير زعيمهم الأخير اللاهوري النشط غلام أحمد

برويز[١] ونُشرت الفتوى في الصحف السعودية في وقتها مما يدلّ على إسهام علماء هذا البلد في درء فتنة إنكار السنة وتحصين الأمة من سمومها وصيانة القرآن الكريم من عبث العابثين وتحريف المارقين الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ولما كان خطرهم مستمراً ولم ينفكوا يدعون الناس إلى ضلالهم ولم يبرح بعض الناس ينخدع بهم أحببت أن أشارك في التحذير منهم؛ لعلّ الله ينفع بما كتبت من شاء من عباده فيتقوا حيل منكري السنة فلا يقعوا في حبائلهم أو يغتروا بمعسول كلامهم.

ولا يفهمن أحد من تسمية هذه الفرقة بالقرآنيين أنه مدح لهم أو تعبير عن شدّة تمسكهم بالقرآن، كلاّ، بل الواقع أن هذه التسمية آتية لهم من حيث إنهم تنكروا للقرآن ورفضوا ما ثبت فيه من اتباع الرسول ﷺ وطاعته مما نشأ عنه ضلال كبير في تطبيق الأوامر القرآنية فخرجوا بذلك عن جماعة المسلمين، فسمّوا قرآنيين من ذلك الجانب.

وهذا له نظير في تسمية فرقة القدرية إذ سُموا بذلك لا لأنهم أثبتوا القدر وسلّموا له، ولكن من حيث إنهم أنكروه ونفوه[٢].

وليس فيما سوّدت هذه العصابة أثارة من علم، أو بقية من بحث، فإن العلم إما نقل مصدّق، أو بحث محقق، وما سوى ذلك فهذيان مزوّق.

---

(١) هلك في ١٩٨٥ م.

(٢) ثمّ رأيت الدكتور محمد أمان سبقني إلى هذا المعنى في كتابه: "السنة ومنزلتها في التشريع الإسلامي".

وإنما سلكوا فيما سوّدوا من صحائف مسالك السفهاء المارقين والزنادقة الملحدين ، ولم تكن ضلالاتهم عن شبهات مؤثرة أو إيرادات محيّرة ، وإنما كانت عماياتهم من جرّاء وساوس شيطانية وأهواء نفسية أو عمالات استعمارية[1] .

فاستعنت الله على ردّ باطلهم، وأدرت البحث على مقدمة وفصلين ، أما المقدمة فهذه قد أوشكت على الانتهاء.

وأما الفصل الأول ففي ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في ضرورة اعتماد السنة لسلامة فهم القرآن .

المبحث الثاني : في إبراز شيء من دفاع أهل العلم عن السنة .

المبحث الثالث : في حكم منكر السنة .

الفصل الثاني في شبه فرقة القرآنيين منكري السنة في شبه القارة الهندية والرد عليها ، وهي ثماني شبه .

وكلّ ما نقلته من شبهات القرآنيين فعن "**القرآنيون وشبهاتهم حول السنة** " أخذته، وما سوى ذلك فقد حرصت على أن أرجع إلى المصادر الأصيلة .

فما كان في بحثي من صواب فمن الله وحده هو المانُّ به ، وما كان فيه من خطإٍ فمنّي ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .

---

(١) أشار إلى العمالة للاستعمار الخبير بهم الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في كتابه : "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" ٢٨، ٢٩-٤١، وكذلك خادم إلهي بخش في كتابه : " أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية " ٣٥٩، ٣٦٠ .

الفصل الأول

المبحث الأول – ضرورة اعتماد السنة لسلامة فهم القرآن :

أنزل الله القرآن تبياناً "لكل شيء من أمور الدين إما بالنص عليه أو بالإحالة على ما يوجب العلم ؛ مثل بيان رسول الله ﷺ أو إجماع المسلمين" .

هكذا فسّر ابن الجوزي[1] قوله تعالى : ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ... ﴾ (النحل : ٨٩) . ونسبه إلى العلماء بالمعاني .

وقال تعالى : ﴿ ... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ (الأنعام : ٣٨) . يُعنى بالكتاب اللوح المحفوظ في قول ابن عباس الثابت عنه ، قال : "ما تركنا شيئاً إلا وقد كتبناه في أمّ الكتاب" . وتبعه قتادة وابن زيد .

وفُسِّر الكتاب بالقرآن في القول الثاني لابن عباس ، قال : "ما تركنا من شيء إلا وقد بيناه لكم" .

قال ابن الجوزي : "فعلى هذا يكون من العام الذي أريد به الخاص فيكون المعنى : ما فرطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبينّاه في الكتاب إما نصاً وإما مجملاً وإما دلالة"[2] .

---

(١) في زاد المسير (٤ / ٤٨٢) .

(٢) المصدر السابق .

وقال القرطبي: "ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يُتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي[1] ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ... ﴾ (النحل: ٨٩)، وقال: ﴿ ... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ (النحل: ٤٤)، وقال: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾ (الحشر: ٧). فأجمل في هذه الآية وآية النحل ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرّط في الكتاب من شيء إلا ذكره، إما تفصيلاً وإما تأصيلاً؛ وقال: ﴿ ... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ (المائدة: ٣)[2].

وعلى كثرة نظري في كتب التفسير لاستجلاء معنى الآيتين لم أر من فهم منهما أن القرآن لا يحتاج إلى بيان النبي ﷺ، ومن خالف ما أجمع عليه المفسرون ظهر زيغه وانحرافه.

وقد كان الصحابة أرباب الفصاحة والزكانة، وكانوا مستغنين عن علوم الوسائل التي افتقر إليها المتأخرون، بيد أنهم احتاجوا إلى تفسير النبي ﷺ، فبين "أن الظلم المذكور في قوله: ﴿ ... وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ... ﴾ (الأنعام: ٨٢) هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي

---

(١) كذا ولعلها "على الذي".

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦ / ٤٢٠).

رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل ، كما فسر قوله: ﴿ ... أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ... ﴾ (الأنعام: ١٥٨) أنه طلوع الشمس من مغربها، وكما فسر قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾ (إبراهيم: ٢٤) بأنها النخلة، وكما فسر قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ... ﴾ (إبراهيم: ٢٧) أن ذلك في القبر حين يُسأل مَنْ ربك وما دينك؟ وكما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب ، وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام وتحريم ما حرموه من الحلال ، وكما فسر القوة التي أمر الله أن نُعدّها لأعدائه بالرمي ، وكما فسر قوله: ﴿ ... مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ... ﴾ (النساء: ١٢٣) بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصب والهم والخوف واللأواء، وكما فسر الزيادة في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... ﴾ (يونس: ٢٦) بأنها النظر إلى وجه الله الكريم"[١].

وهي كما ترى معانٍ لا يُتوصل إليها بمجرد إتقان لسان العرب ، فلو لم يأت بها بيان الرسول ﷺ لكنا في عماية من أمرها.

فالسنة تبين مجمل القرآن، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ... ﴾ (البقرة: ٤٣)، وقال سبحانه: ﴿ ... كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... ﴾ (البقرة: ١٨٣)، وقال جل من قائل: ﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... ﴾

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ٣١٥).

(آل عمران: ٩٧)، فبين النبي ﷺ بفعله وقوله أن الصلوات المفروضات خمس في اليوم والليلة، وبين أعداد ركعاتها وشروطها وأركانها ثم قال: "صلوا كما رأيتموني أصلّي"، وبين أن الحائض لا صلاة عليها لا أداء ولا قضاء.

وكذلك الزكاة بيّن حقيقتها وعلى من تجب؟ وبيّن أنصبتها، وأنها تؤخذ من العين من الذهب والفضة، ومن المواشي من الإبل والغنم والبقر السائمة مرة كل عام، وأوجبها في بعض ما أخرجت الأرض دون بعض[١].

"وبيّن أن الصيام هو الإمساك بالعزم على الإمساك عما أمر بالإمساك عنه من طلوع الفجر إلى دخول الليل"[٢].

وفرض على البالغين من الأحرار والعبيد ذكورهم وإناثهم إلا الحيّض فإنهن يقضين عدة من أيام أخر.

وبيّن الرسول ﷺ أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة، وبيّن ما يلبس المحرم مما لا يلبسه، وحدّد مواقيت الحج والعمرة، وبيّن عدد الطواف وكيفيته، كلّ ذلك ليس بيانه في القرآن.

وأوجب الله سبحانه قطع يد السارق فقال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا... ﴾ (المائدة: ٣٨)، فبينت السنة أنها لا تقطع إلا في ربع دينارفصاعداً وأنها تقطع من مفصل الكوع.

---

(١) السنة للمروزي ٣٦.

(٢) المصدر السابق ٣٧.

فلو تُرِكْنا وعقولَنا لم نعرف هذه الأحكام ، فتبيّن أنه لا يُستغنى عن السنة في فهم القرآن ، وقد عرف الصحابة ذلك فكانوا يعرفون للسنة قدرها، فهذا جابر بن عبد الله يقول أثناء سرده صفة حج النبي ﷺ : "ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به"(١) .

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : "ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد" فقال ابن له ، يقال له واقد : إذن يتخذنه دَغَلاً .

قال: فضرب في صدره وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول: لا(٢)! .

وروي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه ذكر الشفاعة، فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن، فغضب عمران وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً ووجدت المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً والعصر أربعاً؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنّا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟ أوجدتم فيه: في كل أربعين شاة شاة، وفي كل كذا بعيراً كذا، وفي كل كذا درهماً كذا؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبي ﷺ؟. وقال: في القرآن ﴿ ... وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: ٢٩)، أوجدتم في

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) صحيح مسلم (٤٤٢ / ١٣٩). والدَّغَل: دَخَلٌ في الأمر مُفْسِد. اهـ القاموس.

القرآن: "لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام"؟ أما سمعتم الله قال في كتابه: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ... ﴾ (الحشر: ٧)؟! قال عمران: فقد أخذنا عن رسول الله أشياء ليس لكم بها علم[١].

وعن أيوب السختياني أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: "والله ما نريد بالقرآن بدلاً؛ ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا"[٢].

فبهؤلاء السلف فلنقتد، ولتعظُم السنن في قلوبنا، ولنُربّ الأجيال على احترامها وتطبيقها، وما لم يكن يومئذ ديناً فلن يكون اليوم ديناً، فيا تُرى من أين يأخذ القرآنيون دينهم؟ ومَنْ إمامهم في بدعتهم؟ ليتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، وليراجعوا دينهم قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال.

---

(١) أخرجه بطوله ابن بطة العكبري في الإبانة كتاب الإيمان ح ٦٦ (ص ٢٣٤، ٢٣٥)، وأخرجه أيضاً (ح ٦٥ - ٦٧) والآجري في الشريعة (١/ ٤١٧) والحاكم في المستدرك (١/ ١٠٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١١٩٢) مختصراً، وقال محقق الإبانة: لا بأس بسنده، وقوّاه محقق جامع بيان العلم.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١١٩٣) وصحّح المحقق إسناده.

المبحث الثاني - خلاصة جهود السابقين في الدفاع عن السنة :

ألّف الشافعي كتاب : "الرسالة" وهو صاحب السبق في هذا الباب وصاحب الإجادة والإتقان فيه، وتبعه الإمام أحمد فصنّف كتاب : "طاعة الرسول ﷺ "[1] ردَّ فيه على من احتج بظاهر القرآن في معارضة سنة رسول الله ﷺ وترك الاحتجاج بها .

ثم قفاهما أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فألف كتابه : "تأويل مختلف الحديث" ردَّ فيه على أعداء السنة وبخاصة المعتزلة .

ثم تلاهم محمد بن نصر المروزي فصنّف كتابه : "السنة" وأجاد فيه وأفاد ووصل إلينا ناقص الأول .

وألّف ابن عبد البر كتاب : "جامع بيان العلم وفضله" وضمنه أبواباً كثيرة في الحث على لزوم السنة والدفاع عنها .

ثم جاء بعدهم أبو المظفر السمعاني فألف كتابه المستطاب : "الانتصار لأهل الحديث"[2] .

ثم جاء شيخ الإسلام ابن تيمية فصنّف منهاج السنة وأبدع فيه ، وأتى بعده تلميذه ابن قيم الجوزية فحرّر كتابه : "الصواعق المرسلة" وبحث فيه مسألة خبر الواحد بما لا مزيد عليه ، كما صنَّف كتاب : "إعلام الموقعين" وخصص مئات الصفحات للذبّ عن السنن.

---

(١) ذكره ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين (٢ / ٢٩٠) .

(٢) جمع فصولاً منه الدكتور محمد حسين الجيزاني، وصدر عن مكتبة أضواء المنار عام ١٤١٧هـ .

وألف محمد بن إبراهيم الوزير اليمني كتاب: "العواصم والقواصم"(١) واختصره في كتاب: "الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم"(٢).

وألّف السيوطي كتاب: "مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة"(٣).

وألّف مصطفى السباعي كتاب: "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي"(٤).

وألّف عبد الحليم محمود (... - ١٣٩٨هـ) شيخ الأزهر الأسبق كتاب: "السنة ومكانتها في التشريع"(٥).

وكتب عبد العزيز بن راشد آل حسين (... - ١٤٠٣ هـ): "رد شبهات الإلحاد عن أحاديث الآحاد"(٦).

وألف الدكتور محمد أمان الجامي كتاب: " السنة ومنزلتها في التشريع الإسلامي"(٧).

وأعدّ صالح أحمد رضا رسالة بعنوان: "ظاهرة رفض السنة وعدم الاحتجاج بها".

وكتب محمد عبد الرزاق حمزة: "ظلمات أبي رية" وأبو ريّة أنكر السنة إنكاراً كلياً.

---

(١) حققه شعيب الأرناؤوط وصدر عن دار البشير.

(٢) له عدة طبعات.

(٣) له عدة طبعات منها بتحقيق مصطفى عاشور.

(٤) طبع المكتب الإسلامي.

(٥) تكملة معجم المؤلفين ٢٧٣.

(٦) المصدر السابق ٣٠٣.

(٧) طبع المكتب الإسلامي.

وردّ عليه أيضاً عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي في كتابه: " الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من التضليل والمجازفة"(١).

وكتب عبد الغني عبد الخالق: "حجية السنة"(٢) وهو أقوى كتب المعاصرين.

وألف محمد محمد أبو شهبة كتاب: "دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين"(٣).

وكتب تقي الدين الندوي: "السنة مع المستشرقين والمستعربين"(٤).

وأعدّ الدكتور أحمد محمود عبد الوهاب الشنقيطي رسالة بعنوان: "خبر الواحد وحجيته"(٥).

وهناك رسالة في جامعة أم القرى بعنوان: "حجية السنة في التشريع الإسلامي"، ورسالة أخرى في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعنوان: "حجية السنة والرد على شبه المنكرين".

وكتب شوقي بشير رسالة بعنوان: "موقف الجمهوريين من السنة"(٦). والجمهوريون نسبة إلى الحزب الجمهوري الذي أسسه في السودان محمود محمد طه، مدعي النبوة، المقتول مرتداً عام ١٤٠٥هـ.

---

(١) صدر عن عالم الكتب .

(٢) صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط١، ١٤٠٧هـ .

(٣) إصدار مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٤) توزيع المكتبة الإمدادية .

(٥) طبعته الجامعة الإسلامية بالمدينة .

(٦) صدرت عن رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة دعوة الحق .

كما كتب محمد طاهر حكيم " السنة في مواجهة الأباطيل "(١).

كما كتب محمد ناصر الدين الألباني ثلاث رسائل إحداها: "الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام"(٢)، والثانية: "منزلة السنة في الإسلام ، وبيان أنه لا يستغنى عنها بالقرآن" ، والثالثة: "وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والأحكام"(٣).

وكتب عبد المتعال محمد الجبري: "حجية السنة ومصطلحات المحدثين وأعلامهم"(٤).

وألّف محمد الصادق بن محمود بسيّس التونسي(٥) كتاب: "دفاعاً عن السنة النبوية" .

وكتب صلاح الدين مقبول: "زوابع في وجه السنة قديماً وحديثاً"(٦).

وألّف محمد لقمان السلفي كتاب: "مكانة السنة في التشريع الإسلامي"(٧).

---

(١) صدر عن الرابطة ضمن السلسلة السابقة .

(٢) الدار السلفية – الكويت .

(٣) الأصالة – العدد الثالث والعشرون – ١٥ شعبان ١٤٢٠هـ.

(٤) مكتبة وهبة – القاهرة ١٤٠٧هـ.

(٥) تكملة معجم المؤلفين ٤٩٦ .

(٦) صدر عن دار عالم الكتب بالرياض دون تاريخ.

(٧) صدر عن دار الداعي بالرياض ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ .

وصنّف أبو عبد الرحمن القاضي بَرهُون كتاب: "خبر الواحد في التشريع الإسلامي"(١).

وأعدّ الأمين الصادق الأمين رسالة ماجستير بعنوان: "موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية"(٢).

وألّف عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين كتاب: "أخبار الآحاد في الحديث النبوي حجيتها، مفادها، العمل بموجبها"(٣) وهي رسالته لدرجة الماجستير.

وكتب عبد العزيز بن فيصل الراجحي: "قدوم كتائب الجهاد لغزو أهل الزندقة والإلحاد القائلين بعدم الأخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد"(٤).

وألّف خادم حسين إلهي بخش كتابه المستطاب: "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة"(٥) وهو رسالته للماجستير.

---

(١) صدر عن أضواء السلف بالرياض ط ٢، ١٤١٩ هـ.

(٢) وطبعت بمكتبة الرشد بالرياض ط ١، ١٤١٨ هـ.

(٣) دار عالم الفوائد بمكة المكرمة ط ٢، ١٤١٦ هـ.

(٤) دار الصميعي ط ١، ١٤١٩ هـ.

(٥) صدر عن مكتبة الصدّيق بالطائف ط ١، ١٤٠٩ هـ.

المبحث الثالث - حكم منكر حجية السنة:

لقد بيّن الرسول ﷺ أن فيمن يقرأ القرآن منافقين فقال: "ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر..."[١].

وأوضح الله سبحانه أنه جعل أعداء للأنبياء يناوئونهم ويصدون الناس عنهم بكلام يزخرفونه فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا... ﴾ (الأنعام: ١١٢)، فليعلم المسلمون أن كلّ كلام يخالف الشرع يزخرفه صاحبه لتمويهه والتلبيس به على الناس حتى يغتروا به ويتلقفوه. وكل عمل يخالف الشرع كذلك يزينونه حتى يروج بين الناس . فهؤلاء الأعداء الذين يتظاهرون بالإسلام ويكيدون له ليل نهار لم يَخْفَ أمرُهم على علماء الإسلام فنبّهوا الناس على سوء مذهبهم ورموهم بالكفر والإلحاد إما وصفاً أو أعياناً ، فإليك بعض ما قاله أهل العلم في منكري السنة:

قال محمد بن نصر المروزي عن المسح على الخفين: "من أنكر ذلك لزمه إنكار جميع ما ذكرنا من السنن وغير ذلك مما لم نذكر ، وذلك خروج عن جماعة أهل الإسلام"[٢].

قال الآجري: "جميع فرائض الله التي فرضها في كتابه لا يعلم

(١) أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري .

(٢) السنة ١٠٤ .

الحكم فيها إلا بسنن رسول الله ﷺ، هذا قول علماء المسلمين ، من قال غير هذا خرج عن ملة الإسلام ودخل في ملة الملحدين"(١).

وقال ابن حزم: "لو أن امرأً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة ، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل ، وأخرى عند الفجر ؛ لأن ذلك هو أقلّ ما يقع عليه اسم صلاة ولا حد للأكثر في ذلك ، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال ، وإنما ذهب إلى هذا بعض غالية الرافضة ممن قد اجتمعت الأمة على كفرهم"(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "محمد ﷺ مبعوث إلى الثقلين إنسهم وجنهم ، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله"(٣).

وعلّق ابن دقيق العيد على طعون بعض الزائغين على حديث الذباب بقوله: "إن هذا وأمثاله مما تُرد به الأحاديث الصحيحة إن أراد به قائلها إبطالها بعد اعتقاد كون الرسول ﷺ قالها كان كافراً مجاهراً ، وإن أراد إبطال نسبتها إلى الرسول ﷺ بسبب يرجع إلى متنه فلا يكفر ، غير أنه مبطل لصحة الحديث"(٤).

---

(١) الشريعة (١/٤١٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٢/٨٠).

(٣) الوصية الكبرى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (١/٣١٥).

(٤) شرح الإلمام ٢/١٧٧، ١٧٨.

قال السيوطي: "إن من أنكر كون حديث النبي ﷺ -قولاً كان أو فعلاً بشرطه المعروف في الأصول- حجة، كفر، وخرج عن دائرة الإسلام، وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة"(١).

وقال المعلمي: "منكر وجوب العمل بالأحاديث مطلقاً تقام عليه الحجة، فإن أصرّ بان كفره. ومنكر وجوب العمل ببعض الأحاديث إن كان له عذر من الأعذار المعروفة بين أهل العلم وما في معناها فمعذور، وإلا فهو عاص لله ورسوله، والعاصي آثم فاسق. وقد يتفق ما يجعله في معنى منكر وجوب العمل بالأحاديث مطلقاً"(٢).

قال العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: "إن ما تفوّه به رشاد خليفة من إنكار السنة والقول بعدم الحاجة إليها كفر وردة عن الإسلام؛ لأن من أنكر السنة فقد أنكر الكتاب، ومن أنكرهما أو أحدهما فهو كافر بالإجماع، ولا يجوز التعامل معه وأمثاله، بل يجب هجره والتحذير من فتنته وبيان كفره وضلاله في كل مناسبة حتى يتوب إلى الله من ذلك توبة معلنة في الصحف السيارة، لقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٥٩، ١٦٠)"(٣).

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ١٤ .

(٢) الأنوار الكاشفة لما في كتاب: "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة ٨١، ٨٢.

(٣) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٢/ ٤٠٣).

وقال أيضاً: "من المعلوم عند جميع أهل العلم أن السنة هي الأصل الثاني من أصول الإسلام وأن مكانتها في الإسلام الصدارة بعد كتاب الله عز وجل، فهي الأصل المعتمد بعد كتاب الله عز وجل بإجماع أهل العلم قاطبة، وهي حجة قائمة مستقلة على جميع الأمة، من جحدها أو أنكرها أو زعم أنه يجوز الإعراض عنها والاكتفاء بالقرآن فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وكفر كفراً أكبر وارتدّ عن الإسلام بهذا المقال، فإنه بهذا المقال وبهذا الاعتقاد يكون قد كذّب الله ورسوله، وأنكر ما أمر الله به ورسوله، وجحد أصلاً عظيماً فرض الله الرجوع إليه والاعتماد عليه والأخذ به، وأنكر إجماع أهل العلم عليه وكذب به ، وجحده...

... ونبغت نابغة بعد ذلك، ولا يزال هذا القول يذكر فيما بين وقت وآخر، وتسمى هذه النابغة الأخيرة "القرآنية" ويزعمون أنهم أهل القرآن، وأنهم يحتجون بالقرآن فقط ، وأن السنة لا يحتج بها ؛ لأنها إنما كتبت بعد النبي ﷺ بمدة طويلة ، ولأن الإنسان قد ينسى وقد يغلط ، ولأن الكتب قد يقع فيها غلط ؛ إلى غير هذا من الترهات، والخرافات ، والآراء الفاسدة ، وزعموا أنهم بذلك يحتاطون لدينهم فلا يأخذون إلا بالقرآن فقط. وقد ضلوا عن سواء السبيل ، وكذبوا وكفروا بذلك كفراً أكبر بواحاً ؛ فإن الله عز وجل أمر بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام واتباع ما جاء به وسمى كلامه وحياً في

قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم : ١ – ٤)، ولوكان رسوله لا يتبع ولا يطاع لم يكن لأوامره ونواهيه قيمة .

وقد أمر ﷺ أن تبلغ سنته ، فكان إذا خطب أمر أن تبلّغ السنة ، فدل ذلك على أن سنته ﷺ واجبة الاتباع وعلى أن طاعته واجبة على جميع الأمة ... ومن تدبر القرآن العظيم وجد ذلك واضحاً"[1].

وكفَّر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز زعيم القرآنيين غلام أحمد برويز ، وذلك في تعقيب له على مجلة الحج "التضامن الإسلامي" التي نشرت استفتاء من الشيخ محمد يوسف البنوري عن حكم الشريعة في غلام أحمد برويز وقدّم عشرين نموذجاً مما تكلّم به برويز أو سطّرت يده، فقال ابن باز رحمة الله عليه : "كلّ من تأمل هذه النماذج المشار إليها من ذوي العلم والبصيرة يعلم علماً قطعياً لا يحتمل الشك بوجه مّا أن معتنقها ومعتقدها والداعي إليها كافر كفراً أكبر مرتد عن الإسلام ، يجب أن يستتاب ، فإن تاب توبة ظاهرة وكذّب نفسه تكذيباً ظاهراً يُنشر في الصحف المحلية ، كما نشر فيها الباطل من تلك العقائد الزائفة ، وإلا وجب على وليّ الأمر للمسلمين قتله ، وهذا شيء معلوم من دين الإسلام بالضرورة ، والأدلة عليه من الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها في هذا

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٩ / ١٧٦ – ١٧٨) .

الجواب ، وكل أنموذج من تلك النماذج التي قدمها المستفتي من عقائد غلام أحمد برويز يوجب كفره وردته عن الإسلام عند علماء الشريعة الإسلامية" .

ومن النماذج التي نقلت عنه نموذج مضمونه : أن الأحكام المالية في القرآن من الصدقات والتوريث وغيرها مؤقتة وإنما يتدرج بها إلى "نظام الربوبية" وقد انتهت أحكامها .

وهناك نموذج آخر مضمونه : أن الرسول والصحابة استنبطوا من القرآن أحكاماً كانت خاصة بهم ، ولكل من جاء بعدهم من أعضاء شورى حكومة مركزية أن يستنبطوا أحكاماً أخرى وليسوا ملزمين بتلك الشريعة السابقة .

ونموذج آخر مضمونه : أن المراد من طاعة الله وطاعة الرسول إطاعة مركز نظام الدين الذي ينفذ أحكام القرآن فقط .

ونموذج آخر نصه : "ليس المراد بالجنة والنار أمكنة خاصة ، بل هي كيفيات للإنسان"[1] .

---

(١) المصدر السابق (٣ / ٢٦٨-٢٧٠) ثم ردّ عليه بالآيات والأحاديث في الصفحات بعدها ، وختم كلامه بقوله : "إن كفر برويز يُعلم بالبداهة لعامة المسلمين فضلاً عن علمائهم، فلا ضرورة إلى بسط الأدلة عليه" .

الفصل الثاني

حمل القرآنيون في هذا العصر لواء التشكيك في السنة النبوية، وأجلبوا عليها بخيل شبههم ورجلها لزحزحتها عن مقام الاحتجاج، غير أنهم لم يظفروا بطائل، وكان الأئمة لهم بالمرصاد.

وهذا الفصل معقود لدحض أباطيلهم، والتزمت بأن أصدِّر كلّ مبحث بإحدى شبههم على ما ترجمه خادم إلهي بخش في كتابه "القرآنيون وشبهاتهم" دون تصرف مني بزيادة أو نقص، ثم أكُرُّ عليها بالنقض بما ييسر الله، معتمداً على الكتاب والسنة، مفيداً من أقاويل أهل العلم، منوعاً الأجوبة ببراهين علمية، ومعارضات عقلية، وتأصيلات شرعية، فإليك أولى شبهاتهم مصروعة.

الشبهة الأولى:

يقول برويز: "لو كانت السنة جزءاً من الدين لوضع لها رسول الله ﷺ منهجاً كمنهج القرآن من الكتابة والحفظ والمذاكرة ،... لأن مقام النبوة يقتضي أن يعطي الدين لأمته على شكل محفوظ ، لكنّه ﷺ احتاط بكلّ الوسائل الممكنة لكتاب الله، ولم يفعل شيئاً لسنّته، بل نهى عن كتابتها بقوله: لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[1][2].

---

(١) يأتي تخريجه قريباً.

(٢) مقام حديث (٧) نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٢٣.

الـــرد:

نقول: ما هذا المنهج في القرآن؟ وإذا لم يكن منصوصاً في القرآن -وليس منصوصاً قطعاً- فمن أين علمتم بوجود هذا المنهج، وقد رفضتم السنة وجعلتموها مختلقة مفتراة؟ فكيف تستدلون بسنة مختلقة مفتراة بزعمكم على أهمّ المطالب عندكم وهي ادعاء أن النبي ﷺ وضع للقرآن منهجاً في كتابته وحفظه ومذاكرته، ولم يعمل للسنة مثله.

فهذا تناقض أصلع وتضارب أعمى كتب الله على معاندي الحق ومشاغبي الحجج ومناوئي الدين أن يتورطوا في أوحاله.

أما السنة فقد رغب الرسول ﷺ الأمة في حفظها فقال: "نضر الله امرأً سمع منّا شيئاً فبلّغه كما سمع، فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع"[١]، فهذا الحديث فيه أعظم حث على حفظ السنن، والمذاكرة من وسائل الحفظ وطرقه فليست مخالفة للحفظ، والوسيلة لها حكم المقصد.

وقال الرسول ﷺ: "ليبلغ الشاهد الغائب"[٢] ففيه حض على الحفظ أيضاً إذ لا يمكن تبليغ ما لم يحفظ، إما اللفظ وإما المعنى.

فهذا كاف في حفظ السنة، مع علم الرسول ﷺ بأنها من الذكر الذي تكفل الله بحفظه، وعلمه بحرص الصحابة على الحديث وأن بعضهم أحرص عليه من بعض. سأل أبو هريرة رسول الله ﷺ من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود، وهو حديث متواتر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩).

أسعد النّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ: "لقد ظننت يا أبا هريرة ألاّ يسألني عن هذا الحديث أحد أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، أو نفسه"[1].

والحديث الذي استدلوا به رواه مسلم من طريق همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[2].

وهو الحديث الوحيد الصحيح -فيما أعلم- الناهي عن كتابة الأحاديث النبوية، ووردت أحاديث عديدة صحيحة في الأمر بكتابة الأحاديث النبوية والرخصة فيها.

وقد سلك أهل العلم في دفع ظاهر التعارض بين هذا الحديث والأحاديث الأخرى مسالك متعددة:

المسلك الأول: مسلك الترجيح لأحاديث الإذن على حديث النهي.

وقد وهَّم الإمام البخاري[3]، والإمام أبو داود[4] همَّاماً في رفع هذا الحديث وصوَّبا وقفه على أبي سعيد الخدري، ولا تعارض بين حديث موقوف وأحاديث مرفوعة.

---

(١) صحيح البخاري (٩٩) كتاب العلم، باب الحرص على الحديث.

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٤) كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

(٣) فتح الباري (١/٢٠٨).

(٤) تحفة الأشراف (٣/٤٠٨).

المسلك الثاني: مسلك النسخ، وهو القول بأن أحاديث الإذن متأخرة عن حديث النهي ناسخة له، وقد ذهب إلى ذلك ابن شاهين(١) وآخرون.

المسلك الثالث: مسلك الجمع بينهما وفيه طرائق:

قال البيهقي: "لعله إن شاء الله أذن في الكتابة عنه لمن خشي عليه النسيان، ونهى عن الكتابة عنه لمن وثق بحفظه، أو نهى عن الكتابة عنه من خاف عليهم الاختلاط، وأذن في الكتابة عنه حين أمن منه"(٢).

وذكر الزركشي وجوهاً أخرى في الجمع بينهما فقال: "**أحدها**: أن النهي عن الكتابة مخصوص بحياة سيد البشر النبي ﷺ؛ لأن النسخ يطرأ في كل وقت فيختلط الناسخ بالمنسوخ، ويشهد له حديث أبي شاه لما أذن له في كتابة الخطبة التي خطب بها النبي ﷺ... **الثاني**: أن النهي لئلا يتكل الكاتب على ما يكتب ولا يحفظ فيقل الحفظ... **الثالث**: ألا يتخذ مع القرآن كتاباً يضاهى به"(٣).

وهذا الخلاف كان في العصر الأول، ثم أجمعت الأمة على تسويغ كتابة الحديث والعلم، واستقر الأمر على ذلك(٤).

وليس في مسلك من هذه المسالك التي سلكها أهل العلم ما يشهد لما ضلت به هذه العصابة وفرقت به الأمة وشذت به عن السواد الأعظم، ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ (هود: ٦٠).

---

(١) ناسخ الحديث ومنسوخه ٤٧٢.

(٢) المدخل إلى السنن الكبرى ٢/٢٢٣.

(٣) النكت على ابن الصلاح ٣/٥٥٩، ٥٦٠ للزركشي بشيء من التصرف.

(٤) علوم الحديث لابن الصلاح: ١٨٣ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٨/١٣٠.

الشبهة الثانية:

يقول عبد الله جكرالوي مؤسس الفرقة: "إن الكتاب المجيد ذكر كل شيء يحتاج إليه في الدين مفصلاً ومشروحاً من كل وجه، فما الداعي إلى الوحي الخفي وما الحاجة إلى السنة"؟[1].

ويقول في موضع آخر: "كتاب الله كامل مفصل لا يحتاج إلى الشرح ولا إلى تفسير محمد ﷺ له وتوضيحه إياه أو التعليم العملي بمقتضاه"[2].

ويقول الحافظ أسلم في المعنى ذاته ما نصه: "قد انحصرت ضروريات الدين في اتباع القرآن المفصل ولا تتعداه"[3].

الــرد:

هذا كفر بالقرآن الذي يزعمون الانتساب إليه؛ لأن الله يقول: ﴿ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ (النحل: ٤٤) فموضع الرسول ﷺ من القرآن موضع البيان له، فمن كذب ذلك فقد كذب نص القرآن. ومفهوم كتاب الله عند أهل العلم والإيمان يختلف عن مفهوم الكتاب عند هذه الفرقة المشبوهة، حيث يطلق عند أهل العلم

---

(١) مجلة إشاعة القرآن ص ٤٩ العدد الثالث سنة ١٩٠٢م، وإشاعة السنة ١٩ ص ٢٨٦ سنة ١٩٠٢م نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٠.

(٢) ترك افتراء تعامل ١٠ وقد قال بمثله الخواجه أحمد الدين والحافظ أسلم. انظر برهان القرآن ٤، ونكات قرآن ٤٩ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١١.

(٣) مقام حديث ١٤٣ ونكات قرآن ٧٩ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١١.

والإيمان على معنيين:

روى الشيخان من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد قال: كنا عند النبي ﷺ فقام رجل فقال: أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله، فقام خصمه -وكان أفقه منه- فقال: اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي: قال: قل ، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا فزنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة وخادم، ثم سألت رجالاً من أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم. فقال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده لأقضينّ بينكما بكتاب الله جل ذكره، المائة شاة [1] والخادم ردٌّ ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها" فاعترفت فرجمها[2].

ففي هذا الحديث طلب الخصمان من رسول الله ﷺ أن يحكم بينهما بكتاب الله وأجاب رسول الله ﷺ إلى ذلك وحلف ليفعلنّ ، والحكم الذي حكم به بينهما هو رد مائة الشاة والخادم وجلد مائة وتغريب عام على الزاني ورجم الزانية ، وليس الرجم ولا التغريب ولا ردّ مائة الشاة والخادم منصوصاً عليها في القرآن المنزل ، مع أن رسول الله ﷺ أطلق على هذا الحكم أنه كتاب الله أي حكم كتاب الله.

قال أهل العلم والإيمان: كتاب الله ينطلق على معنيين:

---

(١) كذا بتعريف المائة وتنكير المعدود المضاف، وقد أجاز بعض العلماء هذا التعريف. انظر (النحو الوافي ١/٤٣٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٨٢٠) وصحيح مسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨) .

المعنى الأول: ما حكم الله به وكتب به على عباده سواء أكان منصوصاً في القرآن أم في السنة، وإطلاق كتاب الله على القرآن والسنة إطلاق اشتراك(١) ، فما ثبت بالسنة يطلق عليه أنه كتاب الله، ومن حكم بالسنة لم يخرج عن كتاب الله حكماً ومفهوماً على هذا المعنى.

قال الواحدي: "وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب ، وهذا يدل على أن ما حكم به النبي ﷺ فهو عن كتاب الله" ، قال الرازي: وهذا حق لأنه تعالى قال: ﴿ ... لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ (النحل: ٤٤)، فكل ما بينه الرسول عليه الصلاة والسلام كان داخلاً تحت هذه الآية(٢).

والمعنى الثاني عندهم: أن كتاب الله هو القرآن وحده ولكن يطلق على مدلول السنة بأنه في كتاب الله بواسطة أمر الله لنا بطاعة رسوله واتباع أمره ، و" مَنْ قَبِلَ عن رسول الله ﷺ فعن الله قَبِلَ ، لِما افترض الله من طاعته، فيجمع القبولُ لما في كتاب الله وسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله"(٣).

---

(١) المشترك: هو الكلي الذي له مسمّيان فصاعداً يسمى بكل منهما بوضع خاص كالعين للباصرة والجارية. انظر: آداب البحث والمناظرة للعلامة محمد الأمين الشنقيطي ١/ ٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٦/ ١٢/ ٢٢٧.

(٣) الرسالة للشافعي ٣٣.

ومن حكم بالسنة لم يخرج عن كتاب الله حكماً ومفهوماً على هذا المعنى أيضاً.

روى الشيخان -واللفظ لمسلم- عن عبد الله بن مسعود قال: "لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله؟ وهو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته، فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾ (الحشر: ٧)"(١).

فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول عن حكمٍ ثبت بالسنة ولم يُنَصَّ عليه في القرآن أنه في كتاب الله.

وسئل عكرمة عن أمهات الأولاد ؟ فقال: إنهن حرائر ، قيل له بأي شيء تقوله ؟ قال: بالقرآن ، قال: بماذا من القرآن ؟ قال: قول الله: ﴿ ... وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴾ (النساء: ٥٩)، وكان عمر من أولي الأمر، قال: عتقت وإن كان سِقْطاً(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٨٦) ، ومسلم (٢١٢٥) .

(٢) رواه سعيد بن منصور في سننه برقم (٦٥٧)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٣٤٦، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/١١٧٥) .

بل ذهب الإمام المطلبي ناصر السنة إلى أبعد من ذلك إذ جعل ما ثبت عن عمر رضي الله عنه ثابتاً في كتاب الله بنوع استنباط واستدلال بمراتب.

روى البيهقي بسنده عن عبد الله بن محمد بن هارون قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله. فقال له رجل: أصلحك الله ما تقول في المحرم قتل زنبوراً؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...﴾ (الحشر: ٧)، حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر"، وحدثنا سفيان عن مسعر عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر أنه أمر بقتل زنبور[١].

قال الواحدي: "فأجابه من كتاب الله مستنبطا بثلاث درجات"[٢].

الشبهة الثالثة:

يقولون: إن السنة ليست وحياً من الله، وإنما لفقت ثم نسبت إلى الرسول ﷺ، ولو صحت فإننا لم نؤمر باتباعها.

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٣٦٢. وحديث حذيفة في الصحيحة برقم ١٢٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب ٦/١٢/٢٢٧.

يقول عبد الله جكرالوي: "إنا لم نؤمر إلا باتباع ما أنزله الله بالوحي، ولو فرضنا جدلاً صحة نسبة بعض الأحاديث بطريق قطعي إلى النبي ﷺ، فإنها مع صحة نسبتها لا تكون واجبة الاتباع ؛ لأنها ليست بوحي منزل من الله عز وجل"(١).

وقال في موضع آخر: "يعتقد أهل الحديث أن نزول الوحي من الله عز وجل إلى نبيه عليه الصلاة والسلام قسمان: جلي متلو وخفي غير متلو، **والأول**: هو القرآن، **والثاني**: هو حديث الرسول عليه الصلاة والسلام... غير أن الوحي الإلهي هو الذي لا يمكن الإتيان بمثله، بيد أن وحي الأحاديث قد أتى له مثيل بمئات الألوف من الأحاديث الوضعية"(٢).

ويرى برويز: "أنّ هذا التقسيم للوحي معتقد مستعار من اليهود (شبكتب) المكتوب، و(شَبْعَلْفَهْ) المنقول بالرواية وأنه لا صلة له بالإسلام"(٣).

ويقول خواجه أحمد الدين: "إن الأصل الذي لا يتغير ولا يتبدل هو الوحي الإلهي فحسب، وهل أُمرنا بالبحث عن الوحي الإلهي في التوراة والإنجيل ... أو البخاري ومسلم أو الترمذي وأبي داود وابن ماجه ... أو مسانيد أئمة آخرين"(٤).

---

(١) المباحثة نقلا عن إشاعة السنة ج ١٩/ ٢١٩، سنة ١٩٠٢م ويرى أسلم أيضاً مثل ذلك. انظر: مقام حديث ١٣٩ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٤.

(٢) مجلة إشاعة القرآن ٣٥ العدد الرابع ١٩٠٣م، ويقول بمثله الحافظ محب الحق، انظر: بلاغ الحق ١٩.

(٣) مقام حديث ٤٦ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٤.

(٤) برهان فرقان ٤ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٤.

الـــرد:

كذب عدو الله جكرالوي في المقام الأول، وهو زعمه عدم صدور هذه الأحاديث عن النبي ﷺ.

ومعنى قوله هذا: أنه لم يصدر منه ﷺ غير هذا القرآن المتعبد بتلاوته.

وهذا أمر مناقض لبَدَائه العقول؛ إذ كيف يُتصور أن يكون رسولاً إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً يأمرهم بما يرضي الله ويوصل إلى جناته وينهاهم عما نهى الله عنه ويوصل إلى نيرانه، ويصبغ حياتهم كلها بصبغة هذا الدين الذي أُمر بتبليغه إليهم ثم لا يصدر منه غير تلاوة القرآن عليهم.

فدعوى جكرالوي مناقضة للعقل الصريح ومنافية للقرآن الذي يتشدقون باتباعه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ (الجمعة: ٢)، وقال عز وجل: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ (البقرة: ١٥١)، وقال سبحانه: ﴿... وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ (النساء: ١١٣). وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ...﴾ (البقرة: ٢٣١). ففي هذه الآيات إخبار من الله سبحانه وتعالى أنه أنزل على رسوله وحيين: الكتاب والحكمة، وقد

فسر أهل العلم والإيمان (الحكمة) بأنها سنة رسول الله ﷺ، ثبت ذلك عن قتادة، وروي نحوه عن أبي مالك، ومقاتل بن حيان، ويحيى بن أبي كثير[1].

قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: "فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ، وهذا يشبه ما قال، والله أعلم؛ لأن القرآن ذُكِرَ وأُتْبِعَتْهُ الحكمةُ، فَذَكَرَ الله مَنَّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يَجُزْ -والله أعلم- أن يقال هاهنا إلا سنة رسوله ﷺ؛ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله"[2].

وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: "قد تأولت جماعة من أهل التأويل من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين (الحكمة) في قول الله تعالى ذكره: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ (البقرة: ٢٦٩). أنها القرآن، وتأولت (الحكمة) في قوله تعالى: ﴿...وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ...﴾ (آل عمران: ١٦٤). أنها السنن التي سنها رسول الله بوحي من الله جل ثناؤه إليه، وكلا التأويلين في موضعه صحيح؛ وذلك أن القرآن حكمة، أحكم الله عز ذكره فيه لعباده حلاله وحرامه، وبين لهم فيه أمره ونهيه، وفصَّل لهم فيه شرائعه، فهو كما وصف به ربنا تبارك وتعالى بقوله:

---

(١) تفسير الطبري رقم ٢٠٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ١٨٠٧ - ١٨١٠.

(٢) الرسالة ٧٨.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ... ﴾ (القمر: ٤، ٥)، وكذلك سنن رسول الله ﷺ التي سنها لأمته عن وحي الله جل ثناؤه إليه حكمة حكم بها فيهم، ففصل بها بين الحق والباطل، وبين لهم بها مجمل ما في آي القرآن، وعرَّفهم بها معاني ما في التنزيل"(١).

وأكد أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي هذا المعنى الذي سبقه إليه غيره من أهل العلم وزاده وضوحاً وإشراقاً فكان مما قاله: "تأولت العلماء أن الحكمة هاهنا هي السنة؛ لأنه قد ذكر الكتاب، ثم قال: والحكمة، ففصل بينهما بالواو، فدلّ ذلك على أن الحكمة غير الكتاب، وهي ما سن الرسول ﷺ مما لم يُذكر في الكتاب؛ لأن التأويل إن لم يكن كذلك فيكون كأنه قال: وأنزل عليك الكتاب والكتاب، وهذا يبعد"(٢).

أما قول برويز: إن تقسيم الوحي إلى جلي متلو وخفي غير متلو مستعار من اليهود، **الأول**: المكتوب، **والثاني**: المنقول بالرواية، فيقال له: ضللت في التشبيه بين المسلمين واليهود؛ إذ يشترط المسلمون للرواية اتصال السند من مبدئه إلى منتهاه بالعدول الضابطين، وليس ذلك عند اليهود أو عند غيرهم من أمم الكفر والشقاق.

---

(١) تهذيب الآثار والسنن –السفر الأول– مسند ابن عباس ١٨٢.

(٢) السنة ١١٠.

وقد دلّ القرآن على أن هناك وحياً من الله إلى رسوله زيادة على ما في القرآن المتلوّ، قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ... ﴾ (البقرة: ١٤٢). فقد كانت القبلة في أول الإسلام إلى بيت المقدس، فأين في القرآن النص على وجوب التوجه إلى بيت المقدس؟ لم يثبت هذا الأمر إلا بالسنة، ثم نسخت بالقرآن.

الشبهة الرابعة:

يقول عبد الله جكرالوي: "الحض على أقوال الرسل وأفعالهم وتقريراتهم مع وجود كتاب الله علة قديمة قدم الزمن، وقد برأ الله رسله وأنبياءه من هذه الأحاديث، بل جعل تلك الأحاديث كفراً وشركاً"[1].

ويقول الخواجه أحمد الدين في تفصيل هذه الشبهة ما نصه: "قد وضع الناس لإحياء الشرك طرقاً متعددة، فقالوا: إنا نؤمن أن الله هو الأصل المطاع، غير أن الله أمرنا باتباع رسوله، فهو اتباع مضاف إلى الأصل المطاع، وبناء على هذا الدليل الفاسد يصححون جميع أنواع الشرك، فهل يصبح الأجنبي زوجاً لمتزوجة بقول زوجها إنها زوجته، ألا وإن الله لم يأمر بمثل ذلك: ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴾ (يوسف: ٤٠)"[2].

---

(١) ترك افتراء تعامل ١٠ وانظر المباحثة ٤٢ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٩.

(٢) تفسير بيان للناس ج ٢/ ٣٩٥ و٤٤٥ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢١٩.

الرد:

يقال لعبد الله جكرالوي: أوجدنا أين برّأ الله رسله من هذه الأحاديث؟ وأين جعلها كفراً وشركاً؟ وكيف يبرأ الإنسان من أقواله وأفعاله وتقريراته؟ ونحن لا نفرق في إيماننا بين الله ورسله، بل نؤمن بالله ورسله ولا نفرق بين أحد منهم.

وأقوالهم هذه التي تفوهوا بها محض مشاقة لله ومعاندة سافرة للوحي المنزل؛ لأن الله دعا في كتابه إلى الائتساء بالرسول ﷺ فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال سبحانه: ﴿ ... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ... ﴾ (النور: ٥٤)، فهل يقول من يصدق بهاتين الآيتين: إن اتباع الرسول ﷺ شرك.

ويظهر من أقوال الخواجه أحمد الدين أنه يرى أن الأدلة الدالة على طاعة الرسول ﷺ أدلة فاسدة؛ لأن وصف الدليل بالفساد يرجع إلى ذاته، ولو أراد فَهْمَ الناس للدليل لقال: إن استدلالهم فاسد، فالله يأمر باتباع الرسول ﷺ وهم يأبون ذلك ويَعُدُّونه شركاً.

وما الكفر والشرك إلا في الطاعة التي يُتَدَيَّنُ بها ولم يُنْزِل الله بها من سلطان، أما وصف ما أنزل الله به سلطاناً بالكفر والشرك فهو خروج عن ربقة الإسلام، ووقوع في مهاوي الضلال، فما أجرأهم على الله وأوسع حلم الله عليهم!!.

والمثال الذي ضربه الخواجه أحمد الدين بالغ القبح والشناعة، وينبئ عن فجور قلبه وسوء أدبه، حيث يشبه الرسول ﷺ بالأجنبي الذي يطمع في زوجة غيره، ويمثل الله سبحانه بما لا أعيد حكايته، وإن

كان ناقل الكفر للرد عليه ليس بكافر ، ثم إن الزوج لا يملك من زوجته شرعاً أن يبيحها من يشاء ، أما الله سبحانه فهو فعال لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، وقد حكم بأن الرسول يطاع بإذن الله .

أما قوله : " إن الله لم يأمر بمثل ذلك : ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ ... ﴾ (يوسف : ٤٠) فنقول : قد أمر اللّه باتّباع الرسول ﷺ وقد مرّ آنفاً آيتان كريمتان فى ذلك ، ولا ريب أنّ الحكم للّه وقد حكم اللّه باتّباع رسوله ﷺ وطاعته، فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ... ﴾ (النّساء : ٥٩) . وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦) . وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ... ﴾ (النّساء : ٨٠) . وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴾ (النّساء : ٦٤) . فظهر من هذه الآيات أنّ القوم إنّما فيهم كيد الإسلام وكراهته، وجعله شيئاً آخر يوافق أهواءهم العليلة :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

الشبهة الخامسة :

يقولون : إن نسبة السنة إلى النبي ﷺ ليست يقينية ؛ لأنها :

أولاً : تأخر تدوينها ولا يوثق بناقليها .

وثانياً : رويت بالمعنى ، مع عدم كفالة الله بحفظها كالقرآن ، وكثرة ما غزاها من الأحاديث الموضوعة .

أما الشق الأول: فيقول عبد الله جكرالوي: "لم تدون السنة أيام حياته عليه الصلاة والسلام، وتناقلت[1] سماعاً إلى القرن الثالث الهجري، وإذا كان سامعونا لا يستطيعون ذكر ما تحدثنا عنه في خطبة الجمعة الماضية فكيف بسماع مائة سنة وصحة بيانه"[2].

وأكد حشمت علي هذا المعنى فقال: "إن الصحاح[3] الستة التي يُفْتَخَرُ بها والتي يقال بحاجة القرآن إليها، كل تلك الكتب جُمعت ودونت في القرن الثالث حسب إقرار المحدثين"[4].

ويضيف عبد الله جكرالوي قائلاً: "بالإضافة إلى هذا التأخر في تدوين السنة كان المجتمع المدني يضم كثيراً من المنافقين في صفوفه، وقد استحالت معرفتهم على النبي ﷺ فخاطبه ربه بقوله: ﴿ ... وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ... ﴾ (التوبة: ١٠١)، فهذه الآية وشبيهاتها تنفي معرفة الرسول بهم، وأي شخص أكثر معرفة منه عليه الصلاة والسلام بهؤلاء"[5].

---

(١) كذا والصواب: وتنوقلت.

(٢) مجلة إشاعة السنة ج ١٩ / ١٥٢، عام ١٩٠٢م نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٤٣.

(٣) كذا والاستعمال الصحيح هو "الكتب" لأن ملتزم الصحة بعضها لا كلها.

(٤) تبليغ القرآن ٤١ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٤٣.

(٥) إشاعة السنة ج ١٩ / ١٥٢، عام ١٩٠٢م نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٤٣.

ووسع من هذا المفهوم في موضع آخر فقال: "ليس في وسع المرء أن يطلع على حقيقة رواة الحديث صدقاً وكذباً ؛ لأنهما من الأمور الباطنية التي لا يطلع عليها إلا العليم بذات الصدور"(١).

ويقول الحافظ أسلم: "قد كان للعواطف البشرية يد في تصحيح السنة وتضعيفها، وإنا لنرى توثيق الرواة لم ينحصر في الصدق فحسب، بل تجاوزه إلى التلمذة والتشيخ والمشاركة الفكرية والعواطف والميول الوجدانية"(٢).

الرد على الفرية الأولى: وهي تأخر تدوين الحديث:

إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يُعْنَوْنَ بتدوين أحاديث رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته بإذن منه ﷺ .

روى البخاري بسنده عن همام بن منبه قال: سمعت أبا هريرة يقول: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب"(٣).

وروى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة ... فقام أبو شاه -رجل من أهل اليمن- فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: "اكتبوا لأبي شاه"(٤).

---

(١) إشاعة السنة ج ١٩ / ٢٠٠، عام ١٩٠٢ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) مقام حديث ١٢٥ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٤٤.

(٣) صحيح البخاري (١١٣).

(٤) صحيح البخاري (٢٤٣٤).

وأخرج البخاري بسنده عن أبي جحيفة قال: "قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر"(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده والحاكم في المستدرك من حديث أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبد الله: بينا نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: "مدينة هرقل تفتح أولاً" يعني قسطنطينية(٢).

ففي هذه الأحاديث وغيرها كثير دليل صريح على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتبون الأحاديث النبوية، وقد كانت لبعضهم صحائف مثل صحيفة عبد الله بن عمرو وصحيفة جابر بن عبد الله.

---

(١) صحيح البخاري (١١١)، وأخرج مسلم (١٣٧٠) بسنده عن إبراهيم التيمي عن أبيه يزيد بن شريك عن علي، محلّ الشاهد والديات وأشياء أخرى زائدة على ما في رواية أبي جحيفة.

(٢) المسند (١١/ ٢٤٤)، والمستدرك (٤/ ٥٥٥)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤)، وقال: فيه دليل على أن الحديث كتب في عهده ﷺ خلافاً لما يظنه بعض الخراصين.

هذا وقد أحصى الدكتور محمد مصطفى الأعظمي الصحابة الذين كانوا يكتبون أو كانت لهم صحف فبلغ عددهم اثنين وخمسين صحابياً(١).

هذا جيل الصحابة، فإذا جئنا إلى جيل التابعين نجد أن الكتابة انتشرت أكثر من جيل الصحابة، فقد أوصل محمد مصطفى الأعظمي التابعين الذين كانت لهم صحائف ورسائل إلى أكثر من اثنين وخمسين ومائة تابعي(٢).

ولعل مرد ذلك إلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فقد روى أبو نعيم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الآفاق: "انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه"(٣).

وأصدر أمره إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء"(٤).

وأما جيل تابعي التابعين فقد أخذت كتابة الأحاديث النبوية منحى آخر، إذ أضيف إليها آثار الصحابة والتابعين وصُنفت على حسب الكتب والأبواب الفقهية.

---

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ٩٢ - ١٤٢.

(٢) المصدر السابق ١٤٣ - ٢٢٠.

(٣) ذكر أخبار أصبهان (١/ ٣١٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم - باب كيف يقبض العلم.

وما من حاضرة من حواضر العالم الإسلامي إلا وقام علماؤها بتدوين هذه الكتب وتصنيفها ، وكانت هذه الكتب مادة أساسية للكتب الستة.

قال الحافظ ابن حجر: "ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار ، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح ، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما ، وكانوا يصنفون كل باب على حدة ، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام ، فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم ، وصنف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي بالشام ، وأبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة ، وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي ﷺ خاصة ، وذلك على رأس المائتين ، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً ، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً ، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً ، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم ، فقلَّ إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على

المسانيد ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم من النبلاء ، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً ، كأبي بكر بن أبي شيبة"[1].

فسقط بذلك قول جكرالوي وبطلت دعواه أن تدوين الحديث تأخر إلى القرن الثالث.

أما قول حشمت علي: إن الصحاح الستة تأخر تدوينها إلى القرن الثالث، فنقول: نعم ، دونت في القرن الثالث فكان ماذا ؟.

لقد تبين آنفاً أن أصولها كانت مدونة مكتوبة[2]، ويظهر من مجموع كلام الرجلين أنهما ضلا في مفهوم السنة وأنهما يظنان أن السنة هي الكتب الستة. كأن السنة انحصرت فيها، ولم تسبق بتدوين، ولا استدرك على أصحابها أحد بشيء فاتهم، ثم إن الدندنة حول التدوين وإعطاءه فوق حجمه ما هي إلا بدعة استشراقية قصد بها التشكيك في طرق نقل الحديث، وهيهات أن يصلوا إلى مقصدهم.

أما تشبث جكرالوي بقوله تعالى: ﴿ ... وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ... ﴾ (التوبة : ١٠١).

---

(١) هدي الساري ٦ .

(٢) درس الأخ محمد باجعمان كتاب الوضوء من صحيح البخاري فخرج بأنه يتضمن (١١٣) حديثاً اشتملت على (٢٣٨) راوياً، ذكرت المصادر لـ (١٠٧) منهم مادة مكتوبة. انظر: " المصادر المكتوبة للبخاري في صحيحه "كتاب الوضوء" ١٥.

فالجواب عنه في ثلاثة مقامات:

المقام الأول: عدم معرفة الرسول ﷺ بأعيان بعض المنافقين لا يقتضي الشك في أحاديث الرسول ﷺ؛ لأن المنافقين كانوا معروفين بصفاتهم فكان الصحابة يأخذون حذرهم منهم، ففي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك لما صلى له النبي ﷺ في بيته فاجتمع إليه نفر من أهل الحي فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: لا تقل له ذلك، ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله؟ قال: قالوا: الله ورسوله أعلم، أما نحن فوالله لا نرى ودّه وحديثه إلا إلى المنافقين. فقال رسول الله ﷺ: "فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"[1].

فظهر من هذا الحديث أن الصحابة كانوا في غاية الصرامة في شأن المنافقين، بحيث اتهموا من جالسهم وخالطهم وإن لم يبلغ به الأمر إلى الكفر الباطني كما شهد بذلك الرسول ﷺ لمالك بن الدخشن[2]، أفتراهم يأخذون الأحاديث من المنافقين بعد ذلك؟ أو ترى المنافقين يجرؤون على اختلاق الأحاديث وبثها في الناس مع أنهم معزولون عن المجتمع المؤمن ومنبوذون فيه؟.

---

(١) صحيح البخاري (١١٨٦) واللفظ له، وصحيح مسلم (٢٦٣).

(٢) كان بدرياً، ولا يخفى فضلهم الباهر في الأمة. انظر معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/٢٤٦٤).

وليس عند جكرالوي شبهة دليل على أن المنافقين كانوا يتصدون لبث الأحاديث المختلقة وروايتها في حياة رسول الله ﷺ وبعد مماته.

المقام الثاني: أن في الآية التي استدل بها ما يرد دعواه؛ إذ أوعدهم الله عذابين في الدنيا قبل العذاب الشديد في الآخرة.

قال بعض المفسرين: أحد العذابين هو فضيحتهم بكشف أمورهم وتبيين سرائرهم للناس على لسان رسول الله ﷺ.

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قول الله: "﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ... ﴾ (التوبة: ١٠١). قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج من المسجد ناساً منهم ففضحهم فهذا العذاب الأول، والعذاب الثاني عذاب القبر"[١].

المقام الثالث: الاعتماد على الثقة في نقل الأخبار ضرورة دينية ودنيوية، وأن وجود بعض الكذبة في المجتمع لا يسد عليهم باب نقل الأخبار وتلقيها من الثقات.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ... ﴾ (الحجرات: ٦)، ففي هذه الآية لم يأمر الله برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة وإنما أمر بالتبين فدل ذلك على أنه يقبل خبر العدل ولا يُتبين فيه.

---

(١) جامع البيان ١٤/ ٤٤١، والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ٤٤٢ رقم ٧٩٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقري وهو ضعيف.

وإذا رُد خبر الفاسق والعدل جملة على السواء لوجود بعض الكذبة ومن لا يوثق بخبره في المجتمع بطلت الأخبار الصحيحة والروايات الثابتة، وتعطلت حقوق الناس واختلت حياتهم واضطربت معيشتهم، وهذا فاسد ضرورة، وما أدى إليه -أعني فهمهم لآية سورة التوبة- فهو مثله.

أما ما ذهب إليه جكرالوي من أنه: "ليس في وسع المرء أن يطلع على حقيقة رواة الحديث صدقاً أو كذباً ؛ لأنهما من الأمور الباطنية التي لا يطلع عليها إلا العليم بذات الصدور". وحاصله أنه أغلق باب معرفة عدالة النقلة وصدقهم من كذبهم.

فأقول: إن الله تعالى رد عليه فريته وأفسد عليه مزاعمه إذ قال: ﴿ ... وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ... ﴾ (الطلاق: ٢)، وقال: ﴿ ... وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ... ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال: ﴿ ... يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ... ﴾ (المائدة: ٩٥).

ففي هذه الآيات أناط الله الشهادة والحكم بالشاهدين والحكمين العدلين فدل ذلك على أن مناط العدالة[1] يمكن الوقوف عليه والحكم بمقتضاه، فلو لم يمكن معرفة مناط العدالة لكان الله أمرنا بالمحالات والممتنعات، وهذا فاسد وما أدى إليه فهو فاسد مثله.

---

(١) وهي تجنب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر، وفسّرها شيخ الإسلام ابن تيميّة بأنّها الصّلاح في الدّين والمروءة. انظر مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥٦).

وأما قول الحافظ أسلم: "إنه كان للعواطف البشريّة يد فى تصحيح السنّة وتضعيفها، ولم ينحصر التوثيق في الصدق بل تجاوزه إلى التلمذة والتشيّخ والمشاركة الفكرية".

فالجواب أن يقال: إنّ العدالة التي تشترط لراوي الحديث تشترط أيضا للمتصدّي للجرح والتعديل، فإذا كان يوثّق ويضعّف حسب الأهواء والميول فإنّه يسقط في ميزان المحدّثين ولا يحابون في هذا أحداً، فقد وُجد منهم الطعن في آبائهم وأبنائهم لأجل الاحتياط للرّواية، أفتراهم بعد ذلك يعدّلون من انتمى إلى مذهبهم وشاركهم فكريّاً إن كان لا يستحقُّ ذلك؟. سُئل علي بن المديني عن أبيه فقال: اسألوا غيري، فقالوا: سألناك، فأطرق ثمّ رفع رأسه وقال: "هذا هو الدّين أبي ضعيف"[1]. ورُوي عن أبي داود صاحب السنن أنه كذّب ابنه عبد الله[2] وإن كان لهذه الكلمة تأويلٌ مقبول، إلّا أنّ المقصود هنا إثبات أنّهم كانوا لا يحابون أباً ولا ابناً إذا تعلّق الأمر بالدّين.

الشق الثاني من شبهتهم: وهو كون السنة ليست يقينية بسبب روايتها بالمعنى مع عدم كفالة الله بحفظها، وكثرة ما غزاها من الأحاديث الموضوعة.

---

(١) المجروحون (٢/ ١٥).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/ ٧٧٢).

يقول الحافظ أسلم: "كل الروايات التي نسبت إلى النبي ﷺ جاءت بالمعنى ولم تأت بألفاظه -عليه الصلاة والسلام- والمعروف أن تغيير اللفظ موجب لتغيير المعنى ولو يسيراً"(١).

ويقول برويز: "اعلم أن الله عز وجل لم يتكفل بحفظ شيء سوى القرآن، فلذا لم يجمع الله الأحاديث كما أنه لم يأمر بجمعها ولا تكفل بحفظها"(٢).

ويقول عبدالله جكرالوي: "بعد وفاة الرسول ﷺ بمئات السنين نحت بعض النّاس هذه الهزليات من عند أنفسهم ثم نسبوها إلى محمّدٍ ﷺ وهو منها براء"(٣).

الـــرد:

إن النبي ﷺ حث أمتــه على أن ينقلوا عنه سنتــه ويُعْنَوْا بهــا ويبلّغوها كما سمعوها منه فقال: "نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمع، فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع"(٤).

ولا شك أن أداء لفظ الحديث كما سمع هو الأولى والأجدر الذي يتحقق به دعاء النبي ﷺ لسامعه، إلا أن المعنى هو المقصود الأول من الأحاديث واللفظ وسيلة، فإذا روى الراوي الحديث وأصاب المعنى قبل منه ذلك.

(١) مقام حديث ١٣١ - ١٥٦ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٥٠.

(٢) مقام حديث ٧ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٥٠.

(٣) ترك افتراء تعامل ١٢، ويقول بمثله الحافظ أسلم، انظر مقام حديث ١١٠، ١٦٨ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٥٠.

(٤) مضى تخريجه في مستهل الجواب عن الشبهة الأولى.

وقد وضع أهل العلم لرواية الحديث بالمعنى ضوابط تكفل صونه من تغيير المعنى.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: "قال جمهور الفقهاء: يجوز للعالم بمواقع الخطاب ومعاني الألفاظ رواية الحديث على المعنى، وليس بين أهل العلم خلاف في أن ذلك لا يجوز للجاهل بمعنى الكلام وموقع الخطاب، والمحتمل منه وغير المحتمل... فأما الدليل على أنه ليس للجاهل بمواقع الخطاب، وبالمتفق معناه والمختلف من الألفاظ فهو أنه لا يؤمن عليه إبدال اللفظ بخلافه بل هو الغالب من أمره.

وأما الدليل على جواز ذلك للعالم بمعناه... [فهو][1] اتفاق الأمة على أن للعالم بمعنى خبر النبي ﷺ وللسامع بقوله أن ينقل معنى خبره بغير لفظه وغير اللغة العربية، وأن الواجب على رسله وسفرائه إلى أهل اللغات المختلفة من العجم وغيرهم أن يرووا عنه ما سمعوه وحملوه مما أخبرهم به وتعبدهم بفعله على ألسنة رسله سيما إذا كان السفير يعرف اللغتين... وإذا ثبت ذلك صح أن القصد برواية خبره وأمره ونهيه إصابة معناه وامتثال موجبه، دون إيراد نفس لفظه وصورته.

وعلى هذا الوجه لزم العجم وغيرهم من سائر الأمم دعوة الرسول إلى دينه والعلم بأحكامه.

---

(١) زيادة لربط الكلام.

ويدل على ذلك أنه إنما ينكر الكذب والتحريف على رسول الله ﷺ وتغيير معنى اللفظ ، فإذا سلم راوي الحديث على المعنى من ذلك كان مخبراً بالمعنى المقصود من اللفظ ، وصادقاً على الرسول ﷺ "(١).

قال المعلمي : "ولو قلت لابنك : اذهب فقل للكاتب : أبي يدعوك ، فذهب وقال له : والدي –أو الوالد– يدعوك ، أو يطلب مجيئك إليه ، أو أمرني أن أدعوك له ، لكان مطيعاً صادقاً ، ولو اطلعت بعد ذلك على ما قال فزعمت أنه قد عصى أو كذب وأردت أن تعاقبه لأنكر العقلاء عليك ذلك ، وقد قص الله عز وجل في القرآن كثيراً من أقوال خلقه بغير ألفاظهم ؛ لأن من ذلك ما يطول فيبلغ الحد المعجز ، ومنه ما يكون عن لسان أعجمي ، ومنه ما يأتي في موضع بألفاظ وفي آخر بغيرها ، وقد تتعدد الصور كما في قصة موسى ، ويطول في موضع ويختصر في آخر ، فبالنظر إلى أداء المعنى كرر النبي ﷺ بيان شدة الكذب عليه ، وبالنظر إلى أداء اللفظ اقتصر على الترغيب .

واعلم أن الأحاديث الصحيحة ليست كلها قولية ، بل منها ما هو إخبار عن أفعال النبي ﷺ وهي كثيرة ، ومنها ما أصله قولي ، ولكن الصحابي لا يذكر القول ، بل يقول : أمرنا النبي ﷺ بكذا ، أو نهانا عن كذا ، أو قضى بكذا ، أو أذن في كذا ، وأشباه هذا وهذا كثير أيضاً .

---

(١) الكفاية في علم الرواية ٣٠٠ – ٣٠٤ ، وانظر في شروط رواية الحديث بالمعنى الإلماع للقاضي عياض ١٨٧ ومقدمة ابن الصلاح ٣٩٤ – ٣٩٧ .

وهذان الضربان ليسا محل نزاع ، والكلام فيما يقول الصحابي فيه : قال رسول الله ﷺ كيت وكيت ، أو نحو ذلك .

ومن تتبع هذا في الأحاديث التي يرويها صحابيان أو أكثر ووقع اختلاف فإنما هو في بعض الألفاظ ، وهذا يبين أن الصحابة لم يكونوا إذا حكوا قوله ﷺ يهملون ألفاظه البتة ، لكن منهم من يحاول أن يؤديها فيقع له تقديم وتأخير ، أو إبدال الكلمة بمرادفها ونحو ذلك .

ومع هذا فقد عرف جماعة من الصحابة كانوا يتحرون ضبط الألفاظ، وكان ابن عمر ممن شدد في ذلك ، وقد آتاهم الله من جودة الحفظ ما آتاهم .

فعلى هذا ما كان من أحاديث المشهورين بالتحفظ فهو بلفظ النبي ﷺ ، وما كان من حديث غيرهم فالظاهر ذلك ؛ لأنهم كلهم كانوا يتحرون ما أمكنهم ، ويبقى النظر في تصرف من بعدهم"[١] .

أما قول برويز إن الله لم يتكفل بحفظ السنة، فنقول : إن الله تكفل بحفظ الذكر ، وهو يشمل القرآن والسنة؛ لأنها بيان له لا تنفك عنه ، ومظاهر حفظ الله للسنة النبوية بادية أمامنا ، إذ لم تخل العصور الإسلامية من حفاظ الحديث الذين شمّروا عن ساعد الجدّ لحفظه في صدورهم وتتبعه من أفواه الرجال وقطع المفاوز والفيافي للقاء من سبقهم من الحفاظ ، واشتد حرص كثير منهم على كتابة ما سمعوه، فاجتمع لهم الضبطان : ضبط الصدر وضبط الكتاب، ثم كانوا إذا

(١) الأنوار الكاشفة ٧٨، ٧٩ .

أرادوا أن يرووا عن رجل سألوا عنه وفحصوا حاله حتى كان يقال لبعضهم: أتريدون أن تزوِّجوه، كل ذلك احتياطاً للسنة، ونشأ عن ذلك علمٌ قائم بنفسه هو علم الرجال، بحيث لا يخفى على المعنيّ بأمر الحديث حال الرواة جرحاً وتعديلاً، وهو علمٌ لا يوجد عند الأمم غير الإسلامية، فمن عرف اجتهاد المحدثين ونصحهم للأمة علم مدى عناية الله سبحانه بحفظ السنة النبوية.

أما إلغاء حجية السنة بسبب وجود أحاديث موضوعة، فسيأتي في الجواب عن الشبهة الثامنة الكلام عن وجود الغش في النفائس عموماً ، وأن هذا لم يصدَّ الناس عن أخذ الصحيح وترك المغشوش ، هذا في الأمور الدنيوية فكيف يتركهم الله عُمياً فاقدي البصائر فيما يتعلق بدينهم؟ هذا بعيد عن حكمة الله.

ثم إن العلماء وضعوا لمعرفة الحديث الموضوع ضوابط تعين على إدراكه ليُعرف فيحذرَ، منها:

١- اشتمال الحديث على مجازفات لا يقول مثلها رسول الله ﷺ كحديث: " من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطي ثواب سبعين نبياً" . قال ابن قيم الجوزية: "وكأن هذا الكذاب الخبيث لم يعلم أن غير النبي لو صلى عُمر نوح عليه السلام لم يعط ثواب نبي واحد"(١).

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٤٦ .

٢- تكذيب الحس له.

٣- سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث: "لو كان الأرز رجلاً لكان حليماً ، ما أكله جائع إلا أشبعه".

٤- مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة المتواترة مناقضة بينة ، فكل حديث يشتمل على فساد أو ظلم أو عبث أو مدح باطل أو ذم حق ، أو نحو ذلك فرسول الله ﷺ منه بريء.

٥- أن يُدّعى على النبي ﷺ أنه فعل أمراً ظاهراً بمحضر من الصحابة كلهم وأنهم اتفقوا على كتمانه ولم ينقلوه، كما يزعم الرافضة أن النبي ﷺ أخذ بيد علي بن أبي طالب بمحضر من الصحابة كلهم ، وهم راجعون من حجة الوداع ، فأقامه بينهم حتى عرفه الجميع ثم قال: "هذا وصيّي وأخي والخليفة من بعدي"[1].

٦- أن يكون الحديث باطلاً في نفسه كحديث: "المجرة التي في السماء من عرق الأفعى التي تحت العرش"[2].

٧- أن يكون كلامه لا يشبه كلام الأنبياء، فضلاً عن كلام رسول الله ﷺ الذي هو وحي يوحى كحديث: "النظر إلى الوجه الجميل عبادة"[3].

---

(١) المصدر السابق ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ٥٩ .

٨- ومنها أن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا مثل قوله: "إذا كان سنة كذا وكذا وقع كيت وكيت، وإذا كان شهر كذا وكذا وقع كيت وكيت".

٩- أن يكون الحديث بوصف الأطباء والطرقية أشبه وأليق.

١٠- أن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، كحديث عوج بن عنق الطويل، ففي حديثه أن طوله كان ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين وثلثاً، مع أنه صحّ عن النبي ﷺ أن طول آدم ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن"[١][٢].

١١- مخالفة الحديث صريح القرآن، كحديث مقدار الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة، قال ابن قيم الجوزية: "وهذا من أبين الكذب، لأنه لو كان صحيحاً لكان كل أحد عالماً أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مائتان وإحدى وخمسون سنة. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ... ﴾ (الأعراف: ١٨٧)[٣].

١٢- أن تكون ألفاظ الحديث أو معانيه ركيكة يمجها السمع ويدفعها الطبع ويسمج معناها للفطن كحديث: "إن لله ملكاً من حجارة يقال له: عمارة ينزل على حمار من حجارة كل يوم فيسعر الأسعار ثم يعرج"[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٢٦).

(٢) المنار المنيف ٧٤، ٧٥.

(٣) المنار المنيف ٧٨.

(٤) المصدر السابق ٩١، ٩٢.

١٣- ما يقترن بالحديث من القرائن التي يُعلم بها أنه باطل، مثل حديث وضع الجزية عن أهل خيبر، قال ابن قيم الجوزية: "وهذا كذب من عدة وجوه، **أحدها**: أن فيه شهادة سعد بن معاذ، وسعد قد توفي قبل ذلك في غزوة الخندق. **ثانيها**: أن فيه: "وكتب معاوية بن أبي سفيان" هكذا، ومعاوية إنما أسلم زمن الفتح، وكان من الطلقاء" إلى آخر الوجوه التي أوصلها إلى عشرة(١).

ولم يكتفوا ببيان تلك الضوابط ، بل أفردوا الأحاديث الموضوعة بكتب نُشر أكثرها ، من أعظمها "الموضوعات" لابن الجوزي واشتمل على نحو خمسين كتاباً على ترتيب الكتب المصنفة في الفقه.

كما أن كتب العلل تذكر كثيراً من الحديث الموضوع ، فهي السباقة لتنبيه الناس إلى الأحاديث الموضوعة ، ولم يقتصروا على ذلك بل ألّفوا كتباً لبيان الضعفاء والمتروكين والوضاعين وأحاديثهم "كالضعفاء" للعقيلي و"الكامل في ضعفاء الرجال" لابن عدي، وكتاباهما جامعان لما سبقهما من الكتب المؤلفة في الضعفاء "كالضعفاء" لعلي بن المديني و"الضعفاء" للبخاري و"الشجرة في أحوال الرجال" للجوزجاني و"الضعفاء والمتروكين" للنسائي.

فكيف يحاول رجال بعد ذلك نزع الثقة بالسنة لوجود الأحاديث الموضوعة التي ميّزها أهل العلم وأُمن اختلاطها بالصحيح؟ فما مَثَلُهم

---

(١) المصدر السابق ٩٤، ٩٥.

في محاولتهم تلك إلا كمثل متطبب جاهل عُرِض عليه مريض مصاب بخراج في إحدى أصابع يده، ويكفيه إزالة هذه الأصبع وحدها، فقال ذلك الجاهل: لا علاج له إلا بتر اليد من أصلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الواجب أن يفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام" [1].

الشبهة السادسة:

زعمهم أن التمسك بالسنة يفرق الأمة وأنها لو انسلخت منها لا تحدت.

يقول جكرالوي: "لا ترتفع الفرقة والتشتت عن المسلمين، ولن يجمعهم لواء ولا يضمهم مكتب فكر موحد، ما بقوا متمسكين بروايات زيد وعمرو" [2].

ويؤكد المعنى نفسه حشمت علي فيقول: "لن تتحقق وحدة المسلمين ما لم يتركوا كتبهم الموضوعة في طاعة الرسول ﷺ، ولن يروا سبيل الرقي والتقدم ما لم يمح عنهم التشتت والفرقة" [3].

---

(١) الوصية الكبرى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (١/٢٨٣).

(٢) مجلة إشاعة القرآن ٣٩ عدد شعبان ١٣٢١هـ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٨.

(٣) المصدر السابق ١٠ عدد ١٥ ديسمبر ١٩٢٧م نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٨.

ويقول برويز: "قد فاق تقديس هذه الكتب (كتب السنة) كل التصورات البشرية ، مع أنها جزء من مؤامرة أعجمية استهدفت النيل من الإسلام وأهله"[1].

ويعلل ذلك فيقول: "فما أصحاب الصحاح الستة[2] إلا جزء من تلك المؤامرة، لذا نجدهم إيرانيين جميعاً ، لا وجود لساكن الجزيرة بينهم ، والشيء المحير للعقول أن العرب لم يسهموا في هذا العمل البناء ، بل أسندوا جمع الأحاديث وتدوينها إلى العجم حتى تم بناء هذا الصرح المؤامر"[3].

الـــرد:

أثبت الواقع أن المسلمين لما كانوا متمسكين بالسنة كانوا أكثر ترابطاً وانسجاماً وقوة وغلبة للأعداء ، وأن الأمر انعكس لما خالف بعضهم السنة ، فقد ذكر الله أن نسيان حظ مما ذكر الناس به يؤجج نار العداوة والبغضاء بينهم، قال تعالى: ﴿ ... فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ... ﴾ (المائدة: ١٤)، وقال ﷺ : "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه"[4]، ثم إنكم أيها القرآنيون انسلختم عن السنة فهل اتحدتّم؟ بل

---

(١) شاهكار رسالت ٤٤٦ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٨ .

(٢) الصواب أن يقال : "الكتب الستة" ؛ لأن ملتزم الصحة بعضها لا كلّها .

(٣) مقام حديث ٢٢ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٨، ٢٣٩ .

(٤) أخرجه مالك في الموطإ (٢ / ٢٨٠) بلاغاً، والحاكم في المستدرك (١ / ٩٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٩٧) .

أنتم مختلفون فيما بينكم شر اختلاف، فبرويز رد على جكرالوي، وأصبحتم أربع فرق ولم تتفقوا فيما بينكم على عدد ركعات الصلوات فضلاً عن بقية الشعائر التعبدية ، وسائر المعاملات.

أما "أسباب التفرق والاختلاف الواجب تركها باتفاقهم[1] [ف] هي الجهل والهوى والتعصب ، وكذلك الخطأ بقدر الوسع . فأما أن يترك أحدهم ما يراه حقاً فلا قائل به ، بل هو محظور باتفاقهم"[2].

وأما قول برويز: إنها مؤامرة أعجمية إيرانية. فالجواب: أن أصول هذه الكتب الستة ألفها علماء الحجاز والعراق واليمن، مثل موطأ مالك بن أنس، وموطأ عبد الله بن وهب تلميذ الإمام مالك، وموطأ ابن أبي ذئب، وسنن الشافعي، ومسند الحميدي القرشي، وجامع سفيان بن عيينة شيخ مكة، ومسند ابن أبي عمر العدني المكي، وسنن ابن جريج المكي، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، وجامع معمر بن راشد الصنعاني، ومصنف وكيع بن الجراح الكوفي، وحماد بن سلمة البصري، ومسند أبي داود الطيالسي البصري، ومسند ابن أبي عاصم البصري الكوفي، ومسند ومصنف أبي بكر ابن أبي شيبة الكوفي، ومصنف أبي الربيع سليمان بن داود العتكي البصري، ومسند أحمد ابن حنبل أكبر مسند في الدنيا وقلَّ أن يثبت حديث إلا وهو فيه[3]،

---

(١) أي أهل العلم .

(٢) الأنوار الكاشفة ٢٤ الحاشية ٢ .

(٣) قاله ابن الجزري في المصعد الأحمد (مسند أحمد ١ / ٣١) .

ومسند عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي ، ومسند يحيى بن عبد الحميد الحماني الكوفي ، ومسند مسدد بن مسرهد البصري ، ومسند أبي جعفر محمد بن عبد الله الكوفي ، ومسند أحمد بن منيع البغدادي ، ومسند عثمان بن أبي شيبة العبسي الكوفي[1].

فهذه أربعة أضعاف الكتب الستة ألفها علماء الجزيرة ، وكلهم في طبقة مشايخ أصحاب الكتب الستة أو مشايخ مشايخهم ، أو مشايخ مشايخ مشايخهم ، وهي أصول هذه الكتب الستة.

ومع ذلك فإن أصحاب الكتب الستة لم يكونوا كلهم إيرانيين كما زعم برويز، بل بعضهم من أصول عربية بالاتفاق، فمسلم عربي من بني قشير، والترمذي عربي من بني سليم، وأبو داود عربي من قبيلة أزد.

مع أن ذمّ جنس من أجناس البشر لم يرد به شرع ولم يدل عليه عقل، بل مدح رسول الله ﷺ أهل فارس ، وخرَّجت بلاد فارس علماء نوابغ في كل العلوم: تفسيراً ، وحديثاً ، وفقهاً ، ولغة ، وإنما غلب عليها الرفض أيام إسماعيل الصفوي أوائل القرن العاشر الهجري.

أما أن الكتب الستة جزء من مؤامرة أعجمية، فإن كانت هناك مؤامرة أعجمية فأنتم قد حزتم النصيب الأوفر منها؛ لأنكم قمتم واستفرغتم وسعكم لنقض أصول الإسلام من أساسها، فلا مؤامرة أخبث من مؤامرتكم، وهم أقرب نسباً إلى العرب منكم، فلا وجه لتعييركم إياهم بالعجمة.

---

(١) انظر في بيان هذه الكتب: الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني.

الشبهة السابعة:

تتلخص هذه الشبهة في قولهم: إن الخطاب بالأحاديث كان موجهاً لأمة خاصة وهم العرب في زمن النبي ﷺ بما يوافق ظروفهم الخاصة ، فلا تلزمنا طاعته؛ إذ كانت مقيدة بزمنه ، وزالت بوفاته ﷺ .

يقول الخواجه : "اعلم أن طاعة الرسول ﷺ كانت طاعة مقيدة بزمنه، وامتثال أحكامه لا تتجاوز حياته، وقد أوصد هذا الباب منذ وفاته عليه الصلاة والسلام"(١).

ويشرح حشمت علي هذه الشبهة فيقول: "لقد كانت إرشاداته ﷺ تصدر وفق ظروف أصحابه ، ولو كنا في تلك الآونة لوجب علينا اتباع أقواله وإرشاداته عليه الصلاة والسلام ... وكما أن خطاب القرآن عام عندنا غير أن المخاطبين بالأحاديث أمة خاصة وهم العرب"(٢).

الـــــرد:

مـا أشبـه قـولة القـرآنيين بمقـالة بعض أهل الكتـاب الذين قـالوا: إن محمداً رسول الله لكن إلى العرب خاصة.

فنقول للقرآنيين: هل الأحاديث لازمة للعرب إلى يوم القيامة بمعنى أنهم إذا بلَّغ بعضهم بعضا كانت الحجة عليهم قائمة بذلك ، فإن كنتم تقولون بذلك فما الفرق بين العرب والعجم؟ لأن رسالة الرسول ﷺ

---

(١) مجلة البيان ٣٢ عدد أغسطس ١٩٥١م نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣١.

(٢) تبليغ القرآن ٥ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣١.

عامة للخلق كلهم إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . . ﴾ (الأعراف : ١٥٨)، وقال تعالى : ﴿ . . . وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا . . . ﴾ (النساء : ٧٩)، وقال سبحانه : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . . ﴾ (سبأ : ٢٨)، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . . . ﴾ (المائدة : ٦٧)، حذف المفعول الثاني إرادة عموم المبلَّغين.

وقال سبحانه : ﴿ . . . وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ . . . ﴾ (الأنعام : ١٩)، أي من بلغه القرآن ومن لم يكن في زمن الرسول ﷺ .

وقال الرسول ﷺ في وصيته يوم الحج الأكبر : "ليبلغ الشاهد الغائب[1]" ، فلو كانت الحجة لا تقوم بالسنة، لما أمرهم النبي ﷺ بتبليغ الغائب الصادق على من هو في هذه الأعصر المتأخرة.

فأتمر الصحابة أمر النبي ﷺ ، فبلغوا القرآن والحديث على أنهما الدين الذي جاء به محمد ﷺ .

بل كان الصحابة يتطلبون سنة رسول الله ﷺ بعد وفاته ، فإذا بلغهم الحديث عن صحابي آخر عن النبي ﷺ لم يترددوا في قبوله ، وهذه كانت عادة الخلفاء الراشدين ، فأبو بكر كان يحكم بكتاب الله، فإن لم يجد فبسنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يجد سأل الصحابة إن كان عند أحد منهم حديث عن رسول الله ﷺ في القضية ، فإن وجد ذلك حكم به ، وكذلك عمر ، وعثمان، وعلي ، فإن لم يجدوا سنة عندهم ، أو عند غيرهم من الصحابة اجتهدوا رأيهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) .

وكان عمر لا يورّث المرأة من دية زوجها ، ثمّ ورّثها لرواية الضحاك ابن سفيان عن النبي ﷺ توريثها[1] .

وانظر قصة أبي موسى الأشعري لما استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له فرجع، فعاتبه عمر فروى له أبو موسى الحديث الدال على ذلك فاستثبته عمر فشهد له أبو سعيد الخدري[2] فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ : ألهاني عنه الصفق بالأسواق[3] ولم يقل عمر: ما سمعنا من رسول الله ﷺ أيام حياته أخذنا به، وما بلغنا عنه بعد وفاته لا يلزمنا، لأنه يعلم أن ذلك ينافي الإيمان برسالة محمد ﷺ .

وانظر إلى ابن عمر إذ تروي له عائشة حديثاً عن النبي ﷺ بعد وفاته فيأخذ به.

"فإذا كان حكم الآيات القرآنية لا يختص بزمن ولا بأشخاص معدودين ، فكذلك السنة ، إذ لا فرق بين أحكام الكتاب وأحكام السنة لصدورهما من مصدر واحد . . . ، ولأن رسالته عامة شاملة للخلق أجمعين ، فيجب ضرورة أن تكون سنته كذلك ، لعدم الخلف بين أحكامها وأحكام القرآن ، ومن ثم لا فرق في تطبيق الأحكام

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٢٧) والترمذي (٢١١١) وابن ماجه (٢٦٤٢) .

(٢) صحيح البخاري (٦٢٤٥) وصحيح مسلم (٢١٥٣) ويلاحظ أن الخبر لم يخرج بشهادة أبي سعيد الخدري عن كونه آحاداً.

(٣) صحيح مسلم (٣٦/٢١٥٣) .

الثابتة بالكتاب والسنة بين من شاهد التنزيل وعاصره وبين من ولد في عصر الذرة وآمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصديقاً بخبر الله"[١].

الشبهة الثامنة:

يقول الحافظ أسلم: "إن الأحاديث انتقدت علمياً ما أفقدها صفة التدين ؛ لأن الأمور الدينية لا يدخلها النقد وآراء الرجال"[٢] إلى أن قال: "الاعتراضات الموجهة للإسلام من غير أهله لا تأتي إلا عن طريق الأحاديث التي أقر المسلمون بصحتها وهي موضوعة الأصل لا صلة لها بالدين"[٣].

ويؤكد محب الحق هذا المعنى فيقول: "يجب نبذ تلك الأحاديث التي توصل الإسلام إلى بوتقة الهدف والاتهام ؛ لأن نبي الإسلام بريء منها"[٤].

الـــرد:

لا يخفى أن النفيس من كل شيء يُتَغالى في الحصول عليه، وتبذل الأموال والنفوس لاقتنائه ، فللقيمة العالية للحديث النبوي أراد كل صاحب هوى أن يتقوى به، وتبارت الطوائف في إيجاد سند لها منه حتى تنفق بضاعتها ويسمع قولها.

---

(١) القرآنيون وشبهاتهم ٢٣٢.

(٢) مقام حديث ١٥٤ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه والصفحة ذاتها نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٣ .

(٤) بلاغ الحق ٣٤ نقلاً عن "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة" ٢٣٣.

لكن هل معنى ذلك أن ما راموه تحقق لهم وأنهم ظفروا بمطلوبهم؟ كلا، فلقد قيض الله للذود عن حياض السنة رجالاً اصطنعهم لنفسه، وأمدهم بروح منه، وأراد إكرامهم وإعلاء درجاتهم بذلك الجهاد، فنقدوا الزيف والبهرج حتى مازوه، وبقي المحض النقي فحرزوه واحتازوه.

والذي يقول: لا نقبل الحديث؛ لأنه وجه النقد إلى بعض المنسوب إليه.

نقول له: إنك في تعاملك الدنيوي تقبل أشياء يكثر الغش والتزييف فيها وتعدها ضرورية للحياة، وأنه يمكن تمييز جيدها من رديئها فلا ترفض رفضاً كلياً، ولم يزل الناس يهتدون إلى الجيد منها بوسائل يسخرها الله لهم، ولم يتكفل الله بحفظها كما تكفل بحفظ الوحي، فلا تجعل يا منكر السنة الحديث النبوي أدنى مرتبة من هذه المرغوبات الدنيوية.

و"لا يكاد يدخل الضرر إلا على من لا يرجع إلى أهل الخبرة من جاهل ومقصر ومن لا يبالي ما أخذ، والمؤمن يعلم أن هذه ثمرة عناية الله عز وجل بعباده في دنياهم، فما الظن بعنايته بدينهم؟ لا بد أن تكون أتم وأبلغ"[1]. وقد مضى في الجواب على الشق الثاني من الشبهة الخامسة الحديث عن الضوابط التي وضعها أهل العلم لتمييز الأحاديث الموضوعة، فأغنى عن إعادته هنا.

نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا ويميتنا على الإسلام والسنة.

---

(١) الأنوار الكاشفة للمعلمي ٨٩.

فهرس المصادر

- **آداب البحث والمناظرة.**

لمحمد الأمين الشنقيطي ، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، دون تاريخ.

- **أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية.**

خادم حسين إلهي بخش، دار حراء ، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨هـ.

- **الأنوار الكاشفة لما في كتاب "أضواء على السنة" من الزلل والتضليل والمجازفة.**

لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، عالم الكتب، ١٤٠٣هـ.

- **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية.**

لابن بطة العكبري، دار الراية، ط ٢، ١٤١٥هـ .

- **الإحكام في أصول الأحكام.**

لابن حزم ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ .

- **إعلام الموقعين عن رب العالمين.**

لابن قيم الجوزية، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الحاج عبد السلام بن شقرون، ١٣٨٨هـ .

- **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع.**

للقاضي عياض، تحقيق: السيد أحمد صقر ـ الطبعة الثانية، دار التراث والمكتبة العتيقة، ١٣٩٨هـ .

- **تذكرة الحفاظ .**

للذهبي ، دار إحياء التراث العربي، مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الدكن – الهند .

- **تفسير القرآن العظيم.**

لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: حكمت بشير ياسين، مكتبة الدار، المدينة النبوية.

- **تكملة معجم المؤلفين.**

لمحمد خير رمضان، دار ابن حزم، ١٤١٨هـ .

- **تهذيب الآثار والسنن.**

للطبري، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دون تاريخ.

- **جامع بيان العلم وفضله.**

لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤١٩هـ .

- **جامع البيان عن تأويل القرآن.**

لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف بمصر، دون تاريخ.

- **دراسات في الحديث النبوي.**

لمحمد مصطفى الأعظمي، نشر جامعة الرياض، دون تاريخ.

- **ذكر أخبار أصبهان.**

لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب الإسلامي، مصورة عن طبعة المستشرق الألماني سفن ديدرنج SEVEN DEDERING دون تاريخ.

- **الرسالة.**

لمحمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، دون تاريخ.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة.**

لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

- **سنن أبي داود.**

ضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

- **سنن ابن ماجه.**

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث ـ دون تاريخ.

- **سنن الترمذي.**

تحقيق: إبراهيم عطوة، طبعة مصطفى الحلبي ـ ط ٢، ١٣٩٥ هـ.

- **السنن الكبرى.**

للبيهقي، دار الفكر، بدون تاريخ.

- **السنة.**

لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق: سالم بن أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ.

- **شرح الإلمام لابن دقيق العيد.**

- **شرح صحيح مسلم.**

ليحيى بن شرف محيي الدين النووي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٠٤هـ.

- **الشريعة.**

للآجري، تحقيق: عبد الله الدميجي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨ هـ.

- **صحيح البخاري.**

نسخة فتح الباري.

- **صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير.**

لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ.

- **فتح الباري شرح صحيح البخاري.**

لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ/عبد العزيز بن

باز، المكتبة السلفية، دون تاريخ.

- **القرآنيون وشبهاتهم حول السنة.**

خادم حسين إلهي بخش، مكتبة الصدّيق بالطائف، ط١، ١٤٠٩هـ.

- **الكفاية في علم الرواية.**

للخطيب البغدادي، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٤١٠هـ.

- **المجروحون.**

لمحمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة.

- **مجلة الأصالة.**

عدد (٢٣) ١٥/شعبان/١٤٢٠هـ، تصدر في الأردن.

- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.**

للهيثمي، دار الكتاب العربي ــ بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ.

- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.**

جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وابنه، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦هـ.

- **مجموع فتاوى ومقالات متنوعة لابن باز.**

جمع وإشراف محمد بن سعد الشويعر، رئاسة البحوث العلمية

والإفتاء، ط٢، ١٤١٦هـ .

- **المدخل إلى السنن الكبرى.**

للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة أضواء السلف، ط٢، ١٤٢٠هـ .

- **المستدرك.**

للحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند، دون تاريخ.

- **المسند.**

لأحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥هـ.

- **المصادر المكتوبة للبخاري في صحيحه "كتاب الوضوء".**

لمحمد عبد الله أبو بكر باجعمان، رسالة مكتوبة بالحاسب الآلي مقدمة لكلية التربية بالمدينة لإكمال متطلبات الحصول على الماجستير، ١٤٠٩هـ.

- **المصعد الأحمد إلى مسند أحمد.**

لابن الجزري، طبع في مقدمة المسند لأحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٣٧٧هـ.

- **المعجم الأوسط.**

للطبراني، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف بالرياض،

ط١، ١٤٠٥هـ.

- **معرفة الصحابة.**

لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق: عادل العزازي، دار الوطن، ط١، ١٤١٩هـ.

- **مفاتيح الغيب.**

لمحمد بن عمر الرازي، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٥هـ.

- **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة.**

للسيوطي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٧هـ.

- **مقدمة ابن الصلاح.**

تحقيق: بنت الشاطئ، دار المعارف ـ الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

- **المنار المنيف في الصحيح والضعيف.**

لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

- **مناقب الشافعي للبيهقي.**

تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، دون تاريخ.

- **الموطأ.**

لمالك بن أنس، طبع مع شرحه تنوير الحوالك، مصطفى الحلبي،

الطبعة الأخيرة ١٣٧٠هـ.

- **ناسخ الحديث ومنسوخه.**

لعمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين (ت ٣٨٥ هـ) تحقيق: سمير الزهيري، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ.

- **النحو الوافي.**

لعباس حسن ـ دار المعارف بمصر، ط٥، دون تاريخ.

- **النكت على مقدمة ابن الصلاح.**

لمحمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: زين العابدين بن محمد، مكتبة أضواء السلف، ١٤١٩هـ.

- **هدي الساري مقدمة فتح الباري.**

لابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، دون تاريخ.

- **الوصية الكبرى.**

ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة، ١٣٨٥هـ.

- **الوضع في الحديث.**

لعمر بن حسن عثمان فلاتة، مكتبة الغزالي، دمشق، ١٤٠١هـ.

الفهرس

شُبُهَاتُ القُرآنيّين
حَولَ السُّنَّةِ النّبويّةِ

إعداد
أ.د. محمود بن محمّد مزروعة
الأستاذ بكلّية الدّعوة - قسم العقيدة
جامعة أمّ القرى - بمكّة المكرّمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله إلى العالمين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فقد بعث الله -سبحانه وتعالى- محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وأنزل عليه القرآن الكريم، فختم الله -تعالى- به الرسل، وختم برسالته الرسالات، وختم بكتابه الكتب، وجعله مصدقاً لما بين يديه منها، ومهيمناً عليها.

وقد جاء القرآن المجيد مشتملاً على الدين كله، بعضه مفصل والكثير منه مجمل. وقد وكل الله -تعالى- تبيين الكتاب المجيد، وتفصيله إلى رسوله محمد ﷺ، وجاءت سنة رسول الله ﷺ مبينة لما أبهم ومفصلة لما أجمل. يقول الله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ولما كان الكتاب المجيد بحاجة إلى السنة تبينه وتفصله، فقد كانت السنة من وحي الله -تعالى- إلى نبيه ﷺ حتى يكون المبيِّن والمبيَّن من مصدر واحد، وعلى مستوى واحد، وحاشا الله -تعالى- أن ينزل الكتاب وحياً، ثم يترك بيان ما فيه لبشر بعيداً عن الوحي. فإن المبيِّن له نفس أهمية المبيَّن من حيث هو وسيلة الانتفاع به، وسبيل

العمل بمقتضاه، من ذلك كان القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة يصدران من مشكاة واحدة، مشكاة الوحي الإلهي المعصوم. يقول الله -عز وجل- عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤).

ومنذ جاءت الرسالة الخاتمة وأعداء الله لها بالمرصاد. وقد اتخذت العداوة لله ورسوله ولدينه صوراً مختلفة، وتلبَّست أشكالاً عديدة. ونحن نستطيع أن نجمل هذه الصور والأشكال في نوعين اثنين، الأول: أعداء للإسلام أعلنوا عداءهم في وضوح، ونابذوا المسلمين في جلاء. من أمثال الصليبيين والشيوعيين والعلمانيين وأصناف الملاحدة بعامة، الذين أعلنوا عن إلحادهم، وهؤلاء ضررهم قليل، وخطرهم معروف؛ لأن عداءهم معلن، وكفرهم سافر، فالمسلمون منهم على حذر، ومن كيدهم ومكرهم على ترقب وتوجس. أما النوع الثاني: فهم المنافقون الذين يظهرون غير ما يبطنون، يتدثرون بعباءة الإسلام، ويصطنعون الحرص عليه، والدعوة إليه والعمل على وحدة الأمة، وبينما يعلنون ذلك يسعون إلى تحقيق أغراضهم الخبيثة من القضاء على الإسلام عن طريق التشكيك في مصادره الموحى بها من عند الله -عز وجل- وبخاصة السنة النبوية المطهرة. وذلك بإثارة الشبهات ضد سنة رسول الله ﷺ، والزعم بأنها ليست من الدين، ولاصلة لها بالتشريع الإسلامي، ويزعمون أن القرآن هو المصدر الوحيد للشريعة الإسلامية.

وهذه الدعوى قديمة ، والعداء لرسول الله -ﷺ- ولسنته موروث . لكن الجديد هو هذه الفئة من أعداء الله ورسوله والمسلمين ، منكري سنة رسول الله ﷺ التي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الميلادي في بلاد الهند، ثم انتقلت إلى باكستان بعد استقلالها عن الهند، وما تزال. وأعجب أمر هؤلاء أنهم يُنْسَبون إلى القرآن المجيد، فهم يحبون أن يسموا أنفسهم "القرآنيين" نسبة إلى القرآن كتاب الله المجيد ظلماً وزوراً. وقد اختاروا هذه النسبة إيهاماً للناس بأنهم ملتزمون بكتاب الله القرآن. هذا من جانب، ومن جانب آخر يشيرون من طرف خفي إلى أن غيرهم من المسلمين الذين يؤمنون بسنة رسول الله -ﷺ- ويعملون بها ليسوا قرآنيين، وأنهم اشتغلوا بالسنة وتركوا القرآن، -وأيضاً- حتى يجنبوا أنفسهم المؤاخذة، ويقطعوا سبل الاعتراض عليهم، لأنه من ذا الذي يعترض على طائفة أعلنت أنها تنتسب إلى القرآن وتتمسك به ؟.

وليس من المستغرب وجود مثل هذه الطائفة، فأعداء الإسلام كُثُر، ومنكرو السنة مضت بهم القرون جيلاً بعد جيل، وقد أخبر عنهم رسول الله -ﷺ- فعن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله"(١) . لكن

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب رقم ٦، في لزوم السنة (٥ / ١١) والترمذي في كتاب العلم ، باب رقم ١٠ ، ما نُهي عنه أن يقال (٥ / ٣٧).

الغريب من هؤلاء هي تلك الشبهات التي أثاروها ضد سنة رسول الله ﷺ، والتي يزعمون أنها أدلة على أن السنة ليست من الدين ، ولا الدين منها، وقد ملأوا بها مؤلفاتهم -وهي في جملتها باللغة الأردية- وندواتهم ومناظراتهم مع الآخرين .. وقد كان لنا حظ من تلك المناظرات على مدى ثلاث جلسات بيننا وبين "البرويزيين" بمدينة "كراتشي "في عام ١٩٨٣م . وذلك في أثناء عملي أستاذاً بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد بباكستان ..

وشبهاتهم هذه المزعومة هي محل الغاية في هذا البحث الموجز الذي عقدناه لمناقشة هذه الشبهات والرد عليها .

نسأل الله -سبحانه- التوفيق والسداد والمعونة والاحتساب ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المبحث الأول: التعريف بالسنة النبوية

أولاً: السنة في اللغة: هي الطريقة، وهي السيرة حميدة كانت أو غير حميدة. ومن ذلك قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة "[١].. وسنة الله -تعالى- في خلقه حكمه -سبحانه- في خلقه، وما عودهم عليه[٢]. وذلك كقولهم: سنة الله في خلقه أن يمهل العاصي لعلّه يتوب ويرجع.

ثانياً: السنة في الاصطلاح: يختلف معنى السنة في الاصطلاح حسب تخصص المصطلحين وأهدافهم واهتماماتهم. فهناك المحدِّثون، وهناك الأصوليون، وهناك الفقهاء.

أما علماء الحديث أو المحدِّثون فإنما يبحثون في السنة عن رسول الله -ﷺ- الإمام الهادي، النبي الرسول، الذي أخبرنا ربنا - سبحانه وتعالى - أنه أسوتنا وقدوتنا، ومن ثم فقد نقلوا كل ما يتصل به - ﷺ - من أقوال وأفعال وتقريرات، سواء أثبت ذلك حكماً شرعياً أم لم يثبت. كما نقلوا عنه - عليه الصلاة والسلام - أخباره وشمائله وقصصه وصفاته خَلْقاً وخُلُقاً. وهذا ما التأمت عليه كتب الحديث، وأنتجته مجهودات المحدثين. ومن هنا فقد عرفوا السنة بأنها: "كل ما أثر عن النبي -ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خَلْقية أو خُلُقية، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ".

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة وأنواعها ٧/١٠٢ .

(٢) المعجم الوسيط ٤٥٦ وغيره من المعاجم.

وأما علماء الأصول، فإنما يبحثون في السنة عن رسول الله -ﷺ- المشرع الذي يضع القواعد، ويوضح الطريق أمام المجتهدين من بعده، ويبين للناس دستور الحياة، فاهتموا من السنة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته التي تستقى منها الأحكام على أفعال العباد من حيث الوجوب والحرمة والإباحة، وغير ذلك .. ولذلك عرفوا السنة بأنها: "ما نقل عن النبي -ﷺ- من قول أو فعل أو تقرير". مثال القول قوله -عليه الصلاة والسلام-: "إنما الأعمال بالنيات"(١). ومثال الفعل ما نقل إلينا من فعله -صلى الله عليه وسلم- في الصلوات من وقتها وهيئتها ومناسك الحج وغير ذلك. ومثال التقرير إقراره -عليه الصلاة والسلام- لاجتهاد الصحابة في أمر صلاة العصر في غزوة بني قريظة حيث قال لهم: "لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة"(٢)، ففهم بعضهم النهي على ظاهره فأخَّر الصلاة فلم يصلِّها حتى فات وقتها، وفهم بعضهم أن المقصود حث الصحابة على الإسراع، فصلوها في وقتها قبل الوصول إلى بني قريظة. وبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فعل الفريقان فأقرهما جميعا(٣).

---

(١) رواه البخاري، كيف كان بدء الوحي، ١/ ٣٢، مكتبة الكليات الأزهرية ط ١٣٩٨هـ.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ١٥/ ٢٩٤ برقم ٤١١٩ .

(٣) السنة ومكانتها من التشريع، د. مصطفى السباعي: ٤٧، السنة قبل التدوين. د.عجاج الخطيب: ١٦ .

وأما علماء الفقه فيبحثون في السنة عن رسول الله - ﷺ - الذي لا تخرج أقواله وأفعاله عن الدلالة على حكم من الأحكام الشرعية. ومن هنا كانت السنة عندهم هي: "ما أمر به النبي - ﷺ - أمراً غير جازم". أو "ما ثبت عن النبي - ﷺ - من غير افتراض ولا وجوب". أو "ما في فعله ثواب، وفي تركه ملامة وعتاب لا عقاب". وهي تقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة لدى الفقهاء.. وقد تطلق السنة عندهم على ما يقابل البدعة، فيقال: فلان على سنة، إذا كان يعمل على وفق ما كان عليه النبي - ﷺ - ويقال: فلان على بدعة، إذا عمل على خلاف ذلك. ويطلق لفظ السنة عندهم - كذلك - على ما عمل عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - وجد ذلك في القرآن المجيد أو لم يوجد، لكونه اتباعاً لسنة ثبتت عندهم، لم تنقل إلينا، أو اجتهاداً مجتمعاً عليه منهم أو من خلفائهم لقوله - ﷺ -: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ"(١)(٢).

هذه معاني السنة، أو تعريفاتها والمراد بها في مصطلح العلماء، وقد

(١) رواه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٢ / ٣٥٩ برقم ٤٥٨٣، وأحمد ٤ / ١٢٦، والترمذي كتاب العلم باب رقم ١٦، وابن ماجه في المقدمة باب رقم ٦، والدارمي في المقدمة باب ١٦.

(٢) إرشاد الفحول: ٣١، والموافقات: ٣ / ٤، تدوين السنة. د. محمد مطر الزهراني: ١٧، والسنة ومكانتها من التشريع: ٤٩.

تبين لنا أن علماء كل فن أو علم من العلوم لهم اهتمام وعمل في السنة يتناسب مع اهتمامهم، ويحقق ما يهدفون إليه في علومهم، دون أن تتعارض هذه العلوم، فالحق أنها كلها في خدمة السنة النبوية وتيسير التعرف عليها والعمل بها، ومن أشرف أهداف القائمين على هذه العلوم هو جمع السنة النبوية وتمحيصها، وتنقيتها مما قد يكون دخيلاً عليها، ثم الدفاع عنها ضد الشاغبين عليها، المعارضين لها، الساعين إلى طرحها والاقتصار في التشريع الإسلامي على مصدر واحد هو القرآن العظيم.

وإذا كنا قد أشرنا إلى عدد من تعريفات العلماء للسنة النبوية الشريفة، فإن التعريف الذي يتوافق مع بحثنا هذا إنما هو تعريف الأصوليين تحديداً؛ لأنهم الذين يعنون –بالدرجة الأولى– ببيان حجية السنة، ومكانتها من التشريع، وسوق الأدلة على ذلك، وإن كان المحدثون والفقهاء لم يحرموا أجر البحث في هذه الجوانب، ولم يقصروا في بذل المجهود في سبيلها.

المبحث الثاني: مكانة السنة النبوية من التشريع وأدلة حجيتها

أولاً: مكانة السنة النبوية الشريفة من التشريع:

إن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي. وهذه حقيقة لا يعارضها أو يشغب عليها إلا شقيٌّ معادٍ لله ولرسوله وللمؤمنين، مخالف لما أجمعت عليه الأمة سلفاً وخلفاً وحتى قيام الساعة – بحول الله تعالى.

ذلكم أن المقرر لدى الأمة المسلمة أن الوحي المنزل على الرسول –ﷺ– من قبل الله –سبحانه– نوعان، الأول: هو القرآن العظيم، كلام الله سبحانه المنزل على رسوله –ﷺ– بلفظه ومعناه، غير مخلوق، المتعبد بتلاوته، المعجز للخلق، المتحدى بأقصر سورة منه، المحفوظ من الله –تعالى– أن يناله التحريف، المجموع بين دفتي المصحف الشريف .. أما النوع الثاني من الوحي: فهو السنة النبوية المطهرة بأقسامها القولية والفعلية والتقريرية، وسنة رسول الله –ﷺ– هي من وحي الله –عز وجل– إلى رسوله –ﷺ– باتفاق الأمة المسلمة، وذلك لما قام الدليل من كتاب الله –تعالى– على ذلك في آيات كثيرة، ثم لما صرحت به السنة النبوية، ثم لما أجمع عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم إلى يوم الدين – بحول الله تعالى.

وإذا كان الشاغبون على سنة رسول الله –ﷺ– يزعمون أنهم

يستمسكون بالقرآن المجيد مكتفين به عن السنة ؛ فلنذكر بعض ما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات التي تشهد وتصرح بأن السنة وحي من عند الله – سبحانه – إلى رسوله –ﷺ– ثم الآيات التي تصرح بوجوب طاعته – صلى الله عليه وسلم – ووجوب حبه، ووجوب اتباعه، ووجوب الاحتكام إليه والتسليم له في كل ما يحكم به، لنا كان الحكم أو علينا، إلى غير ذلك.

فمن الآيات القرآنية التي تدل على أن السنة وحي قول الله – عز وجل–: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم : ٣ – ٤) وهذه الآية نص قاطع في أن الرسول –ﷺ– لا يأتي بشيء من عنده، وأن كل ما ينطق به في مجال التشريع إنما هو وحيٌ من عند الله – تعالى –، سواء كان وحياً من النوع الأول وهو القرآن، أو من النوع الثاني وهو السنة النبوية.

ومن ذلك – أيضاً – قوله – تبارك وتعالى – ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) . وهذه الآية الكريمة لعلها استجابة من الله – تعالى – للدعاء الذي توجه به إبراهيم وإسماعيل – على نبينا وعليهما الصلاة والسلام – إليه – تعالى – حين كانا يرفعان القواعد من البيت.

وهذا الدعاء ذكره الله في القرآن الكريم في قوله –سبحانه وتعالى–:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٩).

فهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل - على نبينا وعليهما الصلاة والسلام - لقي القبول عند الله - سبحانه - فكان من قدره - عز وجل - أن جعل من ذريتهما تلك الأمة المسلمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، ثم بعث فيها رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وقد ذهب أهل العلم والتحقيق إلى أن المراد بالحكمة إنما هو السنّة النبوية، فإن الله - تعالى - قد مَنَّ على المؤمنين بإرسال الرسول -ﷺ- الذي جعل رأس رسالته أن يعلم أمته المؤمنة شيئين: الكتاب والحكمة. ولا يجوز أن تكون الحكمة هي الكتاب، فإنها معطوفة عليه، والعطف يقتضي المغايرة، ولا يجوز أن تكون شيئاً آخر غير السنة، فإنها عطفت على الكتاب، فهي من جنسه في المصدر والغاية. وقد منَّ الله -تعالى- بهما على المؤمنين، ولا يمنّ الله - تعالى - إلا بما هو حق وصدق، فالحكمة حق كما أن القرآن حق. وهذه الآية واضحة الدلالة على أن السنة من وحي الله - تعالى - على نبيه -ﷺ-.

يقول الشافعي -رحمه الله تعالى-: "فذكر الله الكتاب وهو

القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت مَن أرضى مِن أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا يشبه ما قال – والله أعلم – لأن القرآن ذُكر، وأُتْبِعَتْه الحكمة، وذكر الله منَّه على الخلق بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز – والله أعلم – أن يقال الحكمة هنا إلا سنّة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك أنها مقرونة بالكتاب، وأن الله افترض طاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول فرض إلا لكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم .... "[1].

ومن الآيات التي تقطع بأن السنة وحي من عند الله – تعالى – وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق فيما يتصل بالتشريع إلا بما يوحي الله – تعالى – إليه، قوله – سبحانه – في شأن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

فهذه الآيات تدل بوضوح شديد على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول شيئاً، فيما يتصل بالدين، إلا بما يوحي إليه الله به، وكذلك لا يفعل، فإن القول أعم من الفعل ودليله. ولو أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال شيئاً في الدين لم يوح الله – تعالى – به إليه، لأهلكه الله – تعالى – وما من أحد بقادر على أن يمنع الله

---

(١) الرسالة: ٧٨. وراجع في ذلك السنة ومكانتها من التشريع. د. مصطفى السباعي: ٥٠.

– سبحانه – من إهلاكه آنئذ، وهذا وعيد من الله – تعالى – ووعد، وعيد لنبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يتقول عليه ما لم يوح به إليه – وحاشاه – صلى الله عليه وسلم – أن يفعل ذلك، ووعد للمؤمنين بأنه – تعالى – حافظٌ دينَه من أن يدخل إليه أو يختلط به ما ليس منه على لسان نبيه، وهذه الآيات تعد – في الوقت ذاته – أمراً من الله – تعالى – جازماً لأمته أن يؤمنوا ويوقنوا ويسلموا لكل ما يأتيهم به النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث إن الله – عز وجل– ضمن لهم أن نبيه لن يتقوَّل عليهم، وأن كل ما ينطق به النبي –صلى الله عليه وسلم– قولاً، أو يأتيه فعلاً إنما هو من وحي الله – تعالى – إليه. يقول العلماء : لقد أخبر الله – عز وجل – بأن رسوله – صلى الله عليه وسلم – لو تقوَّل في الدين قولاً لم يوح – الله تعالى – به إليه لأهلكه الله – سبحانه – وحيث إن الله – تعالى – لم يهلك نبيه، فلم يأخذ منه باليمين، ولم يقطع منه الوتين – نياط القلب – بل سانده وأعانه، وأيده ونصره، وأظهره على أعدائه هو وأصحابه الذين آمنوا به واتبعوه، فإن ذلك دليل قاطع على أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يقل أو يفعل أو يقر شيئاً إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى[1].

ومن الآيات التي تدل على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول أو يفعل شيئاً في الدين إلا بوحي من عند الله – عز وجل – قول الله

---

(١) يرجع في تفسير هذه الآيات إلى التفاسير المعروفة وبخاصة: الزمخشري، والرازي، والقرطبي.

– سبحانه – مخبراً عن رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

فالآية أسندت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام إليه – صلى الله عليه وسلم – مباشرة دون أن تقيد ذلك بكونه قرآناً أو سنة، والإطلاق العام هنا يشمل جميع ما يحله ويحرمه – صلى الله عليه وسلم – أعم من أن يكون ذلك بالقرآن أو بالسنة، فبان من ذلك أن ما يحل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يحرم بسنته هو مثل ما يحرم بقرآن الله – تعالى – كلاهما وحي من عند الله سبحانه.

ومن الآيات التي تدل على أن السنة وحي من عند الله – سبحانه – وتنص على أن ما يحرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بسنته مثل ما يحرم بالكتاب المجيد، كلاهما من عند الله – تعالى – قول الله –عز وجل–: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩). فهذه الآية الكريمة ذكرت نوعين من المحرمات: ما حرم الله – تعالى– وما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وجمعت بين الأمرين في جملة واحدة عاطفة

ما حرم رسول الله على ما حرم الله، وذلك يدل بوضوح على أمرين، الأول : أن ما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو مثل ما حرم الله، وأن الأمرين على منزلة واحدة من حجية التشريع وحكمه، وأن ما شرع الله – تعالى – في كتابه هو مثل ما شرع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في سنته.. الثاني : أن ما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سنته هو وحي من عند الله – تعالى – كمثل ما حرم الله – تعالى – في كتابه، فكلا التشريعين وحي من عند الله سبحانه.

ولعل ما ذكرناه كاف في بيان ما قصدنا إليه من الاستدلال بآيات القرآن المجيد على أن السنة وحي من عند الله – تعالى – كما أن القرآن وحي، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق عن الهوى. ومن ثم ننتقل إلى ما يترتب على أن السنة وحي من عند الله –تعالى، نقصد الآيات القرآنية التي توجب وتأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتجعل طاعته – صلى الله عليه وسلم – فيما يأمر وما ينهى فيصلاً بين الإيمان والكفر، والنجاة والهلاك. قد قلنا إن ذلك مرتب على ما سبق بيانه في الفقرة السابقة من أن السنة وحي من عند الله – تعالى – إذ لو لم تكن كذلك، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينطق عن الهوى – حاشاه – لما أمرنا الله – تعالى – باتباعه وطاعته في كل ما يأمر وما ينهى، كما سيتبين لنا من الآيات الدالة على ذلك – بحول الله تعالى –.

وإن الناظر في كتاب الله المجيد يراه قد أمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في آيات كثيرة وبصيغ متنوعة عديدة.

من هذه الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما هو قاعدة عامة في رسل الله أجمعين، وخاتمهم محمد – صلوات الله على نبينا وعليهم – وذلك قول الله – عز وجل –: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... ﴾ (النساء: ٦٤).

فثمرة إرسال الرسل – صلوات الله عليهم أجمعين – إنما تنحصر في أن يطاعوا، وطاعتهم إنما هي بإذن الله سبحانه وأمره، فالشاغب عليهم، التارك لسنتهم، الرافض لأوامرهم ونواهيهم، إنما هو محارب لله – سبحانه – ناقض لإذنه، فاسق عن أمره.

ومن ذلك ما هو قاعدة لرسولنا – صلى الله عليه وسلم – شاملة لكل ما يأخذ وما يدع، وما يأمر وما ينهى.

وذلك قول الله –عز وجل–: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر: ٧).

فهذه الآية تأمر المؤمنين بأن يأخذوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كل ما يأتيهم به، يستوي في ذلك ما كان قرآناً أو سنة، وكذلك أن ينتهوا عن كل ما نهاهم عنه، ثم توعدت المخالفين لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالعقاب الشديد.

ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما جاء فيها الأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقروناً بطاعة الله – سبحانه – مع تكرار فعل "أطيعوا" . ومن ذلك قول الله – عز وجل – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (محمد : ٣٣) .

ومن ذلك ما جاء فيه الأمر بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقروناً بطاعة الله – تعالى – دون تكرار الفعل " أطيعوا " مما يدل بشكل قاطع على أن طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هي من طاعة الله – سبحانه –، وأنه لا يحل التفريق بين طاعة الله – تعالى – وطاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم– ومن ذلك قول الله – سبحانه– : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٣٢) . وواضح من النص الكريم أن الذي يتولى عن طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو من الكافرين.

ومن الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما جاء فيه الأمر بطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ابتداء، دون أن يسبقه الأمر بطاعة الله – سبحانه –، وذلك يبين أن طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – هي في الوقت نفسه طاعة لله – تعالى – وأن طاعة الرسول وحدها مقياس لطاعة الله – عز وجل – ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (النور : ٥٦) .

ومن علامات طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واتباعه الأخذ عنه، والاحتكام إليه، وتحكيمه في كل ما يعرض لنا من شؤون الحياة، ثم الرضا بما يحكم به، والإذعان والتسليم له – صلى الله عليه وسلم – وقد جعل الله – سبحانه – ذلك من علامات الإيمان، وجعل نفي ذلك وعدم الاتصاف به من علامات الخلو من الإيمان، أي علامات الكفر، يقول الله –عز وجل–: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

ولأن الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والرضا والإذعان والتسليم له بكل ما يأمر به أو ينهى من علامات الإيمان ؛ فقد كان رفض ذلك والإعراض عنه من علامات النفاق والكفر، مهما قال أولئك المعرضون أو زعموا أنهم مؤمنون. يقول الله –عز وجل– حكاية عن بعض هؤلاء : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٤٧–٥٢). فهذه الآيات الكريمة تتكلم على موقف المنافقين من الاحتكام إلى الله ورسوله، وتكشف عن زيف ما يزعمون من الإيمان بالله ورسوله، وأن

ذلك نفاق وكفر، وتبين عن دليل ذلك وهو الإعراض عن الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والرضا بحكمه، ثم تكشف عن دخائل نفوسهم من عدم الإيمان بالله والاطمئنان إلى حكم رسوله، ثم تبين – بالمقابل – موقف المؤمنين وهو السمع والطاعة لله ورسوله، ثم تختم المقام بأن الفوز والنجاة إنما هما لمن يطيع الله ورسوله.

من كل هذا الذي ذكرنا من الآيات القرآنية التي تنص بأسلوب قاطع على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق إلا عن وحي من الله – تعالى – ولا يقول في الدين إلا بما يوحي به الله – تعالى – إليه. وبأن طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرض على كل مؤمن، وأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، وبأن الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– والرضا والتسليم له، والأخذ عنه آية الإيمان. نقول: من كل هذا تتضح مكانة السنة النبوية من التشريع الإسلامي، وتتضح حجيتها، وأنها من حيث الحجية هي في منزلة القرآن المجيد، ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا نجعل السنة بمنزلة القرآن في المكانة والشرف، فهذا مما لا يقول به مسلم، فلا ريب أن القرآن يفضل السنة بأمور اتفقت عليها الأمة نشير إلى أهمها – بإيجاز –:

١– القرآن الكريم موحى به من الله – عز وجل – بلفظه ومعناه، فهو قول الله – سبحانه – أما السنة فهي قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – وفعله وتقريره.

٢- القرآن المجيد تكفل الله - تعالى - بحفظه، وليس ذلك للسنة.

٣- القرآن العظيم يتعبد بتلاوته، وليس ذلك للسنة.

٤- القرآن العظيم معجز للبشر، وترتب على ذلك أن الله -تعالى- تحدى البشر، بل والجن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، والسنة ليست كذلك.

٥- لا تجوز روايته بالمعنى، ويجوز ذلك في السنة بضوابطه.

٦- لا يجوز أن يمسه إلا المطهرون، وليس ذلك للسنة.

٧- القرآن هو المجموع بين دفتي المصحف الشريف، والسنة موزعة في كتب ودواوين.

فهذه أمور يفضل القرآن فيها السنة، فهو لذلك أشرف منها وأرفع منزلة وقداسة، لكن كلامنا في مجال الاحتجاج بالسنة في أمور الدين وقضايا التشريع، ولا ريب أنها في هذا في منزلة مع القرآن، فكما يقال: الصلاة واجبة بقول الله - عز وجل -: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾ (النور: ٥٦) فكذلك يقال صلاة الصبح ركعتان والظهر والعصر أربع والمغرب ثلاث والعشاء أربع. والدليل فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمثال هنا يوضح أن كلا الدليلين على مستوى واحد في إفادة العلم وإيجاب العمل.

ولهذا المعنى فقد ذهب جلّة العلماء إلى التسوية بين كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - من حيث الحجية

على الأحكام، ومن ذلك أن الخطيب البغدادي قد عنون في كتابه "الكفاية" لهذا الموضوع بقوله: (ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله – تعالى – وحكم سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –) يشير بهذا العنوان إلى أن القرآن والسنة متساويان في مرتبة واحدة من حيث الحجية في إثبات الأحكام الشرعية. وقد قال الدكتور عبد الغني عبد الخالق في كتابه "حجية السنة": إن السنة والكتاب في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية، ولبيان ذلك نقول: من المعلوم أنه لا نزاع في أن الكتاب يمتاز عن السنة ويفضل عنها في أن لفظه منزل من عند الله –سبحانه وتعالى– متعبد بتلاوته، معجز للبشر أن يأتوا بمثله، بخلافها، فهي متأخرة عنه في الفضل من هذه النواحي، لكن ذلك لا يوجب التفضيل بينهما في الحجية، بأن تكون مرتبة السنة متأخرة عن الكتاب، ويعمل به وحده، وإنما كان الأمر كذلك –أي مماثلة السنة للكتاب في مرتبة الحجية– لأن حجية الكتاب إنما جاءت من كونه وحياً من عند الله –سبحانه–، والسنة مساوية للقرآن من هذه الناحية فهي مثله"(١).

مما تقدم من حديث عن حجية السنة ومكانتها من التشريع تتضح لنا الأمور الآتية:

أولاً: أن الوحي من عند الله –تعالى– إلى رسوله –صلى الله عليه وسلم–

---

(١) الكفاية للخطيب البغدادي: ٢٩، وانظر: بحوث في السنة المشرفة. د. عبدالغني عبدالخالق. نقلاً عن: تدوين السنة النبوية. د. محمد مطر الزهراني: ١٨ .

وحيان؛ وحي هو القرآن المجيد، ووحي هو السنة النبوية الشريفة، وقد ذكرنا الأدلة على ذلك من آيات القرآن البينات، كما بينا الفروق بين الوحيين، أي بين القرآن والسنة.

ثانياً: أن السنة النبوية المطهرة تأتي في المنزلة الثانية بعد القرآن العظيم في مصدرية التشريع، فهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم. أما من حيث الحجية فهي مع القرآن بمنزلة واحدة. بمعنى أن دليل التشريع من السنة يعدل دليل التشريع من القرآن، فكلاهما مفيد للعلم، موجب للعمل بمقتضاه، على أي نوع من الأحكام الخمسة كان العمل.

ثالثاً: أن من رفض سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو شغب عليها، أو رفض أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو نهيه، أو رفض الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يعرض له أو لم يقبل حكمه، كل من يفعل ذلك أو شيئاً منه يُعَدُّ فاسقاً عن الملة غير مؤمن، فإن الله – تعالى – قد جعل كل ذلك علامة الإيمان، ورفض ذلك أو شيء منه، آية الكفر والنفاق، وذلك في آياته البينات.

رابعاً: لقد اعتمدنا في بيان ما قدمنا على كتاب الله القرآن المجيد وحده، ولم نتكلم في السنة المطهرة أو آثار الصحابة وإجماع الأمة؛ ذلك أن هؤلاء الذين نخاطبهم في بحثنا هذا يزعمون أنهم "قرآنيون" لا يأخذون إلا عن القرآن، فآثرنا أن نخاطبهم بالقرآن الكريم، لكنا بحول الله –سبحانه– سوف نوفِّي الموضوع حقه من خلال أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– وآثار الصحابة وإجماع الأمة، حين الرد على شبهاتهم، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

المبحث الثالث: الجذور التاريخية لمنكري السنة وأشهر طوائفهم

إن تاريخ منكري سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكاد يقرن بتاريخ منكري رسالته – صلى الله عليه وسلم –، فالكفر بسنته – عليه الصلاة والسلام – هو قرين الكفر برسالته، فهما أمران متقاربان زماناً متساوقان منزلة، ويكادان يكونان متماثلين حكماً، ولا يختلفان إلا باعتبار أن ثمة كفراً دون كفر، وإلا فإنكار سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجحدها كفر، كما أن إنكار رسالته كفر.

ومن المسلم به أنه لم يخل زمان من الأمرين جميعاً كذلك، فكما أنه لم يخل زمان من منكري رسالة رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فكذلك لم يخل زمان من منكري سنته – صلى الله عليه وسلم – مع زعمهم بأنهم مسلمون مؤمنون برسالته، والأخيرة هذه هي مثار العجب؛ إذ كيف يكونون مؤمنين برسالته – صلى الله عليه وسلم – ثم ينكرون سنته، ويرفضون اتباعه، ويصرون على عدم الأخذ عنه، والاحتكام إليه، والتسليم له ويقبلون على مخالفته في كل ما قال وفعل وأقر، فيقولون ما لم يقل، ويفعلون ما لم يفعل، ويرفضون ما أقرَّه ورضي به.

ولقد بدأت مسيرة إنكار السنة والشغب عليها على هيئة فردية في حالات نادرة لا اعتبار بها. وكان ذلك في حياة رسول الله –صلى الله

عليه وسلم- ومن ذلك ما روى أصحاب السنن في أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥). من أن الزبير بن العوام – رضي الله عنه – اختصم ورجل من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعله حاطب بن أبي بلتعة، رضي الله عنه – فحكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للزبير أن يسقي زرعه أولاً، ثم يرسل الماء إلى صاحبه، فغضب الرجل وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك؟ أي حكمت له بسبب أنه ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنزل الله – تعالى – الآية في ذلك[1].

لكن هذه الحالات شاذة ولا تذكر في معرض التأريخ لمنكري سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك لأمرين: لشذوذها وندرتها، ثم لعودة أصحابها إلى الحق سريعاً وانقضاء أثرها.

أما إنكار السنة على هيئة مؤثرة، وعلى أيدي طوائف لها ذكرها في التاريخ؛ فقد بدأت على أيدي الخوارج والشيعة، ثم انضم إليهم طوائف من المتكلمين وبخاصة من المعتزلة الذين انتسب إليهم كثير من الزنادقة والفاسقين عن الملة، كالنظّام الذي كان "شاطراً من الشطار، يغدو على سكر ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها، ويدخل في

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٧ / ١٢٠، برقم ٤٥٨٥ .

الأدناس والفواحش، وهو القائل:

ما زلت آخذ روح الزق في لطف　　　وأستبيح دماً من غير مجروح

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي　　　والزق مطَّرَح جسماً بلا روح(١)

أما الشيعة والخوارج فكلتا الطائفتين شغبت على السنة النبوية المطهرة وأنكرتها، لكن الشيعة لم يقبلوا من سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا القليل الذي نُقل إليهم عن طريق من يدين بعقيدتهم في الإمامة ويشايع آل البيت – فيما يزعمون – ولو أننا عرفنا أنهم لم يوالوا من الصحابة – رضوان الله عليهم – إلا بضعة عشر صحابياً هم فقط الذين رضي عنهم الشيعة وأخذوا عنهم، لأدركنا ذلك القدر الضئيل من سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي قبله الشيعة (الرافضة) وعملوا به، وذلك القَدْر الهائل من السنة النبوية التي رفضوها وأنكروها لأنها أتت عن جمهرة الصحابة الذين لا يرضى عنهم الشيعة، فالشيعة – إذن – رفضوا السنة لأنهم طعنوا في عدالة الصحابة –رضوان الله عليهم– لأنهم بايعوا أبا بكر –رضي الله عنه– خليفة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يبايعوا عليّاً الذي كان هو الخليفة من وجهة أنظار الشيعة، والشيعة منهم معتدل وغال، فالمعتدلون فسَّقوا الصحابة – رضي الله عنهم – والغالون كفروهم –عياذاً بالله– ولم يستثن الشيعة من ذلك سوى عدد يزيد قليلاً على أصابع اليدين .. على أن الشيعة (الرافضة) أضافوا إلى إنكارهم السنة

(١) تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة : ١٥ .

– على الوضع الذي ذكرناه – إضافة جديدة جعل جرمهم في هذا الباب مضاعفاً، ذلك أنهم لم يكتفوا بإنكار الحديث ورفض السنة، وإنما لجأوا إلى وَضع ما أسموه أحاديث، ونسبوها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فألَّفوا كلاماً على هيئة أحاديث –الرسول صلى الله عليه وسلم– في تعظيم أئمتهم، وتأكيد نحلتهم، وتأصيل معتقدهم، وأيضاً في ذم مخالفيهم وعقائدهم. وقد كان لهذه الأحاديث المزعومة الموضوعة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دور أصيل في حجية التشريع وأصول الدين عندهم.

أما الخوارج فقد طعنوا في الصحابة – رضوان الله عليهم – بعد واقعة التحكيم الشهيرة أثناء الحرب بين علي ومعاوية – رضي الله عنهما – وبسبب واقعة التحكيم طعن الخوارج في عدالة الصحابة – رضي الله عنهم – فمن الخوارج مَنْ فَسَّقهم، وهم قلة لا تذكر، والأكثرون من طوائف الخوارج كفَّروا الصحابة – عياذاً بالله – بل منهم من جعلهم كالمشركين في الحرب والسبي وعدم قبول الجزية .. إلى آخر تلك الآراء التي تدل على انحراف حاد عن جادة الإسلام، وقد دفع بهم إنكار السنة والرغبة الملحة عندهم في مخالفة جماعة المسلمين إلى العدوة القصوى بعيداً عن الإسلام، فافتروا على الله ورسوله وجماعة المسلمين، وتباروا في تكفير الأمة بأنواع من الكفر ؛ فجمهرتهم يرون أن دار مخالفيهم دار حرب، يقتل فيها النساء والأطفال وأن جميع المسلمين كفار مثل كفار العرب، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل.

أما في الأحكام فقد أنكروا الرجم في الزاني المحصن لأنه ليس في القرآن، وأقاموا حد السرقة ولم يلتزموا ما ورد في السنة وإجماع الأمة بالحرز في السرقة ونصابها وكذلك قطع اليد من الرسغ، كما استحلوا كفر الأمانة التي أمر الله – تعالى – بأدائها وزعموا أن المسلمين مشركون يحل أكل أماناتهم، وأجاز فريق منهم – الميمونية – نكاح بنت البنت، وبنت الابن؛ لأن القرآن لم يذكرهن ضمن المحرمات ... إلى غير ذلك من أنواع الضلال والزيغ الذي وقعوا فيه في أصول الدين، وفي أحكام الشريعة بسبب أنهم رفضوا السنة النبوية المطهرة، وزعموا أنهم يأخذون أحكامهم وقضايا دينهم عن القرآن، وما علموا أنهم نابذوا القرآن ونبذوه يوم نبذوا السنة واتخذوها ظهرياً، يقول عبد القاهر البغدادي عن الخوارج إنهم: "أنكروا حجية الإجماع والسنن الشرعية، وأنه لا حجة في شيء من أحكام الشريعة إلا من القرآن، ولذلك أنكروا الرجم والمسح على الخفين لأنهما ليسا في القرآن، وقطعوا يد السارق في القليل والكثير لأن الأمر بالقطع في القرآن مطلق، ولم يقبلوا الرواية في نصاب القطع ولا الرواية في اعتبار الحرز فيه"[1].

فهؤلاء وأولئك – الخوارج والشيعة – رفضوا سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لطعنهم في الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ومن المعلوم أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما وصلت إلينا من خلال الصحابة – رضوان الله عليهم – بل إن الدين كله وصل إلينا

(١) راجع في ذلك: أصول الدين: ١٩، الفرق بين الفرق، مقالات الإسلاميين، الملل والنحل.

من خلالهم، فهم الطبقة المعاصرة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– زماناً، المطلعة على أحواله قولاً وفعلاً، الحريصة على أن تحفظ عنه كل حركة وسكنة، وأن تنقل عنه كل لفظة وسكتة، الأمينة في وصف أحواله – صلى الله عليه وسلم – صغيرها وكبيرها، والصحابة –رضوان الله عليهم– هم الذين نقلوا إلينا أحوال النبي – صلى الله عليه وسلم – كافة لم يخرموا منها شيئاً، حتى صرنا بفضلهم –جزاهم الله عن الأمة خيراً– كأننا نعايشه في أحواله – صلى الله عليه وسلم – كافة، ونعاين هيئاته كافة، فهم –رضوان الله عليهم– الذين نقلوا إلينا الدين كاملاً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذي تلقاه عن ربه وحياً في القرآن أو في السنة، فإذا جاء من الطوائف والفرق من يرفض الأخذ عنهم مستنداً إلى ما يزعمه من أنهم ليسوا عدولاً ؛ فعن من يأخذ دينه، وأنى له أن يعرف شرائع الإسلام ؟ ومن أين سيأخذ أحكام الدين في الصلاة وهيئاتها، والزكاة ومقاديرها، والصيام وأحكامه، والحج ومناسكه؟ ثم من أين له أن يعرف ما يحل وما يحرم، وما يأخذ أو يدع في شؤون الحياة جميعها، ثم أين نجد كل هذا في القرآن المجيد ؟ وأين يجده هؤلاء الذين يزعمون أنهم يكتفون بالقرآن وحده دون السنة النبوية المشرفة ؟

إن رفضهم السنة النبوية كان له الأثر الذي أشرنا إلى بعضه من خروجهم على الدين وابتداعهم فيه ما ليس منه، واعتناقهم عقائد، ومزاولتهم شرائع لا تمت إلى الإسلام، بل تناقض الإسلام وتعارضه، وقد

انتهى بهم الأمر إلى أن نقضوا عرى الإسلام ، وكفروا الأمة المسلمة، وما كفرت الأمة ولكن الظالمين كفروا، يهدمون الدين بحجة الحرص عليه، ويكفرون بالقرآن وهم يزعمون الاستمساك به والاعتماد عليه، فأين منهم آياته البينات التي تأمر بطاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والأخذ عنه والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه ؟ بل أين منهم آياته البينات التي تنص على أنه - صلى الله عليه وسلم - لا ينطق عن الهوى، وأن سنته وحي من عند الله - تعالى - وأين من هؤلاء الذين يخالفون عن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله تعالى محذراً إياهم ومن على شاكلتهم : ﴿ ... فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٤).

هكذا بدأت مسيرة إنكار سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والشغب عليها ورفض عدِّها مصدراً تشريعياً كالقرآن، والخروج على طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدأت مسيرة الضلال هذه على أيدي الخوارج والشيعة (الرافضة)، ثم تلقفها منهم وسار على ضلالهم طوائف من المتكلمين وأشهرهم في هذا الباب المعتزلة، ثم استمرت مسيرة الضلال يسلمها ضال إلى ضال، ويأخذها ضال عن ضال، وقد افترقوا في ضلالهم إلى مذاهب وطوائف، فطائفة تنكر السنة النبوية المطهرة بجملتها، ما كان منها قولاً، وما كان عملاً، وما كان تقريراً، ويعدُّون أقواله - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله مثل أقوال الناس وأفعالهم لا صلة لها بالدين من قريب أو من بعيد.

وطائفة تأخذ من السنة بما كان عملاً وتطرح ما كان قولاً، دون تمييز أو سند من شرع أو عقل يسوغ هذه التفرقة، فإن صاحب العمل هو نفسه صاحب القول – صلى الله عليه وسلم–. وطائفة ثالثة هي أقل الطوائف جرماً في هذا الباب، ولكنها أعمها وأطمها وأكثرها عدداً، وما ذهبت إليه أعظم شيوعاً وذيوعاً، ذلكم الذين يقولون لا نأخذ من سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلا بما تواتر قولاً وعملاً، أما خبر الواحد فلا يأخذون به ولا يعتبرونه، ومن هؤلاء من يرفضه جملة، ومنهم من يرفضه في العقائد.

وقد ظلت مسيرة الضلال هذه تنتقل عبر التاريخ بطوائفها المختلفة وعلى مستوى الأمة المسلمة شرقاً وغرباً، حتى كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث نبتت نابتة سوء بين المسلمين في بلاد الهند، وذلك بنشأة ما سمي بطائفة "القرآنيون" تلك الطائفة التي زعمت الاعتماد على القرآن وحده، وطرح السنة النبوية المطهرة، وأخذت تدعو إلى نحلتها بهمة ونشاط تحت رعاية الاستعمار الإنجليزي، ثم انتقلت من الهند إلى باكستان – بعد التقسيم – تحت مسمى "البرويزيين" وهذه الطائفة هي موضوع بحثنا هذا، وسوف نبين بشيء من التفصيل تاريخ نشأتهم وأهم رؤسائهم على الصفحات التالية بحول الله تعالى.

المبحث الرابع: التعريف بطائفة القرآنيين، وعوامل نشأتهم

وضع الإنجليز أيديهم على شبه القارة الهندية، ودانت لهم طوائفها وفرقها من الهندوس والبوذيين والجينيين وغيرهم ممن يدينون بغير الإسلام. أما المسلمون الذين كانوا يمثلون قلة في الهند فلم يسلس قيادهم للإنجليز المستعمرين، ولم يهادنوهم يوماً، وذلك انطلاقاً من الإسلام الذي يمنع المسلم من الخضوع والإذعان لحاكم غير مسلم يلي أمر المسلمين بالقوة والجبروت. لذلك كان المسلمون بالهند يمثلون للإنجليز المستعمرين قلقاً وإزعاجاً بل يمثلون خطورة على سلطتهم وبقائهم في تلك البلاد، وكان المسلمون لا يفتأون يلبون داعي الجهاد ضد الإنجليز، ويقومون بالثورات العديدة التي كان أشهرها ثورة مايو من عام سبعة وخمسين وثمانمائة وألف للميلاد.

وقد كان الإنجليز بالمقابل يمقتون المسلمين فوق مقتهم الطوائف الأخرى، وقد كانوا يدبرون المؤامرات والمكايد ضد الإسلام والمسلمين في تلك البقاع، ورغم خطط ومؤامرات الإنجليز الكثيرة ضد المسلمين، إلا أنهم تميزوا بخطة معينة أحكموها وبرعوا فيها، وقد حققت لهم أغراضهم وأهدافهم من تفريق صفوف المسلمين، وإضعاف شوكتهم، وبث النزاع بين طوائفهم. وكانت خطتهم تلك تقوم على أن يستقطبوا أشخاصاً من المسلمين، يرون فيهم قبولاً لبيع دينهم وأمتهم

مقابل السلطة والمال، فيجندونهم للعمل ضد الإسلام والمسلمين، وكانت خطتهم التي يرسمونها لعملائهم واحدة، حيث يبدأ هؤلاء العملاء بالتظاهر بالإسلام، والحرص عليه، والدعوة إليه، والكتابة فيه، حتى إذ اشتهر أمرهم، والتف الناس حولهم. بدؤوا ينفذون خطة الإنجليز، التي رسموها لهم، وبدؤوا ببذر بذور الشك في عقيدة الإسلام، ثم في شريعته، ثم – وتحت دعواهم الحرص على الإسلام – يبثون سمومهم، فمنهم من يدعي النبوة مثل: "ميرزا غلام أحمد القادياني" – لعنه الله –، ومنهم من يدعي حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيخلع على النبي – بهذه الحجة – بعض صفات الله سبحانه، وذلك مثل "أحمد رضا خان"، ومنهم من يدعي أنه مجدد القرن مثل: "أحمد خان" الذي أخلص للإنجليز إلى حد أن باع دينه، وضحى بأمته في مقابل ولائه المطلق للإنجليز..

وفيما يلي سنذكر أهم رجالات القرآنيين في الهند، مع ذكر نبذة عن تاريخ كل منهم، وأهم آرائه.

أولاً: السيد أحمد خان:

يبدأ تاريخ منكري السنة في شبه القارة الهندية في العصر الحديث بهذا الرجل: "سير أحمد خان" أو "السيد أحمد خان"، بل إن تاريخ الكثير من صور الخيانة للإسلام والمسلمين، وابتداع الآراء الشاذة المخالفة لما عليه القرآن والسنة وإجماع الأمة، مما كان سبباً في تفريق الأمة،

وتشتيت جهودها ضد الإنجليز أعداء الإسلام، يرجع إلى هذا الرجل "السيد أحمد خان"[1] وبالتالي؛ يرجع إليه حركات ممالأة المستعمر الإنجليزي، ومهادنته، بل معاونته وموالاته، والدعوة إلى السير في ركابه والاغتراف من ثقافته، والتمثل به في الشؤون الحياتية كافة، يرجع كل هذا إلى هذا الرجل الذي قضى حياته في خدمة الإنجليز، والدعوة إلى مسالمتهم ومعاونتهم، وقد اقتدى به الكثيرون في ذلك مما جعل محنة الأمة بهذا الرجل أعم وأطم.

وفيما يتصل بموضوعنا ؛ فقد كان هذا الرجل مكثراً من الكتابة والتأليف، وكان من تأليفه ما أسماه تفسيراً للقرآن، وقد نهج في تفسيره نهجاً يخالف القرآن نفسه والسنة وإجماع الأمة، ويخالف المنهج العلمي في أبسط صوره، حيث اعتمد في تفسيره القرآن على عقله وهواه الذي يتحكم في عقله، وجاء بسبب ذلك بآراء خالف بها مُسَلَّمات الدين، وعقائده وشرائعه، وبذلك خرج على إجماع الأمة، بل اعتمد في تفسيره أسلوباً خالف فيه أساليب اللغة التي نزل بها

(١) هو السيد أحمد خان بن أحمد مير المتقى بن عماد الحسيني، ولد في مدينة دهلي في أكتوبر ١٨١٧م. بدأ دراسته بالقرآن الكريم، ثم تعلم العربية والفارسية، ثم درس العلوم الدينية، وعندما توفي والده، وكان في الحادية والعشرين من عمره التحق للعمل بشركة الهند الشرقية، وكان ذلك بداية اتصاله بالإنجليز الذين أعجبوا بذكائه وطموحه، ورأوا فيه ضالتهم التي يبحثون عنها. ومنذ اللحظة الأولى أعلن ولاءه لسادته الإنجليز، ومن ثم رفعوه إلى درجة مساعد قاض في المحاكم الإنجليزية، وأغدقوا عليه المال والحماية، وقد عرف هو فضلهم عليه فتفانى في خدمتهم ومعاونتهم، والدفاع عن سياستهم الاستعمارية، ووقف معهم صفاً واحداً ضد أمته ودينه، إلى حد أنه وضع كتاباً عن ثورة =

القرآن، ولم يعبأ بدلالات الألفاظ، بل أخضع كل ذلك لهواه وأغراضه من إفساد الدين، وإبطال الشرع، ومن ذلك أنه أنكر الغيب ومنه الملائكة والجن والشياطين، وفي سبيل إنكارها تأول الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الملائكة والجن والشياطين، فأوَّل الملائكة بأنها عناصر الطبيعة وقواها من ريح ومطر وبراكين .. وأوَّل الجن بأنهم سكان الغابات والصحاري والذين يزاولون أنشطتهم في ظلام الليل فلا يراهم أحد، كما أوَّل الشياطين بأن المراد بها شهوات النفس وأهواؤها، وكان اعتماده هذا المنهج الذي يخالف أساليب اللغة العربية ودلالات ألفاظها قائماً على أساس جرم آخر ارتكبه في حق الدين، وهو زعمه أن القرآن العظيم لم ينزل على رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – بألفاظه ومعانيه، بل إنه نزل بالمعنى فقط، بمعنى أن الله – تعالى – قذف بمعاني القرآن في قلب محمد –صلى الله عليه وسلم– ثم صاغها محمد – صلى الله عليه وسلم – في ألفاظ من عنده، وبذلك جعل القرآن مثل السنة، في أن الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ألهم معناه فقط، ثم صاغه هو بألفاظ من عنده .. وهذا – وغيره – مما وقع فيه "أحمد خان" تسبب في ثورة العلماء ضده، وفي رميهم إياه

الأمة ضد الإنجليز في مايو ١٨٥٧م، ألقى فيه كل التبعة على الأمة الهندية، وانتصر للإنجليز، ووضع لهم مقترحات انتفعوا بها في سياستهم ضد الأمة .. وكان نشطاً في التأليف والكتابة وإصدار المجلات العلمية، مسخراً ذلك كله لخدمة أهدافه وأهداف ساداته، وفي سبيل ذلك أنشأ الكثير من المعاهد والمدارس، ثم ختم كل ذلك بتأسيس جامعة "عليكره " هذا على المستوى العام، وعلى المستوى الشخصي، فقد شهد القريبون منه أنه ما كان يصلي ولا يصوم، ولا يهتم بشعائر الدين .. وقد توفي "أحمد خان" في مارس ١٨٩٧م، ودفن بجوار المسجد الذي بناه وسط جامعة عليكره.

بالكفر، فكان هذا – من جانب آخر – سبباً في انفلات أمره، وانطلاقه في غواياته وضلالاته إلى المنتهى الذي وصل إليه.

أما فيما يتعلق بالسنة النبوية ؛ فقد وضع الرجلُ الأساسَ للذين أتوا من بعده في إنكار السنة النبوية المطهرة، والشغب عليها، والزعم بأن القرآن كاف، والطعن في أنها من وضع رواتها إلى غير ذلك .. ونستطيع أن نوجز أهم الآراء التي جاء بها الرجل بالنسبة للسنة النبوية المطهرة فيما يلي:

١– أَوَّلَ كل ما جاء فيها عن الجن والملائكة والشياطين، وعن الجنة والنار، بتأويلات أدَّت إلى إنكارها جملة على ما قد أشرنا إليه عند حديثنا عن تفسيره القرآن الكريم.

٢– ادعى أن السنة النبوية لم تدون لأمد طويل، وظلت ذلك الأمد حبيسة الصدور، مما هيأ الأمر للزيادة عليها والنقص منها وتغيير محتواها، ووضع الكثير منها، ونسبة الكل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما أفقد الثقة في جميعها، وجعل الشك يشملها كلها.

٣– بناء على الأمر السابق؛ فقد جعل الرجل كل ما وردت به السنة النبوية المطهرة من أوامر ونواه، وأخبار وأحكام، جعل كل ذلك أموراً استنباطية من علماء الحديث وشراح السنة وفقهاء المذاهب، ومن ثم لا يلزم المسلم الأخذ بها، أو الالتزام بما فيها، وذلك لأمرين ، الأول : الشك في نسبة الأحاديث إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لطول الفترة التي تركت فيها بلا تدوين –كما بينا قبلا–، والثاني : لاحتمال ألا

يكون العلماء قد فهموا مقصود النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه الأحاديث، فبنَوا أحكامهم على فهم خاطئ فجاءت الأحكام خاطئة.

٤- وضع الرجل مقاييس من عنده لبيان الحديث الذي يؤخذ به ويعتمد، وقد توخى أن تكون تلك المقاييس مبطلة للسنة في جملتها، فلا تكاد تلك المقاييس المتعنتة تنطبق على حديث واحد أو بضعة أحاديث، هذا إذا صدقت النية في تطبيقها، أما إذا أخذنا في الاعتبار تكلفهم وتعنتهم في التأويل والخروج على مقتضيات اللغة، فإن مقاييس الرجل تزري بالسنة جميعها، وهذه المقاييس:

أ - أن يكون الحديث المروي هو قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالجزم واليقين.

وهذا المقياس دون إقناعهم به خرط القتاد، حيث إنهم يطعنون في المتواتر، فما بالنا بغيره؟

ب - أن تكون هناك شهادة تثبت أن الكلمات التي أتى بها الراوي هي عين الكلمات التي نطقها النبي فعلاً.

ج- ألا يكون لألفاظ الحديث التي أتى بها الرواة معان سوى ما أتى به شراح الحديث، وبنى عليه الفقهاء أحكامهم.

وهذا الآخر من أعظم معاول الهدم للسنة النبوية المشرفة، حيث إنه ما من لفظ من ألفاظ اللغة العربية إلا وله عندهم معان وتأويلات لا تكاد تحصى، ولا يحكمها ويوجهها إلا هواهم الضال وأغراضهم الخبيثة[1].

---

(١) راجع في حياة السيد أحمد خان، وأفكاره وآثاره، الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي. د. محمد البهي، القرآنيون. د. خادم حسين إلهي بخش.

ثانياً : عبد الله جكرالوي :

هو مولوي – الشيخ – عبد الله بن عبد الله الجكرالوي، نسبة إلى بلدة (جكرالة) التي ولد بها، وهي إحدى قرى إقليم "البنجاب" بباكستان حالياً، وعاصمته " لاهور" . وقد ولد عبد الله حوالي ١٨٣٠م، في أسرة علم ودين، وكان والده يتبع مشيخة إحدى الطرق، فلما ولد ابنه وسماه عبد الله، حمله إلى شيخ الطريقة فباركه ودعا له وسماه : "غلام نبي" أي خادم النبي، أو "عبد النبي" .

ومن العجيب أن يتحول هذا الذي سمى "عبد النبي" – نعوذ بالله من عبودية لغيره سبحانه – إلى عدو للنبي – صلى الله عليه وسلم – ويعلن الحرب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى سنته، ويخلع طاعته، ويصبح في رأس قائمة منكري السنة النبوية المطهرة .. ﴿ ... وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

وقد تلقى "عبد الله جكرا لوي" علومه بالمدارس الأهلية، ثم سافر بعد ذلك إلى مدينة "دهلي" حاضرة الهند لدراسة الحديث الشريف والتخصص فيه، وبعد أن أتم دراسته، ولمس من القدرة على تدريس الحديث وتعليمه الآخرين عاد من "دهلي" مدرساً ومعلماً، ثم دخل مجال التأليف والكتابة فيما تلقاه وتخصص فيه من علوم الحديث الشريف . وقد ظل على ذلك زمانا يزاول تعليم الحديث وخدمة السنة تعليماً وتأليفاً ومناظرة مع الآخرين .

بداية انحرافه:

ظل عبد الله جكرالوي على اشتغاله بالحديث حتى اصطدم ببعض مشكلات من متشابه الحديث الشريف، فخرج على الناس بعقيدته الجديدة التي أعلن عن شعارها بمقولته الشهيرة: "هذا القرآن هو وحده الموحى به من عند الله - تعالى - إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- أما ما عداه من السنة فليس بوحي" ثم شرع في تحقيق مذهبه الجديد وشرحه، والدعوة إليه، ومحاولة اكتساب الأنصار له..

ومن الواضح أن عبد الله جكرالوي لم ينتقل من الشيء إلى نقيضه، أو من مناصر للسنة النبوية وداعٍ إليها، وشيخ من شيوخ جماعة "أهل الحديث" بالهند إلى عدو للسنة النبوية، طاعن فيها، داعٍ إلى نبذها وعدم اعتبارها، دفعة واحدة، أو في لحظة مفاجئة، بل الغالب المقبول -طبعاً- أن الرجل راودته أفكار وخواطر، وعاودته شُبَهٌ ومشكلات لبَّست عليه الحق، وأضلته عن السبيل السويّ في البحث عن الحق فيما يقابله من مثل هذا، ومن قبل ذلك سبق فيه قدر الله -عز وجل- فأضله شيطانه، وأسلم قياده لهواه، وجاءت اللحظة التي لم تكن مفاجئة له، ولكنها كانت مفاجئة للناس الذين عرفوه نصيراً للسنة، فإذا هم يفاجؤون به عدواً للسنة، ومن قبل ذلك عدواً لله ورسوله والمؤمنين.

وهذا الذي نراه من أن انقلاب الرجل لم يأت فجأة أو من فراغ، هو الذي يتفق مع الواقع ومنطق الأحداث، فإن الانقلاب من الشيء إلى نقيضه في الأمور الخطيرة والمصيرية لا يصل إليه الإنسان من منفرج واسع، بل يصل إليه من سمِّ الخياط.

صلة عبد الله جكرالوي بالإنجليز:

يبدو أن انقلاب الرجل من مناصر للإسلام إلى عدو للإسلام والمسلمين، قد لفت أنظار المستعمرين الإنجليز إليه، وما كان لِعَيْن الإنجليز الفاحصة الباحثة عن أعداء الإسلام والمسلمين لتستغلهم وتوجههم وترعاهم لتخطئ هذا الرجل، وقد لفت الأنظار إليه بانقلابه الهائل المفاجئ للناس، وبذلك بدأت صلته بالإنجليز واستغلالهم إياه، ونحن لا ندري أكانت صلته بهم هي التي ساعدت على انقلابه ضد سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – والإسلام، أم أن انقلابه هو الذي أهَّله لهذه الصلة الضالة؟

ومن عجب أن تختلف بعض الآراء حول هذه الصلة، حتى إن البعض ينكرها، والبعض يشكك فيها، مع أن سيرة الإنجليز ومنهجهم بالهند، وعبر مئات الأشخاص من أمثال عبد الله جكرالوي تؤكد أنهم وراء كل شخص من هؤلاء، بل إنهم يبحثون عنهم ويشكلون فكرهم واتجاهاتهم، وهذا الرجل جاءهم لقمة سائغة، وصنيعة سهلة، وكان الرجل – من جانب آخر – يرفل في بحر من الأموال والنفقات التي كان يحتاجها لطبع كتبه ومؤلفاته العديدة . .

لكن التشكيك في هذه الصلة بل إنكارها جاء من أنصار "عبد الله جكرالوي"، ومن يدينون بمعتقده، ويسيرون على منهجه في معاداة السنة النبوية، ومقت الإسلام وأهله، وذلك أمر طبيعي، بل إن إنكار أنصاره هذه الصلة لهو دليل على وجودها، وإن المريب يكاد يقول

خذوني، وهل كان ينتظر من أنصاره الذين يشاركونه نفس النقيصة والضلالة، أن يقروا بهذه الصلة، وهي كفيلة بصرف الناس من حولهم، وانفضاض الأنصار عنهم ؟.

ولذلك نرى على رأس الذين ينكرون هذه الصلة "غلام أحمد برويز" الذي تلقى ضلالة إنكار السنة، وورث هذا الاتجاه الضال عن كل القائلين به في الهند، وتولى كبر نشره في باكستان، وما تزال نحلته الفاسدة على الساحة، هذا الرجل ينكر صلة "عبد الله جكرالوي" أستاذه في الضلالة فيقول: "إن الميرزا غلام أحمد القادياني كان من البذور التي بذرتها الحكومة البريطانية، وإن دعوته جاءت من صميم النداء الإنجليزي، بينما نرى عبد الله سليم النية اكتوى بنار ما أصيب به الإسلام في عصره من الفرق المتعددة"(١).

"لكن المحققين من أمثال "محمد علي قصوري" يرى أن الحكومة البريطانية كان لها يد وراء الحركتين: القاديانية، والجكرالوية. حيث يقول: " إن الحكومة البريطانية تمكنت من اصطياد بعض الشخصيات الإسلامية، وإيقاعها في شبكة التحريف ضد الإسلام، فحرضتهم على القيام بأعمال تفقد الثقة في السنة النبوية الشريفة، وكان على رأس هؤلاء جميعاً "عبد الله جكرالوي" وقد اختاره المسيحيون -النصارى- لأداء هذه المهمة، فرفع صوته بإنكار السنة كلها، وأخذ يدعو إلى هذا المشروع الهدام، فأخذت رسائل التأييد تصل إليه من المبشرين

---

(١) نقلاً عن: القرآنيون: ٣١، ٣٢.

المسيحيين -المنصرين- وتمده بالمساعدات المالية، وتشكره على هذا المجهود الجبار"[1].

جهود العلماء ضده:

بدأ عبد الله جكرالوي حركته ضد الإسلام فأنكر السنة النبوية جميعها، وألف جماعة سماها "أهل الذكر والقرآن" وكان هو رئيس هذه الجماعة، ونشط بشكل مكثف بالدعوة إلى نحلته الضالة التي تقوم على نبذ السنة النبوية، والزعم بأن القرآن كافٍ في قضايا الدين وأحكام الشريعة، وألَّف في ذلك الكتب الكثيرة، وكان مقر دعوته مدينة "لاهور" وهي في ذلك الوقت -بل في كل وقت- حاضرة العلم والعلماء.

لذلك كان له العلماء بالمرصاد، حيث صاروا يفندون آراءه، وينشرون المقالات ضد نحلته، شارك في ذلك العلماء على الأصعدة كافة وعلى منابر المساجد، وقامت مجلة "إشاعة السنة" -نشر السنة- بالدور الأهم والأكثر تأثيراً، حيث جمعت آراءه الضالة، وفنَّدتها، وبيَّنت ما فيها من كفر وفسوق عن الملة، ثم وضعتها على بساط البحث بين أيدي العلماء، ووجهت النداءات إلى جميع العلماء لإبداء آرائهم، وإصدار أحكام الشريعة في هذا الذي يعتنق مثل هذه الآراء الكُفْرية، وهل يكون مؤمناً مسلماً مع اعتناقه هذه الأفكار التي تقوم على الكفر بالسنة كلها ؟.

فما كان من العلماء إلا أن أفتوا بكفره وفسوقه عن الإسلام. أفتى بذلك الكثرة الكاثرة من علماء الهند بأقطارها كافة.. ثم قامت المجلة

(١) نقلاً عن: القرآنيون: ٣١، ٣٢.

"إشاعة السنة" نفسها بنشر عشرات التوقيعات لعلماء الدين المشاهير في الهند الذين يعلنون أن "عبد الله جكرالوي" كافر بالدين، مقطوع الصلة بالإسلام، خارج عن جماعة المسلمين.

لكن الرجل ظل على ضلالته من الكفر بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والدعوة إلى نبذها وعدم العمل بها، حتى أخذه الموت سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف، بعد عمر طويل قضاه في حرب الله ورسوله والإسلام، عليه من الله ما يستحق.

ثالثاً: أحمد الدِّين الأمرتسري:

هو الخاجة أحمد الدين بن خاجة ميان محمد بن محمد إبراهيم الأمرتسري، نسبة إلى مدينة "أمرتسر" التي ولد بها سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف للميلاد، وبعد ولادته حمله والده إلى شيخه فمسح الشيخ رأس الطفل ودعا له وسماه باسمه هذا، وقد بدأ أحمد الدين تعليمه بالقرآن المجيد، ثم العلوم الدينية عند بعض المشتغلين بذلك، ثم التحق بمدرسة المبشرين -المنصرين- فدرس هناك كتاب النصارى المقدس وبعض العلوم العصرية، ثم اعتمد بعد ذلك على جهوده الخاصة في اكتساب العلوم والمعارف، مما مكنه من تحصيل كثير من العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والفلك والاقتصاد والمنطق والرياضيات بجانب العلوم الإسلامية التي كانت عنايته الأولى، كذلك كان يجيد العربية والإنجليزية والفارسية والأردية وبعض اللهجات الإقليمية.

صلته بالقرآنيين السابقين عليه:

كان للخاجة أحمد الدين صلة وثيقة بأفكار القرآنيين منكري السنة السابقين عليه، حيث قرأ لهم، واتصل بمن كان حياً منهم، وأخذ عنهم وتأثر بهم إلى حد أن السابقين عليه هم الذين وضعوا له نهج حياته ووجهوا أفكاره. فقد أخذ عن "السيد أحمد خان" إنكار السنة، واتصل بعبد الله جكرالوي عبر زيارات متوالية، وأخذ عنه أفكاره، وكان أشد مكراً من عبد الله، حيث كان ينصحه بعدم التصريح بإنكاره للسنة، واختراع الفرائض والعبادات التي لا يعرفها المسلمون زاعماً أنه استقاها من القرآن، كذلك كانت له صلة بمحمد إقبال، وكان كثير الاجتماع به، والمباحثة معه، مما ألقى ظلالاً على محمد إقبال توهم تأثر إقبال بفكر القرآنيين، وأنه مال معهم إلى إنكار السنة .. كذلك كانت له صلة بميرزا غلام أحمد القادياني مؤسس الديانة القاديانية، ومن المأثور أنه لم يكن يشدد النكير على القادياني ولا غيره، بل كان يحضر له دروسه ولغيره ممن يخالفونه الفكر والعقيدة.

دعوته إلى نحلته:

بدأ الخاجة أحمد الدين نشاطه بالتدريس والكتابة، وكان يتسم باللين والهدوء، مما جعل الكثيرين يقبلون على سماعه وحضور درسه، ثم دعا إلى تأسيس جماعته الخاصة وسماها: "أمة مسلمة" ثم أنشأ مجلة تتكلم باسم الجماعة وتنشر أفكارها وآراءها، مما جعل الكثيرين ينضمون لجماعته متأثرين بأسلوبه الهادئ، وبخاصة أنه لم يكن يصرح بما يصدم المسلم، بل كان يميل إلى التورية وعدم المواجهة، إضافة إلى لينه وهدوء

أسلوبه، وقدرته على الإقناع. مما كان له الأثر في انضمام فئات المثقفين من أساتذة الجامعات والمدرسين والقضاة وغيرهم إلى جماعته، وحماستهم لنشر أفكاره بالكتابة والتأليف والنشر، كل هذه العوامل جعلت المناخ مواتياً لنشر أفكار "خاجة أحمد الدين" وكثرة أتباعه.

وقدتوفي خاجة أحمد الدين في يونية سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد.

رابعاً: غلام أحمد برويز:

هو غلام أحمد برويز بن فضل دين بن رحيم بخش. ولد في يولية من عام ثلاثة وتسعمائة وألف للميلاد بالجانب الهندي من إقليم البنجاب. وقد تلقى علومه الدينية على يد جده، ثم أكمل بالمدارس النظامية، وقد اتجه إلى الوظائف الحكومية قبل أن يكمل تعليمه الثانوي، فقضى حياته الوظيفية بالمطبعة الحكومية حيث وصل إلى وظيفة مدير المطبعة.

صلته بعقائد القرآنيين:

كان اتصال غلام أحمد برويز بعقيدة القرآنيين في البداية عن طريق القراءة لآرائهم وأفكارهم التي كانت حديث المثقفين وقتذاك يؤيدها القلة ويعارضها الكثرة، ومن في مثل ذكاء "برويز" ونشاطه ما كان يخفى عليه نشاط هذه الحركة وآراؤها، وما كانت تمر عليه هذه الأفكار دون أن تشغله وتؤثر فيه إن سلباً أو إيجاباً. لكن تركه الأمة المسلمة وانقلابه إلى تلك الشرذمة الشاذة عن الإسلام جاء تحت واقعة محددة،

لعلها هي القشة التي قصمت ظهر البعير. وهو يحدث عن ذلك فيقول: "ذات يوم كنت أطالع التفسير فمررت بقوله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وقد ذكر القرآن تفصيل هذا الإيذاء من عناد بني إسرائيل لموسى -عليه السلام- وطلبهم ما لا يحتاجون إليه ... غير أني وجدت في تفسير هذه الآية حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري والترمذي من اتهام بني إسرائيل موسى بالبرص، وفرار الحجر بثيابه، وضرب موسى الحجر بعصاه، فارتعدت فرائصي، واستغرقني التفكير، وتوالت عليَّ الشبهات واحدة تلو الأخرى"[١].

وهكذا كانت اللحظة التي لابد أن برويز فكر فيها كثيراً. أما إعلانه عن انقلابه إلى فكر القرآنيين منكري السنة، فقد جاء على هيئة خطب منبرية ودروس داخل المساجد في بداية الأمر، ثم تولت مجلته "طلوع إسلام" نشر أفكاره بعد ذلك، ثم توسعت أفكاره شيوعاً عبر مقالاته ومؤلفاته الكثيرة، ومن خلال نوادي حركته التي أنشأها لتضم أتباعه في إنكار السنة، وسمَّاها: نوادي طلوع إسلام، نسبة إلى مجلته تلك .. ولقد زاد من شيوع حركته وذيوع أفكاره انتقاله إلى دولة باكستان الوليدة بعد استقلالها عن الهند. حيث انتقل إلى مدينة "كراتشي" التي ما تزال حتى اليوم حاضرة "البرويزيين" أتباع برويز. وقد كانت الظروف وقتذاك ملائمة له ولحركته،

(١) نقلاً عن: القرآنيون: ٥٠، ٥٤.

حيث كان على رأس الدولة الفتية قائدها "محمد علي جناح" (١) الذي استغرقته السياسة فشغلته عن مشكلات الإسلام، وعن الحركات الهدامة التي بدأت تنتشر على حساب الإسلام وأمته، وعلى رأس هذه الحركات الهدامة حركة " القرآنيين "بعامة، وحركة "البرويزيين" بخاصة. ومن المعروف أنه كان في أعضاء حكومة باكستان حين الاستقلال، عدد لا بأس به من "القاديانيين" على رأسهم "ظفر الله خان" وزير الخارجية آنذاك، الذي حارب الإسلام ومكَّن للقاديانية، بل وساعد هو وقبيله الحركات ضد الإسلام، وكان منها حركة القرآنيين، وقد وصل من محاربة هذا الرجل القادياني للإسلام والمسلمين في بلد قام أصلاً على الإسلام، أن قام المسلمون بباكستان بثورة عارمة يقودها العلماء لخلع هذا الرجل من وزارة الخارجية، ولم يتم ذلك حتى قتل من المسلمين وعلمائهم المئات، وهو ثمن زهيد في مقابل تنحية هذا الكافر المتعصب عن مكانه الخطير في الدولة المسلمة.

---

(١) محمد علي جناح ولد بكراتشي عام ستة وسبعين وثمانمائة وألف للميلاد، وتوفي عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف. بعد استقلال باكستان بعام واحد. نال المحاماة من إنجلترا، ثم عاد والتحق بالمؤتمر الهندي، ثم تركه ونشط في حركة " العصبة الإسلامية " وحين استقلت باكستان تولى رئاستها، لكن السياسة شغلته عن قضايا الإسلام في بلده فكان من ذلك مخاطر كثيرة ما تزال باكستان بل والإسلام يعاني منها. وقد كان على رأس تلك المخاطر قبوله القادياني المتعصب ضد الإسلام والمسلمين "ظفر الله خان" وزيراً لخارجية باكستان الوليدة. فكان أن مكن الرجل للقاديانية وثبت أقدامها بباكستان، وفتح لها البلاد الأخرى عالمياً، بعد أن كاد يقضى عليها. كذلك من تلك المخاطر تلك الحركات المعادية للسنة والإسلام. وتحديداً حركة "برويز" التي لم يمكن لها سوى تهاون المسؤولين في ذلك البلد .. كذلك من تلك المخاطر قضية اللغة العربية، حيث كانت حية حين الاستقلال، لكن قضى عليها في باكستان تخطيط أعداء الله.

آراؤه وموقف العلماء منه:

كان لغلام أحمد برويز من الآراء ما يتفق مع الهدف العام لحركة القرآنيين الذي يقوم على تخريب الإسلام وهدم أركانه، وذلك بتنحية السنة النبوية عن التشريع الإسلامي. وقد كانت حركة السابقين عليه من القرآنيين تقوم على اعتبار أن القرآن قد شمل الدين بكلياته وجزئياته، وكل مجمل ومفصل، وقد وضعوا بذلك أساس دينهم القائم على أن القرآن كافٍ وحده .. أما "برويز" فقد خطط كي يضمن السياسة والسياسيين إلى جانبه، وكي ينال تأييد أصحاب الحكم والسلطان بباكستان. ومن ثم فقد وضع لهم مكاناً متميزاً في آرائه. وكانت آراؤه تلك تقوم على أن القرآن قد شمل كليات الدين ومجمله، وأما التفاصيل فهي متروكة لوليّ الأمر الذي يتولى سدة الحكم في بلده، فهو الذي يتولى بيان المجمل، وتفاصيل التشريع، ومن سلطته التحليل والتحريم حسب ما يراه ملائماً للظروف القائمة. وقد كان هذا النهج مرضياً تماماً للحكام والمسؤولين، حيث أضفوا على برويز وجماعته حمايتهم، ومنحوه تأييدهم، ومكنوا له، حيث استطاع نشر ضلالاته على نطاق واسع، وصار للبرويزيين وجود محسوس على الساحة الباكستانية وغيرها من بلاد الهند وبعض البلاد الأوربية التي يهاجر إليها الباكستانيون للعمل أو الدراسة.

موقف العلماء من برويز ودعوته:

اتسعت دعوة برويز لتشمل أصعدة كثيرة على الساحة الإسلامية بباكستان. وقد قام العلماء في البلد المسلم بواجب الجهاد ضد هذه

الحركة كما فعلوا بالنسبة للحركات السابقة عليها، لكن العلماء أولوا هذه الحركة من الاهتمام ما يناسب خطورتها، وقد قامت الجماعة الإسلامية ممثلة في رئيسها وشيخها الإمام المجاهد الداعية "المودودي" بالدور الأكثر في هذا المجال.

"وفي سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف وضعت أفكار برويز ومعتقداته أمام العلماء ليفتوا فيها، وليبينوا حكم الإسلام فيمن يعتنق مثل هذه الأفكار، وهل تبقى له صلة بالإسلام مع اعتناقه هذه المعتقدات البرويزية ؟ أو أن الإسلام بريء منه ؟ وقد تولى إجراء هذا الاستفتاء أركان المدرسة العربية الإسلامية بكراتشي، فأفتى ما لا يقل عن ألف عالم من علماء الدين من باكستان والهند والشام والحجاز بتكفيره وخروجه عن ربقة الإسلام "[1].

(١) نقلاً عن : القرآنيون : ٥٠، ٥٤ .

طوائف القرآنيين في الوقت الحاضر :

بيّنّا فيما سبق أشهر زعماء القرآنيين -منكري السنة النبوية المطهرة-، وقد ذهب هؤلاء وبقيت دعواتهم على هيئة فرق وطوائف تكونت على أساس من هذه الدعوات، وقد فعل الزمان فِعْلَه في هذه الحركات، حيث تلاقحت الأفكار والمناهج، فتأثر هذا بذاك، واختلط بعض ببعض، وكان من ذلك بضع طوائف ما تزال تتحرك على الساحة الإسلامية بباكستان والهند، وبعض البلاد الأوربية -وبخاصة انجلترا- التي يصل إليها صدى هذه الحركات عبر الذين يذهبون إلى هناك للدراسة أو العمل، وكثير من هؤلاء تجنس بالجنسية البريطانية واستقر هناك. وسوف نشير إلى أشهر الطوائف التي ما تزال على الساحة، ولها تأثيرها :

أولاً : أمت مسلم أهل الذكر والقرآن، (الأمة المسلمة أهل الذكر والقرآن) :

هذه الطائفة تضم أتباع "عبد الله جكرالوي" الذي أسس حركته تحت اسم : "أمة مسلمة" . وهذه الطائفة التي تمثل فكر "جكرالوي" و"الأمرتسري" أخذها الضعف والوهن -بفضل الله سبحانه-، وأضحى نشاطها محدوداً ومقصوراً على أعضائها القليلين نسبياً . . ولهذه الطائفة "معابد" يتعبدون فيها على طريقتهم الكافرة التي لا يعرفها دين الله، ويسمون معابدهم هذه : "مساجد" إصراراً منهم على

أنهم من المسلمين، بل على أنهم هم المسلمون.. ومعابدهم هذه توجد في بعض المدن الباكستانية، والمعبد منها لا يزيد على حجم الحجرة الواسعة، وهم يؤدون فيها صلاة الجمعة، وثلاث صلوات في كل يوم حسب عقيدتهم، وكل صلاة ركعتان، وفي كل ركعة سجدة واحدة، وهم لا يرفعون من الركوع، بل ينزلون منه إلى السجود مباشرة. وخطر هذه الطائفة قليل نسبياً، كما أن الكثيرين من أتباعها قد انضموا إلى حركات أخرى مثل حركة: "طلوع إسلام".

ثانياً: طلوع إسلام، (ظهور الإسلام):

هذه الحركة أسسها "غلام أحمد برويز" منذ كان بالهند، ثم صحبها معه إلى باكستان عند انتقاله إليها. وهذه الحركة هي أنشط حركات منكري سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- "القرآنيين" على الإطلاق، وأقواها وأخطرها، وهي الأكثر أتباعاً. وقد زاد من أتباعها أنها قد ورثت الكثير من أتباع الطوائف الأخرى التي ضعفت، أو انتهت مثل طائفة "أهل الذكر والقرآن" التي أسسها "عبد الله جكرالوي".

وللطائفة مجلتها الشهيرة "طلوع إسلام" التي سميت الطائفة باسمها، ولها منتدياتها كذلك، ولها وجود مؤثر - نوعاً - على الساحة الإسلامية بباكستان.

والجدير بالذكر أننا سمعنا بهم ونحن بباكستان - إذ كنت أستاذاً "بالجامعة الإسلامية العالمية" بإسلام آباد، وقد سعيت -وبعض الزملاء- إلى لقاء هؤلاء والاستماع إلى أفكارهم. وقد حدث ذلك ابتداء بمدينة

"روالبندي" القريبة من إسلام آباد، ثم كانت لنا لقاءات –لم تَدُم طويلاً– بمدينة "كراتشي"، حيث كانت أفكارهم ضحلة، ومعرفتهم بالإسلام متدنية، ورغبتهم في الوصول إلى الحق معدومة، وقد لمسنا أنهم يستمسكون بما هم عليه من ضلال رغبة في التخلص من حدود الله، وأحكام الشرع، وإشباعاً لشهواتهم دون شعور بالحرج. وذلك ما تضمنه لهم أفكار "برويز". وهذا ما يفسر لنا كثرة أتباعهم من الشباب ذكوراً وإناثاً، وكذلك من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية النصرانية.

ثالثاً: تحريك تعمير إنسانيَّت، (حركة تثقيف الإنسانية):

وهذه حركة حديثة جداً لا تنتمي إلى أحد من زعماء منكري السنة الذين تحدثنا عنهم، ولكنها تنتمي إلى أحد الأثرياء الذين تأثروا بأفكار السابقين من منكري السنة، وبخاصة: "برويز" ولا ندري لماذا لم يكتف بالانضمام إلى حركة برويز النشطة ؟ ألأن له عليها تحفظات أو مؤاخذات؟ أم هي الرغبة في الشهرة وحب الظهور؟ وما دام سينفق من ماله، فلينفق لإظهار اسمه بدلاً من إنفاق ماله لإظهار الآخرين. والإشارة هنا إلى: "عبد الخالق ما لوادة" الذي أنشأ هذه الطائفة ورأسها وينفق عليها من ماله.

وهذه الطائفة مضى عليها قرابة العشرين عاماً فقط فهي حديثة، وتحاول أن تجد لها مكاناً على ساحة الكافرين بسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المرتدين عن الإسلام. ولكن تأثيرها لا يكاد

يذكر(١).

هذه نبذه موجزة عن رؤساء طائفة منكري سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأشهر دعاتها، ثم عن أشهر طوائفها التي آل إليها أمر الدعوة إلى تلك الضلالة الكافرة الرادة أصحابها عن الإسلام، والتي تتسمى حركتهم: "القرآنيون".

وبعد أن فرغنا من التعريف بهم، ننتقل إلى ذكر شبهاتهم، ثم نرد عليها، كل ذلك بحول الله سبحانه وتوفيقه.

---

(١) اتفق لي أن ذهبت إلى باكستان أستاذاً بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وذلك لأربع سنوات بين عامي ١٩٨١، ١٩٨٥م. وكانت إعارتي إلى هناك على ملاك جامعة أم القرى بمكة المكرمة .. ووجدت عملي هناك فرصة مواتية للتعرف على الطوائف الموجودة على الساحة هناك. وحدث أن قامت معركة دامية بين البريلويين والديوبنديين بأحد المساجد التابعة لإحدى الطائفتين، مما شد من عزمي - وبعض إخواني - إلى تحقيق ما عزمنا عليه. فبدأنا عن طريق بعض الأساتذة الباكستانيين الذين يعملون معنا بالجامعة بإعداد برنامج تمكنا به - بفضل الله تعالى - من الاتصال بأهم هذه الطوائف. ومنهم "البريلويون" الذين ناظرنا كبيرهم بمدينة "هاري بور" المدعو: "بير عبد الدايم" أو المرشد عبدالدايم، وكذلك التقينا بزعمائهم بإسلام آباد، وروالبندي. والتقينا كذلك "بالديوبنديين" الذين يصمون البريلويين بالردة عن الإسلام والكفر، وفي كلامهم حق .. ثم جاء دور منكري السنة الذين يكفي عنواناً لهم هناك: "البرويزيون". وكان الفضل في لقائنا بالعديد منهم، وعقد الجلسات معهم يعود إلى الأخ الفاضل د. عبدالجواد خلف الذي أنشأ جامعة الدراسات الإسلامية "بكراتشي" حيث استضافنا ببيته بمنطقة "جلشن إقبال" ونظم هو - بذكاء وحرص - تلك اللقاءات التي ما كنا ندري أن الله - سبحانه - قد قدر لنا أن نفرغ بعض حصيلتها في ذلك البحث عن منكري السنة.

المبحث الخامس: شبهات القرآنيين والرد عليها

لهذه الطائفة التي أسمت نفسها "القرآنيون" مغالطات وجهالات، زعموا أنها شبهات ضد سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المطهرة، ويزعمون أن هذه الشبه هي في الوقت ذاته أدلة قاطعة على وجوب ترك السنة النبوية المطهرة، وإهمالها والانصراف عنها، وعدم اعتبارها مصدراً للتشريع، والاقتصار على القرآن المجيد مصدراً وحيداً للتشريع الإسلامي. وسنتولى –بحول الله تعالى– ذكر شبهاتهم هذه كما أوردوها، ثم نفندها ونرد عليها ونبين بطلانها.

الشبهة الأولى:

قولهم: إن القرآن الكريم كافٍ في بيان قضايا الدين وأحكام الشريعة، وإن القرآن قد اشتمل على الدين كله، بجملته وتفصيله، بكلياته وجزئياته، وأنه يحتوي جميع الأحكام التشريعية بتفصيلاتها، ما ترك شيئاً ولا فرَّط في شيء. ولهذا كان القرآن كافياً، ولم يكن ثمة حاجة لمصدر ثان للتشريع. فالسنة لا حاجة إليها، ولا مكان لها .. وقد استدلوا لشبهتهم هذه بما زعموه أدلة من القرآن المجيد. من ذلك قوله سبحانه: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ... ﴾ (الأنعام: ٣٨). واستدلوا –كذلك– بقول الله –سبحانه يصف القرآن الكريم :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. (يوسف: ١١١)، وكذلك استدلوا بالآيات التي وصف الله -تعالى- القرآن فيها بأنه "مبين" من مثل قول الله -عز وجل-: ﴿ ... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس: ٦٩).

أما وجه استدلالهم بتلك الآيات، فإن الآية الأولى بينَّ الله -تعالى- فيها أنه - سبحانه - ذكر كل شيء في القرآن الكريم، ولم يفرط في الكتاب من شيء بمعنى أنه - سبحانه - لم يترك صغيرة ولا كبيرة، ولم يدع أمراً من أمور الدين، أو حكماً من أحكام الشرع يحتاج إليه الناس في عقائد أو عبادات أو معاملات إلا قد ذكره في القرآن، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فما حاجتنا إلى مصدر آخر غير القرآن؟ إن إضافة مصدر آخر إلى القرآن الذي لم يترك شيئاً، ولم يفرط الله فيه من شيء، إنما يعني أن نزيد في شرع الله ما ليس منه، وأن نخلط شرع الله الذي أنزل به كتابه بشرع من عند غير الله - تعالى - وهذا باطل فاسد، وفساده إنما أتى من الاعتماد في الدين على غير كتاب الله الذي فصَّل كل شيء وأحاط بكل شيء.

واشتمال القرآن على تفصيل كل شيء إنما هو واضح من خاتمة سورة يوسف - عليه السلام - الذي وصف الله فيها القرآن بأنه "تفصيل كل شيء" وإذا كان القرآن فصَّل كل شيء ؛ فما حاجتنا إلى السنة ؟. وماذا سنفيد منها ؟ .. كذلكم الآيات التي وصفت القرآن بأنه "مبين"

ووصفت آياته بأنها " آيات بينات " فهذه تقطع السبيل على من يقولون إن السنة مبينة للقرآن ومفصلة. فهذا هو القرآن يتحدث عن نفسه في آياته القاطعات، بأنه قد اشتمل على كل شيء، وفصل كل شيء، وبين كل شيء، وبهذا يتضح أن السنة لا محل لها من التشريع، ولا حاجة إليها من بيان أو تفصيل أو توضيح.

تفنيد الشبهة والرد عليها:

إن القول بهذه الشبهة يدل على جهل بالقرآن المجيد، وعدم فهمٍ لآياته، بل يدل على سوء قصد لدى القائلين بها. فإن الأمة مجمعة على أن القرآن العظيم قد اشتمل على الدين مجملاً في كثير من جوانبه وأحكامه، ومفصلاً في جوانب أخرى، وقد جاءت السنة النبوية المطهرة فبينت المجمل وفصلته، والنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يبين ويفصل إنما ينفذ أمر الله – تعالى – ويؤدي ما وكله الله – تعالى – إليه من بيان القرآن المنزل على الخلق، تطبيقاً واستجابة لأمر الله –عز وجل– في قوله: ﴿ ... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤).

فالقرآن المجيد قد اشتمل على قضايا الدين، وأصول الأحكام الشرعية، أما تفاصيل الشريعة وجزئياتها فقد فصَّل بعضها وأجمل جمهرتها، وإنما جاء المجمل في القرآن بناء على حكمة الله –عز وجل– التي اقتضت أن يتولى رسوله – صلى الله عليه وسلم – تفصيل ذلك المجمل وبيانه..

وهذا هو ما قام عليه واقع الإسلام، وأجمعت عليه أمته، ومن ثم فلا وزن لمن يقول بغير ذلك أو يعارضه؛ لأن معارضته مغالطة واضحة وبهتان عظيم، وإذا كان أصحاب هذه الشبهة يزعمون أن القرآن المجيد قد فصَّل كل شيء، وبيَّن كل صغيرة وكبيرة في الدين؛ فلنحتكم وإياهم إلى عماد الدين الصلاة ؛ أين في القرآن الكريم عدد الصلوات، ووقت كل صلاة ابتداء وانتهاء، وعدد ركعات كل صلاة، والسجدات في كل ركعة، وهيئاتها، وأركانها، وما يقرأ فيها، وواجباتها، وسننها، ونواقضها، إلى غير ذلك من أحكام لا يمكن أن تقام الصلاة بدونها؟ ومثل ذلك يقال في أحكام العبادات كافة، إن القرآن العظيم قد ورد فيه الأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج، فأين نجد منه الأنواع التي تخرج منها الزكاة، ومقدار كل نوع، وأين نجد أحكام الصيام ؟ وأين نجد مناسك الحج؟ إن الله –سبحانه– قد وكل بيان ذلك إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – الذي لا ينطق عن الهوى، وجاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، ولم يقل: كما تجدون في القرآن، لأن القرآن قد خلا من تفصيل الأحكام وبيانها.

ولعل من حكمة الله –سبحانه– في ترك التفاصيل والبيان لرسوله –صلى الله عليه وسلم– ؛ أن تفصيل الأحكام وبيان جزئياتها، وتوضيح دقائقها، إنما يكون بالطريق العملي أولى وأجدى، ولو أن الأحكام فصلت قولاً نظرياً، لما استغنت عن بيان عملي واقعي.

ولعله من الحكمة وراء ذلك – أيضاً – بيان ما لرسول الله – صلى

الله عليه وسلم – من منزلة سامية لا يشاركه فيها غيره، ومكانة رفيعة عالية لا يرقى إليها سواه، وذلك بإسناد الله – تعالى – تفصيل الأحكام وبيانها إليه – صلى الله عليه وسلم –، إذ لو كان كل شيء مفصلاً مبيناً لكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مثل غيره من الناس مطبقاً لما هو قائم فعلاً، لكن الله – عز وجل – اختصه – صلى الله عليه وسلم – بتفصيل الأحكام وبيان مجمل القرآن تكريماً لشأنه وإعلاء لمنزلته، وليس ذلك أمراً قائماً بذاته، بل هو مبني على ما سبق أن بيناه من حِكَم .

أما هؤلاء الذين أثاروا هذه الشبهة فقد ارتكبوا عدداً من الأخطاء . . أول هذه الأخطاء أنهم لم يحاولوا أن يفهموا الموضوع في إطار القرآن الكريم كله، وإنما أخذوا آية واحدة أو آيات وركزوا كلامهم فيها، وبنوا مذهبهم الفاسد عليها، وتركوا القرآن المجيد كله بما فيه من آيات واضحات تتصل بالموضوع اتصالاً مباشراً. ومن هنا فقد حملوا الآيات التي اختاروها ما لا تحتمل، ووجَّهوا معناها الوجهات الخطأ التي أرادوها هم، وليس التي تنطق بها الآيات، ومن البدهيات التي يعلمها عامة الناس – بله العلماء – أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأن آياته إنما يُفهم بعضها في إطار البعض الآخر، وأن تفسير بعض الآيات بعيداً عن بقية الكتاب الكريم قد يكون خطأ يؤدي إلى محظورين خطيرين؛ الأول: عدم فهم المراد من الآيات فهماً صحيحاً. والثاني: أن يضرب القرآن بعضه ببعض، وأن تعارض بعض آياته بالبعض الآخر، وهذا جرم

عظيم، لا يرتكبه إلا مجرم أثيم، وهؤلاء قد اعتمدوا آية أو بضع آيات من القرآن، ثم عزلوها عن بقية ما في القرآن المجيد من آيات بينات في نفس الموضوع، ثم حملوها من المعاني مالا تحتمل، عن سوء قصد وتعسف .. ولعل تفنيد شبهتهم هذه يقتضينا – إلى جانب ما ذكرنا – توضيح معاني الآيات التي استدلوا بها، حتى تبطل شبهتهم هذه بتمامها، وتنهار من أساسها.

إن عمدتهم في الاستدلال على ما ذهبوا إليه هو قول الله – عز وجل: ﴿ ... مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ... ﴾ (الأنعام: ٣٨)، مدَّعين أن هذه الآية تعني أن الكتاب الكريم قد احتوى تفصيل كل صغيرة وكبيرة وبيانها، ومن ثم فلا حاجة إلى السنة التي تبينه وتفصله، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب في الآية الكريمة، إنما هو اللوح المحفوظ، وليس القرآن الكريم، وسياق الآية كاملة يرجح هذا، فالآية الكريمة كاملة: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٨) فالآية تتحدث عن عظيم علم الله –تعالى– وإحاطته بكل شيء في الوجود من دواب وطيور وغيرها، وقد شمل علم الله – سبحانه – كل شيء، وقدر ما يقع لكل منها، ثم إليه يحشر الكل. وذلك كقوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد: ٢٢). فالكتاب الذي احتوى كل شيء كان أو كائن أو يكون إنما هو اللوح المحفوظ. وعلى تفسير الكتاب

بأنه القرآن الكريم، فقد قال المفسرون إن معنى الآية: إن الله - تعالى - قد ضمن القرآن الكريم كل ما يحتاج إليه المكلفون من أوامر ونواه، وعقائد وشرائع، وبشارة ونذارة .. إلى غير ذلك، وليس معنى ذلك أنه لا يحتاج إلى السنة المبينة له، فهو وحي، والسنة وحي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وقد قال عنه ربه - سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ (النجم: ٣-٤). فالله -سبحانه - الذي ضمن القرآن العظيم قضايا الدين وأصول الأحكام مجملة، هو - سبحانه - الذي وجَّه الناس وأرشدهم إلى الطريق الذي يحصلون منه على تفصيل ذلك المجمل وبيانه، وقد جاء التوجيه في القرآن نفسه فقد قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٣)، وقال -تبارك وتعالى-: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ... ﴾ (الحشر: ٧). وغير ذلك آيات كثيرة تأمر المؤمنين بطاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والأخذ عنه .. وبذلك يتضح معنى الآية الكريمة: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾، وأن الكتاب لو فسر بأنه القرآن، فإن الله - تعالى - قد ضمنه كل شيء يحتاج إليه المكلف، فما كان فيه من تفصيل كفى، وما كان فيه من إجمال، فقد وجَّه القرآن المؤمنين إلى الطريق الذي يجدون فيه تفصيل ذلك المجمل، وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وبذلك يكون القرآن المجيد قد اشتمل على كل شيء، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾.

الشبهة الثانية:

هذه الشبهة تقوم على أساس ادعائهم أن السنة النبوية ليست وحياً من قبل الله -سبحانه- على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولكنه اجتهاد وتصرف من النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى بشريته، وهو - صلى الله عليه وسلم - بهذا الاعتبار يصيب ويخطئ، فالسنة ليست وحياً، وبالتالي فهي ليست منزهة عن الخطأ، لأن المنزه عن الخطأ إنما هو الوحي، ولا وحي إلا القرآن المجيد. وإذا كانت أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله ليست وحياً، فلسنا ملزمين باتباعها، ولا هي مصدر من مصادر التشريع. وهم يذكرون أموراً يزعمون أنها أدلة على أن السنة ليست وحياً، وإنما هي اجتهاد من النبي - صلى الله عليه وسلم- باعتباره بشراً.

فمن أدلتهم المزعومة على ذلك، أولاً: مسألة تأبير النخل، حيث أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يتركوا النخل فلا يؤبِّروه - يلقحوه - فأطاعوا أمره ففسد النخل، وخسر الناس ثمار نخيلهم .. وثانياً: مسألة نزول جيش المسلمين في غزوة بدر، حيث أنزله الرسول - صلى الله عليه وسلم - منزلاً - ثم ظهر خطأ هذا المنزل، فانتقل الجيش إلى منزل آخر بناء على رأي صحابي من أصحابه - رضوان الله عليهم - .. وثالثاً: مسألة أسرى بدر، حيث استحياهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يقتلهم، وأخذ منهم الفداء، ونزل القرآن مبيناً خطأ ذلك الاجتهاد وإصابة اجتهاد عمر ورأيه في المسألة. ورابعاً: اعتبار الصحابة -رضوان الله عليهم- أن السنة

ليست وحياً، وإقرارهم بذلك عملياً، وذلك حين خالفوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – في صلح الحديبية، حين ذبح وحلق، بينما رفضوا هم ذلك معتبرين ذلك اجتهاداً من النبي –صلى الله عليه وسلم–، وليس وحياً، ولو اعتبروه وحياً ما خالفوا[1].

الرد على هذه الشبهة وتفنيدها:

إن هذه الشبهة التي أوردها هؤلاء سبقهم إليها بعض الطوائف من منكري سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، وقد ذكرنا ما زعموه أدلة لهم على ما ذهبوا إليه، وهذه الشبهة مع ما زعموه أدلة عليها ما كان ينبغي أن تصدر عن مسلم، أو عمن يدعي أنه مسلم، فإن الأمة المسلمة مجمعة سلفاً وخلفاً وإلى أن تقوم الساعة على أن السنة النبوية المطهرة وحي من قبل الله – تعالى – إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم –، وأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق عن الهوى، وإجماع الأمة المسلمة على ذلك ليس صادراً عن فراغ أو عن هوى، ولكنه الحق الذي لا يعارضه إلا غويٌّ مبين ..

والأدلة على أن السنة وحي من الله – تعالى – إلى نبيه – صلى الله عليه وسلم – كثيرة وعديدة سبق أن ذكرناها في مبحث حجية السنة، لكن لا بأس من الإشارة إلى أهمها هنا:

---

(١) هذه الأمور التي زعموها أدلة على شبهتهم ورد ذكرها على السنة بعض أتباع "برويز" حين التقينا بهم "بكراتشي" في صيف عام ١٩٨٣م.

أولاً: إخبار الله – تعالى – بذلك في نصوص قاطعة في آيات بينات من القرآن المجيد الذي ينتسب إليه هؤلاء .. من ذلك قوله – عز وجل – عن النبي –صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٣–٤). ومن ذلك قوله – عز وجل – عن نبيه – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (الحاقة:٤٤–٤٧). فهذه الآيات ليس فيها إخبار بأن الرسول لا ينطق إلا بالوحي فقط، بل فيها إخبار بأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لو افترى على الله ــ تعالى ــ شيئاً لم يوحه الله إليه لَقَتَله الله وقضى عليه.. وحيث إن الله – تعالى – لم يأخذ من رسوله باليمين، ولم يقطع منه الوتين، أي لم يقض عليه، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما نطق إلا بما أوحاه الله – تعالى – إليه.

ثانياً: النصوص القاطعة من كتاب الله المجيد التي يأمر الله – عز وجل – فيها المؤمنين باتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – في كل ما يأخذ وما يدع، وما يأمر وما ينهى، من ذلك قول الله – تبارك وتعالى: ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ... ﴾ (الحشر:٧). وقول الله –سبحانه–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد:٣٣).

ثالثاً: ترتيب الله –تعالى– الإيمان على طاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم– والرضا بحكمه، والتسليم لأمره ونهيه في كل ما يراه ويحكم به،

وذلك في قــول الله –عــز وجل– : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النسـاء: ٦٥). ومن ذلك وصف الله – تعـالى – المؤمنين بأن شـأنهم مـع رسـول الله – صلى الله عليـه وسلـم – أن يـقـولوا سـمـعـنـا وأطعنا، وذلك في قـولـه – سـبـحـانه – : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

رابعاً: إجماع الأمة كلها على أن السنة وحي من قبل الله – عز وجل – إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – وبخاصة صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين – حيث كانوا في حياته الشريفة يحفظون أقواله – صلى الله عليه وسلم – ويتذاكرونها فيما بينهم، وكانوا يتحرون الاقتداء به – صلى الله عليه وسلم، في كل ما يأتي وما يذر، فيما ليس بخصوصيـة لـه – صلى الله عليه وسلـم – مستجيبين لتوجيه الله –تعالى– في قـولـه لأمة الإسـلام : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١). وقد كان الذي يعرف الكتابة منهم يكتب لنفسه خاصة. وقد كان ثمة عدد من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يكتبون لأنفسهم في حياته الشريفة. ثم بعد حياته – صلى الله عليه وسلم – كانت المسألة تُعرَضُ للصحابة –رضوان الله عليهم– فيبحثون في القرآن، فإذا لم يجدوا حكمها، بحثوا في السنة الشريفة وحكموا فيها بما وردت به السنة، وكان سائلهم يسأل أصحابه وإخوانه قائلاً: أنشدكم الله هل سمع

أحدكم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئاً في المسألة ؟ فإذا جاءهم حكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على لسان أصحابه أو بعضهم سارعوا إلى تطبيقه والأخذ به .

هذه تذكرة بالأدلة القاطعة على أن السنة وحي من عند الله –تعالى– وقد سبق أن فصلنا ذلك في مبحث سابق عن حجية السنة، بما يغني عن الإعادة هنا.

أما ما أثاروه من مغالطات مدعين أنها أدلة على أن السنة النبوية المطهرة ليست وحياً ؛ فهو كلام ظاهر البطلان. ونحن نرد عليه – رغم وضوح بطلانه – إبطالاً لمزاعمهم.

١– وأول مزاعمهم الباطلة مسألة تأبير – تلقيح – النخل. وهي مسألة ترجع إلى التجربة والخبرة، ولا علاقة لها بالوحي من قريب أو من بعيد. ومن المعلوم أن الأمور التي تقوم عليها معايش الناس وحياتهم العادية لا صلة لها بالوحي إلا فيما يتصل بها من حل وحرمة وإباحة. أما كيفية مزاولتها والقيام بها، فذلك متروك للخبرة والتجربة يزاولونها حسب ما ألفوا وتعودوا.. ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم تكن له سابقة خبرة بتأبير النخل، ولما رآهم يفعلون ذلك قال لهم: "لو تركتموه لصلح " إما على هيئة الاستفهام، وإما على الاقتراح المبني على عدم التجربة. ولم يكن لذلك صلة بالتشريع لا أمراً ولا نهياً. ولذلك لما تركوا تأبير النخل ولم يصلح، وحدثوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك، قال لهم : "أنتم أعلم بأمور دنياكم" .

٢– وأما ما أثاروه من منزل جيش المسلمين في غزوة بدر ؛ فقد كان ذلك بناء على رأي رآه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يكن ذلك عن وحي، وهذا بيِّن واضح، فإنه لما سأله أحد أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ قائلاً: أهذا منزل أنزلكه الله يا رسول الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، ولما أشار عليه صاحبه بمنزل أفضل انتقل إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. فكون ذلك ليس عن وحي واضح، فلا يصح الاستشهاد به في مجال نفي الوحي فيما هو وحي.

٣– وأما مسألة الأسرى في بدر، فهي قد جمعت بين الرأي والوحي، فقد كان الرأي أولاً، ثم أعقبه الوحي بعد ذلك. وقضية الأسرى ببدر توضح لنا أمراً هاماً قد لا يتوافر في كثير غيرها من قضايا التشريع. فرسول الله –صلى الله عليه وسلم– أخذ في أسرى بدر بالرأي، فاستشار أصحابه –رضوان الله عليهم–، فكلٌ أدلى برأيه، ثم مال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلى الرأي القائل باستحيائهم وأخذ الفداء منهم، وكان هذا رأي أبي بكر –رضي الله عنه–، وكان رأي عمر –رضي الله عنه– أن يقتل الأسرى جميعاً وبعد أن استقر الأمر على ذلك نزل الوحي على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يبين ما كان ينبغي أن يفعل في مسألة الأسرى، ويبين الصواب في القضية. يقول الله –سبحانه– في شأن فعل الرسول في أسرى بدر:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنفال:٦٧-٦٩).

فقضية الأسرى بدأت بالرأي، ثم انتهت بالوحي. وهذه القضية بجملتها شاهدة على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقول ولا يفعل – فيما يتصل بالدين – إلا بوحي من عند الله – سبحانه –، وأن الله – سبحانه – لا يدع رسوله – صلى الله عليه وسلم – على غير صواب، حتى في حالة تصرفه برأيه واجتهاده وذلكم هو الأمر الهام الذي نَوَّهنا به قبلا، وخلاصته: أن قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– وفعله في أمور الدين وحي، حتى ولو قال برأيه؛ لأنه إن قال أو فعل برأيه وكان صواباً موافقاً لأمر الله أقره الله – تعالى – على ذلك. وكان إقرار الله – سبحانه – له دليلاً على موافقة عمله لمراد الله – تعالى – فيكون وحياً، وإن كان اجتهاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليس صواباً موافقاً لمراد الله – سبحانه – فإن الله – تعالى – لا يقره على ما قال أو فعل اجتهاداً، بل يصوب له ويصحح. وذلك كما حدث في أسرى بدر. حيث نزل فيها القرآن مصوباً ، وكما حدث في أوائل سورة "عبس" حيث نزل القرآن معاتباً .. وهكذا يتضح أن واقعة أسرى بدر شاهدة بأن السنة وحي من عند الله تعالى –، وأن الله –سبحانه– يحيط أقوال وأفعال رسوله بالوحي حتى ولو اجتهد برأيه.

وفيصل الأمر في القضايا الثلاث التي أثاروها شبهة من شبهاتهم ظانين أنها دليل على أن السنة النبوية ليست وحياً ؛ أن ما يصدر عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ نوعان: نوع يفعله بمقتضى بشريته ــ صلى الله عليه وسلم ــ، دون أن يوحى إليه فيه بشيء، وهذا النوع لا صلة له بالتشريع، وذلك في جل شؤونه المعيشية التي لا يتعلق شيء منها بالدين حلاً أو حرمة ومن ذلك رأيه في تأبير النخل. ونوع آخر يفعله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمقتضى كونه بشراً رسولاً، وفعله هذا إنما يقوم على وحي من قبل الله –تعالى–. والأمران الأولان: تأبير النخل، ومنزل الجيش في بدر، من النوع الأول الذي فعله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– برأيه. والأمر الثالث اجتهد فيه الرسول –صلى الله عليه وسلم– رأيه وآراء محل مشورته من الصحابة –رضوان الله عليهم– فنزل الوحي مصوباً ومبيناً الحكم الصحيح.

الشبهة الثالثة:

خلاصة هذه الشبهة قولهم: إن السنة لم تكن شرعاً عند النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولم يقصد النبي –صلى الله عليه وسلم– أن تكون سنته مصدراً تشريعياً للدين، وما قال شيئاً أو فَعَله بقصد التشريع، ولم يُرِد النبي –صلى الله عليه وسلم– في حياته أن يكون ثمة مصدر تشريعي سوى القرآن المجيد، بل كان مصدر التشريع عند الرسول –صلى الله عليه وسلم– هو القرآن وحده، وكذلك فهم

الصحابة – رضوان الله عليهم –، وجاء عهد التابعين الذين بدأت فيه فتنة القول بالسنة، وأنها مصدر من مصادر التشريع، وكانت تلك قاصمة الظهر بالنسبة للدين، حيث دخل فيه ما ليس منه، واختلط بالوحي الصحيح الخالص الذي هو القرآن، ما ليس من الوحي بل هو كلام البشر، نعني بذلك سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهم يزعمون أن لهم أدلة على ذلك. منها:

١– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد أمر أصحابه بكتابة القرآن الكريم، وحضهم على ذلك، ونهى أصحابه عن كتابة شيء من السنة قولاً كانت أو فعلا، وذلك قوله –صلى الله عليه وسلم–: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[١].

٢– أن الصحابة – رضوان الله عليهم – عرفوا من النبي ﷺ أن السنة ليست شرعاً فأهملوا كتابتها وحفظها، رغم اهتمامهم الشديد بكتابة القرآن المجيد على كل ما يصلح أن يُكْتب عليه.

٣– أن كبار الصحابة – رضوان الله عليهم، ومنهم الخلفاء الراشدون – كانوا يكرهون رواية الأحاديث، ويحذرون منها، وكان عمر – رضي الله عنه – يهدد رواة الحديث ويتوعدهم، وقد حبس عمر بن الخطاب عدداً من الصحابة بسبب روايتهم للحديث، تنفيذاً لوعيده وتهديده إياهم بعدم رواية الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث (شرح النووي ١٨/ ١٢٩).

الرد على الشبهة وتفنيدها:

هذه شبهتهم، وتلك أدلتهم عليها، والشبهة ساقطة، وأدلتها أشد منها سقوطاً وافتراء. فالأمة المسلمة مجمعة سلفاً وخلفاً وحتى قيام الساعة -بحول الله تعالى- على أن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي. وقد أقمنا الأدلة وافية -بفضل الله- على أن السنة وحي من الله - سبحانه - على رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وكون السنة وحياً من عند الله -تعالى- قاطع وكاف بذاته على أنها شرع الله - تعالى - إلى الناس، فهي المصدر الثاني للتشريع بلا ريب .. ولكننا نزيد الأمر وضوحاً، ونردُّ على ما زعموه أدلة على شبهتهم تلك.

١- أما قولهم بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- نهى عن كتابة الحديث، بينما حضَّ على كتابة القرآن وحفظه، وكان له -صلى الله عليه وسلم- كتبة القرآن؛ فقول مبالغ فيه، ويقوم على التدليس، وذكر بعض الحق وإخفاء البعض.. وليس من شك في أن القرآن المجيد قد لقي من العناية بكتابته وحفظه ما لم يكن للسنة النبوية. فهو مصدر الدين الأول، وهو أعلى من السنة منزلة وقداسة، وهو أحق بالعناية والاهتمام بكتابته وحفظه، لذلك حظي القرآن من العناية بما لم تحظ به السنة وبخاصة تدوينها وكتابتها.. والأسباب التي جعلت الصحابة يهتمون بكتابة القرآن فوق اهتمامهم بكتابة السنة كثيرة. منها: أن القرآن الكريم محدود بحدود ما ينزل به جبريل على قلب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكتابته والإحاطة

به أيسر، وهم على ذلك أقدر، أما السنة النبوية من أقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأفعاله فكثيرة ومتشعبة تتضمن أقواله -عليه السلام- وأفعاله اليومية، وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة عاشها -صلى الله عليه وسلم- بينهم، وهذا أمر يشق كتابته وتدوينه، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار ندرة الكاتبين بين الصحابة رضوان الله عليهم. ومنها: أن كتابة القرآن ضرورة يفرضها ويحتمها كون القرآن العظيم وحي الله -تعالى- إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بلفظه ومعناه، ولا تجوز روايته بالمعنى، أما السنة فتجوز روايتها بالمعنى، ويجوز في السنة أن يقول القائل: "أو كما قال" وما هو من قبيلها، وليس ذلك جائزاً في القرآن. ومنها: أن الكاتبين بين الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا قلة، وليس في مقدورهم أن يكتبوا السنة والقرآن معاً، وإذا كان ثمة اختيار بين أيهما يكتب الصحابة العارفون الكتابة، فليكن المكتوب هو القرآن، وذلك حتى يسلموه لمن بعدهم محرراً مضبوطاً تاماً لم يزد فيه ولم ينقص منه حرف.

وأما احتجاجهم بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- نهى عن كتابة غير القرآن، وغير القرآن هو السنة. فهو احتجاج باطل من وجوه. أولها: أن هذا الحديث الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري، وهو قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه". هذا الحديث معلول، أعلّه أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري وغيره بالوقف على أبي سعيد. ولو صرفنا نظراً عن هذا، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما

نهى عن الكتابة، فقد ورد عنه – صلى الله عليه وسلم – الإذن بها، بل الأمر بها في أحاديث أخر، ولذلك قلنا إن استدلالهم فيه تدليس، حيث ذكروا حديث النهي، ولم يشيروا إلى أحاديث الإذن وهي كثيرة. منها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم الفتح فقال: "إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل –الشك من شيخ البخاري أبي نعيم– وسلط عليهم رسول الله والمؤمنون .."ولما انتهى من خطبته جاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "اكتبوا لأبي شاه"[1].. ومنها: ما روي عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه قال: "ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مني إلا عبد الله بن عمرو فقد كان يكتب ولا أكتب"[2]. ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن بعض الصحابة حدَّثه فقال: إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول ورسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشر يغضب فيقول ما لا يكون شرعاً، فرجع عبد الله إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبره بما قيل له، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج من فمي إلا الحق"[3].

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم ١/٣٠٩ وانظر فتح الباري ١/٢٠٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم ١/٣١٣ برقم ١١٣ ولفظ البخاري: ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو.

(٣) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ١٠/٧٩، برقم ٣٦٢٩، وأحمد ٢/١٦٢، والدارمي في المقدمة باب ٤٣ .

وهذه الروايات في الصحيح، وهناك غيرها ضعيف وهي كثيرة. فإذا ما وازنَّا بين روايات المنع وروايات الإذن، "وجدنا أبا بكر الخطيب -رحمه الله- (ت٤٦٣هـ) قد جمع روايات المنع فلم يصح منها إلا حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- السابق ذكره، وقد بينا أن الإمام أبا عبد الله البخاري قد أعلَّه بالوقف على أبي سعيد، وكذلك فعل غيره "[١].

بينما أحاديث الإذن كثيرة، والصحيح منها كثير، أوردنا بعضه، ومنها: إضافة إلى ما سبق أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال في مرض موته: "ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده"[٢].

وقد اجتهد العلماء في الجمع بين أحاديث الإذن وأحاديث المنع، فنتج عن ذلك آراء أهمها:

أ - أن ذلك من منسوخ السنة بالسنة. أي أن المنع جاء أولاً، ثم نسخ بالإذن في الكتابة بعد ذلك. وإلى ذلك ذهب جمهرة العلماء، ومنهم ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث)، وقد قالوا: إن النهي جاء أولاً خشية التباس القرآن بالسنة، فلما أمن الالتباس جاء الإذن.

ب- أن النهي لم يكن مطلقاً، بل كان عن كتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة. أما في صحيفتين فمأذون به.

ج- أن الإذن جاء لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون لأنفسهم، ويؤمن عليهم الخلط بين القرآن والسنة.

---

(١) تدوين السنة. د. محمد مطر الزهراني: ٧٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم ١/٣١٥، برقم ١١٤.

وهناك آراء غير ذلك، لكن الذي يتضح من روايات المنع وروايات الإذن أن الإذن جاء آخراً، فإن كان نسخ فهو الناسخ للمنع. وهذا الذي رواه الجمهور[1].

وبهذا يسقط استدلالهم بحديث المنع الذي رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، هذا الحديث الذي يعدونه حجر الزاوية في احتجاجهم بعدم تشريعية أو حجية السنة، ويكثرون اللجاج به كتابة ومناظرة [2].

٢- أما قولهم إن الصحابة - رضوان الله عليهم - قد فهموا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن السنة ليست شرعاً فانصرفوا عنها، ولم يهتموا بكتابتها أو الالتزام بها ؛ فهذا من الكذب والمكابرة، والمطلع على المدونات في كتب السنة، وتاريخ العلوم، وما كتب العلماء في مواقف الأمة المسلمة من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبخاصة موقف

---

(١) تأويل مختلف الحديث ابن قتيبة، السنة ومكانتها من التشريع: ٦١، تدوين السنة: ٧٦ .

(٢) حضرت العديد من جلسات المناظرة التي عقدت بيننا وبين أتباع "برويز" وذلك بمدينة "كراتشي" بباكستان. فكان احتجاجهم يقوم على هذا الحديث. وكثيراً ما كانوا يرددون: "صاحب السنة نهاكم عن كتابتها، وأقر هو بأنها لا تستحق أن تكتب، فهل أنتم حريصون على السنة أكثر من صاحبها ؟ "ومن طبعهم أنك مهما جئتهم بحجة، فإنهم لا يستمعون، أو كأنهم لا يسمعون، ويظلون يرددون ما لديهم مهما ظهر تهافته وفساده حتى ييئس المناظر وهنا يرفعون أصواتهم بالصياح والشماتة، وكأنهم انتصروا فيخيل للحاضرين -وجمهرتهم ممن لا يعرف العربية- أن "البرويزيين" انتصروا على المسلمين. فيشاركون بأصواتهم هم الآخرين.. والمناظرون منهم يحرصون على أن يأتوا معهم بكثير من الأتباع على قدر ما يسمح المكان؛ لأن اعتمادهم على الضجيج والغوغائية أمر أساس عندهم.

الصحابة – رضوان الله عليهم – من سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يقطع بكذب هؤلاء ويعجب من مدى تبجحهم وافترائهم على الحق، إلى حد قلب الأوضاع وعكس الأمور. فقد كان أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أحرص الخلق على ملاحظة أقوال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأفعاله وحفظها، والعمل بها، بل بلغ من حرصهم على تتبع كل صغيرة وكبيرة وحفظها ووعيها والعمل بها أن كانوا يتناوبون ملازمة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فهذا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يحدث عنه البخاري بسنده المتصل إليه. يقول: "كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد – من عوالي المدينة – وكنا نتناوب النزول على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم، وإذا نزل فعل مثل ذلك"[1] وما كان ذلك إلا لحرصهم الشديد على معرفة سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واتباعها والالتزام بها . . .

وقد كان الصحابة يقطعون المسافات الطويلة ليسألوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن حكم الله في بعض ما يعرض لهم. يروي البخاري عن عقبة بن الحارث –رضي الله عنه– "أن امرأة أخبرته أنها أرضعته هو وزوجه، فركب من فوره من مكة إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بالمدينة. فلما بلغ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع، ثم أخبرته بذلك من

(١) أخرجه البخاري. كتاب العلم، باب التناوب في العلم ١ / ٢٨٦، برقم ٨٩ .

أرضعتهما ؟ فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- (كيف وقد قيل ؟) ففارق زوجه لوقته وتزوجت بغيره . .

وكان الصحابة ـرضي الله عنهمـ حريصين على أن يسألوا أزواج النبي ـرضوان الله عليهنـ عن سيرته وسنته في بيته، وكانت النساء يذهبن إلى بيوت أزواج النبي يسألنهن عما يعرض لهن، وهذا معروف مشتهر غني عن ذكر شاهد أو مثال .

بل لقد بلغ من حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على الالتزام بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - أنهم كانوا يلتزمون ما يفعل ويتركون ما يترك دون أن يعرفوا لذلك حكمة، ودون أن يسألوا عن ذلك، ثقة منهم بأن فعله -صلى الله عليه وسلم- وحي . فقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : "اتخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، ثم نبذه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال : إني لن ألبسه أبداً . فنبذ الناس خواتيمهم"(١) .

وروى القاضي عياض في كتابه "الشفا" عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال : "بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال : "ما حملكم على إلقاء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم، برقم ٧٢٩٨ .

نعالكم"؟ قالوا: يا رسول الله رأيناك ألقيت نعليك، فقال: "إن جبريل أخبرني أن فيهما قذراً"[1].

وأورد ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" عن ابن مسعود رضي الله عنه" أنه جاء يوم الجمعة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب، فسمعه يقول: "اجلسوا" فجلس بباب المسجد - أي حيث سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ذلك - فرآه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: "تعال يا عبد الله بن مسعود"[2].

إلى هذا الحد بلغ حرص الصحابة -رضوان الله عليهم- على معرفة سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في جميع أحواله، والالتزام بها، والاستجابة لأمره ونهيه من فورهم -كما فعل عبد الله بن مسعود-، ومن غير أن يدركوا حكمة الفعل، كما في إلقائهم نعالهم في الصلاة، ونبذهم خواتيم الذهب، ولم يكن ذلك إلا استجابة لله - تعالى - في أمره بطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- والاقتداء به كما في قوله - عز وجل-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١). ثم استجابة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في أمره الأمة باتباع سنته والالتزام بها، كما في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "خذوا عني

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعل ٢/٣٥٣ برقم ٦٣٦، وأحمد ١/٤٦١، والدارمي في الصلاة ١٠٣.

(٢) رواه أبو داود. وابن عبدالبر في جامع بيان العلم.

مناسككم"[1]. وقوله -عليه الصلاة والسلام-: "صلوا كما رأيتموني أصلي"[2]. وقوله - صلى الله عليه وسلم -: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى" قالوا: يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"[3]. وقوله - صلى الله عليه وسلم - "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"[4].

هذا قليل من كثير مما يبين موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو موقف يتسم بالحرص الشديد والاهتمام البالغ على معرفة سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وحفظها والالتزام بها، بل وتبليغها إلى من يسمعها؛ استجابة لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "نضر الله امرأ سمع مقالتي ووعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع"[5].

---

(١) رواه النسائي ٥/ ٢٧٠ كتاب مناسك الحج، الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم، وأحمد ٣/ ٣١٨ .

(٢) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين، ٣/ ٣١٥، برقم ٣٦١ .

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم ٧٢٨٠، وأحمد ٣/ ٢٦١ .

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٥/ ١٣ برقم ٤٦٠٧، وأحمد ٢/ ١٦٢، والدارمي باب رقم ٤٣ .

(٥) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم ٤/ ٦٨ برقم ٣٦٦٠، وأحمد، ١/ ٣٧، والترمذي في العلم باب ٧، وابن ماجه في المقدمة باب ١٨، والدارمي في المقدمة ٢٤ .

ومن هذا يتبين مدى كذب أعداء السنة وأعداء الله ورسوله في ادعائهم الذي سلف ذكره.

٣- وأما دعواهم بأن كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يكرهون رواية الحديث، وكان عمر - رضي الله عنه - [١] يتهدد رواة السنة، وأنه نفذ وعيده فحبس ثلاثة من الصحابة بسبب إكثارهم من رواية السنة؛ فهذا كذب يضاف إلى ما سبق من دعاواهم الكاذبة، وفيه جانب من التدليس الذي لا يخلو عنه كلامهم.

أما أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يكرهون رواية الحديث، فهذا باطل، والحق أنهم كانوا يخشون روايته ويهابون من ذلك، لعظم المسؤولية، ووعيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن يكذب عليه. في قوله - عليه السلام - "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[٢]. ولقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - بين أمرين هم حريصون على كل منهما؛ أولهما: تبليغ دين الله إلى من يليهم من الأمة، ثانيهما: التثبت والتحري الشديد لكل ما يبلغونه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. لذلك كان الواحد

---

(١) ذكر بعض "البرويزيين" أثناء حديث له معنا: " أن الخليفة عمر -رضي الله عنه- هو زعيم "القرآنيين"، وأن جميع الصحابة كانوا كذلك إلا من كانوا يتكسبون برواية الأحاديث، ويسعون لتكوين مركز لهم متميز بين الأمة عن طريق الإكثار من رواية الأحاديث " قال - فض الله فاه -: "وهؤلاء هم سبب فساد الدين وضلال الأمة ".

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم ١٠٦ .

منهم يمتقع وجهه، وتأخذه الرهبة وهو يروي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .. فالصواب – إذن – أن الصحابة كانوا يهابون رواية الحديث بسبب شدة خوفهم من الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، أو الخطأ فيما يروون. وليس كما يزعم هؤلاء، أن ذلك لأنهم كانوا يرون السنة غير شرعية، أو أنها ليست مصدراً تشريعياً.

أما دعوى حبس عمر – رضي الله عنه – ثلاثة من أصحابه هم: عبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وأبو الدرداء – رضي الله عنهم – ؛ فهذه رواية ملفقة كاذبة، جرت على الألسنة، وقد ذكرها البعض كما تجري على الألسنة وتدون في كتب الموضوعات من الأحاديث والوقائع، فليس كل ما تجري به الألسنة أو تتضمنه بعض الكتب صحيحاً، وقد تولى تمحيص هذه الدعوى الكاذبة الإمام "ابن حزم" –رحمه الله– في كتابه: "الإحكام" فقال: "وروي عن عمر أنه حبس ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا ذر من أجل الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –" وبعد أن طعن ابن حزم في الرواية بالانقطاع محَّصها شرعاً فقال: "إن الخبر في نفسه ظاهر الكذب والتوليد؛ لأنه لا يخلو: إما أن يكون عمر اتهم الصحابة، وفي هذا ما فيه. أو يكون نهى عن نفس الحديث وتبليغ السنة وألزمهم كتمانها وعدم تبليغها، وهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، وهذا قول لا يقول به مسلم، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين فلقد

ظلمهم، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات أي الطريقين الخبيثين شاء "[1].

هكذا يتضح كذب ادعائهم وفساد ما بنوه على هذا الادعاء.

الشبهة الرابعة:

خلاصة شبهتهم هذه ؛ أن الإسلام جاء يدعو إلى أمة واحدة تحت راية كتاب الله القرآن، يقول الله -تعالى-: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢). وقد جاهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طوال حياته الشريفة لتحقيق هذه الغاية، حتى نجح في ذلك بفضل اعتماده القرآن وحده، وترك الأمة على ذلك .. وقد ظلت الأمة واحدة طالما كانت تحت راية القرآن وحده، حتى جاءت المؤامرة التي قام بها مدونو كتب السنة؛ حيث تسببوا بتدوين السنة، والدعوة إليها، وشغل الناس بها إلى تفريق الأمة، وقد جاء الفقهاء فبنوا على السنة، فازدادت الأمة افتراقاً، ولو أن الأمة تركت السنة وعادت إلى القرآن وحده لخرجت من فرقتها، وعادت إليها وحدتها وعزتها وأخذت مكانتها بين الأمم المتقدمة.

ولأن السنة هي سبب تفرق الأمة وتصدع وحدتها ؛ فلم يقم بها، ولم يشتهر بالتدوين فيها عربي واحد، بل كان جميع المشتغلين بالسنة من أهل فارس، وبخاصة الكتب الستة، فإن الذين دوّنوها وشغلوا الناس بها من الفرس الحاقدين على الإسلام، وقد وضعوا كتبهم للكيد

(١) ابن حزم. الإحكام ٢ : ١٩٣ . وراجع في ذلك: السنة ومكانتها من التشريع: ٦٦ .

للإسلام وتصديع وحدة الأمة المسلمة، فتدوين كتب السنة – إذن – كان مؤامرة فارسية سقطت في أتونها الأمة المسلمة، يقول "عبد الله جكرالوي" : "لا ترتفع الفرقة والتشتت عن المسلمين، ولن يجمعهم لواء ولا يضمهم فكر واحد، ما داموا مستمسكين بروايات زيد وعمرو"[١]. ويقول "حشمت علي" : "لن تتحقق وحدة المسلمين ما لم يتركوا كتبهم الموضوعة في طاعة رسول الله"[٢]، ويقول برويز: "قد فاق تقديس هذه الكتب – كتب السنة – كل التصورات البشرية، مع أنها جزء من مؤامرة أعجمية، استهدفت النيل من الإسلام وأهله، ثم يفسر تلك المؤامرة ويبين القائمين بها فيقول: " فما أصحاب الصحاح الستة إلا جزء من تلك المؤامرة، لذا نجدهم جميعاً إيرانيين، لا وجود لساكن الجزيرة بينهم "[٣].

الرد على الشبهة وتفنيدها:

إن هذه الشبهة تذكرنا بالمثل: "رمتني بدائها وانسلَّت" . أو ما يقول علماء النفس عن داء "الإسقاط" ، وهو داء نفسي يبتلى به بعض الناس المصابين بنقائص معينة، فحتى يبرئ نفسه منها يسارع فيسقطها على الآخرين ويتهمهم بها.. فهؤلاء أعداء السنة، وأعداء الدين، وأعداء أمة المسلمين، هم الذين خرجوا على إجماع الأمة، ومن قبل ذلك

---

(١) القرآنيون : ٢٣٨ .

(٢) القرآنيون : ٢٣٨ .

(٣) القرآنيون : ٢٣٨ .

خرجوا على القرآن المجيد كتاب الله الذين ينسبون أنفسهم إليه ظلماً وزوراً، وخرجوا على سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فهم أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وأعداء القرآن والسنة، فهؤلاء هم الذين صدعوا وحدة الإسلام والأمة، وفرقوا كلمتها، وخرجوا على جماعتها. هؤلاء يأتون فيرمون أهل السنة، أهل الإسلام، جماعة المسلمين بأنهم هم الذين فرقوا الأمة، وهؤلاء الذين خرجوا على جماعة المسلمين برفضهم السنة النبوية، يرمون الأمة المسلمة بأنها خرجت عليهم وفرقت المسلمين بتمسكهم بالسنة النبوية المطهرة .. فهل ثمة تبجح وادعاء، ومكابرة، وقلب للأوضاع، ورمي للأبرياء بما فيهم من أدواء، كمثل هذا الذي فعله منكرو السنة في شبهتهم هذه ؟ ﴿ ... سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ١٦).

ثم إن هؤلاء الذين يتهمون المسلمين المتمسكين بالسنة النبوية بأنهم تفرقوا بسبب استمساكهم بالسنة، وعدم اقتصارهم على القرآن وحده، وقد زعموا أنهم مقتصرون على القرآن وحده طلباً لوحدة الأمة؛ نقول: هل أفلح هؤلاء في أن يكونوا فريقاً واحداً ؟ إنهم بعد أن تركوا السنة طلباً للوحدة – كما يزعمون زوراً – تحولوا فيما بينهم إلى طوائف وفرق، وكل فرقة تحاول أن تنتشر على حساب الأخرى، وتستقطب أتباع الأخرى، لِمَ لم يتوحدوا هم في فرقة واحدة إذا كان مطلبهم الوحدة ؟

إننا حين سمعنا بهم ونحن بإسلام آباد بباكستان، كنا نظنهم فرقة واحدة، وظل ذلك ظناً لدينا حتى اجتمعنا ببعضهم "بكراتشي" وبعد

أن انفض الاجتماع وكنا نستعد للسفر إلى مدينة "هاري بور" للقاء بير عبد الدايم زعيم "البريلويين" هناك للنظر في عقائد هؤلاء الناس، فوجئنا بمضيفنا يقول: هناك طائفة أخرى يمكن أن تجتمعوا ببعض رؤسائها إذا انتظرتم إلى الغد.. فعرفنا أنهم طوائف. ثم إنهم ينعون على الأمة المسلمة المذاهب الفقهية، ويسمون ذلك تفرقاً وتشتتاً، فهل أفلحوا هم في أن يكونوا مذهباً واحداً في الفقه ؟ "لنأخذ الصلاة مثالاً للواقع الملموس بينهم، فمن قائل بأدائها خمساً، وآخر أربعاً وثالث ثلاثاً والرابع مرتين في اليوم والليلة، وكل صاحب رأي من هذه الآراء يزعم أنها صلاة القرآن، وأما اختلافهم في جزئياتها من حيث عدد الركعات والهيئة فحدث عنه ولا حرج"(١).

أما الزعم بأن كل الذين دونوا السنة وجمعوها وميزوها من الأعاجم المتآمرين على أمة الإسلام، فذلك كذب صراح وافتراء بواح في شقيه؛ في الزعم بأن مدوني السنة جميعهم عجم، وفي الزعم بأن التدوين كان مؤامرة.

أما الشق الأول فيكذبه الواقع؛ فإن أول من دون السنة وجمعها كانوا عرباً صرحاء، فقد بدأ الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة -رحمه الله- وذلك في موطَّئه. وجاء بعده الحميدي القرشي في مسنده، وجاء بقية السلف الصالح في عصره الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وهكذا تتابع التدوين، وهؤلاء الأوائل جميعهم عرب صرحاء. أما عن الكتب الستة ؛ فدعواهم أن واضعيها من العجم كذب وافتراء؛ فالإمام مسلم

(١) القرآنيون : ٢٣٩ .

والإمام الترمذي والإمام أبو داود جميعهم من العرب، فكيف يقال إنهم من العجم، وإنهم صنعوا بذلك مؤامرة على المسلمين ؟

إن هؤلاء يقلبون الأوضاع، ويعكسون الأمور، ويرمون الأبرياء بما هم فيه من بلاء، فمن هم الذين يتآمرون على الإسلام والمسلمين؟ ومن هم الذين فارقوا الجماعة، وفرقوا الأمة ؟ هل هؤلاء هم البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه؟ هؤلاء الأئمة الأعلام هم الذين حفظ الله بهم دينه، وذلك بحفظهم وحفاظهم على سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم -، وعصم الله - تعالى - بهم الأمة عن التفرق والشتات، إن المرء ليعجب كيف يصل التبجح والافتراء إلى مستوى يتهم فيه عاقل - حتى ولو لم يكن مسلماً - إماماً كالبخاري أو مسلم بأنه فرَّق الأمة وتآمر على الإسلام(١).

إن الواقع الملموس يبين أن هؤلاء الكافرين بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخارجين عن طاعة الله - تعالى - وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - هم المتآمرون على الإسلام، المفرقون أمة المسلمين، المارقون من الدين، الشاذُّون عن الجماعة.

الشبهة الخامسة:

وهذه الشبهة ليست من إنشائهم، بل قال بها بعض منكري السنة

---

(١) كان كثير ممن نتحدث معهم من "البرويزيين" منكري السنة يقع في الإمام البخاري تحديداً، وكانوا كلما رأوا ضيقنا وألمنا من هذا ازدادوا وقوعاً فيهم، وكان يقول قائلهم -فض الله فاه -: "ما أفسد الدين إلا هذا الرجل". وهذه العبارة بعينها ومثلها كثير قرأته بعد ذلك في كتاب بعنوان "لماذا القرآن وحده".

السابقين، وبخاصة هؤلاء الذين اتخذوا من الاعتزال ستاراً يخفون وراءه زندقتهم، ثم يهاجمون الإسلام، من أمثال النظّام وبشر المريسي وغيرهم.

وهذه الشبهة تقوم عندهم على الزعم بأن الاحتكام إلى السنة والالتزام بها مؤدّ إلى الشرك والكفر؛ فإن الإسلام يقوم على أن الحاكم هو الله وحده، وأن الحكم له وحده - سبحانه - يقول - تعالى -: ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴾ (الأنعام:٥٧ و يوسف:٤٠، ٦٧). ويقول -عز وجل-: ﴿ ... أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ (الأنعام:٦٢). وإذا كان الإسلام يقوم على أن الحكم لا يكون إلا لله - سبحانه - ؛ فإن الاحتكام إلى سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه إشراك الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحكم مع الله - سبحانه -، وذلك كفر وشرك، ولا خروج من ذلك الشرك والكفر إلا بالاحتكام إلى كتاب الله القرآن وحده، ونبذ السنة وعدم اعتبارها.

الرد على الشبهة وتفنيدها:

هذه الشبهة تقوم على أمرين فرغنا من الحديث عنهما:

الأمر الأول: أن السنة ليست وحياً من عند الله - تعالى - وبالتالي فليست شرعاً يحتكم الناس إليه.

الأمر الثاني: أن طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليست من طاعة الله - سبحانه - بل بين طاعة الرسول وطاعة الله تعارض وتضارب، بحيث تكون طاعة الرسول نقضاً لطاعة الله - تعالى -، وبذلك يتحقق كونها عندهم شركاً بالله.

وهذان الأمران قد سبق أن أوفينا الكلام فيهما. حيث أثبتنا أن السنة النبوية وحي من عند الله – سبحانه – إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا ينطق إلا بوحي الله – تعالى –، ويكفي هنا أن نذكّر بقول الله – عز وجل – في حق رسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم: ٣–٤).

وكذلك قد بينّا أن السنة شرع الله – سبحانه – كما أن القرآن شرع الله – عز وجل –، وقد بينّا – آنفاً – أن السنة بمنزلة القرآن من حيث حجية التشريع ومصدريته، ويكفي – كذلك – أن نذكّر هنا بقول الله – عز وجل – مخاطباً رسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥)، ويقول الله – سبحانه –: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

فهذه الآيات نصوص قرآنية قاطعة في أن السنة النبوية وحي من عند الله – تعالى –، وأن كل ما يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو يفعل – فيما يتصل بأمور الدين – إنما هو الحق من عند الله، وكذلك تدل الآيات على وجوب الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والرضا بما يحكم به، والتسليم والإذعان لذلك. وأن من لم يحتكم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولم يرض بحكمه هو خارج عن الإيمان، وليس له حظ من الإسلام.

أما كون طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واجبة على المسلم، وأنها من طاعة الله ـ تعالى –، فقد أوفينا الكلام عليها كذلك. ويكفي أن نذكر بقول الله عز وجل: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: ٨٠).

فهذه آيات قاطعات في أن الاحتكام إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وطاعته إنما هو احتكام إلى الله –تعالى– وطاعة له –سبحانه– وقد قال الله –تعالى–: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ... ﴾. وهؤلاء يقلبون الآية القرآنية فيزعمون أنه "من يطع الرسول فقد أشرك بالله" عياذاً بالله، وليس بعد هذا الضلال ضلال.

الشبهة السادسة:

وتتمثل هذه الشبهة في زعمهم ؛ أن سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أقوال وأفعال ليس لها صفة العموم الزماني والمكاني، إذ هي أحكام أصدرها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في زمانه وفقاً لظروف أصحابه الذين كانوا معه، وظروف أصحابه كانت مرتبطة بهم وبزمانهم ومكانهم وأحوالهم الخاصة بهم. وقد انقضى ذلك الزمان بأشخاصه وظروفهم وأحوالهم، وقد تغير الزمان، وتغيرت الظروف، ومن ثم لم تعد تلك الأقوال والأفعال الخاصة بذلكم الزمان، صالحة لزماننا ولا لظروفنا، ويترتب على ذلك أن طاعة الرسول – صلى الله

عليه وسلم – التي كانت واجبة على أصحابه في زمانه، لم تعد واجبة علينا، ولا سننه التي كانت ملزمة لهم ملزمة لنا.

الرد على الشبهة وتفنيدها:

إن القول بهذه الشبهة مبني على الزعم بأن السنة ليست وحياً، وليست شرعاً، وقد سبق أن رددنا على ذلك. لكن هذه الشبهة تثير قضية أخرى زيادة على ما تقدم. وهي قضية الأحكام الشرعية التي وردت في أسباب خاصة، وهذه في القرآن المجيد يُعَنْون لها بـ "أسباب النزول". وقد ورد جانب كبير من الأحكام الواردة في القرآن الكريم على هذا النحو، أي نزل في أسباب خاصة كما في أحكام الظهار في أول سورة المجادلة. لكن العلماء لم يذهبوا إلى القول بأن هذه أحكام خاصة بأصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وبزمانهم ولم تعد صالحة لزماننا، بل وضعوا القاعدة الأصولية المشهورة والتي يعرفها عامة المسلمين، والتي تقول "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب". ومقتضى هذا أن الحكم ينزل في واقعة معينة، ثم يطبق على كل ما يماثلها وحتى آخر الزمان.

ومثل هذا الذي قيل في أحكام القرآن المجيد، قاله العلماء في سنة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فلم يفرقوا بين القرآن والسنة في ذلك لكونهما وحي الله – تعالى – إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم –، فالقرآن وحي الله، والسنة وحي الله. وقد سبق أن بيَّنا ذلك بإفاضة.

والقول باقتصار السنة على زمان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضوان الله عليهم – مؤدٍّ – بالضرورة – إلى القول بمثل هذا في القرآن المجيد؛ لأن ثمة تلازماً بين القرآن والسنة من حيث التشريع والحجية، ومن حيث إنهما خطاب للخلق من الجن والإنس في كل زمان ومكان. وإلا فماذا نقول في الآيات القرآنية التي وردت تأمر الأمة المسلمة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كقوله – تعالى –: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦). هذا الأمر إما أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان، وصلاحيته هذه قائمة إلى قيام الناس لرب العالمين، فتكون السنة المأمور بطاعة الرسول فيها قائمة ومستمرة، ويكون كلامهم باطلاً، أما إذا كانت السنة – كما يزعمون – غير صالحة بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فيكون الأمر باتباعها وطاعة صاحبها كذلك غير صالح بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ويؤول الأمر إلى أن يقولوا في القرآن بمثل ما قالوا في السنة، فتكون جميع الآيات الآمرة بطاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على كثرتها، وتنوع صيغها، وكذلك الآيات التي تحض على الاحتكام إليه، وجعل ذلك علامة الإيمان، وكذلك الآيات التي تجعله – صلى الله عليه وسلم – قدوة وأسوة، كل ذلك يكون مفرغ المعنى، وقد مضى عهد صلاحيته بانتهاء عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه. وهذا ما لا يقول به عاقل. ولا يقولون هم به، ليس لأنهم عقلاء فاهمون، بل لأنهم ينسبون أنفسهم إلى القرآن، ويصفون القرآن بأنه – وحده – صالح لكل

زمان ومكان. ولا يدرون أن معْوَلَهم الذي شهروه لهدم السنة هو في ذاته مُشْهر لهدم القرآن الذي ينتسبون إليه ظلماً وزوراً، . لكن الله – تعالى – حافظ دينه بحفظ كتابه وسنة رسوله، ولو كره الكافرون.

الشبهة السابعة:

تقوم شبهتهم هذه على أن الله – تعالى – قد تكفل بحفظ كتابه القرآن. وذلك في قوله –عز وجل–: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩). لذلك ظل القرآن هو الحق الوحيد في دين الله الإسلام، فلم يحرف ولم يبدل، ولم تدخله كلمة ولا خرجت منه كلمة، ولم يرو بغير لفظه ومعناه، أما السنة فلم يتكفل الله – سبحانه – بحفظها، ولذلك داخلتها الموضوعات المحضة من جانب، أي التي لم يقلها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا بلفظها ولا بمعناها، ومن جانب آخر ضاعت ألفاظها ورويت بالمعنى، وذلك فيما لو صح أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قالها، فكان ضياع ألفاظها سبباً في عدم معرفة المعنى الذي أراده الرسول –صلى الله عليه وسلم–، حتى ليصح أن يقال إن السنة كلها أضحت موضوعة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ما كان منها موضوعاً بلفظه ومعناه، وما كان منها موضوع المعنى بسبب ضياع ألفاظه وروايتهم إياه بالمعنى، يقول برويز:

"اعلم أن الله – تعالى – لم يتكفل بحفظ شيء سوى القرآن، ولذا لم يجمع الله الأحاديث، ولا أمر بجمعها، ولم يتكفل بحفظها"[1].

---

(١) القرآنيون: ٢٥٠ .

ويقول "عبد الله جكرالوي": "بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم– بمئات السنين نحت بعض الناس هذه الهزليات من عند أنفسهم ونسبوها إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو منها بريء "[1].. ويقول "مقبول أحمد": "تنقيح الأحاديث من البحر الهائج المكذوب كتطهير الطعام المسموم، غير أن الحذر والحيطة يقتضيان عدم الأكل من ذلك الطعام "[2].

ويقولون أيضاً: إن كفالة الله – تعالى – بحفظ كتابه القرآن، مع عدم كفالته بحفظ السنة دليل واضح على أن الدين ليس بحاجة إلى السنة. وأنها ليست من الدين، ولا هي ضرورية له؛ إذ لو كانت من الدين وضرورية له لحفظها الله كما حفظ القرآن[3].

الرد على الشبهة وتفنيدها:

إن الله – عز وجل – أنزل القرآن الكريم بلفظه ومعناه، فالقرآن كلام الله ــ سبحانه–، لذا كان جديراً بأن يحفظه الله – سبحانه – ويصونه أن يحرف أو يبدل، ولأن القرآن كذلك لم تجز روايته بالمعنى.

أما السنة فهي وحي الله – تعالى – إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أوحى الله – تعالى – بما فيها من أحكام وتشريعات إلى نبيه – صلى الله عليه وسلم – ثم صاغها النبي بكلامه. ولأن السنة ليست

(١) القرآنيون: ٢٥٠ .

(٢) القرآنيون: ٢٥٠ .

(٣) يركز منكرو السنة على هذا الجانب، ويعدونه دليلاً قاطعاً موجهاً من الله –تعالى– إلى الأمة على أن تتمسك بالقرآن وحده، وتدع ما سواه حتى ليقول قائلهم: لماذا حفظ الله القرآن ولم يحفظ السنة ؟ أجيبونا عن هذه وسوف نسلم لكم.

كلام الله - تعالى - فقد أجاز العلماء روايتها بالمعنى، ولم يطلق العلماء هذا الحكم بلا ضوابط أو حدود، بل وضعوا لراوي الحديث بالمعنى ضوابط وشروطاً بحيث لا تجوز روايته الحديث بالمعنى إلا إذا توافرت فيه هذه الضوابط والشروط.

ورأس هذه الشروط أن يكون عارفاً بالعربية، عالماً بألفاظها، ومدلولات تلك الألفاظ، بصيراً بعلاقات الألفاظ بعضها ببعض من ترادف واشتراك وتباين وغير ذلك. فإن كان الراوي على هذا العلم جاز له رواية الحديث بالمعنى؛ لأن في معرفته بالأمور التي ذكرناها أماناً من الخطأ في معاني الأحاديث التي يرويها، وإن لم تتوافر له هذه الشرائط فلا تجوز له الرواية بالمعنى.

أما الزعم بأن الله - تعالى - لم يحفظ سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ فإن كان المراد أنه - تعالى - لم يحفظها بألفاظها. فهذا مُسَلَّم، وقد بينَّا أن السنة ليست بحاجة إلى الألفاظ نفسها، بل الحاجة إلى معانيها المنضبطة ولو رويت بألفاظ أخرى لا تخل بالمعنى. وقد روى الخطيب البغدادي أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت لعروة بن الزبير: "بلغني أنك تكتب الحديث عني، ثم تعود فتكتبه، فقال لها: أسمعه منك على شيء، ثم أعود فأسمعه على غيره. فقالت: هل تسمع في المعنى خلافاً؟ قال: لا، قالت: لا بأس بذلك "[1]. فالمعنى إذا كان باللفظ نفسه أو انضبط بألفاظ مشابهة فلا بأس به.

---

(١) الكفاية : ٢٧٣ .

أما إن كان المراد أن الله – تعالى – لم يحفظ السنة مطلقاً لا بألفاظها ولا بمعانيها، وأنها ضيعت ؛ فذلك كذب وافتراء على الله – تعالى – وعلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى الأمة المسلمة، وجحد ونكران لجهود عظيمة مميزة قام بها علماء السنة عبر تاريخ الإسلام.

والحق أن الله – سبحانه – تكفل بحفظ كتابه، ومن خلال حفظ كتابه تكفل الله – تعالى – ضمنياً بحفظ سنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ذلكم أن الكتاب بحاجة إلى السنة التي تبينه ، كما قال – عز وجل – : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤). فالسنة ضرورية للكتاب، وهي إلى جانب الكتاب ضروريان للدين. فمن حفظ الله – تعالى – كتابه أن يحفظ السنة التي تبينه وتفصله، فإن القرآن بحاجة إليها ومن حفظ الله – تعالى – دينه كي يعرفه الخلق الذين كلفهم الله به، ويحاسبهم عليه، أن يحفظ كتابه وسنة نبيه، فإن الدين بحاجة إليهما. لذلك كان من قدر الله – سبحانه – أن هيأ لسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء الأعلام الذين بذلوا في حفظ السنة ما لم يعرف له تاريخ العلوم والثقافات مثيلاً من قبل ولا من بعد. وما كان ليتم لهم ذلك إلا بتوفيق من الله – تعالى – وهداية وتأييد، فقد ابتدعوا نظاماً لحفظ السنة، ومعرفة صحيحها بدرجاته، من الضعيف بدرجاته، من الموضوع. واخترعوا من الوسائل المعرفية والمناهج العلمية ما هو معجز في بابه، كل ذلك على غير مثال سابق لا عند العرب، ولا عند غير العرب ممن كانت لهم ثقافات وفلسفات، وكانت لهم أديان، وكانوا

الأكثر حاجة إلى تمحيص مكتوباتهم وأسفارهم الدينية، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه علماء الإسلام ولا إلى قريب منه. وقد شهدت الأمم جميعها بأن علماء السنة قد أتوا في باب جمعها وتصنيفها، وتمييزها، ومعرفة الصحيح من الضعيف من الموضوع بما لم تعرفه الأمم من قبل. والسؤال: هل كان هذا يمكن أن يتم دون توفيق من الله -سبحانه- وهداية ومعونة وإرشاد ؟ .. إنه توفيق الله -تعالى- لحفظ سنته الذي هو من حفظ كتابه، لحاجة الكتاب إلى السنة في بيانه وتفصيله، وحاجة دين الله الإسلام إلى الكتاب والسنة جميعاً.

أما زعمهم بأن السنة أضحت خليطاً لا يعرف منها الصحيح من الموضوع؛ فذلك كذب وافتراء بل تبجح ومكابرة، فإن أقل الناس ذكاء ومعرفة بالسنة تكفيه زيارة واحدة لإحدى المكتبات الحديثية التي تضم كتب السنة أو بعضها ليدرك، بعد تصفح لعناوين هذه المدونات وبعض ما فيها، أن الله - تعالى - حفظ سنة نبيه، وأن كتب الصحاح والسنن موجودة ينهل منها المسلمون الزاد النافع لهم في الدنيا والدين. رغم أنوف هؤلاء الكافرين - منكري السنة - أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين.

الخاتمة

هذه مجمل الشبهات التي تقول بها طائفة منكري السنة "القرآنيون" . تلك الطائفة التي بدأت حركتها بالهند في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي، ثم انتقلت بمعظم أنشطتها ومؤسساتها إلى باكستان بعد استقلالها عن الهند وما تزال تزاول حركتها الهدامة تحت اسم "البرويزيين" وقد اقتصرنا في بحثنا على الشبهات التي قال بها هؤلاء ابتداء، أو أخذوها عن غيرهم من السابقين ثم حوروا فيها وأضافوا إليها.

وقد ذكرنا كل شبهة وأردفناها بالرد عليها وتفنيدها، وقد توخينا أن تكون ردودنا عليهم معتمدة أساساً على القرآن المجيد الذي ينسبون أنفسهم إليه ظلماً وزوراً. وذلك إلزاماً لهم من خلال ما يزعمون الانتساب إليه والاقتصار عليه، وحتى لا يحتجوا بأننا نلزمهم ما لا يلتزمون به.

وقد بان لنا من خلال البحث جملة من الحقائق عن هذه الطائفة نوجزها فيما يلي:

أولاً: هذه الطائفة نشأت ابتداء على أيدي الإنجليز الذين كانوا يستعمرون الهند، فهي صنيعة من صنائع الكفار أعداء الله ورسوله والمؤمنين. وهي حركة من الحركات الكثيرة التي قام بها الإنجليز في هذه المنطقة لهدم الإسلام وتفريق المسلمين، من مثل "القاديانية" و"البريلوية" وغيرهما.

ثانياً: أثبتنا عند حديثنا عن رؤوس هذه الحركة أنهم كانوا على اتصال دائم وقوي بالإنجليز، وكان الإنجليز وراء حركاتهم تلك، وكانوا يمدونهم بالعون المادي والمعنوي، بل كان بعض هؤلاء على اتصال بحركة المنصرين بالهند.

ثالثاً: هذه الحركة بجميع طوائفها خارجة عن الإسلام، فاسقة عن الملّة، وإن زعمت لنفسها الإسلام، وانتسبت إلى القرآن. وإن انتسابها إلى القرآن باطل؛ لأنها كفرت بالقرآن في نفس اللحظة التي كفرت فيها بالسنة، فإنه لا تفرقة بين القرآن والسنة، فهما يخرجان من مشكاة واحدة، هي مشكاة الوحي الإلهي المعصوم.

رابعاً: يتضح من كل ما تقدم أن هدف هؤلاء، والغاية التي يسعون إلى تحقيقها هو القضاء على الإسلام وتفريق الأمة المسلمة، وأن انتسابهم إلى القرآن إنما هو ستار يتخفون وراءه ليزاولوا تحت شعاره أنشطتهم الهدامة، وحركاتهم التخريبية.

ونأمل أن نكون من خلال بحثنا هذا قد استطعنا أن نوضح هذه الحقائق أفضل توضيح .

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل

الفهرس

الموضوع الرابع :

الشبهات في الموسوعات العالمية المعاصرة

الشُّبُهاتُ المزعُومَة حَوْلَ القُرآنِ الكَرِيم

في دائرتي المعارف الإسلاميّة والبريطانية

إعداد

أ. د. محمّد السّعيد بن السيّد جمال الدّين

أستاذ ورئيس قسم بكليّة الآداب

جامعة عين شمس - بالقاهرة

المقدمة

عنيت الموسوعات العالمية بمختلف أنواعها – العامة منها والمتخصصة – بالقرآن الكريم ، فأفرد له بعضها مقالات ومواد مستقلة جرى الحديث فيها عن مصدر القرآن، وكيف جمع، والقراءات المختلفة، وأجزائه وسوره وآياته، وأسلوبه، وموضوعاته، وترجماته إلى اللغات الحية.. إلخ.

وتحظى هذه الموسوعات بقبول واسع في دوائر المثقفين والباحثين، كما تتميز بالتأثير البالغ في توجيه أفكار الناشئة والشباب، غير أنها تحفل بالكثير من الشبهات والأخطاء حول القرآن الكريم، وكذلك حول الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر دعائم الدين الحنيف؛ مما يسهم في تقديم صورة مغلوطة ومشوهة عن الإسلام.

ولما كان لابد من تتبع هذه الموسوعات للرد على ما ورد بها من شبهات وتصحيح ما اشتملت عليه من أغلاط بشأن القرآن الكريم ، فقد رأينا الاقتصار على موسوعتين إحداهما متخصصة، والأخرى عامة، كل واحدة منهما تعد علماً في مجالها ونموذجاً لهذا المجال:

(١) فأما الموسوعة المتخصصة فهي دائرة المعارف الإسلامية –الطبعة الجديدة The encyclopaedia of Islam. New Edition ، وهي من الموسوعات التي لا غنى عنها للمشتغلين بالدراسات الإسلامية والشرقية.

(٢) وأما الموسوعة العامة فهي دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britannica، وهي تتمتع بانتشار واسع في دوائر المثقفين في سائر أرجاء العالم.

وينقسم هذا المقال إلى : تعريف بخصائص الموسوعات العالمية وبيان أهميتها وخطرها، مع التركيز على الموسوعتين المذكورتين، واستخلاص المنهج الذي اعتمده المستشرقون في دراستهم للقرآن الكريم مما ورد في الموسوعتين، وبيان للشبهات الواردة فيهما، والرد عليها بمنهج المستشرقين أنفسهم . وينتهي المقال بخاتمة تتضمن جماع النتائج التي توصل إليها البحث.

والله الموفق.

الموسوعات: تعريف وتوضيح

تنطوي الموسوعات على أهمية بالغة للباحثين والمثقفين، ويطلق اسم الموسوعات أو دوائر المعارف Encyclopaedia على الكتاب الذي يشتمل على مجموع المعارف الإنسانية في مجالات الثقافة والفنون والعلوم، ويتضمن نبذة مختصرة ومبسطة تتناول معلومات في مختلف المجالات، وينقسم إلى مواد منفصلة يراعى في إيرادها الترتيب الأبجدي" وهي تحاول أن تقدم كل شيء لكل الناس ، والأثر الطبيعي الذي تحدثه بنفس القارئ هو تذكيره بمدى قلة ما يعرفه مما هو محيط به ، فربما دفعه هذا الشعور إلى مزيد من التعلم"[1].

وتحقق الموسوعات فائدة مزدوجة لكل من القراء الراغبين في المعرفة والباحثين، فهي تقدم للقارئ معلومات مجملة عن النقاط الثانوية في الموضوع، والتواريخ، وأسماء الأماكن وغيرها، لكن أحكامها في القضايا الرئيسة لابد أن تكون موثقة[2].

وتُذَيَّل كل مادة من مواد الموسوعة بثبت بأسماء المصادر والمراجع المهمة في الموضوع ، ومن ثم فإن أول ما ينصح به الباحث المبتدئ هو أن تكون المواد المكتوبة في الموسوعات حول موضوعه هي أول ما يرجع إليه للاستعانة بها في اكتشاف أبعاد هذا الموضوع، والاطلاع على جهود السابقين في دراسته والمصادر والمراجع المتاحة.

---

(١) انظر مادة Encyclopaedia في دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٩٧٤م.

(٢) J . Barzun and H . Graff ; The Modern Researcher , New York , P. 80 .

وفي كل مرة يعاد فيها طبع الموسوعة تعاد كتابة موادها لتشتمل على أحدث ما توصل إليه العلم والمعرفة في كل مادة من هذه المواد، وإضافة مواد جديدة لم تشتمل عليها الطبعات السابقة.

ويمكننا أن نميز بين نوعين من الموسوعات: موسوعات عامة، وأخرى متخصصة، فأما العامة فتتجه إلى القارئ العادي غير المتخصص أكثر من اتجاهها إلى الباحث المتخصص فتكون أقل تفصيلاً من الموسوعات المتخصصة، ومن ثم فإن موادّها تناسب القارئ المتعجل الذي يريد أن يلمّ بأطراف الموضوع ويحصل فيه على نوع من المعرفة المتميزة دون التعمق فيه[1]. وأما الموسوعة المتخصصة فتقتصر على مجال محدد تتناوله من مختلف جوانبه وفروعه دون غيره، كدائرة المعارف الإسلامية التي تعنى بكل ما يتعلق بالإسلام من علوم ومعارف.

وقد عرف العالم الإسلامي تدوين الموسوعات منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) منذ ألّف ابن النديم كتابه "الفهرست"، ثم تبعه الفارابي فألّف "إحصاء العلوم". وما لبث التأليف الموسوعي أن ذاع وانتشر بفضل الموسوعات الكبرى التي ألفت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مثل كتاب "نهاية الأرب" للنويري، و"صبح الأعشى" للقلقشندي و "مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري.

---

(١) المرجع السابق: J. Barzun and H. Graff

وفي القرن الماضي ألفت موسوعتان كبيرتان بالعربية هما : " دائرة معارف البستاني " في أحد عشر مجلداً، و " دائرة معارف القرن العشرين " لمحمد فريد وجدي في عشرة مجلدات .

ومنذ القرن الثامن عشر الميلادي عني الأوربيون عناية كبيرة بتأليف الموسوعات الضخمة التي تبلغ كل منها ما يزيد على مائة مجلد كدائرة المعارف الفرنسية الكبرى التي أشرف على نشرها الأمبر Alambert والتي بلغ تعداد مجلداتها (١٦٦) مجلداً بالإضافة إلى ٤٠ أطلساً وخريطة، ودائرة دي لاردنر de Lardner الإنجليزية والتي تشتمل على (١٣٢) مجلداً، وقد صدرت أجزاؤها تباعاً منذ سنة ١٨٢٩م حتى سنة ١٨٤٦م .

وتعد الموسوعة البريطانية (دائرة المعارف البريطانية) أشهر الموسوعات العامة على الإطلاق ، كما تعد أفضل موسوعة كتبت باللغة الإنجليزية[1] ، وهي توزّع على نطاق واسع في كل القارات ، ويتباهى بتملكها المثقفون في كل أنحاء العالم . وكانت قد طبعت لأول مرة في بريطانيا سنة ١٧٧١م في ثلاثة أجزاء بإشراف عدد من كبار العلماء البريطانيين في ذلك الوقت، ثم طبعت بعد ذلك عدة طبعات، وصدرت طبعتها الرابعة عشرة في شيكاغو (أمريكا) سنة ١٩٢٩م في (٢٤) مجلداً.

---

(١) Cecil B . Williamsm , A Research Manual , New York , P . 60 .

وكانت دائرة المعارف البريطانية قد خلت من مادة مستقلة عن "القرآن" في طبعاتها القديمة التي أحيل فيها إلى الرجوع تارة إلى مادة "محمد" وتارة إلى مادة " الأدب العربي " (انظر طبعتي ١٨٩٠م و ١٩٢٦م) حتى أفردت في طبعة سنة ١٩٢٩م للقرآن مادة مستقلة تشتمل على ترجمة لكتاب ألماني بعنوان "موجزات شرقية" نشره المستشرق الألماني تيودور نولدكه (توفي سنة ١٩٣٠م) في برلين سنة ١٨٩٢م[١] .

أما طبعة سنة ١٩٧٤م، وهي الطبعة الخامسة عشرة، والتي بين أيدينا الآن فقد كتب مادة القرآن فيها باللغة الإنجليزية H. R (كذا دون تعريف كاف) . وتقع هذه المادة في المجلد الخامس عشر ، في نحو خمس صفحات على عمودين كاملين .

أما دائرة المعارف الإسلامية[٢] وهي موسوعة متخصصة فقد قرر مجلس إدارتها أن يضرب صفحاً عن طبعتها الأولى ويعيد كتابة موادها من جديد، فصدرت الدائرة في طبعتها الجديدة بالاسم نفسه وأضيفت إليها عبارة الطبعة الثانية Encyclopaedia of Islam (second edition). وقام بكتابة مواد هذه الطبعة المستشرقون المحدثون وعدد من كتاب الطبعة

(١) وقد كان نولدكه (الذي كتب مادة القرآن في تلك الطبعة) كما وصفه المستشرق السويسري ستيفان فيلدا Stefan Vild أجهل علماء عصره وأشدهم عداوة للإسلام. (انظر: ثابت عيد : الإسلام في عيون السويسريين، بافاريا، ألمانيا، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. ص ٢١٨) .

(٢) صدرت طبعتها الأولى في أربعة أجزاء تباعاً من سنة ١٩١١م إلى ١٩٣٨م كما صدر لها ملحقان. طبعة لندن - لوزان.

السابقة ممن ظلوا على قيد الحياة؛ لكي تتضمن خلاصة ما توصل إليه الفكر الاستشراقي الحديث من آراء ونتائج في مختلف الموضوعات الإسلامية. وبدأت مجلداتها تصدر تباعاً من مطبعة بريل، بمدينة ليدن بهولندا منذ سنة ١٩٦٠م. ثم أعيد طبع هذه الطبعة نفسها مرة أخرى بعد ذلك في سنة ١٩٧٩م .

ويبدو لي أن بعض دوائر المعارف المتخصصة ، وبخاصة دائرة المعارف الإسلامية ، تتوسع في مقالاتها توسعاً يكاد يخرجها عن كونها مجرد إشارات سريعة تتيح أمام الباحث المبتدئ مساحة كافية تعينه على تكوين رأي خاص في الموضوع، بل توشك هذه المقالات أن تكون تقارير شبه كاملة تتضمن الكثير من التقرير والحسم، قلما يجد الباحث فرصة كافية لكي ينفك من تأثيراتها الغالبة وآرائها شبه النهائية ويكوِّن لنفسه رأياً خاصاً في موضوعاتها.

وإذا نظرنا إلى مادة "القرآن" التي كتبها باللغة الإنجليزية A. T. Welch في الطبعة الثانية المشار إليها، والتي اعتمدنا عليها في كتابة هذا المقال، نجد أنها تقع في (٣٣) صفحة من القطع الكبير ، ببنط صغير وعلى عمودين كاملين في كل صفحة، مما يساوي كتاباً بأكمله في الموضوع. وقد حشد الكاتب المادة بآراء كبار المستشرقين -القدماء منهم والمحدثين- في كل جزئية من جزئيات المقال، الأمر الذي يجعل الباحث المبتدئ لا يملك - في الغالب الأعم - إلا أن يتبنى الخط العام الذي يوحي به المقال.

منهج الدراسات الاستشراقية للقرآن على نحو ما ورد في الموسوعات العالمية

حين طالعت مادة " القرآن " بدائرة المعارف الإسلامية التي تضمنت عرضاً شاملاً لدراسات المستشرقين المحدثين منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الثلث الأخير من القرن العشرين حول القرآن، اكتشفت أن هؤلاء المستشرقين قد تأثروا أبلغ التأثر في دراستهم بمنهج تم تطويره لنقد ما يسمّى الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل وكتب أخرى تلحق بهما)، فرأيت أن أدرس هذا المنهج، وأستخلص أصوله وقواعده لكي نرى ما إذا كان صالحاً حقاً للتطبيق على القرآن الكريم.

وكان النقد المنهجي للكتاب المقدس قد حقق منذ القرن التاسع عشر حتى وقت قريب نتائج باهرة في نقد العهد القديم (التوراة وكتب أخرى ملحقة بها) بخاصة ، مما جعل المستشرقين يظنون أن بوسعهم إن عمدوا إلى تطبيق قواعد هذا النقد على القرآن الكريم أن يتوصلوا إلى نتائج مماثلة، ومن ثم استندت دراساتهم للكتاب العزيز إلى تلك القواعد منذ منتصف القرن التاسع عشر، وانعكس ذلك بوضوح على ما كتب بشأن القرآن الكريم في الموسوعات العالمية.

ومن هنا كان علينا أن نتوقف قليلاً للاطلاع على تلك القواعد وتبيُّن الأسس التي ينتهجها المستشرقون في دراساتهم المذكورة.

وكان نقاد ما يسمى الكتاب المقدس من العلماء الألمان بخاصة والأوربيين بعامة قد اعتمدوا في نقدهم للعهد القديم على منهج نقدي أسموه " النقد الأعلى " الذي يهدف إلى دراسة نصوص ذلك العهد على أنها نصوص تاريخية، وعلى الباحث أن يطبق عليها كل المعايير التي يطبقها على أية نصوص تاريخية أخرى، بصرف النظر عن أنها نصوص مقدسة[1]، استطاعوا به التوصل إلى عدد من النتائج التي لا تقبل الجدل، من أهمها:

(١) أن موسى – عليه السلام – لا يمكن أن يكون هو الذي كتب الأسفار الخمسة التي يطلق عليها اليهود والنصارى " التوراة " وينسبونها إليه[2].

(٢) أن بعض الأسفار التي تنسب إلى أنبياء بني إسرائيل –مثل سفر أشعياء النبي– إنما هي مزيفة ومختلقة، ولا يمكن أن تنسب إليه، بل هي من تأليف ثلاثة من المؤلفين عاشوا في أزمنة مختلفة[3].

---

(١) انظر: الدكتور محمد خليفة حسن، آثار التفكير الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، طبع مصر ١٩٧٧م، ص١٠٥ .

(٢) انظر: الدكتور قنديل محمد قنديل: (النقد الأعلى للكتاب المقدس في فكر الغرب وينابيعه الإسلامية ، طبع مصر ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م) .

(٣) مولانا أبو الكلام آزاد، ويسألونك عن ذي القرنين، طبع مصر ١٩٧٢م، ص٩١ وما بعدها.

(٣) تم اكتشاف عدة مصادر بشرية للتوراة لكل مصدر منها طابعه الخاص وزمنه الذي وضع فيه[١].

(٤) تم اكتشاف مصدر أصلي سابق على المصادر المشار إليها في الفقرة السابقة وقد استعانت به كل هذه المصادر ، يتمثل في التراث الشعبي الشفهي الذي يعتمد على الذاكرة ويتضمن الأحكام والأمثال الشعبية والأساطير[٢].

وقد تبين لهؤلاء العلماء أخيراً، وبعد جهد مضنٍ، أن تلك الأسفار مكتوبة بأقلام اليهود، وتظهر فيها الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل[٣].

وطبّق العلماء المنهج نفسه في دراستهم للأناجيل الأربعة (العهد الجديد) وأضافوا بعداً آخر لابد من الرجوع إليه لتفسير جوانب كثيرة غامضة في النصرانية ، وهو الديانات الوثنية في كل من بابل ومصر وفارس وآسيا الصغرى وسوريا واليونان والهند [٤].

وقد ميّز أصحاب هذا المنهج بين نوعين من الدراسة :

أ - الدراسة النقدية العليا (وتشبه النقد الخارجي في المنهج التاريخي) [٥] وهي التي تختص بدراسة الظروف المحيطة بالنص كموقف المؤلف وأهدافه ، والظروف التاريخية والاجتماعية السائدة.

---

(١) قنديل: النقد الأعلى، ص١٧ وما بعدها.

(٢) قنديل: أيضاً، ص ٢٢ و ما بعدها.

(٣) قنديل: أيضاً، ص ٢٣ .

(٤) قنديل: أيضاً، ص٦٦ وما بعدها.

(٥) الدكتور محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، طبع مصر ١٩٦٧م، ص ٤٧٧ وما بعدها.

ب – النقد الأدنى ، بمعنى دراسة النص نفسه لتبين التناقض في الأجزاء التشريعية والقصص وغيرها .

ويجري الجهد الآن للمزج بين هذين النوعين[1] :

وسأحاول الآن أن استخرج مجموعة القواعد المفصلة التي يقوم عليها هذا المنهج، وذلك من خلال قراءتي للنتائج التي حققها علماء نقد الكتاب المقدس، لنتبين إلى أي حد كان كتّاب الموسوعات أوفياء لقواعد هذا المنهج ملتزمين بأصوله في دراستهم للقرآن الكريم[2] .

أولاً : الدراسة النقدية العليا (النقد الأعلى) :

(١) لابد للباحث أن يستخدم قاعدة الشك المنهجي ، فلا يجزم بشيء يتعلق بالراوي إلا بعد التثبت من ذلك بأسباب قوية .

(٢) فيما يتعلق بالراوي لابد من الإجابة عن هذه الأسئلة :

مَن الراوي، وما سيرته وأخلاقه، وما غايته؟ .

متى كتب كتابه ، وفي أي وقت ، ولمن كتب؟ .

---

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، طبع مصر ١٩٩٩م، ٥ : ١٠١–١٠٥، وانظر أثر الفكر الإسلامي على منهج النقد الأعلى للكتاب المقدس في كتاب: النقد الأعلى للدكتور قنديل محمد قنديل، ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٢) وإن كان بعض المستشرقين أنفسهم يرون أن هذا المنهج لا يصلح أصلاً لدراسة الآداب العربية والإسلامية، انظر محمد خليفة حسن: عرض نقدي لكتاب The Study of the Middle East , Leonard Binder, New York , 1976 مجلة دراسات استشراقية وحضارية، العدد الأول: ١٤١٣هـ (١٩٩٣م) وانظر ما يلي ص١٠ وما بعدها .

مدى تحقق شروط العدالة الأخلاقية والضبط العلمي فيه، فإن وجد نقص في أيهما انتفت الصحة من الرواية.

(٣) دراسة البيئات السياسية والاجتماعية والأحداث التاريخية والصراعات العقدية ، ومدى انعكاسها على الكاتب وبالتالي على النص.

(٤) كيف جمع النص ، أولاً وما الأيدي التي تناولته ، وما النسخ التي اشتمل عليها؟

ثانياً : النقد الأدنى (ويشبه النقد الداخلي في مناهج الدراسة الأدبية) :

(١) وجوب دراسة لغة ما يسمى الكتاب المقدس (العبرية) لفهم المعنى المقصود دون تدخل من المترجمين.

(٢) لا يؤخذ النص كلاً بل يحلل إلى أجزاء، ويدرك كل جزء على حدة.

(٣) تجمع العبارات في أقسام رئيسة، وتفرز العبارات الواضحة من العبارات المبهمة والمعارضة لفظياً، مع تطبيق قاعدة الحقيقة والمجاز اللفظي لا المعنوي في شأن هذه العبارات.

(٤) التحليل الداخلي الدقيق للنص للعثور على الأخطاء والاختلافات والتناقضات مثل:

أ – الأخطاء الطبيعية والرياضية.

ب – أن يذكر الحديث في أكثر من موضع بشكل مختلف من حيث تحديد الزمان والمكان والعناصر زيادة كانت أو نقصاً.

ج – إثبات شيء في موضع ونفيه في موضع آخر.

د – ذكر قاعدة شرعية في موضع ونفيها في موضع آخر.

هـ – ورود لفظ لا يمكن أن يكون قد استعمل بهذه الدلالة إلا في عصور لاحقة.

و– تباين الأسلوب الأدبي بين أجزاء النص.

(٥) ملاحظة تطور الفكر العقدي من عصر إلى آخر ، لاكتشاف اختلاف تواريخ كتابة أجزاء النص.

القرآن وقواعد النقد الأعلى والأدنى:

وكانت أول محاولة لتطبيق قواعد النقد الأعلى والأدنى على القرآن الكريم هي ما قام به المستشرقون في شأن ترتيبه حسب النزول . وقد توسع المستشرق الألماني تيودور نولدكه في دراسة النص القرآني لترتيبه زمانياً حسب نزوله، فاتجه إلى تقسيم السور المكية من القرآن الكريم إلى ثلاث فترات يتميز أسلوب النص القرآني في كل منها عن الآخر، كما يزعم.

ولا شك أن نولدكه متأثر في ذلك بمنهج نقد ما يسمى الكتاب المقدس، والذي كتبت أسفاره –كما تبين بالدراسة الفاحصة– على فترات متباعدة تفصل بينها أحياناً عشرات بل مئات السنين. يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي معلقاً على صنيع نولدكه: "فيما يخص الأسلوب، فلو كان مفيداً في التمييز بين الفترات الطويلة فلن يفيد فيما يتعلق بالتمييز بين التتابع التاريخي للسور في فترة قصيرة في الواقع أن

كل الفـتـرة المكيـة لا توفّي إلا (١٢) سنة من ٦١٠-٦٢٢م، فبـأي حق ندعي إذاً التمييز بين أسلوب كاتب خلال (١٢) سنة فقط؟ ناهيك عن استطاعتنا التمييز في تلك الفترة بين ثلاث فترات قصيرة" ويختم بدوي قـوله: " إنه من الشطط -إن لم يكن من الكذب- أن نـزعم اسـتطاعـتنا ترتيب السور تاريخياً في الفترة المكية حسب الأسلوب"(١).

وقد أدرك عدد من كبار المستشرقين عدم جدوى تطبيق قواعد النقد الأعلى والأدنى على النص القرآني. يقول المستشرق الإنجليزي آربري في ذلك:

" أنا ألحّ على الرأي القـائل بأن عـمـلاً خـالداً كـالقـرآن لا يمكـن أن يفـهـم بصورة أحسن لو أخضعناه لتجربة النقـد الأدنى، إنه أمر خـارج عن الموضـوع أن تتوقع أن المواضع المطروحة في السـور المستـقلة سوف تنظم بعد عملية إحكام رياضي بعض الشيء لتشكل نموذجاً منطقياً.

إن منطق الوحي ليس منطقاً مدرسياً ، فليس هناك " قبل" و"بعد" في رسالة النبي، عندما تكون هذه الرسالة صادقة فإن الحقيقة الدائمة لا يمكن أن تحصر داخل إطار زمني أو مكاني، ولكن كل لحظة تعرض نفسها بشكل كلي مطلق"(٢).

---

(١) دفـاع عـن القرآن، ص١٠٧-١٠٨، وللدكتور بدوي آراء أخرى في نقد نولدكه، انظر ص ١٠٧ .

(٢) مـن مـقـدمـة آربري لتـرجـمـة القـرآن الإنجليـزية، الطبـعـة الأولى، ١٩٥٥م، انظر: أحـمـد سـمـايلوفيـتش، فلسفـة الاستـشـراق وأثـرهـا في الأدب العربي المعاصـر، طبـع مصـر ١٩٨٠م، ص١٧٣-١٧٤ .

وإلى هذا الرأي نفسه يذهب المستشرق السويدي" تور أندريه" صاحب كتاب: " محمد: حياته وعقيدته " ، فقد عارض هذا المنهج العقيم الذي سلكه بعض المستشرقين في البحث، مبيناً أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية. ومهمة الباحث – في رأيه – أن يدرك في نظرة موضوعية كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة(١).

لقد ألمح كل من آربري وتور أندريه ، فيما نقلناه عنهما بالفقرتين السابقتين ، إلى عيوب تطبيق منهج النقد الأعلى والأدنى على دراسة النص القرآني ، وحصرا تلك العيوب في طريقة تحليل النص إلى أجزاء صغيرة وفق أصول الكم الرياضي والكيف المنطقي والترتيب الزماني، وتنبّها إلى أن النص القرآني يعلو على هذه المعايير كلها، وهذا كله حق بلا جدال.

لكن الملاحظ أن أحداً من هذين المستشرقين الكبيرين لم يشأ أن يعترف صراحة بالحقيقة الجوهرية والنقطة المبدئية في الأمر كله ، وهي أن تطبيق هذا المنهج على القرآن الكريم فاسد من كل الوجوه، لأنهم يدرسونه لا بوصف كونه وحياً إلهياً وكتاباً منزلاً من عند الله بل

---

(١) نقلاً عن الدكتور التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون، مقال في كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الجزء الأول ص٢١–٥٧، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

بوصف كونه نصاً تاريخياً من صنع بشر، ومن تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، فمنهج النقد الأعلى والأدنى إن صح تطبيقه في دراسة العهدين القديم والحديث مما يسمى الكتاب المقدس ، بل وفي سائر النصوص التاريخية التي هي نصوص بشرية،فلا يصح تطبيق معاييره على نص ينتمي إلى مجال آخر وميدان مختلف غير المجال البشري المحدود. ومن هنا يتبين لنا فساد المنهج الذي يطبقه المستشرقون في دراساتهم القرآنية من حيث المبدأ.

ولا يمكننا – بطبيعة الحال – أن ننتظر من المستشرقين خلاف ذلك؛ لأنهم إن سلموا بأنه منزل من عند الله لوجب عليهم التصديق به والإذعان له، ولزمهم اتباعه ، ولأنهم لن يفعلوا وتأبى قلوبهم، فكان لابد لهم من الحكم سلفاً بأن مصدر القرآن بشري لكي يطبقوا عليه منهجاً يصلح للتطبيق على النصوص البشرية.

وفي هذا العارُ كل العار للعلم والمعرفة ؛ لأن مقتضى النظر العلمي ألا يدخل الإنسان على الموضوع بفكرة سابقة وإلا فسد مخرجه بفساد مدخله ، وفسدت نتائجه بفساد مقدماته، وهو آفة العلم الكبرى التي لا علاج لها.

لقد ناسب هذا المنهج حالتهم وراقهم؛ لأن من شأنه أن يعفيهم من الحرج – أمام مواطنيهم من الغربيين على الأقل ، ويحقق لهم – باسم العلم والموضوعية – أغراضهم في الطعن على الإسلام ورسوله،

والتنفيس عن هذا العداء للإسلام والحقد على رسوله مما ورثوه ورضعوه منذ طفولتهم، وسيطر على عقولهم وتسبب في عمى بصيرتهم.

ولست أشك في أن إصـرارهم على نفي صـفـة " كـلام الله " عن القـرآن الكريم من حـيث المبـدأ هو الأمـر الذي أوقـعـهـم في سلسلة الأخطاء التي ارتكبوها في سائر كتاباتـهم والتي حاول المتأخرون منهم التمـاس الأعذار فيـهـا للمتـقـدمين[1]، والمآزق العلمية والمنهجية التي أوقعوا أنفسهم فيها ولم يجدوا منها مخرجاً[2] ، والجرأة والتبجح والتعالم بالتقول على أسلوب القرآن حتى قال أحد الباحثين العرب[3]: فمن أين لأعجمي ادعاء أن القرآن فيه ركاكة في اللغة... هذا القرآن الذي أصبح فيما بعد مقياس اللغة العربية... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلو أني اتهمت أسلوب جوته الشاعر الألماني بالركاكة لسخر الناس مني، رغم إلمامي باللغة الألمانية ، وإجادتي لها لدرجة التأليف بها، فكيف بمستشرق يفهم العربية باستعمال القواميس... إلخ؟.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة القرآن، القسم الخاص بحروف المقطعات.

(٢) أيضاً، القسم الخاص بالقصص القرآني، انظر في الموضع نفسه تفسيرهم لوجود تفاصيل في القصص القرآني لم ترد في التوراة والإنجيل، ويعدهما المستشرقون مصدراً لهذا القصص.

(٣) أعني به الدكتور السيد محمد الشاهد، في كتابه: التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام، نقلاً عن الدكتور ثابت عيد، الإسلام في عيون السويسريين، ص١٩٨.

ولو أنهم ردوا القرآن الكريم إلى مصدره الإلهي الحق، واتصفوا بروح التواضع والإنصاف (الذي يلبسون مسوحه ويتظاهرون به أمام الناس خداعاً ومخاتلة) ولم يدخلوا على البحث بفكرة سابقة وإصرار أكيد لكانوا قد سلموا من ذلك كله، ولكن كيف يمكنهم ذلك؟ هل يخشون أنهم لو دخلوا على البحث بروح محايدة فافترضوا ضمن فروضهم - كما يقتضيه النظر العلمي - أن القرآن وحي من الله سيقودهم ذلك إلى التسليم به؟ واضح أنهم فعلوا ذلك لأنهم نفوا هذا الفرض تماماً ونحوه بعيداً، فلم يشيروا إليه من قريب أو بعيد إلا على سبيل التوهين والاستهزاء، لكن هذا الفرض ظل حاضراً في أذهانهم دائماً لأن كل جهدهم (العلمي!!) كان منصرفاً إلى البرهنة على نقيضه، ومباركة كل محاولة تبذل للزعم بأنه من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

وتتوالى سلسلة الفساد التي بدأت من تلك المقدمة الفاسدة المتعسّفة - كما ذكرنا - لتضرب كل قاعدة اتخذوها أساساً لنقدهم،فقد ألزمهم نفي كون القرآن كلام الله اتباع ما يلي:

(١) الشك في الراوي: محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يؤكد أن القرآن وحي أوحي إليه من الله تعالى، وما دام الأمر ليس كذلك (كما يقرره المنهج وكما يزعمون) فلابد من اختلاق الأكاذيب حول سيرته وأخلاقه وغايته، وجمع كل المفتريات في القديم والحديث

وحشدها للقدح في ذلك كله، وبذر بذور الشك في نبوته صلى الله عليه وسلم.

(٢) طالما أن النص من صنع بشر – كما يزعمون – فلابد من حصره في حدود الطاقات والتصورات البشرية، وما يخرج فيه عن دائرة قدرة العقل البشري والمدركات الحسية يدخل في نطاق الأسطورة ويصبح من حق الباحث – اعتماداً على عقله وحواسه وعلى أصول المنطق والمعرفة المتراكمة التاريخية والعلمية – أن يرفض أي حقائق تتجاوز الواقع المادي المحسوس ، كالغيبيات والعقائد، ويبدو كل ما يتجاوز الواقع المادي خرافة غير قابلة للتصديق. وهذا يعني الطعن في ما ورد بالقرآن من غيب كالمسائل : الألوهية[1] والوحي والملائكة واليوم الآخر والجنة والنار ، وما يخرج عن نطاق التاريخ الإنساني المدون. .إلخ.

(٣) محاولة إبراز أثر البيئة والزعم بتأثير ما راج بين العرب قبل عصر النبوة من مقولات يهودية ونصرانية ووثنية على النص، والتدليل على ذلك بأكاذيب شتى واضحة البطلان – كما سنذكر فيما بعد – والتماس المشابهات بين ما ورد بالنص القرآني وكل من التوراة والإنجيل من ألفاظ وقصص. وحين يعييهم البحث عن أي تشابه في الألفاظ

---

(١) انظر ماورد في دائرة المعارف الإسلامية، مادة القرآن، ص٤٢٥ عن آية الكرسي، وقول كاتب المادة إن لفظي العرش والكرسي ينطويان على "دلالات أسطورية" ، كما يزعم، وانظر أيضاً ص٤٢٣ كلامه على الشهب المرسلة ونفخ الصور يوم القيامة، وطوفان نوح.

يشتطون في الكذب والاختلاق، أما القصص فحين انتابهم اليأس من العثور على أصول لقصص عاد وثمود في العهد القديم[1] شك بعضهم في هذه الأقوام أصلاً، بينما ردّها آخرون إلى أثر المرويات الشفوية التي كانت رائجة في البيئة العربية قبل عصر النبوة، ولا دليل لهم عليه.

(٤) النظر إلى الآيات الشريفة بحسبانها مرتبطة بزمان معين ومشدودة الوثاق بظروف البيئة والعصر الذي نزلت فيه، لا بوصف كونها أحكاماً نهائية مطلقة خارجة عن إسار الزمان والمكان قد اكتسبت صفة الديمومة والخلود (كما لاحظ المستشرق آربري في تصريحه السابق في ص ٥٠٠ – ٥٠١) وقد أدت بهم هذه النظرة إلى الفشل الذريع الذي منيت به محاولاتهم المتكررة لتقييد النص القرآني بقيود تاريخية وترتيبه حسب الزمان[2].

(٥) التحوّط من كل الروايات التي قالها المسلمون والأحكام التي استخلصها علماؤهم، والقدح فيها بوصف كونها أقوالاً وأحكاماً منحازة غير محايدة في الموضوع فضلاً عن أنه لا دليل عقلياً عليها. وإنما يقتصر منها على أجزاء ما بها من أقوال وأحكام تسند ما

---

(١) فسر الأستاذ عباس العقاد سكوت العهد القديم عن عاد وثمود بأنه محاولة منهم للتعفية على كل رسالة إلهية في أبناء إسماعيل. (العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، ص١١٩).

(٢) وربما كان هذا هو الأساس في زعمهم أن الإسلام "كان حدثاً تاريخياً في حينه لم يكتب له الامتداد في التطبيق الواقعي، أو لم يعد صالحاً للتطبيق"، محمد قطب: المستشرقون والإسلام، طبع مصر ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م)، ص٦٠ .

يذهبون إليه حتى ولو كانت ظاهرة البطلان، ولكن يعتدّ بها لأنها إنما صدرت عن المؤمنين بالقرآن أنفسهم ومؤيّديه.

(٦) تشبثهم بالمفاهيم الغربية في النقد الأدبي كاشتراط "وحدة الموضوع" في كل سورة من السور، وتمسكهم المتعسف بضرورة أن يكون موضوع كل سورة موضوعاً موحداً، وبالتالي دراسة البناء الداخلي لكل واحدة من السور بمعزل عن غيرها[١]. وقد سلّم بعض المستشرقين بعدم جدوى أية محاولة تجري في الحاضر أو المستقبل في هذا الاتجاه[٢]. والملاحظ هنا أن ما يتشبث به المستشرقون من "وحدة الموضوع" في السور لا يتصل من قريب أو بعيد بمسألة "النظم" القرآني وترتيب الآيات ترتيباً توقيفياً لا شبهة فيه[٣]. فهذا الترتيب يعد من أبرز دلائل الإعجاز في القرآن الكريم، وهو "من عمل الوحي يقيناً"[٤].

(٧) لابد لمن يطبق هذا المنهج أن يتحلّى بمعرفة واسعة بأساليب

---

(١) يقول كاتب مادة القرآن بدائرة المعارف البريطانية: "قلما نجد فكرة واحدة نوقشت مناقشة كاملة في سورة واحدة".

(٢) يقول رودي باريت: "ولا يصح أن يظن أن من الممكن مع مرور الأيام توضيح نشأة جميع السور وفهم بنائها الداخلي على أنها وحدة مترابطة الأجزاء" (البحوث القرآنية، مقال من كتاب ألمانيا والعالم العربي، ترجمة مصطفى ماهر وكمال رضوان، بيروت: ١٩٧٤م، ص ٣٤٧-٣٥٧).

(٣) انظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، طبع مصر ١٩٦٧م، ١: ١٠٤.

(٤) عدنان زرزور، علوم القرآن، طبع بيروت ١٤٠٤هـ، ص ١٠٦ .

اللغة العربية وبالتالي التعامل بالقدر اللازم من الفهم والوعي مع النص القرآني. ولما كان المستشرقون يفتقرون إلى مثل هذه المعرفة العميقة فقد وقعوا في أخطاء فاحشة عند التطبيق سيتبين لنا جانب منها بالدراسة الفاحصة لما ورد في بعض أعمالهم بعد قليل.

(٨) محاولتهم وضع نماذج وأطر معيارية لصيغ القرآن وأساليبه الإنشائية والخبرية، وهي المحاولة التي باءت بالفشل وعبّر عنها كاتب مقال القرآن بدائرة المعارف الإسلامية بقوله: إن طبيعة القرآن وترتيبه تجعل من الصعب تصنيف صيغه الأدبية أو تنظيم موضوعاته الرئيسة، وأية محاولة لتصنيف أجزاء القرآن وفق النماذج الأدبية المعيارية تصاب بالانهيار على الفور.

(٩) وطالما أنه نص من صنع بشر - كما يزعمون - والبشر لابد له أن يستقي أفكاره وتصوراته من مصادر بعينها، فإنه لابد من رد هذه التصورات التي أطلقوا عليها " غرائب تثير الدهشة" و " أساطير" مما ليس له وجود في التوراة والإنجيل والبيئة العربية قبل نزول القرآن إلى روايات من قصص تقليدية توجد في ثقافات الشرق الأدنى، وقد عدّلت لتتطابق مع النظرة العالمية وتعاليم القرآن [١]. ويضربون لذلك أمثلة لا يمكن -إن لم يكن من المستحيل- التأكد بأن لها أصولاً في ثقافات الشرق القديم ، لأن البحث في تلك الثقافات لم يَرْقَ إلى درجة اليقين بما كانت تشتمل عليه من تصورات وأفكار.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: القرآن، البحث الخاص بالقصص القرآني.

(١٠) وإذا ورد في النص القرآني ما يثبت العلم الحديث حقيقة وقوعه ويقع في دائرة المعطيات الحسية فلابد من المبادرة إلى التشكيك فيه حتى لا يترك للقارئ – أو حتى للباحث المبتدئ – مجرد فرصة التفكير في تطابق الحقائق العلمية مع ما ورد بالقرآن الكريم مما يجعله مختلفاً عن التوراة في هذا المجال. فقد رأينا كاتب مادة " القرآن " في دائرة المعارف الإسلامية حين عرض لقصة نوح – عليه السلام وأشار إلى الطوفان الذي وردت قصته في سورة هود (الآيات ٣٦–٤٨) وأثبت البحث في علوم طبقات الأرض حدوثه – رأينا الكاتب يسارع إلى القول: " وعلى أي حال فهو ليس الطوفان الذي عمّ العالم بأسره "، ونسأله : أي طوفان يكون إذاً طوفان نوح؟ فلا يحير جواباً بعد هذه العبارة ولا يقدم دليلاً.

وأكتفي في هذه العجالة بهذا القدر من بيان الأخطاء التي كان لابد أن يقع فيها المستشرقون بسبب اعتمادهم على منهج النقد الأعلى والأدنى في دراساتهم للقرآن الكريم.

الشبهات الواردة في الموسوعتين: الإسلامية والبريطانية: تحليل ونقد

أولاً : شبهات في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة) :

تبدأ مادة القرآن في دائرة المعارف الإسلامية بعرض الخطوط الرئيسة التي سيتم تناولها على النحو التالي :

(١) أصل الكلمة ومرادفاتها :

أ – الاشتقاق والاستعمال القرآني للكلمة .

ب – الترادف في القرآن .

(٢) محمد والقرآن .

(٣)تاريخ القرآن بعد سنة ٦٣٢م :

أ – جمع القرآن .

ب – القراءات المختلفة، ومخطوطات الصحابة .

ج – بناء النص المعتمد والقراءات .

(٤) التكوين العام :

أ – السور وأسماؤها .

ب – البسملة .

ج – الحروف الغامضة (يعني حروف المقطعات) .

(٥) تاريخ النص :

أ – الإشارات التاريخية في القرآن .

ب – الترتيب الزماني التقليدي عند المسلمين .

ج – الترتيب الزماني الغربي الحديث .

(٦) اللغة والأسلوب :

أ – لغة القرآن .

ب – الألفاظ الأجنبية .

ج – السجع والتكرار .

د – التكوين التخطيطي والروايات المتعددة .

(٧) الصيغ الأدبية والموضوعات الرئيسة :

أ – القسم وما يتصل به .

ب – الأجزاء الرمزية .

ج – الأجزاء الصريحة .

د – القصص .

هـ – التنظيمات .

و – الصيغ التعبدية .

(٨) القرآن في حياة المسلمين وفكرهم .

المصادر والمراجع المتعلقة بالبنود من ١ إلى ٨ .

(٩) ترجمة القرآن :

أ – المذهب التقليدي .

ب– الترجمة إلى لغات معينة .

وتبدو هذه الخطة مستوعبة للموضوع من مختلف جوانبه، وعمد الكاتب إلى بسط إطارها العام لكي يقدم من خلالها خلاصة للنتائج التي أجراها المستشرقون منذ تيودور نولدكه في كتابه " تاريخ القرآن" (طبعة جوتنجن ١٨٦٠م) وجوستاني ويل في كتابه " الفتوحات الحربية التاريخية" (بليفيلد ١٨٧٨م) ، حتى العقد الثالث من القرن العشرين حول القرآن الكريم.

ويحاول الكاتب أن يبدو موضوعياً فلا يشير في مقاله إلى الأعمال التي نشرها القساوسة والكتاب الأوربيون في القرون السابقة عن القرآن الكريم والتي حفلت بالهجوم الخاطئ والمحاولات الساذجة غير المعقولة، وإنما يبدأ بالدراسات التي أجراها المستشرقون منذ منتصف القرن الرابع عشر، بعد أن توافرت لهم الأدوات العلمية، والقدرة على فهم اللغات، وبعد نشر الكثير من المخطوطات العربية، فبدوا – كما يحاول كاتب المقال أن يظهرهم – أكثر موضوعية وتدقيقاً في المنهج.

وفي نطاق محاولته لكي يبدو موضوعياً يبدأ في كل فصل من الفصول بعرض آراء المسلمين الأوائل، ثم يأتي بعد ذلك بآراء المستشرقين الغربيين.

علينا الآن أن نتتبع كاتب المادة بدقة في الفصلين الأولين – نموذجاً لسائر ما كتبه في المقال –وهما: أصل الكلمة ومرادفاتها ، محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن– لنعرف إلى أي حد كان الكاتب ملتزماً

بقواعد منهج النقد الأعلى والأدنى الذي جعله معياراً لعمله ومناطاً لجهده في البحث والدرس[1].

أصل الكلمة ومرادفاتها :

يعرض الكاتب أول ما يعرض لكلمة " القرآن" والتي ترددت في القرآن نفسه - كما يشير الكاتب - أكثر من سبعين مرة بمعان مختلفة. ويقول: إن المستشرقين قبلوا النظرية التي قال بها شفالي في كتابه (تاريخ القرآن) أن "القرآن" قد اشتق من كلمة " قريانا" السريانية، (ومعناها القراءة المقدسة، والدرس). أما النظرة الغالبة لدى الدوائر الإسلامية فهي أن الكلمة اسم من قرأ . ويشير الكاتب إلى أن كلا الرأيين يجد لنفسه سنداً من القرآن، حيث يظهر فعل "قرأ" ولكن ليس كما يتكرر بمعنى القراءة أو التلاوة . ثم يقول : "ولعل أنسب النتائج وأقربها قبولاً هي أن مصطلح القرآن قد أصّل في القرآن نفسه لكي يمثّل كلمة " قريانا السريانية " ولكنه أسس على مصدر عربي بصيغة " فعلان" من قرأ" .

وهكذا حاد كاتب المقال عن الحقيقة بعد أن تبينت له ، فالكلمة العربية اشتقت من القراءة، كما أن أول سورة من القرآن -حسب الترتيب الزماني للسور والذي أعده المستشرقون أنفسهم- تبدأ بكلمة: اقْرَأ، فعل أمر من قرأ، وهي نفس المادة العربية التي اشتقت

(١) وذلك برغم ما أثبتناه فيما سبق من عدم صلاحية هذا المنهج لدرس القرآن.

منها كلمة القرآن . وآثر الكاتب أن يقحم الرأي المتعسف الذي افتراه المستشرق الألماني شفالي ومن سار على دربه من المستشرقين بأن الكلمة منحدرة من المصادر النصرانية السريانية، (معتمداً على مخطوطة سريانية من القرن السادس موجودة بالمتحف البريطاني) وهي المصادر التي لا يمكن لأحد أن يأتي بدليل على ظهورها وتأثيرها عند نزول القرآن الكريم .

ولا شك أن الكاتب يهدف بتصدير المقال بهذا المبحث اللغوي المتعسف إلى أن يبين أن هناك اتصالاً وثيقاً بين القرآن الكريم والمصادر المذكورة ، وأن هذا الاتصال إنما يبدأ بكلمة "القرآن" نفسها التي ليست في الواقع إلا كلمة مأخوذة من السريانية، كل ذلك لكي يسهل على القارئ أن يتقبل ما سوف يرد من آراء في هذا السياق .

ويمضي كاتب المقال قائلاً : "ولا يمكن لمعنى كلمة القرآن ومصدر الكتاب المقدس للمسلمين أن يتضحا تماماً دون أن نضع في الاعتبار استخدام عدد آخر من المصطلحات الوثيقة الصلة بالموضوع ، ولا يقتصر الأمر هنا على "آية" و"كتاب" فحسب، بل يشمل أيضاً "سورة" و "ذكر" و"مثاني" ، و "حكمة" وغيرها . ثم يقول : "إن المعنى الأصلي للفظ " آية" كالكلمة الشبيهة في العبرية "أوث" ، والسريانية "آثا" ، هي العلامة والدليل وتأتي رمزاً لحقيقة غير مرئية" ولكنه يستدرك قائلاً : "غير أن اشتقاقها ليس مؤكداً" .

وبعد ذلك يعرض لكلمة " سورة" فينقل عن شفالي قوله: إنها تبدو مشتقة من " صورطا" أو " سورثا" السريانية : ومعناها الكتاب المقدس.

كما يعرض للفظ" مثاني" فينقل ما قاله بعض المستشرقين من أنها مشتقة من " مشنا" العبرية، وبعضهم الآخر من " ماثنيتكا" السريانية أو الآرامية، لكن اللفظ -كما يؤكد كاتب المقال- لابد أن يكون متأثراً بـ "ثنى" العربية، بمعنى أعاد وكرر.

ثم يأتي الكاتب إلى كلمة " حكمة" فيقول إنها ربما جاءت من الكلمة الآرامية "حخما"، فالكاتب بقدر ما ينفي أن بعض هذه الكلمات ترجع إلى أصول عبرية أو سريانية أو آرامية فإنه يشير إلى صحة اشتقاق بعضها من هذه الأصول . وهو يتتبع كل كلمة من الكلمات السابق ذكرها فيعرض لمعانيها الواردة في المكي ثم المدني من القرآن الكريم متبعاً في ذلك منهج النقد الأدنى، كما سبق أن أشرنا.

وإذا تأملنا النتائج التي توصل إليها المستشرقون في هذا البحث -وفقاً لما عرضه كاتب المقال- نجد أنها لم تأت بجديد، فهي قد أقرَّت بما أعلنه المسلمون من أن ألفاظ: قرآن، آية، سورة، كتاب، إنما تمثل وحدات من التنزيل، وأن الكتاب يعني كتاب الله.. إلخ ومن ثم لا يشتمل هذا المبحث إلا على ما أثاره بعض المستشرقين من شبهات

حول اشتقاق بعض ألفاظ القرآن الكريم وردها إلى أصول عبرية أو سريانية، وبمعنى آخر ردّها إلى أصول يهودية أو نصرانية.

ولا شك أن الهدف من وراء هذا التشكيك في أصالة المصطلحات الرئيسة في القرآن الكريم وردّها إلى أصول عبرية أو سامية أو آرامية إنما هو استدراج للقارئ وتمهيد لإقناعه بأن القرآن هو من اختراع محمد وتأليفه، وأنه قد تعلم هذه الألفاظ من اليهود والنصارى.

ويناقش الدكتور عبد الرحمن بدوي مزاعم المستشرقين في هذا الصدد قائلاً: " ولكي نفترض صحة هذا الزعم فلا بد أن محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولابد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل الأدب التلمودي والأناجيل المسيحية ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجامع الكنسية وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس : الملل والنحل المسيحية" .

ويعلق عبد الرحمن بدوي على هذا بقوله : " هل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكتاب، وهو كلام لا برهان عليه. إن حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع... ولا أحد -قديماً أو حديثاً- يمكنه أن يؤكد أن النبي صلى

الله عليه وسلم كان يعرف غير العربية، إذاً كيف يمكن أن يستفيد من هذه المصادر كما يدَّعون" ؟[1].

على أن اللغات العربية والعبرية والسريانية تنتمي إلى سلالة لغوية واحدة هي سلالة اللغات السامية، ولابد من أجل ذلك أن يكون بينها الكثير من التشابه والتماثل.

ومن ثم فإن القول بأن إحدى اللغات قد استعارت ألفاظاً بعينها من أخواتها هو ضرب من التعسف ، مالم يقم عليه دليل.

ويمكن أن تكون هذه الألفاظ قد وجدت في العربية قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم بوقت طويل واستقرت في اللغة العربية حتى أصبحت جزءاً منها، وصارت من مفرداتها التي يروج استخدامها بين العرب.

كما أن من المستحيل الآن – بسبب غموض تاريخ اللغات السامية – أن نحدد من اقتبس هذه الألفاظ المشتركة من الآخر: العربية أم العبرية[2]؟

وهذا كاف في الدلالة على إثبات تفاهة حجج من توسع من المستشرقين في باب الاشتقاق من اللغات السامية[3].

---

(١) دفاع عن القرآن ، ص ٢٨ .

(٢) عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ، ص ٤٤ .

(٣) راجع تعليقات إبراهيم عوض في كتابه: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل ، وهو الكتاب الذي ألفه في نقد ما كتب في الطبعة الأولى من الدائرة المذكورة ، ص ١٨٧ وما بعدها حول آراء المستشرقين في المسائل اللغوية وما أثبته من وجود عدد كبير من هذه الألفاظ في الشعر الجاهلي قبل نزول القرآن الكريم.

(٢) محمد والقرآن :

يبدأ كاتب المقال هذا الفصل بقوله : إن كتاب الإسلام المقدس وتجربة محمد النبوية ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن فهم أيهما فهماً كاملاً دون الآخر.

ثم يشير إلى ما استقر عليه الرأي من أن الله في القرآن هو المتكلم دائماً، وأن محمداً هو المتلقي، وأن جبريل هو وسيط الوحي، ويضيف : ولكن تحليل النص يبين أن الموقف أشد تعقيداً من هذا.

ويبدأ الكاتب في عرض نصوص من القرآن الكريم لبيان العلاقة التي تربط بين أطراف القضية الثلاثة : المتكلم، والوسيط، والمتلقي، استناداً إلى منهج " النقد الأعلى والأدنى" الذي يعمد إلى تحليل هذه النصوص وربط بعضها ببعض ربطاً تاريخياً، وسوف نتتبع الكاتب في هذا العرض ونتقصَّى ما ذهب إليه، فإن كان مشتملاً على حقائق علمية ثابتة أيدناها ووافقناها، خدمة للكتاب العزيز، وإن جاء متضمناً غير ذلك بينَّا وجه الخطأ فيه، وحاولنا قدر استطاعتنا الإبانة عن الحق والصواب بالبينة والبرهان.

أ- المتكلم :

يقول : " فيما يبدو أن الأجزاء الأقدم من القرآن ، لا يتبين المتكلم أو مصدر الوحي، ففي بعض السور (يشير إلى آيات في سور الشمس، والقارعة، والتكاثر، والعصر) لا نجد حتى مجرد إشارة بأن الرسالة تأتي من الإله.

والكاتب يتجاهل هنا الآيات الأولى التي نزلت من القرآن ، في سورة العلق[1]، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق : ١)، فالرسالة قد أنزلت من الخالق ، والنبي مكلف بالبلاغ .كما يتجاهل الكاتب – هو ومن نقل عنه من المستشرقين[2] – ما ورد في سورة الشمس نفسها التي استشهد بها من قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ فهذه وغيرها كلها إشارات إلى الخالق المعبود وصنعه في الكون وفي النفس البشرية.

ثم يقول الكاتب : إن السور المبكرة التي يشار فيها إلى إله محمد لا ترد فيها إشارة إلى اسم الإله، إنما هو لفظ الشخص الثالث، إذ ترد في العبارة "ربي" و" ربك" ويضرب الكاتب على ذلك مثلاً بما ورد في سورة : الذاريات، والطور ، والمدثر... إلخ.

ولا يمكن من يزعم أنه يتبع منهجاً تحليلياً لنص من النصوص – وفقاً لمنهج النقد الأدنى – أن ينتقي منه ما يشاء ويغفل عن بقيته، إلا إذا كان يبغي التضليل، فهو قد غفل عن اسم إله محمد الذي ورد في السورة الأولى : العلق : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ (العلق : ١٤)، كما ورد في

(١) ترد السورة في ترتيب " نولدكه" الزماني للقرآن ، وهو الترتيب الذي يعتمده المستشرقون، برقم ١ (انظر: دائرة المعارف الإسلامية ، مادة القرآن في الفقرة ٣ تاريخ القرآن).

(٢) أعني المستشرق موير Muir في كتابه " إله محمد ".

السورة الثانية: المدثر: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ (٢ : ٣١).
بل ورد في السورة التي استشهد بها الكاتب كالذاريات:
﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ... وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... ﴾ (٥٠، ٥١).

وفي هذا – وغيره كثير – دلالة على أن اسم إله محمد (الله) قد ورد في السور المبكرة، على عكس ما يزعم الكاتب.

كما ورد في سورة المدثر – التي يستشهد بها الكاتب – بصيغة المتكلم أيضاً لا المفرد الغائب فقط – ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ ﴾ ﴿ وَمَهَّدتُّ ﴾ ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ ﴾ ﴿ سَأُصْلِيهِ ﴾ (١١ – ٢٦).

وواضح أن كاتب المقال –ومن اعتمد عليه من المستشرقين– يحاول أن يشكك في ماهية الطرف الأول من أطراف القضية (المتكلم: الله تعالى) فيزعم أن هذا الطرف كان غامضاً في الفترة المكية المبكرة، لأن السور التي تنتمي لتلك الفترة لم تحدده أو تعينه بوضوح.

والكاتب يرمي إلى الإيحاء بأن اسم هذا الإله ما تحدد بوضوح إلا في الفترة المدنية بعد أن اتصل محمد باليهود الذين تعلم منهم كما يزعم الكاتب.

ثم ما لبث الكاتب أن ناقض نفسه فقال: "ورد في القرآن أن محمداً (الذي زعم الكاتب لتوه أنه لم يكن يعرف ربه تماماً) قد رأى الله مرات عديدة Muhammed had visions of God كما ورد في سورة النجم ١٠ (لعله يعني الآية ١١): ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ وفي سورة

التكوير ٢٣ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ وعلى الأقل في الفترة المكية كان صوت الله نفسه، وليس أي وسيط ، ما سمعه محمد " .

ونقول: إن النص في كلا الموضوعين لا يسمح بأن تكون الإشارة إلى الله تعالى، وإنما الضمير عائد في الآية الأولى إلى " **شديد القوى** " يعني جبريل عليه السلام ، الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم: فقد رآه النبي على صورته التي خلقه الله عليها كما قال العلماء، وفي الآية الثانية يعود الضمير إلى رسول كريم، وهو أيضاً جبريل عليه السلام الذي يمهد الكاتب لإنكار دوره بزعمه أن الشواهد تقول: إن محمداً قد تلقى الوحي في الفترة المكية من الله مباشرة، إذ لم تكن ثمة حاجة إلى وسيط بينه وبين محمد .

والكاتب يريد بهذا التلبيس أن يُعِدَّ قارئه لقبول النتيجة التي يسوقها في الفقرة التالية .

ب- الوسيط :

يقول: وفي السور المبكرة ومن أجل تحديد مصدر الوحي، فإن الله هو المتكلم، وهو المصدر المباشر، مثلاً ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[1] . (المزمل: ٥) و ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى: ٦) ، وعدد آخر من السور المكية المتأخرة والمدنية المبكرة يتحدث عن آيات القرآن والكتاب

(١) لاحظ أن ضمير المتكلم هنا يناقض ما قاله الكاتب من قبل عن عدم ظهور هذا الضمير في السور المبكرة .

لمحمد (يشير إلى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴾ (البقرة : ٢٥٢)، و(آل عمران ١٠٨) وكلتاهما مدنية، و(الجاثية : ٦ مكية) . لكن في خلال الفترة نفسها نجد مجموعة من السور تقول بتعالي الله عن الإيحاء المباشر . وقد جاء هذا بطريقتين : أن تقال الرسالة لكي تنزّل عن طريق وسطاء معينين . وأن تتصل بشكل ما بـ "الكتاب" وكلتا الظاهرتين تتضح في سورة الشورى : ٥١ حيث ينكر القرآن بصراحة أن يتكلم الله مباشرة مع محمد : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ... وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ... ﴾ .

نقول : لا يمكن –بعد ما قدّمناه في أول هذا الفصل– أن يزعم الكاتب اعتماداً على الآيتين اللتين أوردهما من سورة المزمّل وسورة الأعلى أن الله قد كلم محمداً –صلى الله عليه وسلم– تكليماً فما هو إلا تنزيل، ولا شك أن الاحتجاج بالكلمات : سنلقي عليك، سنقرئك، نتلوها عليك، يدل على جهل مطبق بأساليب العربية، وهي لا تدل بحال على الإلقاء المباشر أو القراءة والتلاوة المباشرة على المتلقي .

ومن ثم فليس هناك تناقض ولا تعارض بين الآيات المبكرة والمتأخرة كما يزعم الكاتب، الذي يحاول هنا أن يشكك في دور جبريل عليه السلام ، الطرف الثاني من القضية .

وينتقل الكاتب بعد ذلك ليقول : " في أول سورة مدنية مبكرة

–وهي سورة البقرة (الآية ٩٧)– يشار إلى وسيط الوحي لأول مرة في القرآن على أنه جبريل . وبناء على هذه الآية وعدد من الأحاديث النبوية فإن المفسرين حددوا الروح في الأجزاء المبكرة بأنه جبريل ، ووضعوه منذ بداية منصب محمد كوسيط للتنزيل" .

وكما أن جبريل ، وعلى عكس المعتقد السائد،لم يعرف أبداً في القرآن على أنه واحد من الملائكة ، كما لم يذكر أن الملائكة وسطاء للتنزيل ، والسورة ١٦ آية ٢ هي الأقرب في هذا الصدد" .

ونقول: لقد ذكرت صفات الملك الذي يبلغ الوحي في ما نزل في الفترة المكية الأولى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (التكوير ١٩–٢١)، ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ (النجم: ٥–٦) إلى غير ذلك من الآيات التي تبين شخصية هذا الملك ذي القوة العلوية العالمة التي توحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم علماً، وتبلغه رسالة ربه. والنبي صلى الله عليه وسلم يعرفه ويراه : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٠–١١) ويناديه باسمه جبريل كما ورد في حديث الإسراء والمعراج، فلم تكن بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حاجة إلى النص على هذا الاسم في القرآن. وما نزلت الآية التي يشير إليها كاتب المقال من سورة البقرة (٩٧) : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ . . . ﴾ الآية إلا حين سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال:جبريل. قالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب

والشدة والقتال، فنزلت الآية.

فكون الاسم لم يرد في القرآن إلا في أوائل الفترة المدنية لا يعني أن الله تعالى هو الذي كان يوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة كما زعم الكاتب. على أن الاسم لم يرد في القرآن إلا في مناسبتين فقط. هذه المناسبة التي رد فيها على اليهود، ومرة أخرى في سورة التحريم الآية ٤ في موضع المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم والاستعداد لتأييده ونصرته حتى في مواجهة أقرب الأقربين إليه وهن زوجاته[1]. ومن ثم فإن الملك الذي أبلغ الوحي كان معروفاً للنبي صلى الله عليه وسلم قريباً منه، ويصبح التعلل بتأخير ورود اسمه في التنزيل أمراً لا طائل وراءه.

أما ما قاله الكاتب من أن القرآن لم يذكر أن الملائكة وسطاء للوحي، فيكفي أن نستشهد بالآية الأولى من سورة فاطر المكية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا... ﴾ وبالآية (٧٥) من سورة الحج (مدنية): ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ وللدلالة على أن جبريل من الملائكة ما جاء في وصفه بالآية (١٩) من سورة التكوير ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فهو إذن رسول من الملائكة الذين يصطفيهم الله.

ثم إن الآية التي يشير إليها الكاتب: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ

---

(١) ﴿ ... وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ . . . ﴾ إنما هي تصريح بأن جبريل نزل بالقرآن كله مكيه ومدنيه.

ج- المتلقي:

وبعد أن فرغ الكاتب من الحديث عن طرف القضية الثاني، وحاول أن يلغي دوره أو يشكك فيه ينتقل إلى الطرف الأخير في القضية: محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول: يتحدث القرآن أيضاً لأول مرة عن معلم محمد من البشر في سياق مجموعة الاتهامات التي وجهها له معارضوه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ . . . ﴾ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلٗا ﴾ (الفرقان ٤ وما بعدها).

ويعقب الكاتب بقوله: " وفيما عدا عنصر الإفك فإن القرآن ينكر ما سجّل في هذه الآيات". والحق أن ما يقوله الكاتب هو الكذب والافتراء بعينه، فكما أن الآية الأولى المتعلقة بالإفك قد أكملت بـ﴿ . . . فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ فقد اكتملت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ . . . ﴾ فأين الأساطير القديمة من علم الله المحيط بسر السموات والأرض. ومثلما رد القرآن على هذين الافتراءين اللذين ساقهما كفار مكة رد على ما سجله بعدهما في السورة نفسها بقوله: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ (الفرقان: ٩)، فهو إذاً قد ردَّ على كل

الاتهامات لا على اتهام واحد كما يزعم الكاتب.

ثم يقول: " ويأتي الرد على اتهام مشابه يسلّم بأن محمداً كان له معلم أجنبي في سورة النحل ١٠٣: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ وتبدو التهمة هنا أيضاً غير منكورة. وهنا إصرار على أن الصياغة الحقيقية للقرآن لا تأتي من المعلم.

والكاتب يشير هنا إلى ما زعمه كفار قريش من أن رجلاً أعجمياً كان بين أظهرهم يبيع عند الصفا، وربما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء وكان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو كان لا يعرف منها إلا القدر اليسير، فزعموا أنه يعلم النبي –صلى الله عليه وسلم–، فأنزل الله هذه الآية التي تبين أن الكفار يعرفون قيمة القرآن وإعجازه، فكيف يمكنهم أن يزعموا أن أعجمياً يعلم محمداً هذا الكتاب؟ فإن كان قادراً عليه فليظهرن به لنفسه.

يقول الأستاذ سيد قطب في "ظلال القرآن": "وحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية، عندما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤م كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد –هو محمد– بل من عمل جماعة كبيرة. وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في

الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كتب خارجها .. فكيف كان يمكن –وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين– أن يعلمه بشر لسانه أعجمي عبد لبني فلان في الجزيرة" ؟[1].

ونحن بدورنا نقول للكاتب ولغيره ممن يزعم هذا الزعم : قل لنا ما اسم هذا المعلم؟ ومن الذي رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟[2].

ثم يقول كاتب المقال : " وهناك سور مدنية تعطي انطباعاً بأن محمداً جهد في الحصول على معلومات من الكتاب المقدس عند اليهود، حيث جرى اتهامهم بأنهم يخفون كتابهم عنه. وقد عرضت بعض النسخ المكتوبة على محمد أو أتباعه ، انظر: مثلاً : (الأنعام: ٩١) : ﴿ ... قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ... ﴾" .

ولا أدري من أين أتى الكاتب بهذه القصة الملفقة التي أراد أن يستشهد عليها بالآية الكريمة من سورة الأنعام ، وهي سورة عدَّها الطبري – الذي يرجع إليه الكاتب كثيراً – مكية وليست بمدنية ،كما اختار الطبري قول ابن عباس

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، طبع دار الشروق سنة ١٣٩٧هـ ، ٤ :٢١٩٥ .

(٢) راجع مناقشة هذه المسألة بتوسع عند : الدكتور محمد عبدالله دراز: النبأ العظيم، طبع مصر ١٤١٦هـ، ص ٦٢ وما بعدها.

ومجاهد في أن الآية نزلت في قريش[1] واستحسن قراءة "يجعلونه" بدلا من "تجعلونه" ومن ثم يكون تفسير الآية : قل لهم يا محمد : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكريه"[2]. وقد اختار ابن كثير ما اختاره الطبري لأن " الآية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر"[3].

بل إن المستشرق تيودر نولدكه في كتابه " تاريخ القرآن" والذي يتمسك كاتب المقال بأقواله ويعده عمدة في ترتيب النزول - يجعل السورة مكية وليست مدنية[4]، كما يقول كاتب المقال . ومن ثم فالخطاب هنا لقريش، لا لليهود الذين وصفتهم الآية بأنهم يخفون بعض أجزاء التوراة لغرض في نفوسهم ، وليس لإبعادها عن عين محمد صلى الله عليه وسلم كي لا يقتبس منها، كما يزعم الكاتب.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت: ١٤٠٢هـ، ١ : ٥٩٨.

(٢) سيد قطب: الظلال، ٢: ١٣٦٤ .

(٣) مختصر ابن كثير : ١: ٥٩٨ .

(٤) انظر: المقال نفسه في دائرة المعارف الإسلامية.

حتى ولو كان الخطاب موجهاً إلى اليهود – كما اختاره بعض العلماء والمفسرين – فالمعنى هو هو، ولا يحتمل غيره . ولقد ورد الخطاب بالمعنى نفسه إلى اليهود في سورة مدنية هي المائدة: ١٥ ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ . . . ﴾ وفي سورة البقرة: ١٧٤ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ . . . ﴾ ، وفي المائدة أيضاً: ٦١ ﴿ . . . وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾، ويبين القرآن في الآية الواردة في سورة البقرة ١٧٤ نفسها هدف اليهود من إخفاء جانب كبير من " الكتاب" ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا . . . ﴾ فهذا هو هدفهم على نحو ما حدده القرآن نفسه، وما كان ينبغي لكاتب المقال –وقد ألزم نفسه باتباع منهج النقد الأدنى بالتعمق في دراسة النص وكشف غموضه عن طريق مقارنة المعاني والألفاظ بعضها ببعض– أن يصرف النظر ويتغاضى عن هذه النصوص التي تعين الباحث عن الحق على الوصول إليه من أقرب طريق، ولا سيما أنه قد قرأ هذه النصوص نفسها ويستشهد بها بعد قليل.

ولا شك أن الكاتب قد خرج على المنهج الذي اعتمده بنفسه لهدف يسعى إليه، بل خرج على كل منهج علمي معترف به في الدراسة حين زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جهد للحصول على معلومات من التوراة، وهذا ما لم يرد في أي مصدر من المصادر،

وقد عجز الكاتب عن ذكر مصدر يستند إليه في نقل هذا الخبر المكذوب، فتركه دون سند.

وأخيراً ها هو ذا يعلن عن النتيجة التي ظل يضمرها ويتحايل بكل حيلة كانت غير معقولة ولا مقبولة ويلبس لها مسوحاً زائفة من العلم والدراسة النقدية، يدلس بها على الناس، ويفتري بها على الدين وعلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقد قدَّم لتلك النتيجة مستشهداً بآيات لم يذكرها، وإنما أشار إلى موضعها فحسب لكي يوهم بأنه إنما يتقدم بخطى علمية واثقة نحو الحقيقة التي اطمأن إليها؛ مع أن النتيجة لا تتصل بالمقدمة من قريب أو بعيد.

يقول: "وهناك أجزاء (سور) تتهم اليهود بأنهم يكتبون أجزاء بأنفسهم ويقولون: هذا من عند الله. انظر أيضاً البقرة: ٧٧، ١٤٠، ١٧٤، آل عمران ٧١، المائدة ١٥[1]. وفي تلك الأجزاء (السور) لا نجد صعوبة في أن نرى محمداً يتلقى قصصاً ومعلومات أخرى من معلمين مختلفين، بمن فيهم اليهود والنصارى، ثم إنه في لحظات الوحي ينقح المادة، ويحيلها على صيغتها القرآنية. ومثل هذا الرأي،

---

(١) يشير إلى الآيات الكريمة ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ البقرة ٧٧، ﴿ ... وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ... ﴾ ١٤٠، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ... ﴾ ١٧٤، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ... ﴾ آل عمران ٧١. ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾ المائدة ١٥.

مع أنه يخالف المعتقد المألوف اليوم لا يتضارب مع بعض الأخبار الموجودة في مجموعات "الحديث" وغيرها من المصادر الإسلامية المبكرة" .

إذاً هذا ما كان يحشد نفسه له منذ البداية غير عابئ بالأصول العلمية ولا المبادئ النقدية المرعية، ولا بأولويات الحيدة والتجرد العلمي بهدف الوصول إلى الحقيقة، بل يحاول أن يلوي عنق الحقائق لكي يصل إلى القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي ألَّف القرآن .

وإذا تذرعنا بالصبر وتوقفنا قليلاً عند هذه النتيجة التي انتهى إليها نقول : إنه لا الآيات التي أشار إليها ولا مجموعات الحديث بل ولا المصادر الإسلامية المبكرة تشتمل من قريب أو بعيد على شيء مما يقول، وإلا كان قد أتى بدليل عليه من الحديث النبوي الشريف أو المصادر الإسلامية المبكرة .

ثم يقول : "في الفترة المكية المتأخرة والمدنية المبكرة قيل إن محمداً قد تم تحديه لكي يخرج للناس كتاباً يمكنهم قراءته بأنفسهم (١٧ :٩٣) وأن أتباعه شكوا بأنه ليس لهم كتاب مقدس كاليهود والنصارى (٦ :١٥٥)" .

وما يقوله الكاتب هنا ليس إلا سلسلة من الأغلاط ينبغي تصحيحها وفقاً للمنهج النقدي الذي يتبعه الكاتب نفسه، فهو يشير إلى الآيات الكريمة من سورة الإسراء (وهي مكية وليست

بمدنية)[1] ٩٠-٩٣﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا . . . أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ . . . ﴾ الآيـــة. وهذه الآيات الكريمة تبين الاقتراحات التي عرضها كفار قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ومنها، كما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما اقتراح عبد الله بن أبي أمية المخزومي : "فو الله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة...إلخ "[2].

فالكاتب هنا يمهد للزعم بأن القرآن إنما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم استجابة لهذا التحدي من جانب خصومه، مع أن القرآن كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ويتلى قبل هذا التحدي (إن كان التحدي صحيحاً) ببضع سنوات؛ وإنما اقترح الكفار هذه الاقتراحات لإظهار إنكارهم للدعوة إلى الإيمان بالغيب وبما لا تدركه حواسهم، وهو ما جاءت به السور التي نزلت من القرآن قبل نزول هذه السورة، ولم تكن بين محمد صلى الله عليه وسلم وقومه من خصومة قبل نزول القرآن، فقد لبث عمراً بين ظهرانيهم لا يتحدونه ولا يتحداهم حتى نزل القرآن، ولم يكن هناك مجال للتحدي ولا سبب له قبل نزوله.

---

(١) يضعها بعض المستشرقين في الفترة المكية الثالثة والأخيرة، انظر: عبدالرحمن بدوي: دفاع، ص ١٠٦ .

(٢) نقلاً عن مختصر تفسير ابن كثير، ٢ : ٤٠٠ .

إذن لم يصرح الكفار بهذا التحدي إلا بعد نزول القرآن بزمن، ولا يمكن أن يكون هذا التحدي سابقاً على النزول.

ويستمر الكاتب في أغاليطه موهماً قارئه بأنه يسوق من الأسباب المنطقية المستخرجة من تحليل النص القرآني ما يبرهن على أن القرآن إنما هو من عند محمد صلى الله عليه وسلم، فيزعم أن المسلمين شكوا بأنه ليس لديهم كتاب مقدس كالذي عند اليهود والنصارى، مشيراً إلى الآية الكريمة من سورة الأنعام (١٥٦): ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ ... ﴾ الآية.

قال الطبري (الذي يتخذه الكاتب مصدراً رئيساً) : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، يعني لينقطع عذركم ... فالكتاب قد أنزل لقطع الحجة.

وهذا يعني أن المسلمين لم يشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما يزعم الكاتب - افتقارهم إلى كتاب مقدس كاليهود والنصارى، وهو ما لم يرد في مصدر من المصادر؛ لأن كتاب المسلمين المقدس كان ينزل على رسولهم صلى الله عليه وسلم منذ مدة طويلة، وكان ملء السمع والبصر، قد دارت حوله منذ أُنزل معارك عنيفة وجدل كثير بين المؤمنين والكافرين، وكان أمر القرآن هو شغلهم الشاغل وهمهم الناصب، فما الذي يحمل المسلمين على أن يطلبوا إلى النبي صلى الله

الله عليه وسلم – أن يأتيهم بما هو لديهم ويعدُّونه مصدر عزهم وفخارهم؟!

ومع أن الآيات التي أشار إليها الكاتب من سورة الأنعام قد نزلت بمكة، وأن الخطاب فيها "لأهل مكة"[1] فإنه يريد أن يبين أن هذه الشكوى المزعومة قد تمت بالمدينة، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد استجاب لأتباعه الذين تلاقت إراداتهم مع إراداته بإنشاء مجتمع إسلامي متميز بالمدينة؛ يقول الكاتب: "إن إنشاء مجتمع إسلامي مستقل بالمدينة متميز عن أهل الكتاب كان مرهوناً بالإتيان بكتاب إسلامي مقدس منفصل، يؤدي دوره كفرقان لتثبيت حقيقة الكتب المقدسة السابقة (٣ : ٣ ، ٤ : ١٠٥ ، ٥ : ٤٨ إلخ).

ونقول للكاتب: أيهما أسبق في الوجود : نزول القرآن أو إنشاء المجتمع الإسلامي بالمدينة؟ فالكاتب يريد أن يعكس القضية، فيبين أن القرآن إنما جاء استجابة لحاجة ذلك المجتمع إلى دستور خاص به يميزه عن أهل الكتاب، أي أن وجود المجتمع الإسلامي سابق على نزول القرآن ، وهذا زعم سخيف لا يحتاج إلى أدنى التفات.

على أن الفرقان لم ينزل لمجرد تأكيد أن كتباً قد أنزلت من قبل هدى للناس فحسب، وإنما لكي يهيمن على تلك الكتب بعد أن نالها

---

(١) قال الكسائي: ... والخطاب لأهل مكة، غرائب الفرقان، للنيسابوري ٢ :١٣٤٤، طبع مصر ١٤١٦هـ (١٩٩٥م).

من التحريف ما نالها. وهو الأمر الذي تؤكده الآيات الكريمة التي استشهد الكاتب بها وأشار إليها عرضاً في ذيل الفقرة التي نقلناها عنه، ولكنه أغفل ذلك عمداً.

يقول الكاتب: " وهذا من شأنه أن يبرهن على أن محمداً بدأ في جمع كتاب مقدس مكتوب في السنوات المبكرة من الفترة المدنية، لكن مسؤوليات قيادة المجتمع المسلم السريع النمو أجبرته على أن يترك هذه المهمة دون إتمامها. (انظر Watt _ Bell).

والكاتب هنا يخلص إلى نتيجتين منتزعتين من المقدمات الفاسدة التي قدمها، وهما:

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعن بتدوين القرآن وكتابته في الفترة المكية.

(٢) أن كتابة القرآن لم تستكمل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وليس هناك أساس نقلي أو عقلي يستند إليه الكاتب في انتزاع هاتين النتيجتين غير ترديده كلام غيره من المستشرقين وبخاصة "بوهل" الذي كتب مادة "القرآن" في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية، وزعم فيها أن القرآن لم يسجل كله في الفترة المكية. ورد عليه أحد العلماء العرب المحدثين، وهو الدكتور إبراهيم عوض، بقوله: "ترى أيمكن أن نتصور أن ينشق أوائل من آمن بالرسول على قومهم ودينهم وأسلوب حياتهم معرضين أنفسهم للهلاك بسبب

القرآن، ثم هم مع ذلك لا يتنبهون لأهميته ولا يبالون بتسجيله.. [1]؟ وقد كان كتاب الوحي في مكة معروفين للكافة.

ثم إن الكاتب يخلط – ربما عن عمد – بين كتابة الوحي وجمع القرآن ، فعند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان القرآن كله مكتوباً كما كان محفوظاً في صدور المؤمنين ، يدل على ذلك التقرير المفصَّل الذي أورده البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه والذي يقول فيه " ... فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال" وعلى أن الجمع كان بمنزلة تحر في الحفظ والصيانة[2] لا كما زعم المستشرقون أن القرآن لم يكن مكتوباً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

الناسخ والمنسوخ:

لاشك أن من يريد أن يعرض لقضية الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لابد له – إذا صح قصده وكان نشدان الحقيقة ديدنه – أن يعرض لهذه القضية في الفصل الخاص " بتاريخ القرآن" وتطور الأحكام التي اشتمل عليها الكتاب العزيز . ولكن الكاتب أقحم هذه القضية – لغرض في نفسه سوف نتبينه من خلال تحليل مقولاته – على هذا الفصل المتعلق بـ "محمد والقرآن" ولم ينتظر حتى يعرضها

---

(١) د. إبراهيم عوض: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، ص ١٤ .

(٢) انظر: عدنان زرزور، علوم القرآن، ص٨٧ .

في مبحث تاريخ القرآن والذي يلي هذا الفصل مباشرة.

يقول الكاتب : " والقرآن نفسه يعترف بأن تغييرات وقعت في الوحي ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ... ﴾ (البقرة ١٠٦)، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ... ﴾ (النحل: ١٠١) . ثم إن هناك آية في سورة الحج (٥٢-٥٣) تعطي تفسيراً آخر لتغيرات جرت في الوحي ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ... ﴾ .

ونقول : إن الكاتب أقحم الآيات الواردة بسورة الحج في قضية الناسخ والمنسوخ وهي ليست منها ؛ فقوله تعالى : " فينسخ الله" المراد إزالة تأثير ما يلقي الشيطان، وهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام[1].

ومن هنا فإن هذه الآية لا تتعلق بقضية النسخ في القرآن والكلام هنا يشمل الرسل والأنبياء جميعاً من أوتي منهم كتاباً ومن لم يؤت، ولا تخص محمداً صلى الله عليه وسلم وحده، ومن ثم لا يخصّ القرآن، وهو ما يعني أن ما يلقي الشيطان إنما هو خارج الوحي وليس فيه.

أما وقد أثبتنا أن الآيات التي أوردها الكاتب من سورة الحج لا تشير من قريب أو بعيد إلى القرآن الكريم ولا تتعلق بقضية النسخ فيه ، فعلينا الآن أن ننظر في الآيتين اللتين استشهد بهما الكاتب من سورتي

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري، ٣ :٢٣٧٨ .

البقرة والنحل.

فالتشريع الإسلامي الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم قد مر بمراحل، وهذا التحول اقتضى أحياناً إلغاء قاعدة ما واستبدال أخرى بها مختلفة عنها، فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال – في فترة الرسالة – هو لصالح البشرية، فإذا نسخ الله آية ألقاها في عالم النسيان"[1] وهذا لا يعني بحال أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نسي بعض الوحي فلم يضمنه الكتاب، وإنما هو قد أنسي آيات تتضمن أحكاماً وأوتي آيات خيراً منها، أما نسيان الرسول صلى الله عليه وسلم – باعتباره بشراً يصيبه النسيان – فقد ضمن الله تعالى أن ينحيه عن الوحي منذ الوهلة الأولى في السور المبكرة بالفترة المكية؛ يقول تعالى في سورة الأعلى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[2].

كما أن الأمر لو كان متعلقاً بنسيان الرسول صلى الله عليه وسلم – كما يزعم الكاتب – لما كانت هناك حاجة إلى الإتيان بآيات أخرى بدل التي نسيها، ولما كان هناك ناسخ ومنسوخ.

والله عليم بما يصلح للبشر من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية استنفدت أغراضها ليأتي بآية أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها

---

(١) سيد قطب: الظلال، ١: ١٠٢.

(٢) يقتضي المنهج النقدي الذي يتبعه الكاتب في دراسته حول القرآن (وهو منهج النقد الأعلى والأدنى) التنبه إلى الألفاظ المشابهة للفظ: ننسها مثل: تنسى، ولكنه أغفل ذلك عمداً.

الأمة وأصلح للبقاء أمد الدهر فالشأن له[1] ، فإذا كان الله – عز وجل– قد بدل بعض الأجزاء – كما يقول الكاتب – ووضع مكانها أجزاء أفضل أو أحسن فالأمر له، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن القرآن الكريم قد نزل منجماً وأن من أهم المباحث التي عكف عليها المسلمون – بل وحتى المستشرقون – مبحث آيات الأحكام والتطور الذي لحق ببعضها خلال فترة نزول القرآن.

ولعل السبب الذي دفع علماء المسلمين إلى ترتيب سور القرآن الكريم حسب النزول منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هو محاولتهم معرفة الناسخ والمنسوخ ، الذي أصبح منذ القرون الأولى للإسلام علماً ينطوي على أهمية بالغة في الشريعة الإسلامية حيث تتوقف على هذه المعرفة قرارات علمية ذات أهمية قصوى في مسار الحياة العملية للمسلمين[2] ، فالنسخ أمر مقرر ومعترف به في علوم القرآن، لكن مناطه بيد الله سبحانه وتعالى ، ولا ينسب إلى نسيان الرسول صلى الله عليه وسلم بحال من الأحوال.

والكاتب بزعمه أن الشيطان يلقي في الوحي إنما يمهد للحديث عن قصة الغرانيق التي يقول: إن بعض المستشرقين قبلها كحقيقة تاريخية، وبعضهم رفضها لضعف الإسناد، أو لأن العلماء قد اختلقوها للدلالة على نظرياتهم في شأن النسخ.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٤ :١٩٤ .

(٢) انظر: عبدالرحمن بدوي، دفاع عن القرآن، ص١٠٢ .

ونقول: أما أن بعض المستشرقين رفضوا قصة الغرانيق بسبب ما يشوبها من ضعف في الإسناد فهو حق لا مراء فيه، وأما أن علماء المسلمين اختلقوها لاتخاذها دليلاً على نظرياتهم في شأن النسخ فهو ما لم يقله أحد، فقد أجمع العلماء على أنها قصة مختلقة من أساسها.

ولكن الذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى مدى ما لهذه المزاعم من تأثير في ضعاف العقيدة ممن ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، فقد ربط الكاتب بين قصة الغرانيق وفهمه المغلوط -كما أسلفنا- لمعنى ما ورد في سورة الحج ﴿ ... فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ... ﴾ وسمى القصة المذكورة "الآيات الشيطانية Satanic Verses"؛ وقد اتخذ سلمان رشدي - الكاتب البريطاني الذي لا زال ينسب نفسه إلى الإسلام - من هذه التسمية عنواناً لروايته التي أثارت اشمئزاز المسلمين ونفورهم في العالم بأسره.

وهكذا يتبين لنا من تحليل هذين الفصلين من مقال دائرة المعارف الإسلامية حول "القرآن" أن الكاتب - ومن يعتمد عليهم من المستشرقين - لم يكن في أي خطوة من خطوات بحثه وفياً للمنهج الذي اعتمده في الدراسة، كما لم يكن أميناً في تحليله للنص صادقاً في طرح أبعاده وبيان مراميه أمام قارئه، وزاد على ذلك أنه ابتعد عن مقتضيات المنطق في عرض القضايا واستخلاص النتائج، بل عبث بالأدلة والشواهد كل العبث لكي يخرج بأحكام قد اعتقدها سلفاً ودخل بها على الموضوع قبل البدء في بحثه.

ثانياً: شبهات في دائرة المعارف البريطانية:

تصلح دائرة المعارف البريطانية -بوصفها موسوعة عامة- مرجعاً مبسطاً للقارئ المتعجل الذي لا تتاح له قراءة المراجع المتخصصة، ومن ثم تكون كل كلمة مدونة فيها جديدة عليه، ومقبولة عنده، ولا سيما أن كتابها كلهم من كبار المتخصصين ذوي الرأي الراجح والكلمة المسموعة عند القراء الغربيين وغير الغربيين.

ولأنها تخاطب القارئ الغربي غير المتخصص في الأساس فقد اعتمد كتابها أسلوباً يربط مادتها العلمية باهتمامات القارئ الغربي ومنظومته المعرفية، وتستخدم المنهج نفسه في تحليل الحقائق من منظور عقلي بحت لا يستجيب إلا لما تمليه المدركات العقلية والحسية.

يقسم الكاتب الذي أشير إليه بالحروف الأولى من اسمه (H. R)[1] مادة "القرآن" - التي تقع في نحو خمس صفحات من القطع الكبير على عمودين[2] - إلى الأقسام التالية:

المقدمة - الشكل والمضمون[3] - مصادر القرآن - ما انتهت إليه دراسات المستشرقين - تفاسير القرآن - ترجمات القرآن.

---

(١) لعله H . Ritter الأستاذ بجامعة فرانكفورت الألمانية.

(٢) انظر المجلد الخامس عشر من ص ٣٤١ إلى ٣٥٤، الطبعة الخامسة عشرة Helen Hemingway , Benton , Checago 1974 .

(٣) هذا دليل مباشر على اعتماد الكاتب على منهج النقد الأعلى والأدنى.

وإذا جمعنا الأفكار والآراء التي عرضها الكاتب في المادة المذكورة، وربطنا بين الأجزاء بعضها ببعض فإننا نخرج بتصور محدد عن القضايا الرئيسة التي ركز عليها الكاتب، وأراد بها أن يشكك في القرآن الكريم، ويطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أراد أن يسفه بها كل المقولات القائمة على " الغيب" عدا ما كان منها يشبه شيئاً مما جاء في الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى.

وكان الهدف الأول الذي يسعى إليه كاتب المادة من ذلك كله هو حشد كل ما يمكنه من مزاعم وافتراءات في حزمة مترابطة من القضايا التي يلتفت إليها القارئ الغربي، ويتنبه لها، ويراد له أن يتلقاها باسم العلم والمعرفة، وعلى يد جماعة من أحبار العلماء ورهبان العلم المعاصرين ممن يحرّفون الكلم عن مواضعه ويطبقون المنهج على غير موضوعه – لكي ينفر هذا القارئ من القرآن الكريم، ويعرض عن الذكر الحكيم.

وقد اجتهدت حتى استخلصت هذه القضايا الكلية، وأدرجت تحت كل واحدة منها ما يتصل بها مما ورد في المادة أو يمتُّ إليها بسبب؛ وهذه هي:

أولاً : تشويه صورة الإسلام والقدح في تفرده وأصالته وتقديمه على أنه صورة مشوهة للتراث اليهودي والنصراني:

وقد استشهد الكاتب على ذلك بما يلي:

(١) هناك كلمات غير عربية الأصل وردت بالقرآن " استعير معظمها من مصادر يهودية ونصرانية ... تقف شاهداً على ما يدين به محمد لكل من اليهودية والنصرانية"[١].

(٢) يقول: "وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأنبياء المشار إليهم (في القرآن) إنما هم شخصيات الكتاب المقدس : نوح، موسى ، إبراهيم ، المسيح، بينما نجد أنبياء آخرين قد استمدوا من روايات عربية وطنية : هود وصالح (كذا؟)[٢].

ونقول: إذا كان هناك تشابه بين القرآن والتوراة والإنجيل فهذا أمر طبيعي؛ لأن المصدر واحد وهو الوحي، أما التناقض فيرجع إلى تحريف اليهود والنصارى للوحي المنزل على موسى وعيسى[٣].

(٣) يقول: " وأصغر الآيات تظهر على وجه العموم في السور المبكرة، حيث يأتي أسلوب وحي محمد قريباً للغاية من النثر المسجوع أو "السجع" المستخدم لدى الكهان في زمنه " أي أنه يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالكهان والرهبان.

(٤) يقول: "ويظهر إبراهيم (عليه السلام) مؤسساً للتوحيد

---

(١) انظر ردنا على هذا الزعم فيما سبق .

(٢) راجع ردنا على هذا الزعم فيما سبق.

(٣) انظر: إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية (نقد لمواد الطبعة الأولى من الدائرة المذكورة)، ص٢٥٠ .

العربي، ومحمد صلى الله عليه وسلم على نحو ما هو خليفته" . وهناك محاولات واضحة لإقامة علاقات مع العقائد اليهودية .

ونقول : إن ما يزعمه الكاتب من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تقرب إلى اليهود في المدينة عن طريق إعطاء دور أكبر لنبيهم إبراهيم يناقض تماماً المنهج التاريخي الذي يعتمد عليه المستشرقون والذي لا يقبل الشك عندهم كما يناقض كل منطق مقبول في العقل، فوجود إبراهيم إنما كان سابقاً على اليهودية؛ وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ . . . مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا . . . ﴾ (آل عمران : ٦٥–٦٧) .

(٥) يقول : "إن الباحثين الغربيين تبينوا أن كثيراً من المادة القصصية المتعلقة بأشخاص الإنجيل لم تأت من الإنجيل، وإنما من المسيحية المتأخرة بل ومن مصادر يهودية . وهناك أفكار أخرى كفكرة الوعيد، ووصف الجنة تتفق مع الخطوط الرئيسة للبعثات التبشيرية لآباء الكنيسة السريانية المعاصرة .

وإذا سألنا الكاتب عن السند الذي يستند إليه في هذا القول أجاب : إن هذا الاعتماد لا يحتاج أن يكون مكتوباً ومدوناً وربما كان بمنزلة تأثير من تعاليم شفوية (!!) ونقول : أين تلك التعاليم؟ فلا يحير جواباً .

ونعقب على هذه المزاعم بقولنا : إنه لا يمكن أحداً أن يزعم وجود علاقة بين نظام التوحيد المطلق الذي جاء به القرآن الكريم وبين اليهودية

والنصرانية والوثنية التي كانت سائدة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: التعمية على مبدإ عالمية الإسلام.

يقول الكاتب: "ومن المؤكد غالباً أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قدم لقومه "القرآن العربي" أي الكتاب الخاص بالعرب في مقابل الكتب المقدسة لليهود والنصرانية.

وقد سبق لنا أن رددنا على هذا الزعم، غير أنا نضيف أن الكاتب بحرصه على إبراز هذه المقولة يريد التعمية على قارئه فيسلب رسالة الإسلام واحدة من أهم خصائصها وهي أنها رسالة عالمية لكل الناس، ويجعلها خاصة بالعرب وحدهم.

ثالثاً: موقف القرآن من حرية الإرادة الإنسانية[1]:

من الأمور الحساسة التي تثير القارئ الغربي المعاصر مسألة الحرية الإنسانية. وقد نشأت هذه المسألة منذ عصر النهضة في أوربا كرد فعل للتصور الكنسي للدين الذي يحقر الإنسان من أجل تمجيد الله، ويحقر الحياة الدنيا من أجل الآخرة، ولا يرى الإنسان إلا خاطئاً منحرفاً، فلما تمردت أوربا على هذا التصور أخذوا في الغرب يمجدون الإنسان بدلاً من الله، ومن هنا نشأ ما يسمى بالنزعة الإنسانية.

ولما كان الإنسان المعاصر يقدس حرية الإرادة كان لابد من اختلاق

(١) انظر: محمد قطب: المستشرقون والإسلام، ص١٩٠.

بعض القضايا الناقضة لهذا المبدأ ونسبتها قسراً وبالفهم الخاطئ المعوج إلى القرآن الكريم ، وإخفاء ما يتضمنه من حرية الاختيار والمسؤولية الفردية والجماعية حتى ينصرف عنه الناس . يقول الكاتب : "قدر الإنسان هو في يد الله تماماً، حتى الإيمان والكفر معتمد على إراداته : ﴿ . . . مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . . . ﴾ (الأنعام : ١١١) فليست هناك حرية للإرادة ، وليس للنبي أن يلام على الكفر، ففي التحليل النهائي الأمر لله في قضائه وقدره" .

ويستدرك الكاتب على ذلك قائلاً : "لكن آيات أخرى أخفقت في التأكيد على هذه الفكرة وهي تبدو وكأنها تترك للإنسان بعض الحرية ليستمع إلى وعظ الرسول ويختار لنفسه الخير أو الشر" .

هكذا دون تعقيب منه على الفقرة الأخيرة حتى لا يمحو من نفس قارئه ما ورد في تحليله النهائي من نفي الإرادة الإنسانية ونفي العمل .

رابعاً : الأخذ بمقولات الفكر المادي في ردِّ ما ورد بالقرآن الكريم ومن ذلك :

(١) أن الكاتب يشير إلى ما جاء في سورة يوسف من أحداث ووقائع لم ترد في التوراة على أنها روايات تشتمل على عدد كبير من التفاصيل الأسطورية .

(٢) محاولة زعزعة الثقة بالوحي وبالرسول صلى الله عليه وسلم

عن طريق تفسير الآية الكريمة من سورة الشورى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ... ﴾ الآيات.

فالكاتب يفسر الآيات الكريمة على هذا النحو: " إن الله كلّم محمداً أو من وراء حجاب" والمعنى الصحيح عكس هذا التفسير تماماً كما هو واضح من الآية، ثم يقول: " أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، والاصطلاح الأول: وحي يعني إيحاء أو إلهاماً من النوع المعروف جيداً للشعراء. ويستخدم القرآن كذلك كلمة " منزل" والاصطلاح الثاني: "من وراء حجاب" يبدو أنه يطرح نوعاً من العبارة التخيلية دون رؤية مصاحبة. والاصطلاح الثالث يلمّح إلى ملك من الملائكة، لكن دون إشارة إلى اسم جبريل.

خامساً: بث بذور الشك في أهم الأسس التي يمكن للقارئ أن يقيم عليها تصوراً فكرياً محدداً عن الإسلام.

ومن ذلك:

(١) التشكيك في أصالة الركن الركين للإسلام وهو التوحيد، والافتراء بأنه لم يظهر في آيات القرآن إلا في الفترة المدنية، وذلك لكي ينسب الكاتب إلى اليهود أنهم هم أصحاب الفضل في ظهوره بعد الهجرة إلى المدينة.

يقول: "ومن العجيب أنه ليست هناك إشارة إلى وحدانية الله في هذه السور المبكرة".

ونقول: وأين سورة الإخلاص التي يجعل صاحبكم نولدكه ترتيبها في الفترة الأولى من الوحي المكي؟[1] وأين سائر السور المكية المشتملة على التوحيد الخالص لله تعالى، ومنها: الليل والجن، والكهف وغيرها، ولم ناصب كفار قريش النبي صلى الله عليه وسلم العداء؟ ألم يكن ذلك بسبب دعوته إلى التوحيد؟!

(٢) التشكيك في سلامة جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين؛ فبعد أن يشير الكاتب إلى أنه تقرر جمع الوحي من كل المصادر المكتوبة المتاحة يحاول زعزعة ثقة قارئه في أحد أهم مصادر الجمع وأكثرها ضبطاً وهي " الحفظ " فيقرنه عامداً باصطلاح " الذاكرة والتذكر " وما يمكن أن يشوبه من خطأ ونسيان وفق مذاهب الاتصال الحديثة.

(٣) يحاول التشكيك في أن يكون القرآن الذي بين أيدي الناس الآن هو الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يستخدم الكاتب مصطلحاً غريباً، ويكرره أكثر من مرة وهو The Present Quran أي: القرآن الحالي، وحين راجعت مزاعم للمستشرق وجدت لـ "بوهل" في مادة القرآن التي كتبها ونشرها في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية كلاماً سخيفاً لا يجوز في عقل أحد يعبر عن هذا المصطلح الغريب الذي استخدمته الموسوعة البريطانية، إذ يؤكد أن الوحي الذي

---

(١) انظر: ترتيب النزول عند المستشرقين في كتاب دفاع عن القرآن، لعبد الرحمن بدوي، ص١٠٤ .

كان الرسول يقرؤه ليس هو القرآن الحالي الذي نقرؤه الآن، فقد أعيدت صياغة الوحي بحيث أخذ الشكل الحالي المسجوع[1].

(٤) يدس في أقواله عن القرآن أن بعض الحروف فيه ذات مغزىً سحري: فبعد أن يشير الكاتب إلى حروف المقطعات التي بلغت حيرة المستشرقين في تفسيرها كل مبلغ[2]، حتى سلموا بما قاله علماء المسلمين من أن القرآن مركب من جنس هذه الحروف، والتي هي في متناول المخاطبين بها من العرب ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. يطرح الكاتب مجموعة احتمالات لتفسير هذه الحروف بقوله: ولم تفسّر معانيها تفسيراً مرضياً، ويظن أنها ربما كانت تدل على كلمة مختصرة، أو تشتمل على مجموعات معينة من السور، ثم يفتري الكاتب فرية كبرى بذكر احتمال آخر بقوله: "أو هي ذات مغزى سحري (magical significance)".

وبرغم هذا كله فما زالت في هذه المادة حول " القرآن" في دائرة المعارف البريطانية شبهات ومغالطات ينبغي التوقف عندها والرد عليها، ولكن حسبنا ما قدمنا من بيان يدل على فساد الآراء وبطلان الأحكام.

---

(١) انظر: ملحق الدائرة المذكورة، طبع لندن ١٩٣٨م، مادة "القرآن" وانظر رد الدكتور إبراهيم عوض على هذا الكلام في كتابه: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية، ص ٧ ومابعدها.

(٢) انظر مادة "القرآن" بالطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية، الفصل الخاص بـ الحروف الغامضة.

الخاتمـــة

كشفت هذه الدراسة بكل وضوح عن حقيقة المنهج الذي اعتمده المستشرقون في دراسة القرآن الكريم ؛ فبفضل العرض الموسّع الذي التزمت به دائرة المعارف الإسلامية في مادة " القرآن" لآراء المستشرقين منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تبين لنا إلى أي حد تأثر هؤلاء المستشرقون بمنهج كان قد سبق تطويره في الغرب لنقد ما يسمى بالكتاب المقدس (التوراة والإنجيل وكتب أخرى ملحقة بهما) ، وحقق هذا المنهج نتائج باهرة حين توصل إلى أن أسفار التوراة الموجودة حالياً لا صلة لها بموسى عليه السلام، وإنما هي مكتوبة بأقلام أحبار اليهود أنفسهم وفي أزمان مختلفة.

وقد أطلق علماء نقد ما يسمى الكتاب المقدس على هذا المنهج اسم: النقد الأعلى والأدنى. ويبدو أن هذا النجاح قد أغرى المستشرقين المشتغلين بالدراسات الإسلامية على تطبيق المنهج نفسه على القرآن الكريم ، لعلهم يحققون به مع القرآن نتائج مماثلة لما حققها نقاد ما يسمى بالكتاب المقدس.

ولكن منهج النقد الأعلى والأدنى إن صح تطبيقه في دراسة ما يسمّى الكتاب المقدس وفي سائر النصوص التاريخية – التي هي نصوص بشرية – فهو لا يصح تطبيقه على نص إلهي ينتمي إلى مجال

موضوعي مختلف غير المجال البشري المحدود.

ومن ثم كان تطبيق هذا المنهج فاسداً؛ إذ ألزمهم من حيث المبدأ النظر إلى كتاب الله العزيز على أنه من صنع بشر، ففسدت النتائج التي توصلوا إليها بفساد المقدمة.

ولكننا برغم ذلك كله تابعنا الموسوعتين بكل دقة في درسهما للقرآن وفق أصول المنهج الذي التزموا به، فتبين لنا إلى أي حد خرج المستشرقون – في كل خطوة من خطوات البحث – عن قواعد المنهج فعبثوا بالأدلة والشواهد كل العبث؛ لكي يخرجوا بأحكام قد اعتقدوها سلفاً ودخلوا بها على الموضوع قبل البدء في بحثه.

أما دائرة المعارف البريطانية – بكونها موسوعة عامة تخاطب القارئ الغربي خاصة وتحظى أحكامها بقبوله – فقد زادت على ذلك كله بأنها حشدت كل ما يمكن من مزاعم وافتراءات وركزتها في حزمة مترابطة ومتراصة من القضايا التي تهم هذا القارئ لكي تنفّره من القرآن الكريم ومن الدين الإسلامي.

ومن ثم فإن التصدي للردِّ على كل ما ورد من شبهات في هاتين الموسوعتين وغيرهما بشأن القرآن الكريم، وبيان خروج المستشرقين على مقتضيات المنهج العلمي الذي اتخذوه معياراً للدرس أمر واجب وحاسم، وحبذا أن ينشر هذا الرد على نطاق واسع بمختلف اللغات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

المصادر والمراجع

أولاً : الكتب العربية :

١- إبراهيم عوض (الدكتور) : دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية : أضاليل وأباطيل، طبع مصر ١٩٨٩م .

٢- أبو الكلام آزاد (مولانا) : ويسألونك عن ذي القرنين، طبع مصر ١٩٧٢م.

٣- أحمد سمايلوفيتش : فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، طبع مصر ١٩٨٠م .

٤- محمد علي الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير، بيروت ١٤٠٢هـ.

٥- ثابت عيد : الإسلام في عيون السويسريين، طبع بافاريا، ألمانيا ١٩٩٩م .

٦- جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، طبع مصر ١٩٦٧م .

٧- سيد قطب : في ظلال القرآن، طبع دار الشروق ١٣٩٧هـ.

٨- عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء، طبع مصر.

٩- عبدالرحمن بدوي (الدكتور) : دفاع عن القرآن، (مترجم عن الفرنسية)، طبع مصر ١٩٩٨م .

١٠- عبدالوهاب المسيري (الدكتور): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، طبع مصر ١٩٩٩م .

١١- عدنان زرزور (الدكتور): علوم القرآن، طبع بيروت ١٤٠٤هـ.

١٢- قنديل محمد قنديل (الدكتور): النقد الأعلى للكتاب المقدس في فكر الغرب وينابيعه الإسلامية، طبع مصر ١٩٨٩م .

١٣- محمد خليفة حسن (الدكتور): آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، طبع مصر ١٩٧٧م .

١٤- محمد خليفة حسن (الدكتور): المجتمعات الإسلامية: عرض نقدي لكتاب The Study of the Middle East تأليف Conrad Bindet، مجلة دراسات استشراقية وحضارية، العدد الأول ١٤١٣هـ.

١٥- محمد قطب: المستشرقون والإسلام، طبع مصر ١٤٢٠هـ.

١٦- محمود قاسم (الدكتور): المنطق الحديث ومناهج البحث، طبع مصر ١٩٦٧م .

١٧- مصطفى ماهر (الدكتور) وكمال رضوان (الدكتور): ألمانيا والعالم العربي، (مترجم عن الألمانية)، طبع بيروت ١٩٧٤م .

١٨- النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد: غرائب القرآن، طبع مصر ١٤١٦هـ.

ثانياً : الكتب الإنجليزية :

١٩- Barzun , J . and Graff . H .; The Modern Researcher, New York , 1989.

٢٠- Cecil B . Williams ; A Research Manual, New York, 1983 .

ثالثاً : دوائر المعارف :

٢١- Encyclopaedia Britannica, 15 edition, Chicago 1974. See also 13 edition .

٢٢- Encyclopaedia of Islam, second edition, Lieden 1979.

٢٣- لغت نامه دهخدا (دائرة معارف دهخدا الفارسية)، طبع طهران ١٣٧٣هـ. ش (١٤١٦هـ) .

الفهرس



الفهرس العام لأبحاث المحور الخامس